














السنة الخامسة - العدد السادس عشر | يونيو (حزيران) 2012م - رجب 1433هـ
الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

# Historical Kan Periodical

www.kanhistorique.org
info@kanhistorique.org

خمسة أعوام
من الدراسات التاريخية

متاحة للقراءة والتحميل عبر:




دار ناشري




الأرشيف العالمي

الراعي الرسمي











أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية
تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ،
وصدر العدد الأول منها في سبتمبر / أيلول ٢٠٠٨

## دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

## موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

## حقوق الملكية الفكرية



## الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

## أعداد الدورية متوفرة عبر:




دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
*www.nashiri.net*




أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
*www.archive.org*



دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

## الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

**ISSN: 2090 – 0449 Online**

## الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

## علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

## النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

## المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

**mr.ashraf.salih@gmail.com**

## موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم



**www.kanhistorique.org**
**www.historicalkan.co.nr**

# دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

## السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

### سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

**هيئة التحرير:**

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

**هيئة التحكيم:**

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

### البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية



- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

## إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

**نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام ( التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحث باللغة العربية في حدود (٧٥ - ١٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو ( تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية ( American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

### عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

### عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

### تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

### قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

### حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

### الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

### المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:

**info@kanhistorique.org**

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

**mr.ashraf.salih@gmail.com**

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



# محتويات العدد




دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



# التفسير الإيروتيكي (الجنسي) للتاريخ

وقائع التاريخ تعوزها الحكمة، ومساره ينقصه إدراك المغزى أو المعنى، لذلك ظهرت تفسيرات كثيرة ومختلفة لحركة التاريخ وتطوره .. التفسير المادي، التفسير الاقتصادي، التفسير السيكولوجي، التفسير البيولوجي... وغيرها في محاولة لفهم العمود الفقري لهذا الكيان الضخم "التاريخ". وهناك تفسيرًا لا يقل أهمية عن جميع التفسيرات السابقة، وهو التفسير الإيروتيكي (الجنسي) للتاريخ.

الحق أنه لم يكن للجنس تاريخ، وإنما كان للجنس فقط أسرار، ولم يدخل الجنس أبدًا التاريخ أيضًا قبل اقتحام عصابات علم النفس عليه خلوته. فقد ظل الجنس أسيرًا لرؤية دينية حادة، ولرؤية شعبية ظامئة وخائفة. لكن علوم القرن التاسع عشر الإنسانية عرت الانسان تمامًا أمام قدره، وبدأ المد العلمي يغزو شيئًا فشيئًا ذلك العالم المظلم، ولم يلبث أن أتى العالم النمساوي سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) وأنهى فترة الانبهار بنظريات حاسمة ومعقولة سنة ١٩٠٥ في كتابه "ثلاث محاولات حول النظرية الجنسية"، ثم من بعده أستاذ الطب وعلم الاجتماع الألماني ريتشارد لفنجستوهن سنة ١٩٥٨ في بحثه الشهير "تاريخ العادات الجنسية".



ورغم أن الكثيرين قد ينظروا إلى العلاقات الجنسية باعتبارها علاقة خاصة بين شخصين، فإن نظرة أوسع على الأمور بعين مؤرخ تكشف أن الجنس مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين والمعتقد، بالثقافة والجغرافيا، بالسياسة والاقتصاد. وعبر رحلة رأسية في تربة الزمن منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى القرن العشرين، منذ أسلاف الإنسان الفطرية في العصور السحيقة، وحتى ذلك الكائن المعقد في الأيام الحديثة، والجنس شئنا أم أبينا واقع وحقيقة ومحرك حقيقي وفعال من وراء الستار.. إنها الرغبة التي تركت بصماتها على أوراق القرارات المصيرية، وتلاعبت رائحتها بعقول وأفئدة صانعي هذه القرارات.

لقد ظهر تأثير امتزاج الجنس بالسياسة في الشرق والغرب، من مصر الفرعونية إلى بلاد الإغريق، من روما إلى الهند إلى الصين، من العالم المسيحي في العصور الوسطى إلى العالم الإسلامي في بغداد والقسطنطينية. زد على ذلك الفضائح الكثيرة التي التصقت برؤساء الدول ودور "الفاتنات" في الانعطاف بأحداث التاريخ.

وبعيدًا عن العبارة النمطية التي تبدأ بأن الجنس هو المحرك الأعظم للتاريخ البشري منذ أول جريمة قتل حدثت على الأرض، وتنتهي بأن الدافع الأساسي وراءها كان هو الجنس (امرأة)، فالتاريخ البشري تاريخ يسيّره الجنس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أليس التاريخ هو سرد لحياة أشخاص قادوا شعوبًا ودولاً، هؤلاء الأشخاص غالبًا ما يكونوا رجالاً، وما داموا رجالاً فلا بد وأن يكون في حياتهم نساء، وهذا يؤدي إلى ممارسة الجنس، والجنس الجيد يكون حافزًا للإنسان أن يكون جيدًا، والجنس السيئ يكون حافزًا للإنسان أن يصبح شيئًا آخر .

لقد خالف أصحاب التفسير الجنسي كثيرًا من المدارس الحديثة والقديمة التي تفسر التاريخ وفق رؤى مختلفة وجدت في وقائعه مثلاً تعاقبًا دوريًا للحضارات كتعاقب الليل والنهار، أو وجدت في مساره تفسيرًا ميتافيزيقيًا، أو سجلاً لإنجازات الانسان قدمًا إلى الأمام. فهذه الآراء منبثقة عن نظريات لا تمثل إلا وجهة نظر ضيقة للأمور، فجذور الجنس تضرب في أعماق النفس، وتمتد بطول عمر الإنسان على الأرض، إنها الشريط الوراثي الذي يحوي تفاصيل وعناصر الحياة .. انتصارات البشرية وهزائمها.. نشوء الحضارات وتحللها.. ارتقاء الإنسان وانحطاطه.

لقد استنكر الكثيرون أن يقترن "التاريخ" بكل جلاله بـ "الجنس" بكل انحطاطه المزعوم، إلا أن تداخل الجنس مع السياسة صنع أحداثًا وتاريخًا برغم أنف منكري دور الجنس في دفع عجلة التاريخ أحيانًا، وفرملتها أحيانًا أخرى، وغرزها في الرمال المتحركة في معظم الأحيان.

**رئيس التحرير**


المراجع

- أحمد محمود صبحي، **في فلسفة التاريخ**.- الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥.
- جابر عبد العزيز، "**الجنس هو المحرك الرئيس للتاريخ البشري**".- مدونة جابر والفكر المعاصر.- أغسطس ٢٠١١.
- خالد منتصر، **التاريخ الذي كُتب بقلم روج**.- روز اليوسف.- العدد (٣٦٢٠)؛ أكتوبر ١٩٩٧.
- روبار نوزاريه، "**تاريخ الانسانية الجنسي**"، فبراير ٢٠٠٥.
- ري تاناهيل، **قصة الجنس عبر التاريخ**/ ترجمة إيهاب عبد الحميد.- القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٩.
- صلاح حافظ، **التاريخ الجنسي للإنسان: من الكهف إلى حبوب منع الحمل**.- القاهرة، د. ت.
- عادل الحاج سالم، "**الخطوط العامة لتاريخ الاتّجاه المثلجنسي**"، الأوان، نوفمبر ٢٠٠٩.
- فهد عامر الأحمدي، "**التفسير الجنسي للتاريخ**".- جريدة الرياض اليومية؛ ١٥ يوليو ٢٠٠٤.



دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



# الأوضاع العامة لمدينة إب في بداية القرن العشرين "دراســـــة وثائقيـــــة"




أ. د. عارف محمد عبد الله الرعوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة إب – الجمهورية اليمنية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عارف محمد عبد الله الرعوي، الأوضاع العامة لمدينة إب في بداية القرن العشرين: دراسة وثائقية.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٩ – ١٥.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

إن الفترة التي شهدتها اليمن في بداية القرن العشرين مليئة بالحوادث المتشابكة فالاستقرار النسبي الذي حصل منذ عودة العثمانيون سنة ١٨٤٩ إلى تهامة، ثم رسميًا بعودتهم إلى صنعاء ١٩٧٢، بدأ بالاضطراب بادعاء محمد بن يحيى حميد الدين ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م الإمامة، والذي تلقب بالمنصور حيث عمل على تحريض القبائل اليمنية على مقاومة الوجود العثماني في اليمن، وقد كان لمدينة إب نصيب في هذه الأحداث في جوانب مختلفة أهمها الأمنية والصحية، وسنحاول في هذا البحث تسليط الأضواء عليها، من خلال وثيقة كتبها محمد بن علي المفتي وجدتها ضمن أوراق مخطوطة في القانون العثماني وتؤرخ الوثيقة للسنوات من (١٣٢١-١٣٢٣هـ/ ١٩٠٣ - ١٩٠٥م) إذ تتحدث عن الأوضاع الذي عاشها أهل مدينة إب حين تعرضوا إلى حادثتين مهمتين حدثتا في اليمن هما: الأولى: ظاهرة الوفيات الجماعية التي بلغت الآلاف خلال أشهر معدودة نتيجة مرض خطير، أو بسبب المجاعة التي حدثت في اليمن خلال هذه الفترة والتي يرجع المؤرخون أسبابها إلى قلة الأمطار، وازدياد الاضطرابات، وكثرة خروج القبائل ضد الدولة العثمانية. والثانية: تعرض المدينة لحصار من أبناء القبائل في المناطق المجاورة للمدينة كبعدان، وحبيش، والمخادر، والعدين، والذي تزامن مع قيام الإمام المنصور بن محمد حميد الدين توفي في (١٩ربيع الأول١٣٢٢هـ/ ٢ يونيو١٩٠٤م) بحصار صنعاء ثم خلفه ابنه يحيى الذي تلقب بالمتوكل الذي واصل حصار صنعاء وتمكن من دخولها والسيطرة عليها حتى مجيء قوات عثمانية إضافية بقيادة أحمد فيضي الذي تمكن من إخماد انتفاضة القبائل واستعادة المدن التي سقطت في أيدي اليمنيين.

تقدم الوثيقة لنا وصفًا دقيقًا لما حدث في المدينة من موت الناس خلال هذه الفترة، وما جرى فيها من حوادث قتل وإصابات ذكرها بالتفصيل، بل وذكر أسماء القتلى وقادة القبائل الذين تمردوا ضد الدولة العثمانية التي كان الكاتب متحيزًا لها.


## مُقدِمة

يحفل التاريخ السياسي والاجتماعي لليمن بمجموعة من المتغيرات والانعطافات الحاسمة التي كان بعضها ومازال في نطاق التاريخ المنسي، فعلى الرغم من تصاعد الدراسات الكثيرة خلال هذين العقدين الأخيرين حول هذا التاريخ، ولا تزال بعض القضايا الخاصة بهذا التاريخ بعيدة عن مناطق الضوء، ومن هذا القبيل ظاهرتا المجاعات والأوبئة اللتان كانتا بمثابة لعنة عانى منها اليمن خلال فترات التاريخ المختلفة. ولئن تمكنت بعض الأمم وخاصة أوربا من قطع أشواط بعيدة في دراسة هاتين الظاهرتين نظرًا لما توفر لديها من وثائق محفوظة، فإنهما – أي الظاهرتان دراستها في اليمن لم تحظيا بالتفاتة علمية تذكر في الدراسات التاريخية الحديثة، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنهما أثناء الحديث عن التاريخ بصفة عامة.

ويعود ذلك إلى الشح في المادة التاريخية في المقام الأول ذلك أن المصادر التاريخية اليمنية ضربت صفحًا عن ذكر الأخبار المتعلقة بالأوبئة والمجاعات باستثناء إشارات شاحبة وردت بشكل عفوي في بعض هذه المصادر، كما أن معظم الروايات والشواهد التاريخية طواها الزمن أو تم إتلافها في خضم الصراعات الدموية التي اندلعت بين مختلف القوى السياسية، أو تعرضت للضياع بفعل الزمن، وقد لعل إغفال المؤرخين لهذا الأمر راجع إلى كون الناس يدفنون في ذاكرتهم المآسي اليومية الأكثر ظلامًا، ويحرصون على أن يسردوا على أولادهم وأنفسهم، إلا ما هو سار وإيجابي.

ولما كانت الوثائق، بما تحتويه من موضوعات تاريخية واجتماعية وسياسية وثقافية وحضارية متنوعة, تشكل بمجموعها مصدرًا تاريخيًا مهمًا, للباحثين المتخصصين في الرجوع إليها والاستفادة من المعلومات الواردة فيها فإن الوثيقة التي نناقشها في هذا البحث هي وثيقة محلية غير منشورة كتبها شاهد عيان عن وقائع وأحداث مهمة في تاريخ إب، هو القاضي محمد بن علي بن المفتي[1] لم نعرف الغرض من كتابتها، هل كانت جزءًا من تاريخ كان يكتبه المؤلف، أم عبارة عن مذكرات شخصية للكاتب، أو صفحة من مخطوطة أخرى جلدت مع هذا الكتاب.

## العثور على الوثيقة

خلال البحث عن المخطوطات اليمنية الموجودة لدى بعض الأسر اليمنية المشهورة باهتمامها بالمخطوطات في مدينة إب, التقيت بالأخ عبد الإله المفتي الذي أبدى استعداده لاستضافتي في بيته للتعرف على ما تملكه الأسرة من مخطوطات مختلفة توارثها وإخوانه عن آبائه، وقد استضافني مع أخيه الأستاذ أحمد المفتي، وعرضا علي بعض المخطوطات الموجودة لديهم للاطلاع عليها، وقد لمست فيهم الاهتمام الواضح بهذا الأمر حيث يقومان حاليًا بحفظ المخطوطات رقميًا، ووعداني بتزويدي بما أحتاجه بأي موضوع مما يتوافر لديهم. وهنا أوجه الشكر الجزيل لهما على ما أبداه من تعاون معي بتزويدي نسخة من الوثيقة.

وبينما أنا أتصفح مخطوطة تحوي "القوانين الشرعية والأحكام العدلية" وجدت الوثيقة موضوع الدراسة بين إحدى صفحاتها في إحدى الأوراق المرفقة بالكتاب إلى جانب أوراق أخرى غير مكتوبة، ولم تكن الوثيقة مرقمة ضمن ترقيم صفحات الكتاب ولكنها كانت موجودة ضمن الصفحات البيضاء التي توضع فواصل بين الفصول والأبواب.

تتضمن الوثيقة حدثين مهمين حدثا في إب خاصةً، وفي اليمن عامة في أوائل القرن العشرين؛ الحدث الأول: (المجاعة) التي أصابت عموم اليمن ومات منها مئات الآلاف من اليمنيين. والحدث الثاني: ثورة اليمنيين ضد الدولة العثمانية بزعامة الإمام المنصور محمد بن حميد الدين، وخلفه ابنه الإمام المتوكل يحيى والتي عمت مختلف أنحاء اليمن. وترجع أهمية الوثيقة إلى أنها الوحيدة التي وصفت المجاعة وحصار القبائل لمدينة إب، فأغلب المصادر التاريخية المعاصرة وإن أشارت إلى المدينة بالإجمال، نجدها ركزت على مدينة صنعاء وبعض المدن التي كان للإمام المنصور والإمام المتوكل وجود فيها.

## العصر الذي تناولته الوثيقة

تتناول الوثيقة حدثين مهمين وقعا في مدينة إب أوائل القرن العشرين التي كانت تخضع للحكم العثماني،[2] وقد ذكرت المصادر العثمانية أن اليمنيين عام ١٨٦٨م وعلى وجه الخصوص أبناء مناطق عدن، وإب، وجبلة طلبوا من الحكومة العثمانية حمايتهم من اعتداء الأجانب (المقصود هنا البريطانيين الذين احتلوا عدن سنة ١٨٣٩)، وأن الدولة العثمانية لم تستجب للطلب في حينه بسبب انشغالهم في جزيرة (كريت) وكذلك وضع بريطانيا القوى في جنوب البحر الأحمر "أفاد الخطاب الصادر من الباب العالي في ٢٥ شوال ١٢٨٤هـ (١٨٦٨/٢/١٩م) أن المعروض الذي قدمه متصرف اليمن والمتضمن أن أهالي عدن وجبلة وإب ونظرًا للظلم والأعمال التعسفية التي يتعرض لها على يد الأجانب، فإنهم ذكروا في المحضر الذي قدموه والذي أرسل إلى الباب العالي مع ترجمته أنه إذا تم قبول انضمامهم إلى جانب الحكومة السنية فإنهم سيقومون بتسليم تلك الأماكن بسهولة وكذلك المحررات التي بعثتها المتصرفية والتي تضمنت التدابير التي ينبغي اتخاذها بهذا الخصوص. إلا أن الدولة العثمانية لم تستجب لذلك الطلب على الرغم من اعتراف الباب العالي بأن توسيع الملك، وتكثير البلاد، وجلب المنافع، أمور مرغوب فيها بشكل دائم والتدابير التي تتخذ والمساعي التي تبذل في هذا الصدد يتمسك بها، إلا أن الحصول على ما تؤمل منه الفائدة في مثل هذه الأمور ينبغي أن يسير بموجب ما تقتضيه الحكمة، بحيث لا يوقع في مزالق وأضرار كبيرة. ولذلك فقد وجدت الحاجة لبيان بعض المحاذير في هذا الصدد، من ذلك إبراز الحاجة إلى القوة العسكرية لتسهيل أمر ربط الأماكن المذكورة إلى المنطقة التالية وإلحاقها بها والحقيقة أنه كما لا يحتاج الأمر إلى زيادة بيان فإن الدولة العلية في هذه الفترة منشغلة بمسألة كريت وأن الأمور السياسية فيها في هذه الفترة تسير ببطء شديد ولذلك فليس من المصلحة الآن القيام بما ينتج غوائل ومشكلات في مناطق أخرى من الدولة".[3]

وإذ ساعد افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م على تسهيل عودة العثمانيين إلى اليمن، فقد ساعدتهم الأوضاع المضطربة في اليمن خلال العقود السابقة لعودتهم والمتمثلة في ظهور عدد كبير من الأئمة الضعفاء والمتصارعين وانتشار الفوضى في عموم اليمن. وقد تميز الحكم العثماني لليمن خلال هذه الفترة باستحداث أمور لا عهد لليمن بها، فنظمت ولاية اليمن وذلك بتقسيمها إلى أربعة ألوية هي: (صنعاء – عسير – الحديدة – تعز), يتبع كلاً منها عدد من القضوات والنواحي على رأسها الوالي في مركز الولاية صنعاء،[4] كذلك تم تشكيل مجلس لإدارة الولاية برئاسة الوالي وأربعة من العلماء يتم انتخابهم، وآخرين يتم تعيينهم بحكم وظائفهم.

كما قامت الدولة العثمانية سنة ١٨٧٦م بإدخال الطباعة إلى اليمن وإصدار أول صحيفة، وتوسيع الطرقات لنقل المدافع، وإدخال السلك (التلغراف)، وإدخال نظام الإدارة والأرشفة، وإنشاء سلسلة من المدارس الابتدائية والسلطانية، وأسسوا مدارس عسكرية في صنعاء، وتعز، والحديدة وأخذ بعض الطلاب إلى استانبول للدراسة، وإتاحة التمثيل البلدي والتمثيل البرلماني لليمنيين.

وعلى الرغم من سهولة سيطرة الدولة العثمانية على اليمن، فإن تثبيت مركزها قد تطلب منها إرسال حملات عسكرية إلى مختلف المناطق, ونشر حاميات في أهم المدن والمراكز، واجهت خلاله مقاومة شديدة من اليمنيين وكلفها هذا الكثير من العتاد والقوات،[٥] وما حصل من استقرار نسبي يرجع الفضل فيه إلى السياسة المرنة لبعض الولاة العثمانيين.

لكن في سنة ١٨٩٠م/ ١٣٠٧هـ أعلن السيد محمد بن يحيى حميد الدين إمامته في صعدة وتلقب بالمنصور، وخلال عام واحد تمكن من السيطرة على معظم المناطق شمال صنعاء بل تعرضت صنعاء نفسها للحصار، وعملت الدولة العثمانية على إرسال قوات لمواجهة المقاومة اليمنية بقيادة المشير أحمد فيضي الذي أتى للمرة الثالثة ١٣٠٩هـ /١٩٠٤م ولكنه لم يتمكن من تحقيق نصر حاسم على المقاومة اليمنية في المناطق الشمالية لعوامل عديدة أهمها الطبيعة الجبلية للمناطق الشمالية.[٦]

وفي سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م توفي الإمام المنصور في (قفلة عذر) شمال صنعاء وخلفه ابنه الإمام يحيى بن محمد حميد الدين الذي تلقب بالمتوكل – والذي واصل قيادة المقاومة ضد العثمانيين- وتمكن من إسقاط معظم المدن الشمالية، وفي نفس العام أيضًا تمكن من حصار العاصمة صنعاء ودخولها ولكنه خرج منها عند اقتراب الجيش العثماني الكبير بقيادة أحمد فيضي باشا، الذي تمكن من استعادة بعض المناطق الهامة شمال صنعاء بعد تكبده خسائر فادحة، ووقف عاجزًا أمام حصن شهارة مقر قيادة الإمام يحيى.[٧] مما اضطر الحكومة العثمانية إلى اعتماد سياسة التهدئة بتعيين بعض الولاة الذين لهم خبرة باليمن كالفريق حسن تحسين باشا،[٨] الذي اعترف بالوضع الخاص للإمام يحيى، غير أنه بعزله وتعيين محمد علي باشا خلفًا له، عادت سياسة العنف، فتجددت الثورة مرة أخرى في عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م وحوصرت العاصمة صنعاء.

وعلى الرغم من إرسال الحكومة العثمانية رئيس الأركان اللواء أحمد عزت باشا على رأس قوات كبيرة، وتمكنه من فك الحصار على صنعاء، فإن مساعي السلام أثمرت بلقاء عزت باشا والإمام يحيى في قرية دعان شمال صنعاء في مطلع شهر ذي القعدة ١٣٢٩هـ/ ٨ أكتوبر١٩١١م، تم عقد صلح دعان، وتم إقرار الصلح مع الآستانة، وغادر عزت باشا اليمن، وخلفه نائبه محمود نديم بك، والذي كان آخر والٍ عثماني وظل في اليمن بعد خروج العثمانيين سنة ١٩١٨.[٩]

## نص الوثيقة

لثلاثة في شهر شوال سنة ١٣٢١هـ[١٠] ابتدأ الفناء بمدينة إب،[١١] وصار وصول أهالي بني سرحة،[١٢] وأهالي حبيش،[١٣] ومن بلاد العدين،[١٤] واجتمعت الأعراب بسوق المدينة من كل فج عميق، ووقع بهم الفناء والموت، ومازالت الجنائز عن كل يوم عشرين، وثلاثين، وبلغ سبعة وأربعين ما صار دفنه بيومه، وما بقي إلى اليوم الثاني، ومازال الدفن كل يوم على تلك الصورة من شهر شوال سنة ١٣٢١هـ إلى انتهاء شهر الخير- أعني شهر شعبان المكرم - من سنة ١٣٢٢هـ،[١٥] حين بلغ جملة الوفيات إلى عشرة ألف نفوس ودفنوا بالمجان[١٦] خارج مدينة إب المحروسة بالله تعالى، ومن بعد خف الفناء إلى شهر القعدة سنة١٣٢٢هـ،[١٧] وصارت الجنائز كل يوم من خمسة إلى ستة أنفار.

وفي رابع يوم خلت من شهر محرم الحرام سنة ١٣٢٣هـ،[١٨] وقع محاصرة المدينة من طرف الأشقياء, وبذلك اليوم تكوّن[١٩] القاضي علي عبدالله الفلاحي،[٢٠] ومكلف من المشرق،[٢١] ومهيوب قحطان، وابن الصبل. وفي اليوم الثالث نهار الأحد تكوّنت زوجة صالح المشرقي بعد طلوع الشمس، وامتد الحرب بين أهالي المدينة، وبين الأشقياء البغاة، المدعين النصر والجهاد، مع مقدمهم الشقي السيد عبد الله ابن إبراهيم،[٢٢] الذي كان منعومًا بنعمة الدولة العلية العثمانية، شيد الله أركانها، ونصر عساكرها، وكان السيد المذكور باش كاتب محكمة شرعية الولاية الجليلة، وبعده نائب الشرع بقضاء كوكبان،[٢٣] وخالف السنة والإجماع، وصار من جملة الأشقياء المخالفين على الدولة العلية، وصار مقدمًا إلى اليمن. وتبعوه بالشقاوة مشايخ بعدان[٢٤] والذين هم عبدالله بن سعيد الدعيس، وابن أخيه حسن بن محمد،[٢٥] ومحمد بن حسن البعداني[٢٦] وجماعته، ومحمد بن محمد خشافه[٢٧] وجماعته، هؤلاء المباشرين لمحاصرة المدينة، الذين قد ظهر شقاوتهم ورمايتهم إلى المدينة، أولاد ناجي ومحمد بن مرشد ذياب، وحمود الحدأي،[٢٨] وتابعهم المتوطنين بالبلاد من قبائل ذو محمد وذو حسين[٢٩] وخولان[٣٠] وغيرهم.

ومازال[٣١] الحَرَبُ منهم ممتدًا إلى المدينة. وشرعت بالذي تقدم فيهم الكون قبل تعداد أهل البغي، فذلك عن السهو والخطأ، وشرعت بذكر المجروح الأول بيوم السبت، والمجروحة الثانية بيوم الأحد لعله ٥ محرم١٣٢٣م[٣٢] واستمرار الحرب إلى قبل صلاة الظهر من اليوم المذكور، قتل أحد أفراد الضبطية محمد قاسم دحامي، وصار شهيدًا مقتولاً ظلمًا وعدوانًا عند قبة الجنزاوي رحمه الله. ثم صار جرح ابن الضراب باب الجامع، وجرح من أفراد الضبطية المرتبين بالمعقبة محمد بن عبدالله النهي، ثم جرح عايض ابن غيلان، وجرح من أحد الفقراء وأحد مشرقي برأس الجاءه،[٣٣] وفي ذلك اليوم استشهدت زينب بنت سعيد الميتمي، وفي اليوم الثاني

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جرحت بنت إسماعيل السروري، واستشهد خدام الحاج أحمد مجلي الساكن بالجاءه رحمة الله عليهم.

ووقع أثر نفش[٣٤] من الرصاص بالسيد أحمد بن عبدالرب الغرباني،[٣٥] وفي آخر نهار الجمعة لعله ١٠ شهر محرم[٣٦] تكوَن علي بن علي كليب، خادم حضرة مولانا العلامة نائب قضاء إب، ووقعت الرصاصة بساق رجله، وفي ليلة السبت الساعة الثالثة من الليل تكوَن مصلح الشراعي المقوت بطعنة.

وفي يوم الثلوث أول ساعة الموافق ١٤ محرم ١٣٢٣هـ،[٣٧] وقع صعود أهالي مدينة إب إلى قرية الغربة،[٣٨] ووقع خراب وحريق بالقرية المذكورة إلى بعد صلاة الظهر، حلق الأشقياء بالغربة على أهالي المدينة من الجهات, وأحاطوا بهم وسط القرية، وثار الحرب بين الطرفين، واستشهد مصلح بن محمد مصلح الخولاني، وابن أخيه حسين بن محسن بن محمد مصلح، وابن الجراش رحمة الله عليهم أجمعين، وصار قطع رؤوسهم بيد الأشقياء البغاة، وتكوَنت بنت قاسم إدريس في تلك الحرب.

وفي صبح السبت لعله ١٨محرم توفي القاضي علي عبدالله الفلاحي بالجرح المذكور ودفن في باب السني من جهة الغرب والباب مفتحه شرقي.

وفي نهار الجمعة لعله ٣ شهر صفر الخير سنة ١٣٢٣هـ[٣٩] وصلت العساكر السهانه[٤٠] إلى قرية دار الشرف،[٤١] ودخلوا إلى مدينة إب نهار السبت لعله ٤ صفر الخير سنة ١٣٢٣هـ،[٤٢] وجلسوا من نهار السبت إلى نهار الربوع لعله ٧ صفر الخير سنة ١٣٢٣هـ،[٤٣] وتقدموا إلى مخلاف بعدان، وكان معهم جماعة من العرب، منهم الشيخ أحمد بن مصلح شملان[٤٤] وجماعته من صهبان، والشيخ منصور بن نصر[٤٥] وجماعته، والشيخ محمد بن عبدالوهاب بن قاسم[٤٦] وجماعته، والشيخ محمد عبدالواحد[٤٧] وجماعته، ووقع من جماعة الشيخ مصلح ومن إليه الرجوع عن الحرب والخديعة منهم لرجوع.[٤٨]

## الموضوعات التي تناولتها الوثيقة

كما ذكرنا سابقا أن المخطوطة تناولت حادثتين هما: الأولى: حادثة المجاعة التي أصابت اليمن، والثانية: هو الثورة ضد العثمانيين، وسوف نعطي هنا لمحة عن الحدثين.

**١- موضوع المجاعة:**

عانت اليمن من ويلات المجاعات مثل غيرها من البلدان الإسلامية في مختلف العصور. ويقصد بالمجاعة حالة شُحّ الغذاء أو عدمه التي تعانيها جماعة بشرية معينة وما قد ينجم عنها من موت أو مرض، وكذلك ما قد تؤدي إليه من آثار سياسية، واقتصادية، واجتماعية. وللمجاعات كما هو معلوم أسباب متعددة، طبيعية وبشرية، وأهم أسبابها الطبيعية القحط، أي انحباس المطر أو تأخره عن موسم البذار، مما ينتج عنه شح الغذاء وارتفاع سعر المعروض منه إلى ما فوق إمكانيات غالبية الناس، وقد تتفاقم الأزمة من جراء عوامل طبيعية أخرى مثل سقوط البَرَد وهبوب العواصف، أو هجوم الجراد وتدميره للزروع والمحاصيل، أو انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة. وأما الأسباب البشرية فيقصد بها الحروب والثورات والفتن.

وتتحدث الوثيقة التي بين أيدينا عن حالات الموت الجماعية التي حدثت في مدينة إب وذلك للقادمين من خارجها بحثًا عن ما يسد جوعهم، وكذلك من سكان المدينة، فقد أشار الكاتب إلى عدد الموتى كل يوم، وإجمالي الموتى خلال العام، ومازال الأجداد يتداولون هذه الحادثة حتى يومنا الحاضر. ولهذه المجاعة اعتبار في تاريخ اليمن، فقد جاءت في سياق تطور سياسي واجتماعي على قدر كبير من الأهمية، إذ حدثت في أعقاب المواجهات بين العثمانيين والإمام المنصور محمد حميد الدين، والتي على إثرها تحول الأهالي إلى الانضمام للإمام المنصور ضد لحكومة العثمانية. وقد ازداد الوضع غير المستقر سوءا من جراء شدة المجاعة وتفاقمها. واستغل هذه الأوضاع الإمام المنصور للتحريض على الثورة ضد العثمانيين.

وإذا عدنا للمصادر التاريخية فسنجد أنها تطرقت إلى هذه المجاعة التي شملت معظم المناطق في اليمن في عام ١٣٢١هـ حيث سيطرت المجاعة وعم البؤس، فكانت سنة في حياة الأهالي من أحلك السنوات وأعسرها على الإطلاق إلى حد أكل جثث الموتى. فقد ذكر الواسعي تفاصيل المجاعة وأرجع أسبابها إلى قلة الأمطار، وكثرة الفتن، والصراع بين الإمام المنصور والعثمانيين الذين كانوا يقومون بأخذ الحبوب من الناس بالقوة، "وعم الجوع جميع اليمن بسبب الفتن وبالمحاصرات ترك الزارع الزراعة وارتفعت الأمطار والإمام أيده الله أخرج لجميع القبائل الحبوب من بيت المال لمحاصرة الأتراك ومات البقية جوعًا، إلا مَن له أجل ممدود وخلت من اليمن قرى كثيرة مات أهلها من الجوع. منها بلاد لاعة في الشمال الغربي من صنعاء مسافة يومين مات أهلها جوعًا وفي آنس وتعز وإب الذين مات منهم أحد وستون ألفًا وفي جبلة وما حولها ١٣ ألف نفس، وفي خولان كانوا يأكلون التبن بعد طحنه، ومات في قرية القابل خارج صنعاء ١٦مائة غير الذين ماتوا في سائر القرى حول صنعاء، ومات من أهل صنعاء في قضاء كوكبان والأكثر في قاع الرجم والمحويت ٥٠٠٠ نفس ووجد في وادي سهام على قارعة الطريق ٥١ نفسًا موتى.

وفي حال المحاصرة لصنعاء أمر الوالي البوليس وطائفة من الجند أن يهجموا على بيوت التجار والأعيان من أهل صنعاء، ومَن كان منظورًا إليه باليسار أن يأخذوا ما لديه من الحبوب لأجل عساكر الدولة، وأخذ كل شيء يؤكل وعادة أهل اليمن قاطبة المدن وغيرها كل بيت يخبز لنفسه ويدخر الحبوب لقدر حاجته، نعم فهجم البوليس على بيوت كثيرة من أهل صنعاء وأخذوا كل ما وجدوا وكسروا الأبواب وأهانوا أهلها، وكان بعض المأمورين في إجراء هذه الوظيفة يشرب الخمر جهرًا وكانوا يأخذون ما وجدوا من الحيوانات بقرًا أو إبلاً، أو غنمًا، أو دجاجًا، أو حميرًا، أو خيلاً، وكانوا يذبحونها وتأكلها العسكر، فلما اشتد الحصار أكل العسكر ما

وجدوا من الحيوانات التي لا تؤكل مثل الكلاب والقطط التي لها أسماء كثيرة تسمى في اليمن بالدم".[٤٩]

كما وصف المجاعة العرشي فذكر "في تلك السنة وقعت مجاعة عظيمة وخلت قرى كثيرة من سكانها فأهل بلاد لاعة في الشمال الغربي من صنعاء على مسافة يومين منها, مات أهلها جوعًا. وفي آنس وتعز وإب مات واحد وستون ألف نسمة. وفي جبلة وما حولها ثلاثة عشر ألفًا. وفي خولان كان أهلها يأكلون التبن بعد طحنه. ومات في قرية القابل, خارج صنعاء ألف وستمائة, ماعدا الذين ماتوا في سائر القرى حول صنعاء. ومات من أهل صنعاء في قضاء كوكبان والأكثر في قاع الرجم) والمحويت نحو خمسة آلاف نفس، ووجد في وادي سهام على قارعة الطريق ٥١ ميتًا.

ولما اشتد الحصار على الأتراك الذين في صنعاء أخذ العسكر بأكل كل ما تقع عليه أيديه من الحيوانات التي يمكن أن تؤكل, مثل الكلاب والقطط, ( وتسمى الدّم في اليمن) ومات عدد جم من عسكر الترك، وذبح بعضهم فرسًا وادخر لحمها لنفسه وأهله ثم باع قطعة منها بأربعمائة ريال. واشترى بعضهم قدحًا طعامًا بستمائة ريال، وباع بعضهم صاعين من الخبز بسبعة وعشرين ريالاً".[٥٠]

أما زبارة؛ فيرجع أسباب المجاعة إلى قلة الأمطار، نتيجة تراكم الذنوب، وتعاظم الخطايا "وفيها عظم البلاء واشتد الغلاء وقلت الأمطار، وغلت الأسعار، وتراكمت الذنوب، وتعاظمت الخطايا والعيوب، ولازال الناس يستغفرون الله في المساجد عقيب الصلوات ويخرجون إلى الجبانة للاستسقاء".[٥١]

وقد بلغ من شدة المجاعة ظهور القسوة وانعدام التعاون بين الناس، لدرجة أن ارتكبت جرائم قاسية لقتل البعض أبناءهم وتركهم في الشوارع كما يذكر العرشي يذكر: "وذبح بعضهم خارج صنعاء ابنته وأكلها. ووقع في قلوب الناس القسوة حتى أن الصديق يرى صديقه يموت جوعًا ويضن عليه بكسرة من الخبز, لا بل لا يلتفت إليه ويرى الوالد ولده يحتضر جوعًا, ولا يمن عليه بلقمة من الخبز, وكذا كان يقع للولد نحو والده وبعضهم رغب عن طفله, لأنه لم يجد ما يطعمه فكان يطلقه في الشوارع" أما زبارة فيقول: "وبلغت الشدة منّها بالناس، واستخف السمين النحيف، وازدرى الأمراء والكبراء والأغنياء، بالمسكين الضعيف".[٥٢]

أما الواسعي؛ فأشار إلى هذه الممارسات بعد أن عرض أسعار الحبوب "بلغ سعر الطعام في صنعاء ربع صاع بريال ويسمى في اليمن نفر بلغ سعره وهو ملء حفنة الرجل المتوسط ملء الكفين، ولما عدم الطعام اشترى أحدهم بريال ونصف، وذبح بعضهم فرسًا وأدخر لحمها لنفسه وأهله وباع قطعة منها بأربعمائة ريال، واشترى بعضهم قدحًا طعامًا بستمائة ريال، والقدح يعرف في اليمن ملء التنكة أي قدر صفيحة الجاز مرتين، وباع بعضهم صاعين من الخبز بسبعة وعشرين ريالاً، وغير ذلك مما يطول ذكره مما يدهش العقول ويحصل للسامع الذهول، وبعضهم خارج صنعاء ذبح ابنته وأكلها وحصل للناس قسوة عظيمة لصديق يرى صديقه يموت جوعًا فلا يلتفت إليه، وكذا الولد لوالده والعكس لا قوة إلا بالله وبعضهم رغب عن طفله لأنه لم يجد ما يطعمه وسيبه[٥٣] في بعض الشوارع".[٥٤]

**كيف تمت مواجهة الأزمة:**

لم نجد في المصادر التاريخية ما يفيد عن انتهاء الأزمة إلا القليل، فقد ذكر العرشي وصول بواخر محملة بالحبوب من الحبشة والسودان" وفي الآخر جاءت بواخر مملوءة طعامًا إلى (الحديدة) قادمة من الحبشة والسودان, فسلم من بقي فيه رمق الحياة أو دماء",[٥٥] لكن لم يشر إلى مَن الذي أتى بالبواخر، لكن الواسعي يوضح لنا أن التجار استوردوها من الحبشة والسودان "ومن نعم الله الجليلة وأياديه الجزيلة لما اشتد القحط والجوع خرجت بواخر مملوءة طعامًا إلى الحديدة من الحبشة والسودان، وذلك أن التجار الذين بالحديدة كتبوا لجلب الطعام فحصل للناس بذلك غوث عظيم، ومن هنالك كانت ترحل القبائل من الحديدة إلى سائر محلات اليمن، ولولا ذلك كان الناس هلكوا مرة واحدة ولم تبق لهم باقية".[٥٦] ولم نجد في المصادر التي بين أيدينا إشارة إلى أي دور للحكومة العثمانية في حل المشكلة، وربما سيتضح مستقبلاً في حال وجود وثائق تشير إلى ذلك.

**٢- حصار القبائل لمدينة إب:**

تناول الكاتب في اغلب سطور الوثيقة تفاصيل حصار القبائل لمدينة إب من أسماء قادة الحصار - والذين كان أغلبهم من بعدان - وأسماء القتلى، كما حرص أن يشبه القبائل بالأعراب، وظهر تحيزه للدولة العثمانية، وهذا الحصار كان على أثر انتهاء المجاعة، وهو في إطار الثورة التي قادها الإمام المنصور محمد ضد العثمانيين ومن بعده ابنه الإمام يحيى. فمنذ اعلان السيد محمد بن يحيى حميد الدين إمامته في صعدة وتلقب بالمنصور عام١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م بدأت المقاومة اليمنية ضد العثمانيين تشتد بالرغم من فترة الهدوء النسبي التي حدثت إثر عودتهم إلى اليمن، وكان ذلك يرجع إلى أسباب عديدة أهمها: فساد العثمانيين، وارتكابهم أعمال مخالفة للشريعة الإسلامية، كما ذكر ذلك المؤرخون اليمنيون "وسبب ثورة أهل اليمن على الأتراك شدة الظلم والاستحلال للمحرمات، وترك ما أمر الله به من الواجبات وارتكاب المعاصي والفجور، وظهور البغي وشرب الخمور. وكان القائم مقام أو غيره من المأمورين إذا خرج لأي قضاء أو ناحية لأخذ الأعشار أخذ ما قدر على تحصيله لنفسه ولم يساعد على كتب سند ما أخذ منهم ثم يرجع لحكومته، ويقول لم يدفعوا شيئًا ثم تأمر الحكومة لنهبهم وخراب بيوتهم وإحراقها، وإذا وصلت العساكر النظام إلى قرية تعدت على عرض الحريم ويتظاهر المأمورون بأن أهل اليمن أشقياء".[٥٧]

وذكر المؤرخون أن الوالي العثماني أحمد مختار باشا عند استيلائه على العاصمة بدأ بجمع الأموال "طلب الوالي الدفاتر لمعرفة العشور اليمانية وأنه ليس له طمع في ولاية اليمن بل لتربية العصاة المتمردين، ثم قبض الوالي الدفاتر وبعد قبضها شكل

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حكومة وابتدأ في استجلاب قلوب العامة دون الخاصة ثم طرد أبناء اليمن الموظفين وشكل له مأمورين من الأتراك ثم حصل الأموال."[٥٨] ولذلك فقد تمكن الإمام المنصور وخلال عام واحد من السيطرة على معظم المناطق شمال صنعاء بل تعرضت صنعاء نفسها للحصار، وعمل على مراسلة المشايخ والأعيان في جميع المناطق اليمنية لتحريضهم ضد الدولة العثمانية، واستجاب له الكثير منهم.[٥٩]

وعملت الدولة العثمانية على إرسال قوات لمواجهة المقاومة اليمنية بقيادة المشير أحمد فيضي الذي أتى للمرة الثالثة ١٣٠٩هـ /١٩٠٤م ووصل إلى اليمن مع وفاة الإمام المنصور في قفلة عذر شمال صنعاء عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وخلفه ابنه الإمام يحيى بن محمد حميد الدين -الذي تلقب بالمتوكل- والذي واصل قيادة المقاومة ضد العثمانيين وتمكن من إسقاط معظم المدن الشمالية، وفي نفس العام أيضًا تمكن من حصار العاصمة صنعاء ودخولها، ولكنه خرج منها عند اقتراب الجيش العثماني الكبير بقيادة أحمد فيضي باشا، الذي تمكن من استعادة بعض المناطق الهامة شمال صنعاء بعد تكبده خسائر فادحة، ووقف عاجزًا أمام حصن شهارة مقر قيادة الإمام يحيى،[٦٠] ولكنه لم يتمكن من تحقيق نصر حاسم على المقاومة اليمنية في المناطق الشمالية لعوامل عديدة أهمها الطبيعة الجبلية للمناطق الشمالية.[٦١]

أما في إب فقد أرسل فيضي باشا فرقة بقيادة غالب باشا، إلى جانب جيش من اليمنيين من القبائل التي تقع إلى الغرب والجنوب من مدينة إب، وتمكن من فك الحصار عن المدينة وملاحقة القبائل إلى بعدان وإنهاء الثورة.[٦٢]

## خاتمة

عاشت اليمن تحتَ الحكم العثماني لمدة أربعة قرون تقريبًا، بدأت في القرن السادس عشر الميلادي، وانتهت عندما نالت اليمن استقلالها عن الدولة العثمانية في سنة ١٩١٨. وقد تناولت هذه الدراسة الأوضاع العامة لمدينة إب في بداية القرن العشرين أثناء الحكم العثماني، وركزت على الأوضاع الصحية والسياسية للمدينة، وذلك من خلال وثيقة تنشر لأول مرة كتبها القاضي محمد بن علي بن المفتي، توثق لحادثتين مهمتين تعرضت لهما إب خلال الفترة (١٩٠٣- ١٩٠٥م) وهما ظاهرة الوفيات الجماعية، وتعرض المدينة للحصار من أبناء القبائل في المناطق المجاورة.

## الهوامش:

* قدم هذا البحث إلى "الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني"، والتي تمت بالشراكة بين المركز الوطني للوثائق بصنعاء، ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (أريسكا) في اسطنبول، ديسمبر ٢٠٠٩.

(١) **القاضي محمد بن علي بن محمد بن علي المفتي**: وبيت المفتي يرجع نسبهم إلى بيت الحبيشي، من مواليد مدينة إب، عمل مع العثمانيين أثناء حكمهم الثاني لليمن في مجال المالية، إلى جانب الإفتاء والتدريس، توفي في ٧ربيع ١٣٣٣هـ.

(٢) خرج العثمانيون من اليمن عام ١٦٣٥م، لكنهم تمكنوا من العودة إليه عام ١٨٤٩م بخضوع منطقة المخلاف السليماني اسميًا، وظلوا فيها حتى تمكنوا من الاستيلاء على صنعاء عام (١٢٨٩هـ - ١٩٧٢م)، غير أن سيطرتها كانت تنحصر في المناطق الشمالية من اليمن، وتحديدًا منطقة الضالع جنوبًا إلى عسير شمالاً. أما عدن والمناطق الشرقية فقد خضعت للسيطرة البريطانية إثر احتلالها لعدن ١٨ يناير ١٩٣٨م.

(٣) صابان، سهيل، **الجزيرة العربية: بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية**، الرياض، مكتبة الملك فهد، ١٤٢٦هـ، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٤) العمري، **حوليات العلامة الجرافي**، دمشق دار الفكر، ١٩٩٢م، ص ٦٥,٥٥ ؛ العمري، حسين عبدالله، **تاريخ اليمن الحديث والمعاصر**، الطبعة الثانية، دمشق دار الفكر،٢٠٠١م، ص١٩٤.

(٥) العمري، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٦) سالم، سيد مصطفى، **تكوين اليمن الحديث – اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤ – ١٩٤٨م)**، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط٤،١٩٩٣م، ص٧٧ .

(٧) انظر: سيد، المرجع السابق، ص ٧٥-٧٧؛ الواسعي، عبد الواسع بن يحيى، **تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن**، القاهرة، صنعاء، مكتبة اليمن الكبرى، ١٣٤٦هـ ، ص٢٩٢ ؛ العمري، المرجع السابق، ص ١٩٩,١٩٨؛ العمري، المرجع السابق، ص٥٢.

(٨) العمري، المرجع السابق ، ص١٩٩.

(٩) سيد، المرجع السابق، ص٢٢٩ - ٢٣٩.

(١٠) يوافق ١٩٠٣/١٢/٢٢م.

(١١) **مدينة إب**: من أجمل مدن اليمن، ذات أرض خصبة وهواء معتدل وتقع على رأس ربوة متصلة بمساقط جبل بعدان من غربي بعدان، ويتصل بإب من غربها مخلاف الشوافي، ومن جهة الجنوب ذي جبلة وميتم، ومن جهة الشمال المخادر وحبيش (محمد بن أحمد الحجري، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، تحقيق وتصحيح ومراجعة، إسماعيل بن علي الأكوع، صنعاء، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب، مج ١، ص٣١).

(١٢) عزلة في مديرية المخادر على رأس جبل سمارة (الحجري، المرجع السابق، ص٤٨).

(١٣) إحدى المديريات التي تقع إلى الشمال الغربي من مدينة إب.

(١٤) **العدين**: بلاد واسعة إلى الغرب من إب وتنقسم إلى عدة مديريات هي: (العدين، حزم العدين، فرع العدين، مذيخرة). الحجري، المرجع السابق، مج٢، ص ٥٩٠.

(١٥) يوافق ١٩٠٤/١١/٧م.

(١٦) جمع مجنة، وهي القبور الجاهزة التي تحفر في الصخر وتغلق أبوابها بالحجارة والاسمنت .

(١٧) يوافق ١٩٠٤/١١/٨م .

(١٨) يوافق ١٩٠٥/٣/١٠م

(١٩) تكوّن: بمعنى أصيب أو جرح .

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٢٠) من مشايخ حبيش، كذلك هم من سكان مدينة إب، وكانوا يمتهنوان القضاء (المقحفي، إبراهيم أحمد، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ،ج٢، ص١٢٢٤).

(٢١) كان يطلق على أبناء المناطق الشمالية من اليمن أهل المشرق.

(٢٢) **عبد الله بن إبراهيم بن احمد إسحاق**، ينتهي نسبه إلى الإمام القاسم بن محمد ، ولد بصنعاء سنة١٢٧٨هـ أخذ العلم على عدة من المشايخ، عمل مع العثمانيين في سلك القضاء، التحق بالإمام يحي عند قيامه بالدعوة، ووجهه إلى إب لمحاصرة المدينة مع جيش من حاشد ومشايخ بعدان، ولكن الجيش العثماني تمكن من فك الحصار عن المدينة، ثم تولى للإمام أعمالاً مختلفة، ورافق محمد بن الإمام يحيى في رحلته إلى إيطاليا، توفي ٩شعبان ١٣٤٩هـ ( زبارة، محمد بن محمد، **نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر**، ص٣٦٦ - ٣٦٨).

(٢٣) **كوكبان**: حصن ومعقل شهير يطل على الشمال الشرقي لمدين شبام، ومديرية من مديريات محافظة المحويت. (المقحفي، ج٢، ص١٣٥٧).

(٢٤) **بعدان**: منطقة ومديرية من مديريات إب من أجمل مناطق اليمن وأخصبها وأعدلها هواء. انظر: (الحجري: مجموع، مرجع سابق، مج١، ص ١٢٤).

(٢٥) **آل الدعيس**: من مشايخ بعدان والشيخ حسن بن محمد بن سعيد الدعيس، ولد سنة ١٣٠٣هـ بقرية منزل سبا ببعدان، كان أحد القادة الأذكياء، وأحد زعماء الأحرار المتازين، وأحد الساسة النبلاء، نابغة عصره، كان يتشيع للإمام يحيى ضد الأتراك وكان يرشد الرعايا بقوله: يا رعايا سمنكم لكم، بقركم لكم، بركم لكم، ويعدد أشياء كثيرة على هذا المنوال إشارة منه إلى ظلم الأتراك، ويدعوهم إلى طاعة الإمام وعدالته، وإن حقوقهم مصونة بقانون الشريعة المحمدية، ولما ظهرت دعوة الإمام يحي، وبسط نفوذه، وقبض الحكم بيد من حديد، وبخل شديد، فكان الدعيس هذا أول من تجرع الغصص وازدادت محنته معه مضاعفة في ولاية يحي بن محمد عباس، فإنه لقي منه عرف القربة من المهانة وعدم التقدير لمكانته ولأياديه السالفة. (الأكوع، **حياة عالم وأمير**، هامش صفحة ١٦٦-١٦٧).

(٢٦) من مشايخ بعدان ينتسبون إلى قرية بيت البعداني وكان منهم وزراء في عهد الدولة الطاهرية.

(٢٧) من مشايخ عزلة ريمان جبل بعدان بمديرية إب.

(٢٨) من أعيان عزلة المقاطن جبل بعدان مديرية إب.

(٢٩) ذو محمد وذو حسين من قبائل برط. ( الحجري، المرجع السابق، مج ١، ص١٠٧).

(٣٠) من أشهر قبائل اليمن ينسبون إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة إلى حمير بن سبا. (الحجري، المرجع السابق، ص٣١٣).

(٣١) كتبها ومازال وقمت بتصحيحها.

(٣٢) يوافق ١١/ ٣/ ١٩٠٥م.

(٣٣) إحدى حارات مدينة إب القديمة تقع إلى الجنوب الغربي من المدينة.

(٣٤) النفش المقصود بها هنا الشظايا.

(٣٥) من ذرية الإمام القاسم بن علي العياني في إب (الحجري ، المرجع السابق، ص٣٣).

(٣٦) يوافق ١٨/ ٣/ ١٩٠٥م.

(٣٧) يوافق ٢٠/٣/١٩٠٥م.

(٣٨) قرية تقع على سفح جبل بعدان أول الطريق الصاعدة إلى الجبل وأصبحت اليوم متصلة بمدينة إب من شرقها.

(٣٩) يوافق ٧/٤/١٩٠٥م .

(٤٠) لم نعرف ماهي الكلمة لكن ربما يقصد الكاتب (السباهية) وتعني: الخيالة أو الفرسان في الجيش العثماني. أنظر: سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٤١) **دار الشرف**: قرية كانت تقع إلى الجنوب من مدينة إب في بداية الطريق المتجهة إلى جبلة وكانت تتبع مديرية جبلة، واليوم أصبحت متصلة بالمدينة وتتبع مديرية المشنة.

(٤٢) يوافق ٨/٤/١٩٠٥م.

(٤٣) يوافق ١١/٤/١٩٠٥م.

(٤٤) من مشايخ عزلة صهبان التي تقع جنوب مدينة إب وتتبع مديرية السياني.

(٤٥) **الشيخ منصور بن نصر بن حاميم الحاج**، ينتهي نسبه إلى يافع، ولد سنة ١٢٥٨هـ في عزلة العنسيين بمديرية ذي السفال، شاعرًا بليغًا، تولى عمالة ذي السفال، له ديوان شعر، توفي عام ١٣٤٥هـ (الأكوع، محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، **حياة عالم وأمير**، الطبعة الأولى، مكتبة الجيل الجديد ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، هامش ص ١٨١).

(٤٦) **آل قاسم**: من مشايخ مخلاف الشوافي بمديرية إب، توفي سنة ١٣٥١هـ (المقحفي، المرجع السابق، ج٢، ص١٢٣٦).

(٤٧) من مشايخ آل القاسم في عزلة البحرين مديرية إب.

(٤٨) لم نجد لها تكملة.

(٤٩) الواسعي، المرجع سابق، ص ٣٠٠ – ٣٠١.

(٥٠) العرشي، حسين، **بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام**، ص٨٦-٨٧ .

(٥١) زبارة، محمد بن محمد، **أئمة اليمن**، تعز، مطبعة النصر الناصرية، ١٣٨٢هـ – **١٩٥٢م**، ص٣٩٢.

(٥٢) زبارة، المرجع السابق، ص ٣٩٣.

(٥٣) أي تركه.

(٥٤) الواسعي، المرجع السابق، ص٣٠١.

(٥٥) العرشي، المرجع السابق، ٨٥.

(٥٦) الواسعي، المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٥٧) الواسعي، المرجع السابق، **ص ٢٧٤.**

(٥٨) الواسعي، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٥٩) انظر: سالم، سيد مصطفى، **وثائق يمنية دراسة وثائقية تاريخية**، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري، ١٩٥٨.

(٦٠) انظر: سيد، **تكوين اليمن الحديث**، ص٣٣ - ٣٥؛ الواسعي، ص٣٠٠؛ العمري، **تاريخ اليمن الحديث المعاصر**، ص ١٩٨,١٩٩؛ العمري، المرجع السابق، ص٥٢.

(٦١) سيد، المرجع السابق، ص٧٧.

(٦٢) الاكوع؛ حياة عالم وأمير، ص٢٩٨- ٢٩٩.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

# لفظة "التاريخ" جذورها وتطور دلالاتها الاصطلاحية في التراث العربي الإسلامي



سبع قادة
أستاذ مساعد قسم العلوم الإنسانية
جامعة معسكر
وهران – الجمهورية الجزائرية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
سبع قادة، لفظة "التاريخ": جذورها وتطور دلالاتها الاصطلاحية في التراث العربي الإسلامي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١٦ – ٢١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

## ملخَص

يدل لفظ التاريخ على معان متفاوتة أغلبها بحث واستقصاء حوادث الماضي، والتاريخ أو التأريخ في اللغة يعنى الإعلام بالوقت، ويتناول المقال جذور لفظة "التاريخ" للوقوف على أصلها ومعناها اللغوي، وتطور دلالاتها الاصطلاحية في التراث العربي الإسلامي.

## مُقدِمة

معلوم أن لفظة "التاريخ" لا وجود لها في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية الشريفة، ولا في التراث الجاهلي، لأجل هذا نستطيع أن نحكم على اللفظة بأنها دخيلة (معربة) على اللسان العربي، وليست أصيلة (عربية إذا كان الأمر). كذلك، فمن أية لغة جاءت هذه اللفظة، ودخلت إلى اللسان العربي؟

## جذور لفظة "التاريخ" ومعناها اللغوي

مستبعد أن تكون اللغة العربية قد استعارتها من اللغة الأكادية،[٢] رغم وجود كلمة "أرخو" بها،[٣] وإن لم يذكر "روزنثال" وجه الاستدلال لهذا الاستبعاد، وربما هي بعد العلاقة النطقية بينهما. كما يستبعد ذلك في اللغتين: العبرية،[٤] والآرامية،[٥] اللتان استعملتا لفظ "يرخ"، غير المستعمل في اللغة العربية،[٦] بل "ورخ"، و"أرخ" - جدر كلمة تاريخ - هو المستعمل فيها.[٧] زد على ذلك؛ أنه لا يحتمل العثور على الكلمة في اللغة العربية الشمالية، إذ لو كان ذلك بالإيجاب، لكان هناك مركز ثقافي صدرت منه، وهذا ما لم يكن.[٨] وكذا اشتقاقها من اللغة الأثيوبية يعتبر بعيدًا، لانعدام وجودها ضمن مكونات هذه اللغة التي لا زالت حتى اليوم باقية.[٩] من هنا لم يبق من لغة وحيطة وقريبة تأثرت بها اللغة العربية، بالنسبة لهذا المبحث إلا لغة واحدة ألا وهي اللغة العربية الجنوبية، فكانت لا محالة منطلقًا لها، لعدة أدلة محصورة في ما يلي:

**دليل الاستقراء:**

كما اصطلح عليه المناطقة، والسبر والتقسيم باصطلاح الأصوليين: حيث استبعد تأثير اللغات السابقة المجاورة فلم يبق إلا لغة واحدة كانت صاحبة هذا التأثير لا محالة، بحكم القرب المباشر، والتأثير والتأثر، ألا وهي اللغة العربية الجنوبية.

**دليل تواجد المراكز الثقافية في الجنوب:**

حيث لا يمكن أن نستعمل نحو هذه اللفظة للدلالة على المعنيين (اللغوي، الاصطلاحي) إلا في أحد مراكز الثقافية، التي لم يخل منها جنوب الجزيرة العربية، الحاضنة لهذه اللغة.[١٠]

**دليل الاكتشاف الأثري في الجنوب:**

كون جذري "أرخ" – الموجود في قواميس اللغة العربية – لكلمة تاريخ، اكتشف على نقش عربي جنوبي كاسم[١١] مرة، ومقرونًا بلفظ سنة[١٢] مرة أخرى.

**دليل الرواية الإسلامية:**

ولفضها بالحرف "وقيل أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية،[١٣] حيث كان باليمن، وذلك أنه كتب إلى عمر كتابًا من اليمن مؤرخًا،

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فاستحسنه عمر، فشرع في التاريخ. أخرجه أحمد بن حنبل بسند صحيح، لكن في انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى، وكذا قال الهيثم بن عدي: أول من أرخ يعلى".[١٤] وفي رواية لـ "ابن خيثمة من طريق محمد بن سيرين، قال: قدم رجل من اليمن، فقال: رأيت باليمن شيئًا يسمونه التاريخ، يكتبونه من عام كذا، وبشهر كذا. فقال عمر: هذا حسن، فأرخوا ...".[١٥] فالرواية – إن صحت – تدل على: كون كلمة "التاريخ" دخيلة على اللغة العربية، وزمن من دخولها إلى التراث العربي الإسلامي، مع بيان ملابسات وظروف هذا الدخول المباشرة، ومعناها الاصطلاحي المبكر والابتدائي فيه.

كما يذهب "مؤنس" إلى القول بأن "أصل لفظ التاريخ العربي مشتق من لفظ .Arch ، الذي ينطق في اليونانية (أرخ)، ومعناه: القديم أو القدم، ومن هنا يسمى علم الأثريات القديمة بالأركيولوجيا Archéology ".[١٦] لا تضاد بين ما قيل وهذا القول، ما دامت اللغات تتأثر وتؤثر فيما بينها، وإن كان من غير شك أم هذا اللفظ أصله لغة واحدة فقط: إما اللغة العربية الجنوبية، أو اللغة اليونانية، إلا أن الفصل في ذلك، ليس هنا مقام بسطه.

وهكذا؛ دخلت هذه الكلمة التراث العربي - الإسلامي، فتكون لها دلالتان: واحدة لغوية، وأخرى اصطلاحية، ويقابلها في اللغات الأوربية لفظ: History في الإيطالية، و Historia في الإسبانية، و Histoire في الفرنسية،[١٧] إذ كلها مشتقة من الكلمة اليونانية (ستوريا) بمعنى الحكاية أو القصة، والتي دخلت العربية قبل الإسلام بلفظ "الأسطورة".[١٨] المذكورة بالصيغة الجمعية "أساطير الأولين" في القرآن الكريم عبر تسع آي منه.[١٩] هذا عم جذور الكلمة.

أما بالنسبة لمعناها اللغوي، فقد ذهب روزنتال – حسب الأدلة المتوفرة لديه، والمقدمة من قبل مختصين، كما قال– على أنه القمر أو الشهر.[٢٠] في الحقيقة أم هذا المعنى اللغوي هو لجدري: أرخ، ويرخ، الذين وجدا في اللغتين: العبرية والأرامية،[٢١] وليس لكلمة تاريخ، فإعطاؤه هذا المعنى لها هو مجرد افتراض، لم يقم سندًا ودليلاً عليه.

إننا نرجح بأن الكلمة دخلت التراث العربي الإسلامي عبر التراث اليمني بجنوب الجزيرة العربية – حتى وإن لم نعثر عليها بعد ضمن نقوش وكتابات هذا التراث، لأن عدم العثور على شيء لا يلزم منه عدم الوجود خصوصًا في مجال علم الآثار – ما دامت هناك رواية تصرح بأن هذه اللفظة أول ما وجدت في اليمن، ومنه نقلها المسلمون.[٢٢] كما أنه مادام اللفظ معربًا، فلا طائل من البحث في معناه اللغوي ضمن اللسان العربي، لأن أي لفظ حين انتقاله من لغة لأخرى فإنه يحمل معه معنييه اللغوي والاصطلاحي، ولا يطرأ التغيير إلا على معناه الأخير (الاصطلاحي)، بالتالي لا نستبعد أن يكون معنى الكلمة اللغوي هو نفس معنى الجذرين السابقين، طالما يقتربان إليها جدًا من حيث الحروف من جهة، وكون الكلمات الثلاث هي من بيئة ثقافية واحدة، ألا وهي بيئة اليمن من جهة أخرى.

لأجل هذا، فإن كل ما ذكره أهل اللغة حيال هذه الكلمة: من قائل بتعريبها وقائل بعربيتها، وما ذكروه من "أدلة"[٢٣] – زعموا – كل ذلك لا يثبت أمام الدراسة والنقد.[٢٤] بهذا، نخلص بأن كلمة "التاريخ" في اللغة العربية الجنوبية، لا تستبعد – للقرائن المذكورة – دلالتها اللغوية على معنى القمر أو الشهر، ولقرينة أخرى نراها قوية تتمثل في معناها المبكر الأول التي دخلت به التراث العربي الإسلامي، ألا وهو التوقيت بالشهر الذي دل عليه جزء من رواية بن أبي خيثمة المذكورة.

## لفظة "التاريخ" من الناحية الاصطلاحية

لقد دخلت كلمة التاريخ (التراث العربي الإسلامي) لتدل في بدايتها الأولى بالنسبة للمعنى الاصطلاحي لها، ألا وهو التقويم الأحداث بالشهر والسنة كما نصت رواية بن أبي خيثمة السالفة الذكر. بل هذا الدخول، كان بالضبط لسنتين خلت من خلافة عمر بن الخطاب[٢٥] (رضي الله عنه): يوم العاشر أو الحادي عشر من شهر ربيع الأول للسنة السادسة عشرة للهجرة على الراجح،[٢٦] كما كان دخولها سببًا مباشرًا لظهور التاريخ أو التقويم الهجري ضمن ملابسات وأحداث تاريخية معبرة وذات دلالة خالدة في ما يلي:
بأن انطلاق التقويم الهجري بيوم العاشر، أو الحادي عشر – و هو ما رجحناه – من شهر ربيع الأول من السنة السادسة عشرة للهجرة، للنص المذكور، ونتيجة يتوصل إليها بمجرد قراءة نص أورده المقريزي في سياق كلامه عن هذا الموضوع ( كيفية ظهور التقويم الهجري )، مع مقارنته بالترتيب التصاعدي للشهور القمرية، التي تتدرج كالآتي: محرم- صفر- ربيع الأول- ربيع الثاني- جمادى الأولى - جمادى الثانية- رجب- شعبان - رمضان- شوال - ذو القعدة - ذو الحجة).

أعطى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الأمر للصحابة (رضي الله عنهم) بالإجماع والتشاور حول مسألة التاريخ، بمعنى التقويم للأحداث باليوم والشهر والسنة القمرية، انطلاقًا من الهجرة النبوية، كرمز للجانب الأصالي والذاتي والاستقلالي والإبتكاري، الذي يجب أن يكون للأمة الإسلامية. فما كان عليهم إلا أن استجابوا للأمر، وراحوا يتشاورون ويتحاورون فيما بينهم - مع العلم أن عمر ( رضي الله عنه) ضمنهم – في جو ملؤه حرية الرأي، والهدوء، والاحترام المتبادل، والإدلاء بالاقتراحات ووجهات النظر، والانصياع للحجج والبراهين المقتنعة فقط، إلى أن اتفقوا في الأخير،[٢٧] وخرجوا بما يلي:

(١) ابتداء هذا التقويم بالفاتح من شهر محرم،[٢٨] الذي كان من اقتراح عمر وعثمان[٢٩] (رضي الله عنهما) لتميز هذا الشهر في الإسلام عن سائر الشهور القمرية بدلالات، منها: كون هذا الشهر أول شهور السنة الهلالية عند العرب،[٣٠] وضبطًا للحساب حتى لا تختلف الشهور،[٣١] واعتباره شهر حرام:[٣٢] حيث يحرم فيه من الأمور ما لا يحرم في غيره من الشهور الأخرى، وتوقيت منصرف الناس من حجهم.[٣٣] وبحكم أنه لا

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

يوجد ما يناسب الهجرة - التي ستحدد بها السنوات - من الشهور الهلالية إلا الشهر المحرم، "لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال محرم".[٣٤]

(٢) تحديد السنوات، بدءًا من هجرته ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، إذ كان ذلك من اقتراحي عمر وعلي (رضي الله عنهما)، لأن الهجرة فرقت بين الحق والباطل"،[٣٥] كما قال عمر (رضي الله عنه).

وبهذا، نجدهم عدلوا عن مولده ومبعثه ووفاته إلى هجرته ﷺ، لأن المولد والمبعث مختلف في تحديد سنة كل منهما،[٣٦] أما الوفاة، فلما توقع بذكرها من التحسر و"الأسف عليه"[٣٧] ﷺ.

لقد أرخ العرب في الجاهلية بالأشهر القمرية، انطلاقًا من أحداث اعتبروها معلمية بارزة، نذكر منها على سبيل المثال: حدث عام الفيل،[٣٨] الذي أرخ به مولد النبي ﷺ، وحدث موت كعب بن لؤي،[٣٩] وحدث حرب الفجار.[٤٠][٤١] إن المسلمين عرفوا هذا المعنى الاصطلاحي لكلمة التاريخ قبل انتقالها إلى تراثهم، لكن بلفظ آخر مغاير، ألا وهو لفظ "العد"، بدليل الأثر الموقوف الذي أخرجه البخاري، حيث روى بسنده المتصل الصحيح "...عن سهل بن سعيد قال: ما عدوا من مبعث النبي ﷺ، ولا من وفاته ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.[٤٢]

تُرى لماذا وقع هذا الحدث الكبير الخالد في خلافة عمر (رضي الله عنه) بالذات؟ ظهر هذا الحدث في خلافته، لأنه خلالها ساد الاستقرار والأمن، وبدأت الرقعة الجغرافية للإسلام في الاتساع، بحكم استئناف تجدد عملية الفتوحات، لكن هذه المرة بوتيرة أقوى، فكان من نتائج ذلك أم ازداد عدد الداخلين في الإسلام من سكان الأراضي المفتوحة، وما رافق ذلك من كثرة الثروات والأموال، وتدفقها على الأمة الإسلامية جراء هذه الفتوح، وهذا ما تدل عليه قضية الصك الذي رفع إلى عمر (رضي الله عنه)، مكتوب لرجل على آخر بدين يحل عليه في شعبان، فقال: أي شعبان؟ أمن هذه السنة، أم الذي قبلها، أم التي بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضعوا للناس شيئًا يعرفون فيه حلول ديونهم...".[٤٣]

من هنا، كان لابد على الخليفة عمر (رضي الله عنه) يومها أن يفكر بمشورة الصحابة ( رضي الله عنهم) في وسيلة وطريقة يتوصل بها لضبط وتنظيم قضية الصك هذه وغيرها... وهذا في إطار التكيف مع المستجدات والحوادث استجابة لظروف العصر ومشاغله. زد على ذلك؛ ظرف آخر لا يقل أهمية عن الظروف السابقة، والمتمثل في التأثر بتراث وثقافات المناطق المفتوحة وقتها، منها اليمن وفارس على وجه الخصوص.[٤٤] وبهذا نقف على أن الدلالة الاصطلاحية الأولى المبكرة لكلمة "التاريخ" حين دخولها التراث العربي الإسلامي، تمثلت في معنى التقويم باليوم والشهر والسنة الهلالية – كما سبق الذكر لهذا مفصلاً – وإن كانت هذه الدلالة سيلحقها تطورات، لتطورات الأوضاع والمجالات والأفكار في المجتمع الإسلامي، إلى أن تصل إلى قمتها عند "ابن خلدون".

## تطور دلالة لفظة "التاريخ" من الناحية الاصطلاحية

عرفت الكلمة من الناحية الاصطلاحية تطورًا في الدلالة، وهكذا بدأت مسيرتها في هذا التراث للدلالة:

**أولاً:** على المعنى التقويم والتوقيت – كما مر ذكره – الذي استمر في الاستعمال طيلة صدر الإسلام،[٤٥] وإن كان هذا المعنى موجود قبل ذلك لكن تحت لفظة "العد" – كما سجلنا ذلك سابقًا.

**ثانيًا:** كسبت معنى آخر تمثل في: كتابة الأحداث وتسجيلها على أساس الزمن، وبهذا تكون قد حلت محل الكلمة التي كانت تدل على ذلك، ألا وهي "الخبر وأخبار" في الغالب.[٤٦]

**ثالثًا:** وانطلاقًا من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، صارت الكلمة تطلق لتدل على عملية التدوين التاريخي وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع".[٤٧]

**رابعًا:** بدءًا من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، تغيرت دلالة الكلمة لتعني "العلم بأحداث التاريخ وأخباره [ وتحل ] نهائيًا محل الخبر والإخباري"،[٤٨] وهو التعريف الذي استقرت عليه أخيرًا، وما يقابل اليوم المعنى الاصطلاحي للفظ حين ترجمته إلى أية لغة أجنبية أخرى، كعلم مستقل قائم بذاته، بغض النظر عن تطوره في مجالات: المنهج والمجال والأهداف.

من العوامل الرئيسة التي كانت وراء سير التاريخ تلك المسيرة الإيجابية التي استمرت كذلك مثمرة في نهاية المطاف ما يعرف بـ"حضارة القرن العشرين"، مجيء "ابن خلدون" بإسهامه الخالد في مجال الفكر الإنساني، التي تدين له تلك الحضارة بذلك، ويشهد له روادها ومفكروها الكبار بما ابتكره وأسداه للبشرية، وبخاصة في مجال مناهج العلوم الإنسانية، حواه بإسهاب وتفصيل الجزء الأول من مؤلفه التاريخي "كتاب العبر..." والمشهور بالمقدمة.

يهمنا من هذا الإسهام المميز، بالنسبة لهذه الشخصية العربية الفذة، ما نعتبره لصيقًا بمقالنا هذا، وهو ذلك الطرح الأصيل المبتكر، والخالد المعتبر لماهية هذا العلم الاصطلاحية: منهجًا ومجالاً وأهدافًا، لا يختلف عن ماهيته المعتد بها اليوم من قبل أهل الاختصاص إلا في الشكل فقط.

إن "ابن خلدون" في مجال التعريف الاصطلاحي للتاريخ يطرح تعريفين: تعريف تقليدي، كان متعارفًا عليه حتى عصره، لا يرتضيه ويقبل به، مادام ينعته بالظاهر، فيقول: "إذ هو [ فن التاريخ ] في ظاهره لا يزيد على إخبار والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأمثال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية     ISSN: 2090 – 0449

الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال".(٤٩) أما التعريف الاصطلاحي الذي يرضاه ويقبل به، هو تعريف آخر مغاير له تمامًا، نجده يصدر ويصفه له بالباطني، فيقول: "وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل(٥٠) للكائنات ومباديها دقيق، علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في حكمة عريق، والجديد بأن يعد في علومها وخليق".(٥١)

الذي يهمنا، هو هذا التعريف الاصطلاحي الأخير له، لأنه يمثل نقلة نوعية - لا ينساها له التاريخ - في النظرة الجديدة إلى علم التاريخ القائمة على العلم والمعقولية والموضوعية، هذا من جهة، إذ أن التاريخ في رأي ابن خلدون علم قائم بذاته، يرتكز على: النظر والتعليل، شأنه في ذلك شأن "الحكمة"، التي يروها في كتاباته لتؤدي وتدل على معنى الفلسفة،(٥٢) بل ذهب إلى عده قسمًا من علوم الفلسفة - كما هو واضح وصريح في النص- لا مجرد رواية وسرد للأخبار والوقائع. فضلاً عن كونه أول من أثار مسألة نقد الأخبار التاريخية طبقًا لأصول وقواعد معقولة وواقعية، أطلق عليها "طبائع العمران"، حيث "جعل من هذه الطبائع محكًا علميًا لنقد الأخبار التاريخية وتمحيصها، فسجل بذلك فوزًا كبيرًا... لا يسعنا إلا أن نعرف بفضله وتفوقه على سائر من كتب في التاريخ من قبله."(٥٣)

يذكر الباحث "أسد رستم" بأن أول من حاول نقد الروايات التاريخية هو "هوكتا(٥٤) يوس"،(٥٥) لكن مما يلاحظ على هذا الأخير، ومن سار على طريقته في الكتابة التاريخية من اليونانيين وغيرهم...أنهم لم يبتكروا أصولاً وقواعد نقدية شاملة (أي مدرسة نقدية قائمة بذاتها)، تكون طريقة ومنهجًا فيما يخص هذا المجال، وبهذا الاعتبار فقط عدّ "هوكتايوس" المؤسس والمبتكر الأول لهذا النوع من النقد أو المنهج،(٥٦) عكس ما قام به "ابن خلدون".

إن هذا التعريف الاصطلاحي الخلدوني المميز، لا يقل أهمية عن أقوى وأشهر تعريف اصطلاحي لعلم التاريخ اليوم، كحدّ المؤرخ "كولنجوود" له: بأنه نظرية للمعرفة تلقي ضوءً على حقيقة الأحداث، وليس هو سلسلة هذه الأحداث.(٥٧) وكبيان وظيفة ودور المؤرخ الحديث اليوم في تعامله مع الأحداث، الذي يبرزه الباحث "أركون" قائلاً، بأنه (أي المؤرخ):... لم يعد يكتفي بالوصف فقط، والسرد الراوي المتسلسل خطيًا في الزمن... هذا ما ادعوه بالتاريخ الوصفي... هذه ليست منهجية علم التاريخ الحديث... كما يمارس الآن في أكثر البيئات طليعة، فالمؤرخ الحديث فيما يقرأ، ويتفحص هذه الأخبار والأحداث الماضية، يعيد تشكيل النظام الفكري لمرحلة تاريخية بأسرها، ويعيد إبرازه إلى دائرة الضوء بكل خطوطه ومحاوره وحدوده العامة".(٥٨) وهذا من جهة أخرى. وهكذا؛ فإننا إذا أمعنا القراءة والنظر في التعريفين الاصطلاحيين (الخلدوني والحديث)، فلا نجدهما يختلفان في الجوهر والمضمون، بل في الصيغة والشكل، والعبرة بالمضمون والمعنى لا بالشكل.

## خاتمة

يتضح الآن؛ أن لفظة "التاريخ" استعملت في العصر الإسلامي الأول بمعنى التقويم والتوقيت على أساس القمر، ثم كسبت معنى آخر هو: تسجيل الأحداث على أساس الزمن، وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية، كلمة "خبر وأخبار وأخباري"، ثم بدأت كلمة "تاريخ" تحل بالتدريج محل كلمة خبر، وأخذت تُطلق على عملية التدوين التاريخي، وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل، متصل الزمن، والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الإخبارية، وكان ذلك على ما يبدو منذ أواسط القرن الثاني الهجري، فما أطلَّ القرن الثالث حتَّى صارت لفظة "التاريخ" تطلق على العلم بأحداث التاريخ، وأخبار الرجال، وعلى الكتب التي تحوي ذلك، وحلت نهائيًا محل كلمة الخبر والإخباري.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية

## الهوامش:

(١) نسبة إلى أكد، مدينة قديمة في وسط بلاد ما بين النهرين، اتخذت عاصمة للإمبراطورية الأكدية (٢٤٠٠-٢٢٠٠ق.م)، صاحبة حضارة مزدهرة ولغة حلت محل اللغة السومرية، وأصبحت الألف ٢ ق.م لغة دول الشرق الرسمية، وعنها تفرعت البابلية والأشورية. **المنجد في اللغة والإعلام، المنجد في الإعلام**، دار المشرق، بيروت، ط١١، ص:٥٨.

(٢) روزنثال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، ط ١٩٦٣/٨/١، ص :٢١.

(٣) المرجع السابق، ص: ٢١،٢٠.

(٤) نسبة إلى العبري أو العبراني، بمعنى اليهودي، والعبرانية- أو العبرية- هي لغة اليهود. **المنجد في اللغة والإعلام، المنجد في اللغة**، ص :٤٨٤.

(٥) نسبة إلى أرم، (الجدا للأرميين)، أحد أبناء سام حسب الثورة، شعب أسس عدة كيانات سياسية بسوريا، صارت لغتهم لغة الشرق انطلاقًا من القرن ٨ ق.م، واستمرت كذلك حتى زوالها مع الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن ٧ ق.م.

Petit Larousse illustré, librarie, Paris, 1984, P. 1123.

(٦) روزنثال، م، ن، ص: ٢٠، ٢١.

(٧) ابن منظور، محمد ابن مكرم، أبو الفضل، **لسان العرب**، دار صادر بيروت، ط١، ١٩٩٧، جـ٦، ص:٤٢٥، وجـ١، ص:٦٠.

(٨) المرجع السابق، ص:٢١.

(٩) المرجع نفسه، ص:٢١.

(١٠) المرجع السابق، ص:٢١

(١١) مرجع سابق، ص: ٢٢، نقلاً عن:

Glazer 1606 of N. Rhodokanakis. WZKM XXXVII 150 .Fn.I (1930).

(١٢) المرجع نفسه، ص:٢٢، نقلاً عن:

A.Joussen and R.Sovignac :**Mission Archéologique en arabia** vol 2, Minaen inscriptions, N°32 (Paris-14).

(١٣) صحابي، ولاه الخليفة عمر ابن الخطاب(رضي الله عنه) على اليمن، تصفه الروايات بأنه أول من أرخ الكتب. الذهبي، محمد ابن أحمد، سير أعلام النبلاء، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣ م، ج:٣، ص:٣٦٩. ابن حجر أحمد ابن علي، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، بدون تاريخ، ج:٢، ص:١٧٦٠. الطبري، محمد ابن جرير، أبو جعفر، **تاريخ الأمم والملوك**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، د.ت، ص:٦٤٧. ابن كثير، إسماعيل ابن عمر، **البداية والنهاية**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ط٢٠٠٤ ج:١، ص:١٠٦١.

(١٤) السخاوي، محمد ابن عبد الرحمان، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص:٨٠،٧٩. لم نعثر على هذه الرواية في مسند أحمد، ولعلها موجودة في "فضائل الصحابة" له وضمن "فضائل عمر"(رضي الله عنه وعنهم).

(١٥) المصدر السابق، ص:٨. المقريزي، أحمد ابن على، أبو العباس كتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، جـ٢، ص،٦٣.

(١٦) مؤنس، حسين، **التاريخ، والمؤرخون دراسة في علم التاريخ ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ**، دار الرشاد، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص:٩.

(١٧) المرجع السابق، ص:٩.

(١٨) المرجع نفسه، ص:٩.

(١٩) الآيات: ٢٥ من الأنعام، ٣١ من الأنفال، ٢٤ من النحل، ٨٣ من المؤمنون، ٥ من الفرقان، ٦٨ من النمل، ١٧ من الأحقاف، ١٥ من القلم، ١٣ من المطففين.

(٢٠) روزنثال، م.ن، ص:٢٣.

(٢١) المرجع السابق، ص:٢١.

(٢٢) السخاوي، م.ن، ص:٨٠. المقريزي، م.ن، جـ:٢، ص:٦٣.

(٢٣) أنظرها عند: السخاوي، م.ن، ص:٧،٦. ابن منظور، م.ن، مج:١، ص:٦٠.

(٢٤) قارن بين: المصدر السابق، ص٦،٧. وما ذكر في هذا البحث أعلاه.

(٢٥) الطبري، م.ن، ص:٦٤٧. ابن كثير، م.ن، ص:١٠٦١.ابن حجر، م.ن، جـ:٢، ص: ١٧٦٠

(٢٦) لأن مثبتها أقدم وأكثر، ك:الطبري، م.ن، ص:٦٤٧.ابن كثير، م.ن، جـ١، ص:١٠٦١. ابن حجر، م.ن، جـ:٢، ص:١٧٦٠. مع العلم أن السنة المرجوحة هي السابعة عشر للهجرة. المصدر السابق، جـ:٢ ،ص:١٧٦٠.

(٢٧) يستشف هذا كله من روايات، تنظر عند الحاكم، محمد ابن عبد الله، أبو عبد الله، المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، جـ:٣، ص:١٤. الطبري م.ن، ص:٦٤٧. ابن كثير، م. ن، جـ:١، ص:١٠٦١. ابن حجر، م. ن، جـ :٢، ص :١٧٦٠.

(٢٨) المقريزي، م. ن، جـ: ٢، ص:٦٣.

(٢٩) ابن حجر، م. ن، ص :١٧٦٠.

(٣٠) ابن كثير، م.ن، جـ :١، ص:١٠٦١. ابن حجر، م. ن، جـ :٢، ص:١٧٦٠.

(٣١) ابن كثير، م. ن، جـ :٢، ص :١٠٦١

(٣٢) ابن حجر، م. ن، جـ :٢ ، ص:١٧٦٠.

(٣٣) م. ن، جـ :٢، ص:١٧٦٠.

(٣٤) م .ن، جـ:٢، ص:١٧٦٠.

(٣٥) الطبري م .ن، ص :٦٤٧. ابن حجر، م .ن ،جـ:٢، ص:١٧٦٠. الحاكم، م .ن، جـ :٣، ص: ١٤.

(٣٦) ابن حجر، م .ن ، جـ :٢، ص:١٧٦٠.

(٣٧) م .ن ، جـ :٢، ص:١٧٦٠.

(٣٨) مفاده، تلخيصًا: أن "أبرهة" ملك الحبشة تحرك نحو مكة عام ٥٤ق.هـ/٥٧٠م، على رأس جيش كبير، راكبًا فيلاً ضخمًا، بهدف هدم الكعبة، حتى يصرف الحجيج عنها نحو الكنيسة التي بناها باليمن، فكان الأمر الخارق بأن سلط الله تعالى طيرًا قتلته وجيشه، وهو يحاصرها، مصداقًا لما سجله القرآن الكريم في سورة الفيل. ابن الأثير، علي ابن محمد، أبو الحسن، **الكامل في التاريخ**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، د.ت، ص:١٢٥،١٢٦.

(٣٩) ابن غالب، ابن فهر، ابن مالك، ابن النضر، ابن كنانة، ابن حزيمة، ابن مدركة، ابن إلياس، ابن مضر، ابن نزار، بن معد، بن عدنان، الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وكانت فيه البيت والعدد. ابن حزم، علي ابن أحمد، أبو محمد، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د. ت، ج :١، ص: ٧، ١٢.

(٤٠) يوم من أيام العرب، عبارة عن حرب دارت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان في الجاهلية، انتهت بالدائرة على قيس، سميت كذلك، لأنها جرت في الأشهر الحرم، حيث اعتبر كل من قاتل فيها من القبائل بأنه فجر. ابن منظور، م .ن، ج:٥، ص :٩٥.

(٤١) المقريزي، م .ن، ج: ٢، ص: ٦٣

(٤٢) ابن حجر، م .ن، ج: ٢، ص: ١٧٦٠.

(٤٣) ابن كثير، م .ن، ج:١، ص: ١٠٦١.

(٤٤) يدل على ذلك، كون أول اقتراح أدلى به بعض الصحابة (رضي الله عنهم) أمام عمر (رضي الله عنه)، وإن رد على ذلك، في الاجتماع التشاوري المذكور، هو اقتراح متعلق بفارس، ساقه راوي النص بقوله: "... أراد بعضهم أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس، كلما هلك ملك أرخوا بولاية الذي بعده، فكرهوا ذلك". ابن كثير، م .ن، ج:١، ص:١٠٦١.هذا عن فارس. أما عن التأثر باليمن، فما أورده المقريزي، أنه "...كان عند عمر ابن الخطاب

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(رضي الله عنه) عامل جاء من اليمن، فقال لعمر: ألا تؤرخون؟ تكتبون في سنة كذا وكذا..." المقريزي، م. ن، ج:٢، ص: ٦٣. هذا العامل هو الصحابي يعلي ابن أمية(رضي الله عنه)، كما جاء في الرواية التي سبق إيرادها.

(٤٥) مصطفى، شاكر، **التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في دراسة تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، نوفمبر ١٩٧٩، ج:١، ص:٥١.

(٤٦) م. ن، ج:١، ص :٥١.

(٤٧) م. ن، ج:١، ص :٥١.

(٤٨) م. ن، ج:١، ص :٥١.

(٤٩) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دراسة وتحقيق وتعليق: علي عبد الواحد وافي، شركة نهضة مصر، القاهرة، ط٤، أكتوبر ٢٠٠٦، ج:١، ص:٢٨٢.

(٥٠) الغالب على ابن خلدون أنه يميز بين السبب والعلة، وإن استعملهما بالمعنى الأصولي لا الفلسفي، إذ العلة مدركة معقوليتها بالنسبة للحكم، والعكس بالنسبة للسبب، أما حين اقتران العلة بالحكمة: فالأولى بمعنى الدافع، والثانية بمعنى القصد منه. الجابري محمد عابد، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، نيسان/أبريل ١٩٩٤، ص:٢٩٨،٢٩٩.

(٥١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج:١، ص:٢٨٢.

(٥٢) من الأدلة على أن "الحكمة" في كلام ابن خلدون هي مرادفة للفلسفة، قوله: "وهؤلاء (قوم من عقلاء النوع الإنساني) يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة "ابن خلدون كتاب العبر...، ٢٧٩. وقوله "أساطين الحكمة". المصدر نفسه، ص:٢٥٢. وقوله: "... والحكماء المتقدمين والمتأخرين". المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(٥٣) رستم، أسد، **مصطلح التاريخ**، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، ط٢،٢ نيسان ١٩٥٥، ص: ب.

(٥٤) "**Hécataeus**": مؤرخ وجغرافي يوناني، عاش حوالي (٥٦٠-٤٨٠ ق.م) صاحب رحلات حول: أوربا، آسيا، مصر، ليبيا. من مؤلفاته: رسم لخريطة العالم في وقته، أنساب الأسر وأخبارها، وكتب في أصل الشعب اليوناني. عبد اللطيف، أحمد علي، **التاريخ اليوناني**، دار النهضة العربية، بيروت، مارس ١٩٧١، ج:١، ص:١١، هـ١.

(٥٥) رستم المرجع السابق، ص : أ.

(٥٦) المرجع نفسه، ص : أ.

(٥٧) كولنجوود، روبين جورج، **فكرة التاريخ**، ترجمة: محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ١٩٦٨، ص:٣٣.

(٥٨) أركون، محمد، **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد**، ترجمة: هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ١٩٩٣، ص: ٢٣٤.

# الفكر المعماري العربي الإسلامي "التفسير التاريخي"




**أ. د. م. بديع العابد**

رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم

عميد كلية هندسة العمارة "السابق"

جامعة الإسراء – المملكة الأردنية الهاشمية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

بديع العابد، الفكر المعماري العربي الإسلامي: التفسير التاريخي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٢٢ – ٣٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

**خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢**



## ملخَص

العمارة ظاهرة حضارية أصابها داء التجديد (التغيير)، كما أصاب باقي الظواهر الحضارية كالفنون والآداب. ولقد صاحب هذا التجديد، تغيير شامل في البنى النظرية، والمفاهيم، ومناهج التفكير، وطرائق النظر، وأدوات البحث، وأساليب التفسير. ولقد كان داء التجديد، وما زال في العمارة أشد وطأة منه في باقي الظواهر الحضارية. فاستأصلت العمارة العربية الإسلامية من محيطها الحضاري، وبوعد بينها وبين جذورها التاريخية، وأفرغت من قيمها الاجتماعية، وشكك في أصالتها، ووصمت بالتقليد تارة، وبالتبعية تارة أخرى، وغيب فكرها، واستبدلت أطرها النظرية، واختصرت منهجيات ممارستها من أرقى منهجيات التصميم، وهي منهجية الأحكام، إلى أدنى منهجيات التصميم وأكثرها بدائية، وهي منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار.

ولقد أسفر هذا التغيير عن خلق أجيال من أساتذة الجامعات، والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين، تنكروا لأنفسهم ولحضارتهم، أخذوا بظواهر الحضارة الغربية فجهلوا فكرهم المعماري، "وعطلوه واتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يقرون به ويدعون إليه". ولقد كان أخطر ما أقدمت عليه الحضارة الغربية، منذ القرن الثامن عشر، هو تفسيرها لظواهر الحضارة الإسلامية، ومنها العمارة الإسلامية مستغلة وعينا المستلب، وافتقارنا إلى المؤسسات العلمية، وضعف ما كان قائماً منها، كالأزهر الشريف، وانبهارنا بتقدمها العلمي والتقاني. فطرحت تفسيرها، القاصر علميًا وأخلاقيًا لهذه الظواهر.

تهدف من هذه الدراسة إلى التعريف بفلسفة التاريخ الإسلامي القائمة على: الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. وبيان هذه المفاهيم، والتعريف بآليات تفسيرها العقلية والفكرية للظواهر الحضارية، وتحديدًا للظاهرة المعمارية، وبيان مدى ارتباطها وتحكمها نظريًا وفكريًا بمنهجيات ممارستها وإنتاجها العلمي. والدراسة تهدف إلى إثبات أن العمارة الإسلامية مورست في حيز الوعي، وضمن إطار نظري عماده التفكر والتأمل. وذلك في محاولة للتخلص من حضور وتفسير فلسفة التاريخ الغربي للعمارة الإسلامية، القائمة على التحقيب التاريخي، الذي استنه المستشرقون وتبناه أتباعهم من العرب والمسلمين، الذي جردوا فيه العمارة الإسلامية من جسمها النظري، وأخضعوها للممارسات العملية التي تتم بمنهجية التجربة والخطأ.

ولتحقيق ذلك سأعرض لمفهوم التاريخ في الجاهلية والإسلام. كما جاء في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، وآراء المفكرين والمؤرخين العرب والمسلمين، ثم أبين الصلة والروابط بين فلسفة التاريخ في الجاهلية والإسلام وأوضح مدى تكاملهما. ثم أعرض لفلسفة التاريخ العربي الإسلامي، وأبين مفاهيمها ومدى ارتباطها بمنهجيات تفسير العمارة وممارستها، مع مقابلة ذلك بما هو سائد في الغرب من آليات تفسير مختلفة عن آليات التفسير العربية


دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الإسلامية. وذلك في محاولة للتخلص من فرضهم لفلسفة تاريخهم في تفسير العمارة الإسلامية وإحلال فلسفة تاريخنا ومفاهيمها لتفسير عمارتنا الإسلامية. والدراسة معنية بالتعريف بالبداية الزمنية للتاريخ العربي، وبيان مدى حضوره وتواصله مع التاريخ العربي الإسلامي. وهذا بدوره أيضًا يتطلب معرفة البيئة الجغرافية، وطبيعة الروابط والصلات التاريخية، والعلاقات الاجتماعية، التي كانت سائدة قبل الإسلام. وستمهد الدراسة ببيان طبيعة العلاقة بين الحضارتين: الإسلامية القائمة المنتشرة في المكان والمستمرة في الزمان، والغربية الناشئة (في حينه أي في القرن الثامن عشر) التي تحاول أن تجد لها موقعًا في المكان لتفرض حضورها في الزمان.

## مُقدِّمة

العمارة ظاهرة حضارية أصابها داء التجديد (التغيير)، كما أصاب باقي الظواهر الحضارية كالفنون والآداب. ولقد صاحب هذا التجديد، تغيير شامل في البنى النظرية، والمفاهيم، ومناهج التفكير، وطرائق النظر، وأدوات البحث، وأساليب التفسير. ولقد كان داء التجديد، وما زال في العمارة أشد وطأة منه في باقي الظواهر الحضارية. فاستأصلت العمارة العربية الإسلامية من محيطها الحضاري، وبوعد بينها وبين جذورها التاريخية، وأفرغت من قيمها الاجتماعية، وشكك في أصالتها، ووصمت بالتقليد تارة، وبالتبعية تارة أخرى، وغيب فكرها، واستبدلت أطرها النظرية، واختصرت منهجيات ممارستها من أرقى منهجيات التصميم، وهي منهجية الأحكام، إلى أدنى منهجيات التصميم وأكثرها بدائية، وهي منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار.

ولقد أسفر هذا التغيير عن خلق أجيال من أساتذة الجامعات، والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين، تنكروا لأنفسهم ولحضارتهم، أخذوا بظواهر الحضارة الغربية فجهلوا فكرهم المعماري، "وعطلوه واتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يقرون به ويدعون إليه".[١] ولقد كان أخطر ما أقدمت عليه الحضارة الغربية، منذ القرن الثامن عشر، هو تفسيرها لظواهر الحضارة الإسلامية، ومنها العمارة الإسلامية مستغلة وعينا المستلب، وافتقارنا إلى المؤسسات العلمية، وضعف ما كان قائماً منها، كالأزهر الشريف، وانبهارنا بتقدمها العلمي والتقاني. فطرحت تفسيرها، القاصر علميًا وأخلاقيًا لهذه الظواهر. وسأقصر كلامي في هذه الدراسة على التفسير التاريخي للظاهرة المعمارية. ولكن بعد أن أبين طبيعة العلاقة بين الحضارتين: الإسلامية القائمة والمنتشرة في المكان والمستمرة في الزمان، والغربية الناشئة (في حينه) التي تحاول أن تجد لها موقعاً في المكان لتفرض حضورها في الزمان.

من المعروف أن أوروبا عاشت عصور الظلام حتى نهاية القرون الوسطى، حسب تصنيفهم التاريخي، فلم يكن لها حضور لا في التاريخ، ولا حتى في الجغرافيا. ولم تتلمس الحضارة الأوروبية طريقها إلا بعد احتكاكها بالحضارة الإسلامية. وقد تم هذا الاحتكاك في منطقتين: الأولى في الأندلس، والثانية في صقلية وجنوب إيطاليا.

ونتج عن هذا الاحتكاك عملية إخصاب حضاري "بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوروبي وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه".[٢] التي لم يتلمسها إلا في منتصف القرن الخامس عشر، أو ما يعرف ببداية عصر النهضة في أوروبا، حيث بدأ العقل الأوروبي ينحى منحًا استقلاليًا عن الحضارة العربية الإسلامية التي فرضت حضورها على المشهد الأوروبي منذ القرن الثامن وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلاديين.

وبهذا تكون الحضارة الإسلامية قد انتشلت أوروبا من عصور الظلام (التي امتدت حتى نهاية القرون الوسطى)، وشكلت الوعي الأوروبي حتى منتصف القرن الخامس عشر. ولم ينحسر حضور الحضارة الإسلامية المباشر عن المشهد الأوروبي إلا في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، حيث توقف[٣] تدريس العلوم الطبية من المصادر العربية في الجامعات الأوروبية. وفترة التشكل التي عاشها العقل الأوروبي، من القرن الخامس عشر وحتى بداية الثامن عشر، حيث بلغ أوج تطوره بتصنيف المنظومات العلمية والفكرية والفلسفية والأدبية والفنية، تحت مصطلحات ومسميات: كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الآثار، والتاريخ، والعمارة... الخ، ضمن بنىً نظرية، وأطر فكرية، وطرائق تفكير، ومناهج استدلال، وأدوات بحث، أزعم صادقاً أنها جميعاً من إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، وإن دور الحضارة الغربية، اقتصر على الإضافات والتطوير، أما البدايات فهي عربية إسلامية.

## التـــاريخ

وما يعنيني من كل هذه المقدمة هو التاريخ الذي يتم به رصد ورسم مسار الظواهر الحضارية، ومن ثم تفسيرها. والتاريخ علم معروف عند سائر الحضارات، ولكن بنيته،ومفهومه، وتقاناته، تختلف من حضارة إلى أخرى. ومن المتعارف عليه أن ابن خلدون هو من ارتقى بعلم التاريخ إلى وضعه المعاصر. فتعريف التاريخ عند ابن خلدون[٤] هو:

> "فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك ودولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو يحتاج إلى مآخذ كثيرة متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس منها الغائب بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

والمفسرين وأيمة [أئمة] النقل عن المغالط من الحكايات والوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم... ."

وبهذا يتضح لنا من تعريف ابن خلدون أن التاريخ علم له أهداف، وأساليب وطرق استقصاء لمواده، وتقانة كتابة، ومنهجيات دراسة، تقوم على إمعان النظر والتفكر والتأمل، والقياس، وتحكيم العقل. وأما فوائده فهي تعليمية وتثقيفية، وأما فلسفته فهي الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل في أحوال الماضين، وتنوع إنجازاتهم. واللافت للنظر أن تفسير ابن خلدون لم يخرج عن تفسير الجاحظ(٥) (١٥٠-٢٥٥هـ) ولا المسعودي (م. ٣٤٦هـ). فالتاريخ إذن علم ممأسس في الحضارة الإسلامية، وأن مؤرخي الغرب، لم يخرجوا في تفسيرهم للتاريخ عما ذهب إليه ابن خلدون. وأزعم صادقاً أنهم(٦) تبنوا تفسيره، باستثناء مفاهيم فلسفة التاريخ، وبالذات مفهوم التواصل التاريخي، الذي استبدلوه بمفهوم التحقيب(٧) التاريخي، الذي وظفوه بدورهم في تقطيع أوصال الحضارة الإسلامية عند دراستهم لظواهرها، وبالذات الظاهرة المعمارية.

واللافت للنظر أن الوعي الأوروبي بالتاريخ جاء متأخراً في القرن الثامن عشر، ومتداخلاً(٨) مع علم الاجتماع، الأمر الذي انعكس على فلسفة التاريخ، التي عانت بدورها من مخاضٍ طويل وعسير، قبل أن تستقر على مفهوم التحقيب التاريخي. ففي البداية ونتيجة للتداخل مع علم الاجتماع، فقد تبنى المؤرخون(٩) الأوروبيون أفكاراً تقوم على التواصل التاريخي، حيث اعتقدوا أنه يمكن أن يستخلص من مجموع الوقائع التاريخية قانون عام للنمو البشري. وأن التقدم البشري عبارة عن عملية طبيعية يسير فيها كل شيء ويتم طبقاً لقوانين ثابتة.

إن هذا المسار التقريري(١٠) للتاريخ عند الأوروبيون، الذي يقرر أن التطور الاجتماعي يحدث في اتجاه واحد، وأن مراحل تطوره ليست إلا حلقات متصلة، قد زال من علم الاجتماع، وباقي المنظومات المعرفية الغربية الأخرى، واستبدل بفكرة النماذج المختلفة للمجتمعات، التي لكل منها بناؤه الخاص، والمستقلة بعضها عن بعض. وأن اختلافها مرتبط باختلاف العصور التاريخية، ومن هنا جاء مفهوم التحقيب التاريخي في الحضارة الغربية. فقسموا التاريخ إلى: العصر الكلاسيكي ويبدأ باليونان، ثم العصور الوسطى (عصور الظلام)، وعصر النهضة، والثورة الصناعية، والحداثة، وما بعد الحداثة، والتفكيك. ثم قاموا بدراسة حضارات العالم، ومنها الحضارة العربية الإسلامية، طبقاً لمفهوم التحقيب.

واللافت للنظر أن تاريخ الظواهر الحضارية (العلوم والفنون والعمارة) ضمن هذا التحقيب حدد له بدايتين(١١) : الأولى، يونانية وتقع في الفترة من سنة (٦٠٠ق.م – ٢٠٠م). والثانية، أوروبية تبدأ بعصر النهضة حوالي سنة (١٤٥٠م)، وتستمر في الغرب الأوروبي والأمريكي كما قرر فوكاياما(١٢). فالمؤرخون الغربيون أغفلوا في البداية الأولى تاريخ ظواهر الحضارة الفرعونية والحضارات السامية التي أثرت على الحضارة اليونانية. كما أغفلوا في البداية الثانية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وفي نهاية القرن العشرين عادوا إلى أسلوبهم التقريري عندما قرر الأمريكي فوكومايا نهاية التاريخ، وعندما قرر هاتنجتون(١٣) أن صراع الحضارات سينتهي بانتصار الحضارة الرأسمالية.

والأخطر في فلسفة التحقيب التاريخي هو تفسير الظواهر الحضارية ضمن هذا التحقيب، وإسقاط هذه الحقب على ظواهر الحضارات الأخرى كالحضارة العربية الإسلامية. والأكثر خطورة هو تبني المؤرخون(١٤) العرب والمسلمون لفلسفة التحقيب وإسقاطها على تفسير ظواهر الحضارة العربية الإسلامية. فمصطلحات مثل "الإسلام الكلاسيكي"، "والإسلام القروسطي"، وظفت بكل ما تضمنه من تقانات، وأدوات بحث، ومنهجيات، في تفسير ظواهر الحضارة العربية الإسلامية، وبصفة خاصة الظاهرة المعمارية.

فقام المؤرخون العرب(١٥) والمسلمون بتفسير العمارة الإسلامية بنفس الكيفية التي فسرها المؤرخون الغربيون، فقسموها إلى طرز معمارية، كل طراز خاص بحقبة تاريخية، "كالطراز الأموي"، "والطراز المملوكي"...الخ. علمًا أن الوعي التاريخي(١٦) في الوسط المعماري في الحضارة الإسلامية قد بدأ مبكراً جداً في القرن التاسع الميلادي. كما في كتاب الأزرقي (٢٥٠هـ - ٨٦٤م)، أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، الذي حوى تاريخًا تفصيلياً لتخطيط مدينة مكة، وللكعبة المشرفة، وللمسجد الحرام. ولقد وظف فيه الأزرقي جميع تقانات كتابة وتفسير تاريخ العمارة والتخطيط الحضري المتعارف عليه في وقتنا الحاضر، سواء في الوصف والتحليل الشكلي للعمل المعماري، أو في تسجيل الأفكار التي حكمت تخطيط المدينة، وبناء الكعبة المشرفة، وتصميم المسجد الحرام. فكتاب الأزرقي هو كتاب تاريخ شكل وتاريخ أفكار. بل أكثر من هذا فقد تضمن الكتاب توثيقًا دقيقًا لتقانات الحفاظ المعماري التي استعملت في ترميم الكعبة وتوسعة المسجد الحرام. فكتاب الأزرقي يعتبر بحق، وطبقًا لجميع معايير وتقانات كتابة تاريخ العمارة، كتابًا رائدًا وشاملاً لتاريخ العمارة شكلاً وفكرًا. كما شمل سجلاً لترميم الكعبة وللتقانات النظرية والعملية، المستعملة في أعمال الترميم، بل يمكن اعتبار إسهام الأزرقي في الحفاظ المعماري كأول ميثاق للحفاظ المعماري في العالم.

وأما ريادته في كتابة تاريخ العمارة فتتجلى في أنه وضع بنية هذا التاريخ من خلال توظيفه لعناصرها وهي: الوصف الشكلي، والوصف الجمالي للعمل المعماري، وعناصره المعمارية والزخرفية،

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وتحديد تقانات ومواد بنائه، تسجيل وتوثيق الإضافات المعمارية لتميزها عن بعضها البعض وتحديد زمن إضافتها، وتوثيق أسماء من أضافوها من متبرعين وفنيين، وتحديد تاريخ هذه الإضافات، ووصف التقانات المستعملة في تنفيذه، وبيان تكاليفها ومصادر تمويلها. وتسجيل الأفكار التي حكمت تصميمها وتنفيذها.

وأما منطلقاته ومرجعيته في التفسير والتدوين، فهي فلسفة التاريخ الإسلامي، التي تبناها جميع المؤرخون، والجغرافيون، والبلدانيون، ومؤلفوا كتب الخطط، ومؤرخوا أنماط المباني كالمساجد، والمشافي (البيمارستانات)، والمدارس والحمامات وخلاف ذلك. من أنماط المباني، وكتب الحسبة، وأحكام البنيان، التي ارتقت بالعمارة الإسلامية فكرًا وممارسة إلى أرقى عمارة عرفتها الحضارات الإنسانية جميعاً وبدون استثناء، لأنها مورست بمنهجية الأحكام. التي عمد المستشرقون والمؤرخون الغربيون إلى إغفالها، بل إنكارها، وتفسير العمارة الإسلامية طبقاً لفلسفة التاريخ الغربي القائم على التحقيب التاريخي، وتسطيح ممارستها من منهجية الأحكام إلى منهجية التجربة والخطأ. وقلدهم في ذلك أساتذة الجامعات والممارسين من المعماريين العرب والمسلمين، كما أشرت سابقًا.

## الأهداف والمنهجية

الهدف من هذه الدراسة هو التعريف بفلسفة التاريخ الإسلامي، وبيان مفاهيمها، وآليات تفسيرها العقلية والفكرية للظواهر الحضارية، وتحديدًا للظاهرة المعمارية، وبيان مدى ارتباطها وتحكمها نظريًا وفكريًا بمنهجيات ممارستها وإنتاجها العلمي. والدراسة تهدف إلى إثبات أن العمارة الإسلامية مورست في حيز الوعي، وضمن إطار نظري عماده التفكر والتأمل. وذلك في محاولة للتخلص من حضور وتفسير فلسفة التاريخ الغربي للعمارة الإسلامية، الذي استنه المستشرقون وتبناه أتباعهم من العرب والمسلمين، الذي جردوا فيه العمارة الإسلامية من جسمها النظري، وأخضعوها للممارسات العملية التي تتم بمنهجية التجربة والخطأ. ولتحقيق ذلك سأعرض لمفهوم التاريخ في الجاهلية والإسلام. كما جاء في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، وآراء المفكرين والمؤرخين العرب والمسلمين، ثم أبين الصلة والروابط بين فلسفة التاريخ في الجاهلية والإسلام وأوضح مدى تكاملهما. ثم أعرض لفلسفة التاريخ العربي الإسلامي، وأبين مفاهيمها ومدى ارتباطها بمنهجيات تفسير العمارة وممارستها، مع مقابلة ذلك بما هو سائد في الغرب من آليات تفسير مختلفة عن آليات التفسير العربية الإسلامية. وذلك في محاولة للتخلص من فرضهم لفلسفة تاريخهم في تفسير العمارة الإسلامية وإحلال فلسفة تاريخنا ومفاهيمها لتفسير عمارتنا الإسلامية. وهذا يقتضي ابتداء أن نعرف بالبداية الزمنية للتاريخ العربي، وبيان مدى حضوره وتواصله مع التاريخ العربي الإسلامي. وهذا بدوره أيضاً يتطلب معرفة البيئة الجغرافية، وطبيعة الروابط والصلات التاريخية، والعلاقات الاجتماعية، التي كانت سائدة قبل الإسلام. وسأعرض فيما يلي من دراسة وتحليل للبداية الزمنية.

## البداية الزمنية

الهدف من تحديد البداية الزمنية للجنس العربي، هو تتبع التطور الحضاري، وبالذات المعماري للعرب. حيث تباينت آراء المؤرخين العرب في تحديد البداية الزمنية لتواجد الجنس العربي على الأرض العربية. ومرد ذلك هو عدم اتفاق المؤرخين على تحديد من هم العرب، هل هم مجموعة الشعوب السامية، أو من عرفوا باسم العرب صراحة عند رواة الجاهلية والمؤرخين. هذا التباين في تحديد الجنس العربي أسفر في رأيي عن اتجاهين تاريخيين:

أ- **الاتجاه الأول**، تبناه الأستاذ محمد عزة دروزة[١٧] ويعتبر فيه جميع الشعوب "السامية" التي عاشت في الجزيرة العربية عرباً، وبنى رأيه بشكل رئيسي على الوحدة الجغرافية لتلك الشعوب، وكذلك على تشارك الشعوب السامية في "اللغة والأفكار والتقاليد". كما يوضح بأن لفظ السامية هو لفظ مستحدث،[١٨] استحدثه المستشرق النمساوي أيشهورن سنة (١٧٨١م)، بينما يرى الدكتور جواد علي في كتابه، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،[١٩] أن المستشرق النمساوي سلوتشر، هو الذي أطلق التسمية في نفس السنة، نسبة إلى سام بن نوح. ويرى دروزة أن لفظ السامية يفتقر إلى السند التاريخي والعلمي والاثري، ذاع وانتشر بين علماء الغرب، وانتقل إلى مؤرخي العرب وكتبهم بطريقة العدوى الاقتباسية المعتادة، مع أن تسمية الجنس العربي واللغات العربية أصح منها.[٢٠] ويقسم الأستاذ دروزة التاريخ العربي إلى ثلاثة أطوار:[٢١]

١- طور ما قبل العروبة الصريحة، وهو الطور الذي لم تكن فيه اللغة العربية الفصحى مستعملة، واسم العرب لم يكن مطلقاً عليه. ويعتبر الكلدانيون[٢٢] أقدم موجة هاجرت من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها في القرن الخامس والأربعون ق. م.

٢- طور العروبة الصريحة قبل الإسلام، وذلك لأن اللغة العربية الصريحة (الفصحى) غدت لغة شعوب هذا الطور سواء من بقي منهم في جنوب الجزيرة العربية أو من هاجر إلى الشمال.

٣- طور العروبة الصريحة في الإسلام.

ب- **والاتجاه الثاني**، تبناه الدكتور جواد علي، ويعتبر البداية الزمنية الحقيقية للتاريخ العربي ببعد الميلاد: "واللفظ (العرب) بهذا المعنى وبهذا الشكل، مصطلح يرجع إلى ما قبل الإسلام، ولكنه لا يرتقي تاريخياً إلى قبل الميلاد، بل لا يرتقي عن الإسلام إلى عهد جد بعيدة."[٢٣] ويعول الدكتور جواد علي في رأيه على "تصنيفات العلماء الإسلاميين"[٢٤] وبدون تحديد أحد من هؤلاء العلماء حتى تتمكن من الرجوع إليه. ومن واقع اطلاعنا على كثير من كتب التاريخ الإسلامي: كمروج الذهب والإشراف والتنبيه للمسعودي، وتاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي، وتاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر)، والأخبار الطوال للدينوري، وفتوح البلدان للبلاذري، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، والعبر في أخبار من غبر للحافظ الذهبي وغيرها من كتب الأدب، لم نجد أحد من هؤلاء قد حدد بداية التاريخ العربي ببعد الميلاد.

وحقيقة الأمر؛ أن جمهور المؤرخين المسلمين يبدؤون التاريخ العربي بالعرب البائدة:[٢٥] (عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالقة ولقمان وأميم وعبيل)، وقوم عاد هم الجيل الرابع بعد قوم نوح[٢٦] وكانوا خلفاء لقوم نوح. كما ورد في القرآن الكريم:[٢٧] {... وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ...} وبذلك تكون البداية الزمنية للتاريخ العربي قبل الميلاد بمدة طويلة ربما تصل إلى آلاف السنين. وابن خلدون يؤكد لنا عمق البداية الزمنية للتاريخ العربي فيقول:[٢٨]

> "ولما استفحل الملك للعرب في الطبقة الأولى للعمالقة، وفي الثانية للتبابعة وكان ذلك عن كثرتهم، فكانوا منتشرين لذلك العهد باليمن والحجاز ثم بالعراق والشام. فلما تقلص ملكهم وكان بالعراق منهم بقية أقاموا ضاحين من ظل الملك... ."

واللافت للنظر؛ أن الدكتور جواد علي قد أرخ للعرب البائدة، والعاربة، والمستعربة، بإسهاب كما أكد أن العدنانيين هم أصل العرب ولبها والعرب العاربة الأولى".[٢٩] وفي ظل هذا التناقض لا نجد سبباً مقنعاً لتقليص بداية التاريخ العربي لبعد الميلاد، إلا إذا افترضنا أن الأمر ربما التبس على الدكتور جواد علي فاعتبر تحديد العلماء الإسلاميين[٣٠] لتاريخ الشعر العربي ببعد الميلاد أو ٢٠٠ سنة قبل الإسلام. وذلك لأن الدكتور جواد علي عول كثيرًا على عامل اللغة العربية[٣١] (لغة القرآن) ووحدتها كأساس مشترك لوحدة التاريخ العربي. والتناقض لم يقف عند هذا الحد، فهو يطالب بإطلاق لفظ الشعوب العربية على الشعوب السامية، ويطالب باستبدال مصطلح "سامي وسامية بعربي وعربية"، ثم ينفي أن الساميون عربًا، ويقول: "فالسامية وحدة ثقافية، اصطلح عليها اصطلاحًا، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية وتاريخية وبين المفهومين فرق كبير"،[٣٢] ويستمر الدكتور جواد علي في تحديد مفهوم العروبة فيقرر:[٣٣]

> "ونحن [جواد علي] إذا انطلق لفظ (عرب) و[العرب] على سكان البلاد العربية فإنما نطلقها إطلاقاً عاماً على البدو والحضر، لا نفرق بين طائفة من الطائفتين، ولا بين بلد وبلدة نطلقها بمعنى جنسية وقومية وَعَلَمٍ على رسٍ له خصائص وسمات وعلامات وتفكير يربط الحاضرين بالماضيين كما يربط الماضي بالحاضر."

والمفهوم السابق يتناقض مع تحديد بداية استعمال لفظ عرب وبداية التاريخ العربي ببعد الميلاد وقبل الإسلام. فشمولية اللفظ في حد ذاتها تفرض عمقًا تاريخيًا، بالإضافة إلا أن الدكتور جواد علي ذكر نقلاً عن الطبري أن بختنصر ملك الكلدانيين غزا "العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم"،[٣٤] وكذلك أرخ للدولة المعينية[٣٥] في اليمن، بأنها "أقدم الدول العربية التي بلغنا خبرها". وقد عاشت وازدهرت بين (١٣٠٠-٦٣٠ ق. م) هذا بالإضافة إلى تأريخه لطبقات العرب كما ذكرنا سابقًا.

وإذا تابعنا المفهوم السابق للعروبة فإننا نجد أن الدكتور جواد علي لم يذكر دليلاً واحدًا على أن خصائص وسمات وعلامات العرب كجنس بشري كانت معدومة قبل الميلاد، كما أنه لم يذكر أي دليل على أن مثل هذه الخصائص والسمات والعلامات تشكلت بعد الميلاد وقبل الإسلام. ولكن إذا افترضنا جدلاً بأن الدكتور جواد علي قصد بتحديده للبداية الزمنية بأنها بداية التاريخ المشترك للشعوب العربية، بدوًا وحضرًا، في صورة وحدة جغرافية ولغوية واجتماعية وسياسية، وأن ما قبل البداية التي حددها، كان للعرب تاريخ غير مشترك لانعدام الوحدة السياسية، فإننا لا نعتقد بصحة هذا الرأي ولا نأخذ به، لأن الوحدة السياسية ليست عاملاً أساسياً في تحديد تاريخ مشترك لأي أمة من الأمم، بدليل أن الشعوب العربية حالياً تشترك في التاريخ وتفتقر إلى الوحدة السياسية، كما أنه لم يكن للعرب وحدة سياسية (حكومة مركزية تخضع لها كل بلاد العرب) إلا في الإسلام. وحقيقة الأمر أن العرب منذ وجودهم حتى اليوم يشتركون في وحدة جغرافية واجتماعية وهما أساس الوحدة السياسية والتاريخ المشترك.

ولهذا نرى أن تحديد بداية التاريخ العربي ببعد الميلاد أمر يترتب عليه تقليص الدور الحضاري للعرب، وبهذا نرى أن بداية التاريخ، كما حددها ابن خلدون، هي في الطبقة الأولى من العرب "العاربة" (البائدة) وهم "العمالقة" وعاد وثمود. وواقع الأمر أننا لا نجد في رأي ابن خلدون اتجاهًا ثالثًا، بل نراه صورة أكثر وضوحًا للاتجاه الأول. والسبب في اختيار مؤرخ حديث لتمثيل هذا الاتجاه هو لتوضيح التناقض بين الحداثيين العرب من ناحية، ولسهولة عرضهم لوجهة نظرهم، والرجوع إلى مؤلفاتهم، التي ربما تكون أكثر إقناعاً للقارئ المعاصر من ناحية أخرى. وللتدليل على أنه ليس هناك تفاوتًا بين اتجاه محمد عزة دروزة واتجاه ابن خلدون، هو أنه لا يوجد تفاوتًا زمنيًا بين "الساميين" والعرب البائدة، لأن كلاهما من نسل سام بن نوح. وحتى نبسط ونوضح الموضوع ولندلل على صحة رأينا سنعرض لقصة الطوفان.

## الطوفان

الطوفان كان عقابًا لقوم نوح لما كفروا برسالته وعصوا الله سبحانه وتعالى، فأغرقوا جميعًا إلا من كان مع نوح من ذريته بالسفينة لقوله تعالى:[٣٦] {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}. ومن المتعارف عليه بين المؤرخين أن لفظ "الساميين" يطلق على مجموعة الشعوب [الأقوام] التي تنحدر من نسل سام بن نوح، والعرب أيضاً ينحدرون من نسل سام بن نوح، ومصنفون مع مجموعة الشعوب السامية، ويشكلون الجيل الرابع بعد سام بن نوح. هنا وقبل أن نخوض في احتمالات حدوث الطوفان، علينا أن ننبه أنه أينما ورد

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لفظ الساميين فيما يلي من عرض وتحليل لا يشمل العرب. وهذا ليس إقرارًا بحقيقة تاريخية، وإنما لتسيير وتسهيل عرضنا لتزامن الساميين والعرب، ولإثبات تطابق اتجاه الأستاذ دروزة واتجاه ابن خلدون زمنيًا.

هناك احتمالين لحدوث الطوفان: الأول، أن يكون الطوفان قد عم الكرة الأرضية، في هذا الاحتمال يكون الله عز وجل قد أهلك جميع الجنس البشري، باستثناء ذرية نوح كما ورد في القرآن الكريم. وبهذا يكون هناك تزامن في وجود الساميين والعرب على أرض الجزيرة العربية لأن رحلة نوح(٣٧) ابتدأت من المكان الذي أقيمت فيه الكوفة وانتهت قرب الموصل، أي أن الرحلة تمت على أرض عربية. والاحتمال الثاني، هو أن يكون الطوفان جزئيًا، ويكون قد تم فقط في المنطقة الواقعة بين الكوفة والموصل. في هذا الاحتمال تكون الأقوام خارج منطقة الطوفان لا هم بساميين ولا هم بعرب لأن الساميين والعرب لم يوجدوا إلا بعد الطوفان، ولا نجد في هذا الاحتمال ما يغير من تزامن وجود الساميين والعرب.

فإذا أخذنا بالاحتمال الأول وهو عموم الطوفان وتزامن الساميين والعرب، فباستطاعتنا التقرير أنه: إن كان الساميون عربًا فإن الإنجاز الحضاري لجميع الأقوام التي عاشت على الأرض العربية بعد الطوفان هو إنجاز عربي، نشأ ونما وتشكل وتطور بعقول وأيدٍ عربية. وإن لم يكن الساميون عرباً فباستطاعتنا التقرير بأن العرب شاركوا في الإنجاز الحضاري لأمم ما بعد الطوفان، التي استقرت على الأرض العربية، وتمثل هذه المشاركة فيما تركوه من آثار. كما أننا لا نجد حرجًا في أن نكون الورثة الشرعيين لإنجاز الساميين الحضاري وبصفة خاصة المعماري، وذلك لتواجدهم على الأرض العربية، ولانتمائهم وتفاعلهم مع البيئة بأساليب وطرق لم تختلف كثيراً عن الأساليب والطرق التي تفاعل العرب فيها مع نفس البيئة، سواء أثناء معاصرتهم للساميين، أو بعد أن انفردوا بالسيطرة على الجزيرة العربية والوطن العربي فيما بعد.

ومع أننا نرجح هذا الاحتمال مستندين إلى قوله تعالى:(٣٨)

{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ}

فالتوصية بحمل الذكر والأنثى من الحيوانات، هو دليل على حماية الحيوانات من الانقراض، فلو كان الطوفان جزئياً، لما كلف نوح بحمل الذكر والأنثى من الحيوانات، لأنها ليست معرضة للانقراض. ولكنا لا نستطيع الجزم بشمولية الطوفان، لوجود آيات التخصيص لقوم نوح فقط، كقوله تعالى(٣٩): {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} فربما يكون قد آمن أقوام غير قوم نوح. ومثل هذا التخصيص ورد أيضاً في قوله تعالى(٤٠): {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً}. والاحتمال هنا أن قوم نوح ربما كانوا آية للأقوام التي عاصرتهم كما يمكن أن يكونوا آية للأقوام التي أعقبتهم.

وحتى نغطي الموضوع من جميع جوانبه، سنعرض للاحتمال الثاني، وهو طغيان الطوفان على المنطقة التي كان يسكنها قوم نوح كما حددناها سابقًا. مثل هذا الاحتمال ربما يعني وجود أقوام تسكن الأرض العربية أقدم من الساميين والعرب وسابقة في وجودها على حدوث الطوفان. فإذا سلمنا جدلاً بوجود هذه الأقوام بعد الطوفان فإننا لا نعلم لها جنسًا، ومع أننا لا ندعي عروبتها إلا أننا أيضًا لا نقر انتمائها لجنس آخر ربما كان له وجود حضاري قبل حدوث الطوفان، وذلك لأن علم الأجناس البشرية لا يتجاوز في تصنيفاته سلالة نوح ومن انحدر منها. وحيث أن هذه الأقوام في حالة وجودها قد عاشت على الأرض العربية وانتمت إلى البيئة العربية وتفاعلت معها، فإننا لا نرى حرجاً في أن ندعي إرث إنجازهم الحضاري.

استنادًا إلى ما سبق تكون الإنجازات الحضارية والمعمارية منها بصفة خاصة، لجميع الأقوام التي عاشت على الأرض العربية، سواء قبل الطوفان أو بعده، إنجازًا شارك فيه العرب، فالعرب إذن ابتدعوا أو شاركوا في خلق قواعد وتقانات الفكر، والعمل المعماريين، وحيث أن قواعد الفكر وتقانات العمل، تخضع للعوامل البيئية الجغرافية منها والاجتماعية، فسنحاول فيما يلي من عرض وتحليل التعرف على السمات الطبيعية للجزيرة العربية.

## الجزيرة العربية

تقع الجزيرة العربية بين خطي عرض ٣٧° شمالاً و ١٢° جنوبًا، يحدها(٤١) من الشمال البحر المتوسط وديار بكر، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الشرق الخليج العربي ونهر دجلة، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج السويس. وتضم الجزيرة العربية ثلاثة أقاليم مناخية(٤٢): إقليم حوض البحر المتوسط في شمال الجزيرة العربية ويمتاز هذا الإقليم بصيف حار وشتاء معتدل، والإقليم السهلي في شمال شرق الجزيرة (العراق) ووسط سوريا وجنوب الأردن واليمن، ويمتاز هذا الإقليم بصيف حار وشتاء قارس يكثر سقوط الثلوج فيه، والإقليم الصحراوي ويشمل باقي الجزيرة العربية ويمتاز بشدة الحرارة صيفاً والبرد القارس شتاء مع تكاثر الرطوبة على السواحل الغربية والشرقية صيفاً كما تكثر فيه العواصف الرملية.

والجزيرة العربية فقيرة جدًا بمواردها المائية إذ تتراوح كمية الأمطار السنوية في الإقليم الأول بين (٥٠٠-١٠٠٠) ملم، وفي الإقليم الثاني (١٠٠- ٢٠٠) ملم، وفي الإقليم الثالث أقل من ١٠٠ ملم. وتنحصر الرقعة الزراعية في الإقليمين الأول والثاني مع بعض الاستثناءات في الإقليم الثالث، وتعتبر المساحة الزراعية صغيرة جدًا إذا قورنت بالمساحة الكلية للجزيرة العربية. كما تكثر الهضاب على ساحلها وكذلك في الشمال وفي غرب الجنوب، أما باقي أرض الجزيرة فهي منبسطة.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

والجزيرة العربية غنية ببعض الموارد الطبيعية، كالنفط والمعادن، ومحدودة الثروة الحيوانية، وتندر فيها الغابات. ونظرًا لطبيعة الجزيرة العربية نرى أن الكثافة السكانية تركزت في الشمال والجنوب مع قلة في الوسط (نجد والحجاز). وقد كانت لطبيعة وجغرافيا المناطق المأهولة تأثير كبير على نوعية المسكن وطريقة البناء، ففي الشمال والجنوب حيث ثبوت المصادر الطبيعية كالمياه والزراعة أسفرت عن وجود استقرار بشري أثر على طبيعة وشكل المسكن. أما في الوسط حيث تكاد تنعدم المياه والثروة الزراعية فلا نجد استقرارًا بشريًا بل ترحالاً دائمًا، هذا الترحال ارتبط بأنواع جديدة من المساكن لا تتصف بالديمومة والثبات كمساكن الشمال والجنوب، هذا مع وجود بعض الاستثناءات في بعض التجمعات السكنية المستقرة، كمكة، والمدينة، والطائف.

فيما سبق عرضنا للوحدة الجغرافية لسكان الجزيرة العربية، وسنحاول فيما يلي أن نعرض للروابط التاريخية ولأسباب التواصل التاريخي والاجتماعي للجنس البشري وتجمعاته الثلاث في الجزيرة العربية، وذلك بعرض وتحليل فلسفة التاريخ العربي والعربي الإسلامي.

## الروابط والصلات التاريخية

بينا فيما سبق من دراسة بداية تواجد الجنس العربي على الأرض العربية، كما بينا التوزيع الجغرافي للتجمعات البشرية العربية، ودحضنا محاولة تحديد بداية التاريخ العربي ببعد الميلاد وعلى وجه التحديد بـ ٢٠٠ سنة قبل الإسلام. وذلك بقصر لفظ عرب على التجمعات البشرية في وسط الجزيرة العربية (الحجاز ونجد) وإهمال تاريخ عرب الشمال والجنوب، والهدف من هذا التشويه التاريخي هو عزل الإنجازات الحضارية لعرب الشمال والجنوب عن عرب الوسط. ثم إهمال تاريخ الجنوب (اليمن) شكلاً وموضوعًا، وإنكار وجود أي روابط تاريخية أو تواصل حضاري بين عرب الوسط ومن سبقهم من الأجداد، كعاد، وثمود، والعمالقة، وكذلك بين عرب الشمال ومن سبقهم من الأجداد أو من هم بمرتبة الأجداد من الأقوام "السامية" كالآراميين، والأموريين، والكنعانيين، والكلدانيين، والآشوريين، والبابليين، ثم وصم حضارة الشمال بالتبعية (بعد قطع جذورها التاريخية) للحضارات اليونانية والبيزنطية والساسانية.

رسم هذه الاستراتيجية وخطط لها ونفذها المستشرقون، ودافع عنها وتبناها المقلدون والمستغربون من مفكري ومؤرخي العرب. سنحاول فيما يلي من دراسة وتحليل أن نعرض للتواصل الحضاري في التاريخ العربي من خلال عرضنا للعلاقات التجارية، والاجتماعية، والسياسية، للتجمعات البشرية العربية في جزيرة العرب، للتدليل على وجود تاريخ مشترك، وحضارة عربية مستقلة ومؤثرة، ذات فكر معماري، نشأ وتطور في محيط عربي، جغرافي وبشري.

كما بينا أن المؤرخين العرب قد قسموا التاريخ العربي قبل الإسلام إلى ثلاثة طبقات: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة، وواقع الحال أن تاريخ وأخبار العرب البائدة لم تبد معهم، بل بقيت دروساً وعبراً لمن بعدهم، وأرخ لها في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، فتجد في شعر زهير بن أبي سلمة[٤٣] ذكراً لعاد وجرهم، كما نجد في شعر النابغة الذبياني[٤٤] ذكرًا لعاد، وطسم، وجديس. كما يروي لنا النابغة الذبياني قصة شائعة عن زرقاء اليمامة.[٤٥] وكذلك نجد ذكراً لعاد في شعر متمم بن نويرة،[٤٦] والأعشى،[٤٧] وسويد بن أبي كاهل.[٤٨] وقد كان عرب الجاهلية يضربون المثل بقوم عاد،[٤٩] فإذا عثروا على أثر قديم غير معروف لديهم كانوا ينسبونه لعاد، كما في قول الشاعر[٥٠]:

وبالجبلين معقـل صعدنا إليه بسمر الصعاد
ملكناه في أوليات الزمان من بعد نوح ومن قبل عاد

وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست[٥١] مؤلفات لهشام بن السائب الكلبي عن: عاد، وطسم، وجديس. كما ذكر المسعودي في مروج الذهب،[٥٢] وجواد علي[٥٣] كثيرًا من الأخبار المتداولة بين عرب الجاهلية عن العرب البائدة. وسواء صحت هذه الأخبار أم لم تصح (لأننا في هذه الدراسة معنيون بالفكرة أولاً ثم بالسند التاريخي ثانيًا)، فإننا نجد أن عرب الجاهلية كانوا مدركين وواعين لتاريخ أجدادهم، وبالتالي كان لا بد لهذا الوعي من أن ينعكس على تجربتهم الحضارية.

ويتضح إدراك عرب الجاهلية لتاريخ أجدادهم في علم الأنساب، الذي كان يجيده العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وقد ربط نسابة العرب، عرب الجاهلية بأجدادهم من العرب البائدة والعاربة[٥٤] والمستعربة. وتفاخر كلا الفريقين بإنجازاتهم الحضارية كما يتبين في شعر دعبل الخزاعي القحطاني:[٥٥]

هموا اكتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتبينا

ويتبين لنا اهتمام العرب بالأنساب ومعرفتهم بالتاريخ في رد الشاعر دعبل الخزاعي القحطاني[٥٦] على الكميث الشاعر النزاري العدناني:

فـإن يـك آل إسـرائيل مـنكم وكنـتم بالأعـاجم فاخرينـا
فـلا تـنس الخنـازير اللـواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بإيلـة والخلـيج لهـا رسـوم وآثـار قـدمن ومـا محينـا
لقـد علمـت نـزار أن قـومي إلـى نصـر النبـوة فاخرينـا

وقد أكد حكيم العرب وخطيبها قُس بن ساعدة الإيادي[٥٧] هذا الاهتمام بتاريخ الأجداد وبإنجازاتهم الحضارية، أو بكلام آخر أكد لنا الروابط الصلات التاريخية في المجتمع العربي بخطبته الشهيرة:

"أيها الناس اسمعوا وعوا... إن في السماء لخبرًا
وإن في الأرض لعبرا ... يا معشر أياد ابن ثمود
وعاد، وابن الآباء والأجداد ... ".

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وكذلك في قصيدته المشهورة:

| | |
|---|---|
| فــي الذاهبيـــــن الأولـــين | مــن القــرون لنـــا بصــائر |
| لمـــــا رأيـــــت مــــــواردًا | للمـوت لـيس لهـا مصــادر |
| ورأيـــت قـــومي نحـــوها | تمضـي الأكـابر والأصــاغر |
| لا يرجــــــع الماضــــي ولا | يبقـى مـن البــاقين غابــر |
| أيقنـــت أنـــي لا محـــالة | حيـث صـار القـوم صـائر |

مما سبق يتضح لنا أن مفهومًا للتاريخ كان قائمًا عند العرب قبل الإسلام، أو ما اصطلح على تسميته بالجاهلية، يعتمد على الأخبار والرواية وعلم الأنساب. وثق بعض هذه الأخبار في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، وتم جمع هذه الأخبار في كتب التاريخ الإسلامي، فشكلت تاريخاً مشتركاً للجنس العربي قبل الإسلام، صنف في ثلاثة طبقات كما بينت. واللافت للنظر؛ أن هذا التاريخ المشترك حوى الكثير من المعلومات المعمارية، كوصف المدن، وتاريخها، ووصف المباني، وعناصرها المعمارية، وتقانة بنائها، وتاريخها، وملاكها. ونذكر منها كتاب الأصنام[٥٨] لهشام بن السائب الكلبي، وكتاب الإكليل[٥٩] للهمذاني، وغيرها من الكتب التي أرخت لعمارة العرب قبل الإسلام، معتمدة في جمع مادتها التاريخية على ما ورد في الشعر الجاهلي.

على أن أرق وأهم ما تضمن مفهوم التاريخ عند العرب قبل الإسلام، أو ما اصطلح على تسميته في الجاهلية، هو مفاهيم فلسفة التاريخ التي عبر عنها حكيم العرب قس بن ساعدة الأيادي في خطبته وقصيدته المشار إليهما سابقًا في هذه الدراسة، وهي: الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل. وهذه المفاهيم هي نفسها ركائز فلسفة التاريخ الإسلامي التي أرساها القرآن الكريم، والمؤرخون المسلمون، وأضافوا إليها مفهوم التنوع داخل الوحدة، وسأعرض لها تفصيلاً، ولكن بعد أن أعرض للتواصل الاجتماعي في الجزيرة العربية ليكتمل مفهوم وحدة التاريخ العربي وقدم بدايته الزمنية.

## التواصل الاجتماعي

نستطيع تبين التواصل الاجتماعي في الجزيرة العربية من التحالفات والأحداث السياسية والحربية التي كانت تعقد وتحدث بين سكانها. كما نستطيع تبين التواصل الاجتماعي من العلاقات التجارية بين شمال ووسط وجنوب الجزيرة العربية، والشعر الجاهلي أدق وأصدق المصادر للتواصل الاجتماعي بين سكان الجزيرة العربية.

أما التحالفات فأقدمها ما ذكر الطبري[٦٠] وابن خلدون[٦١] عن اتحاد العرب لمقاومة غزو الكلدانيين لبلادهم فيقول الأخير: "وتسامع العرب بأقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه [بختنصر]". ومن أبرز التحالفات لجوء النعمان[٦٢] ملك المناذرة إلى بني شيبان لحمايته من الفرس في ذي قار. ويتبين لنا التواصل الاجتماعي بصورة أكثر وضوحاً في زيارة وفد قريش بزعامة عبد المطلب، جد النبي صلى الله عليه وسلم، لليمن لتهنئة ملكها معد يكرب بتوليه للعرش حيث أقرت قريش بلسان رئيس وفدها بسيادة اليمن على العرب فقال[٦٣]:

"إن الله عز وجل قد أحلك – أيها الملك –
محلاً رفيعاً ... فأنت أبيت اللعن: رأس العرب
وربيعها الذي يخصب به، وأنت – أيها الملك
– ذروة العرب الذي له ننقاد، وعمودها الذي
عليه العماد ... ".

وقد وثق الدكتور جواد علي في كتابه[٦٤] جميع الأحلاف والعهود والمواثيق التي عقدت بين العرب قبل الإسلام، وجميعها تؤكد لنا أن التواصل الاجتماعي كان حقيقة قائمة قبل الإسلام، بل كان تمهيداً للوحدة السياسية في الإسلام.

ومن الأحداث[٦٥] الشهيرة التي توضح لنا التواصل الاجتماعي عن طريق الحروب والصراع الاجتماعي بين العرب في الجاهلية: حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب وحلفائهما، وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان وحلفائهما، وحرب الفجار بين قريش وهوازن وحلفائهما. كما نرى التواصل الاجتماعي في توعد عنترة بين شداد العبسي[٦٦] للنعمان بن المنذر ملك الحيرة. وكذلك في قصة عمرو بن كلثوم [٦٧] سيد بني تغلب وعمرو بن هند ملك الحيرة، وكتب التاريخ تزخر بالأحداث التي توضح الصراع الاجتماعي وما يعقبه من صلح وتواصل اجتماعي بين السكان العرب في الجزيرة العربية.

والعلاقات التجارية بين الشمال والوسط والجنوب دليلاً آخر على أسباب التواصل الاجتماعي بين العرب، فكان التجار يجتمعون في المراكز التجارية، يتبادلون إنتاجهم الزراعي والصناعي من تمر وأسلحة[٦٨] وثياب، واهم المراكز التجارية:[٦٩] دومة الجندل، وغزة، وبصرى، وتدمر، والبتراء، في الشمال، ومكة في الوسط، وصنعاء وحضرموت وعمان في الجنوب. وكانت تعقد في هذه المراكز أسواقاً موسمية:[٧٠] أشهرها سوق دومة الجندل، وسوق عكاظ، وسوق صنعاء.

وأصدق تصوير للتواصل الاجتماعي عن طريق التجارة هو ما ورد في قوله تعالى[٧١]: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ... } حيث كان تجار قريش يسيرون قوافلهم التجارية إلى اليمن والشام في فصلي الشتاء والصيف، يبادلون إنتاج اليمن بإنتاج الشام والعكس بالعكس، من هنا نستطيع الجزم بأن عرب الشمال وعرب الجنوب كانوا على معرفة متبادلة بأحوالهم المعيشية وإنجازاتهم الحضارية، حيث أن معظم هذه الإنجازات كانت سلعاً متبادلة بينهم، ربما كان منها ما يدخل في صناعة البناء. أما صناعة البناء في حد ذاتها أو الظاهرة المعمارية فلا يخالجنا أدنى شك في أنها انتقلت وصفاً وتقانة من اليمن إلى الشام ومن الشام إلى اليمن على أيدي التجار عند اجتماعهم في المراكز التجارية والأسواق الموسمية.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وكان لبعض الأسواق الموسمية، كسوق عكاظ مكانة فكرية وأدبية بالإضافة إلى مكانته التجارية، فقس بن ساعدة الحكيم والمفكر العربي الجاهلي القى خطبته الشهيرة، التي أشير إليها سابقاً في هذه الدراسة، في سوق عكاظ. كما كان ينصب للنابغة الذبياني(٧٢) "قبة من آدم" يجلس فيها ليحكم بين الشعراء أو المشاركين في السوق. وقد أسفرت الحركة التجارية عن ظهور أحلاف كحلف الفضول،(٧٣) الذي يمكن اعتباره أول ميثاق لحقوق الإنسان في العالم، شكل ركيزة من ركائز الفكر السياسي والاجتماعي العربي، ونص على حماية الغرباء في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، مما أسهم في تسهيل الحركة التجارية داخل الجزيرة العربية، التي أدت بدورها إلى تنشيط التواصل الاجتماعي بين السكان.

والشعر الجاهلي من أهم المصادر التي تسجل التواصل الاجتماعي بين سكان الجزيرة العربية، فعلى سبيل المثال نجد في شعر عمرو بن كلثوم ما يؤكد معرفته بالمراكز الحضارية في شمال الجزيرة العربية (الشام) كدمشق وبعلبك مترددًا عليهما:

وكأس قد شربنا ببعلبك     وآخر في دمشق وقنصرينا(٧٤)

وكذلك نجد في شعر النابغة الذبياني ما يؤكد معرفته بدمشق وصيدا وتردده على هذه البلدان:

لئن كان للقبرين قبر بجلق     وقبرا بصيدا الذي عند حارب(٧٥)

وفي موضع آخر يوضح النابغة الذبياني معرفته بالجولان وحوران:

بكى حارث الجولان من فقد ربه     وحوران منه موحش متضائل(٧٦)

كما نجد في شعر الأعشى ذكر لمدن في اليمن كشبام ومدن في العراق كالمدائن:

قد نال أهل شبام فضل سؤددة إلى المدائن خاض الموت وادرعا(٧٧)

والشعر الجاهلي زاخر بالمعلومات الجغرافية(٧٨) عن الجزيرة العربية، التي بدورها تؤكد أسباب التواصل الاجتماعي في الجزيرة، على أن خصائص الشعر الجاهلي الأخرى كالمدح والهجاء والفخر، تعطينا صورة أكثر وضوحاً للتواصل الاجتماعي بين العرب في الجزيرة العربية. فأكثر الشعراء الجاهليون من مدح ملوك الشام (الغساسنة)، والعراق (المناذرة) وعمان وحضرموت، فنجد في شعر الأعشى(٧٩) ما يفيد أنه كان على اتصال بجميع ملوك العرب في عصره:

وصحبنا من آل جفنة أملا     كا كراما بالشام ذات الرفيف
وبني المنذر الأشاهب بالحيرة     يمشون، غدوة، كالسيوف
وجلنداء في عمان مقيماً     ثم قيساً في حضرموت المنيف

كما نجد ذكرًا لملوك المناذرة والغساسنة في شعر زهير(٨٠) وحسان(٨١) والنابغة(٨٢)، والأخير كان أصدق تعبيرًا لمفهوم التواصل الاجتماعي، فيصور لنا ضيق الجزيرة العربية إذا استمر غضب النعمان عليه:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني     وتلك التي تصتك منها المسامع
فإنك كالليل الذي هو مدركي     وإن خلت أن المنتآى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة     تمد بها أيد إليك نوازع

وأخيرًا؛ نجد أن أسباب التواصل الاجتماعي من تحالفات وأحداث وعلاقات تجارية وزيارات ومدح وذم وفخر، أكبر من أن تتسع لها هذه الدراسة. ونعتمد فيما أوردنا من أدلة ووقائع، سردت على سبيل المثال لا الحصر، أن التواصل الاجتماعي شأنه شأن فلسفة التاريخ يؤكد لنا تواصل ووحدة التاريخ العربي والحضارة العربية، وبناء على ذلك فإننا نرفض تقليص التاريخ العربي والحضارة العربية من قبل المستشرقين وأتباعهم في الوطن العربي، وقصرهما على وسط الجزيرة العربية (الحجاز ونجد)، ونرى أن تاريخ الشمال والوسط والجنوب تاريخًا واحدًا شاملاً لا يتجزأ، وأن الإنجازات الحضارية للشمال والجنوب، وبالذات الظاهرة الفنية والمعمارية قديمة قدم التاريخ العربي نفسه، ابتدأت ونشأت ونمت وتطورت في بيئة عربية اجتماعيًا وجغرافيًا وبعيدًا عن تأثير الحضارات المجاورة كالساسانية والبيزنطية. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو وحدة فلسفة التاريخ العربي والعربي الإسلامي التي ستكون موضوعنا التالي.

## فلسفة التاريخ الإسلامي

إن فلسفة التاريخ في رأيي هي رؤية أو تصور الحضارة لكيانها وبنيتها ولمحيطها الكوني والعالمي. وبتعبير آخر هي خلاصة تفسيرها لظواهرها وتفسيرها للكون وللعالم. وفلسفة التاريخ هي التي تحدد علاقة الحضارة المفرزة لها أو المنتجة لها، والمعبرة عنها بالحضارات الأخرى. فهي إذن: مجمل الأطر النظرية، والثقافية، والفكرية، التي تحكم تشكيل ظواهر الحضارة، وهي التي تعبر بها الحضارات الراقية عن بنيتها وظواهرها. وفلسفة التاريخ هي التي توضح منهجيات تفسير الظواهر الحضارية وتحدد منطلقاتها، فتحدد بذلك أطرها الفكرية، وتكسبها خصوصية في الطرح والشكل والمضمون، تميزها عن مثيلاتها من الظواهر والحضارات الأخرى. وفلسفة التاريخ هي التي تحدد وعي منتسبيها، وتبين مدى التزامهم الحضاري من خلال تلقائية ردود فعلهم على ما يمكن أن يقلق وعيهم من أحداث وظواهر معرفية.

تأسيسًا على ما سبق؛ فإن ردود أفعالنا على تفسير ظواهر حضارتنا العربية الإسلامية يجب أن تكون نابعة من حضارتنا وفلسفة تاريخها، لكن الواقع غير ذلك، فردود أفعالنا على تفسير الظاهرة المعمارية كان استجابة مطلقة لفلسفة التحقيب التاريخي للحضارة الغربية، التي قسمت عمارتنا إلى حقب تاريخية، وجعلت لكل حقبة طرازًا خاصًا بها، له خصائصه الشكلية والجمالية، فأنكرت أصالتها ووصمتها بالتبعية للحضارتين البيزنطية والساسانية.

وأخطر من هذا هو أن تحقيب وتفسير الحضارة الغربية للعمارة الإسلامية، جردها من أطرها النظرية، ونفى عقلانية ممارستها، المتمثلة في أرقى منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام، واختصرها في منهجيتي التكرار والاقتباس. وذلك كله يعود إلى وعينا

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المستلب، وتهميشنا لذاتنا، وتغييبنا لإنجازاتنا العلمية. وسأعرض فيما يلي من دراسة وتحليل إلى مفاهيم فلسفة التاريخ الإسلامي ومضامينها المنهجية، التي يجب أن توظف في تفسير ظواهر الحضارة العربية الإسلامية، وعلى وجه التحديد بالظاهرة المعمارية. وتتضمن هذه الفلسفة أربعة مفاهيم وهي: الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. وكل مفهوم من هذه المفاهيم يتضمن منهجيته الخاصة في تفسير الظواهر الحضارية، وسأقصر عرضي هنا على تفسير الظاهرة المعمارية وممارستها، مبتدأً بمفهوم الدروس والعبر.

**الدروس والعبر**

هذا المفهوم وكما يتضح من ألفاظه ومعانيها، ومن تجربتنا التاريخية، ومعايشتنا الإنسانية الحسية، مفهوم فطري تربوي تدريبي وتعليمي له دور معرفي تراكمي، أثرى التجربة الإنسانية وأسهم في ترشيدها. وهو كوسيلة أو كمنهج تربوي ما زال له حضوره الفاعل. أما تاريخيا فقد وظفه القرآن الكريم في تفسير ما آلت إليه الأقوام التي سبقت الإسلام، وما حل بحضاراتها كما في العقاب الجزئي لأل فرعون(٨٣)، والإبادة الكلية لقوم نوح(٨٤) وقوم هود(٨٥) (عاد)، وقوم صالح(٨٦) (ثمود) وقوم لوط(٨٧) وقوم شعيب(٨٨). ولقد ذكر القرآن الكريم هذه الدروس تارة تلميحا وتارة تصريحاً كما في سورة العنكبوت(٨٩):

{فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ* مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

ويؤخذ مفهوم الدروس والعبر صورة أكثر وضوحاً وشمولاً في قوله تعالى(٩٠): {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ}. وأيضًا في قوله تعالى(٩١): {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}.

وما يعنيني من هذا المفهوم ليس الحدث التاريخي بل حضور مفهوم الدروس والعبر في تفسيره، وما يتضمن الحدث التاريخي من إنجازات حضارية، وبالذات عمرانية، فإرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، إنجاز حضاري ضخم يعجز الوصف عنه، ولا يحيط الخيال بأبعاده. ولقد تم هذا الإنجاز بأيد عربية، وعلى أرض عربية، فكانت دروسًا وجب الاستفادة منها، وعبراً وجب الاتعاظ بها. فمفهوم الدروس والعبر استعمل تاريخيًا في تفسير تاريخ الأمم السابقة للإسلام، كما استعمل كمنهج استدلالي تربوي للاتعاظ والاعتبار.

أما معماريًا فإننا إذا قارنا بين عظمة المنجزات المعمارية للحضارة الفرعونية، الماثلة إلى عصرنا الحاضر، بعمارة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها بالبلاد، لتبين لنا أن الأولى على عظمتها، لا ترق إلى عمارة الثانية، لأن وصف الله عز وجل للثانية بعبارة "لم يخلق مثلها في البلاد" يتضمن تفردها فخامة، وتميزها جمالاً. فالخيال الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون(٩٢) العرب في وصف مدينة إرم ذات العماد وعمارتها على سبيل المثال، كانت وما زالت تؤسس دروساً في نظريات التخطيط العمراني، والتصميم المعماري، والعمران الشجري، والجمال، والفخامة، وتقانة البناء. واللافت للنظر؛ أن كل ما نسمع عنه من فخامة في بعض قصور أغنياء هذا العصر لا يرقى إلى وصف قصور إرم ذات العماد، كما أن أرقى مدن العالم في عصرنا الحاضر، لا ترق إلى وصف مدينة إرم ذات العماد، ولا إلى جمال حدائقها، وروعة أنهارها، وتنسيق أشجارها ... الخ.

وبالجملة؛ فإن مفهوم الدروس والعبر التاريخي إضافة إلى دعوته للتفكر والتأمل، وإطلاقه للخيال، فهو منهجيًا يتضمن منهجية التجربة والخطأ في التصميم المعماري. فالدروس نتعلمها من أخطائنا، والعبر هو عدم تكرارها، فنصل إلى نموذج يتم تكراره، وهو ما يعرف بمنهجية التكرار. إذن، منهجيًا يوجد جانبان لمفهوم الدروس والعبر: إيجابي ويتمثل في التفكر والتأمل وإطلاق الخيال، وسلبي يتمثل في التكرار, والعمارة العربية الإسلامية تتبنى الإيجابي منهما كما سأوضح في مفهوم التواصل التاريخي فيما يلي من دراسة وتحليل.

**التواصل التاريخي**

إن مفهوم التواصل التاريخي يرتبط بمفهوم الدروس والعبر، كما يتضح في القرآن الكريم، وفي أعمال الجاحظ، وأبي العلاء، وابن خلدون. ففي سورة الأعراف يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا قوم هود (عاد):(٩٣) "... {وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. وفي نفس السورة يقول الله تعالى مخاطبًا قوم صالح (ثمود):(٩٤) {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ... } ويستمر مفهوم التواصل التاريخي في نفس السورة بذكر الأقوام التي تعاقبت بعد ثمود إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ...."(٩٥) ويتضح لنا التكامل بين مفهوم الدروس والعبر ومفهوم التواصل التاريخي في قوله تعالى:(٩٦) {سَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ}.

وبهذا يتضح لنا؛ أن التواصل الحضاري، والمعماري منه بصفة خاصة، كان نتيجة حتمية للتواصل التاريخي، استوعبته وحفظته الأجيال المتلاحقة، كما بينه الجاحظ:(٩٧)

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

"ثم اعلم رحمك الله أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقه قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم، مما يعينهم ويحييهم ويمسك بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، والتوازر عليهم كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضجرهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى، معان متظمنة، وأسباب متصلة، وحبال منعقدة، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة [من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة][٩٨] من يكون بعدنا إلى أخبارنا... ثم تعبد الإنسان بالتفكير فيها [الحاجة] النظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل ما بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، وبالتنقيب والتنقير والتثبت والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجتهم إليها وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها [و] البيان منها."

إن هذا التزاوج بين التواصل التاريخي والحضاري أكده ووضحه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران:[٩٩] "والزمن كله على سجية واحدة، فالذي شاهده معد بن عدنان كالذي شاهده نضاضة ولد آدم". كما وضحه ابن خلدون في المقدمة وذلك بملاحظة أوجه التشابه والتباين في الأمة الواحدة أو بين الأمم المختلفة فقال: "إن الناس جميعهم متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشد بينهم وجوه الشبة.[١٠٠] وبهذا يتضح لنا أن أوجه التشابه بين الحضارات المختلفة ناتج عن تجانس بعض الرغبات الإنسانية عند البشر مهما اختلفت البيئة، وأن التباين بين الحضارات هو السمات المميزة لحضارة دون أخرى، وهذه السمات هي التي توضح مكانة الحضارات في التاريخ من عظمة أو ضعة، أصالة أو تكلف. فمفهوم التواصل التاريخي في الحضارة الإسلامية، كما فسره القرآن الكريم، يشمل جانبين: أولهما، أن كل حضارة متواصلة في ذاتها وتشكل حقبة في حضورها الزمني وفاعليتها التاريخية. وثانيهما، أن ثمة تواصل بين الحضارات مع ما تشكله من حقب تاريخية مستقلة على الرغم من تباعدها الزمني وتباينها الفكري واختلاف منتجها الحضاري.

واستنادًا إلى ما سبق فإن الحضارة الإسلامية هي آخر الحقبات التاريخية في التاريخ العربي، وحضارياً هي وحدة متماسكة ومتواصلة، في ذاتها وكينونتها، مهما امتد بها الزمان، لثبوت مكونها الرئيسي، وهو الدين الإسلامي، وما أفرزه من قواعد وأحكام ومعايير، تحكم منظوماتها الفكرية، ومنجزاتها الحضارية. وفي ذات الوقت هي امتداد لما سبقها من حضارات، متواصلة معها كما رأينا في استخلافها للحضارات السابقة لها، وحلولها بمساكن من سبقها من الحضارات. فمنتوجها المعماري متواصلٌ بحكم وحدة الفكر، ومتنوع بحكم تنوع البيئة الحاضنة، وتنوع مواد البناء وتقاناته. وليس أدل على ذلك من عمارة المساجد فهي متواصلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وتؤدي وظيفة رئيسية واحدة، وهي الصلاة (ووظائف اجتماعية متعددة)، ويخضع لمنظومة أحكام واحدة، وهي أحكام البنيان وأحكام الصلاة الثابتة والتي لا تتغير، لكنها، أي المساجد، متباينة في الشكل وفي تقانة البناء.

فمفهوم التواصل التاريخي في الحضارة الإسلامية يتمثل معماريًا بوحدة الفكر وثبات الوظيفة، وأعني بالأولى منظومة أحكام[١٠١] البنيان الإسلامية، التي تحكم العمل المعماري، أيًا كان نوعه وفي أي بيئة أنتج. وأعني بثبات الوظيفة وحدة النظام الاجتماعي وإفرازاته المختلفة من سلوكية وتربوية وتعليمية. وأما التباين الشكلي فهو ناتج عن مفهومي التفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة، فالتواصل التاريخي إذن في الحضارة الإسلامية مرتبط بالتنوع والإبداع، وليس بالتكرار والجمود.

أما في الحضارات الأخرى فيرتبط مفهوم التواصل التاريخي بمنهجية التكرار في التصميم المعماري، التي تلي منهجية التجربة والخطأ، الناتجة عن مفهوم الدروس والعبر، إذ بعد أن يتعلم الإنسان من أخطاءه وبتداركها يصل إلى نموذج معماري يتم تكراره، وإعادة إنتاجه. فليس ثمة من تفكر وتأمل في هذه الحضارات كما هو الحال في الحضارة العربية الإسلامية، كما سأبين لاحقًا، وبعد أن أعرض لمفهوم الحقب التاريخية الذي تضمنه مفهوم التواصل التاريخي، فيما يلي من دراسة وتحليل.

**الحقب التاريخية**

إن مفهوم التواصل التاريخي يقودنا بدوره إلى مفهوم الحقب التاريخية. ويتضح لنا هذا المفهوم في آيات الاستخلاف السابقة الذكر: استخلاف قوم عاد لقوم نوح، وثمود لعاد. هذا الاستخلاف يوضح لنا أن كلاً من الأقوام المذكورة شكل حقبة زمنية محدودة، بدأت ونمت وتطورت وانتهت خلالها حضارة معينة. والقرآن الكريم يوضح لنا مفهومين للحقب التاريخية: أولهما، أن تاريخ الإنسانية كله حقبة واحدة، كما في خطاب الله تعالى لآدم:[١٠٢] {قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} والثاني أن لكل أمة من الأمم حقبة تاريخية، تبدأ وتنشأ وتتطور وتنتهي خلالها حضارة معينة كما في قوله تعالى:[١٠٣] {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ} وكذلك في

دورية إلكترونية. مُحكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

قوله تعالى:(١٠٤) {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}

واللافت للنظر أن مفهوم الحقب التاريخية في الحضارة الغربية، أفرز معماريًا ظاهرة الطرز، ومن ثم منهجية الاقتباس. وكل حقبة تاريخية مرت بمرحلتي: التجربة والخطأ، والتكرار، وتبنتهما كمنهجيتن للتصميم المعماري ولمنتجاتها الحرفية والعملية. ولقد وضحت كيف انتهت المنهجية الأولى إلى الوصول إلى نموذج ثابت العناصر والصفات. وكيف تبنت الثانية تكرار هذا النموذج. فتعددت النماذج تبعًا لتعدد الحقب التاريخية (الحضارات). ولقد أسفر هذا التكرار عن جمود فكري أدى إلى ظهور ما يعرف بالطراز في كل الحضارات، باستثناء الحضارة العربية الإسلامية، التي ترفعت عن هذه المنهجيات، وتبنت منذ نشأتها مفهوم التفكر والتأمل في تفسير التاريخ، وقراءة الحضارات وظواهرها الثقافية، وتبنت منهجية الأحكام في الممارسات المعمارية والحرفية والصناعية وفي كل الظواهر الثقافية للحضارة العربية الإسلامية، على النقيض من الحضارة الغربية التي تبنت منهجية التكرار والاقتباس من النماذج المكررة (الطرز). وهذا يثبت عجز وقصور، بل طفيلية الحضارة الغربية، وعدم قدرتها على خلق طرز. أما محاولتها العقلانية(١٠٥) في القرن العشرين لخلق عمارة تمارس بمنهجية الأحكام، فقد قوضتها قوى لا عقلانية من داخل الحضارة الغربية نفسها وأعادتها إلى منهجية الاقتباس كما في عمارة ما بعد الحداثة، ثم أغرقوها مرة أخرى في عمارة التفكيك.

وبهذا فإن مفهوم الحقب التاريخية في الحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة، وفي تاريخها بصفة خاصة، لا يمكن تبنيه ومن ثم تطبيقه كمنهج في دراسة الظواهر الثقافية والحضارية الإسلامية ومنها العمارة والفنون والآداب.

وبناء على ما سبق، يكون التاريخ العربي والعربي الإسلامي تاريخًا شاملاً ومتصلاً ومستمرًا لا يتجزأ ولا يمكن فصل بعضه عن بعض، ويصاحب هذا التاريخ حضارة مستمرة متزامنة في البداية والنشأة والتطور والأهداف مع التاريخ نفسه. والإسلام نقطة تحول في هذا التاريخ يزيد من زخمه ولا يوقفه، ويدفعه إلى التواصل والاستمرار ويحميه من التقوقع والجمود. ويكون الإنجاز الحضاري العربي والعربي الإسلامي، مميزًا عن غيره من الإنجازات الحضارية الأخرى بتواصله واستمراره، ولأنه مبني على أسس فكرية لم تتوفر لأي حضارة سابقة أو متزامنة مع الحضارة العربية الإسلامية. فكانت الظواهر الثقافية والحضارية العربية الإسلامية، وبالذات الظاهرة المعمارية، تطبيق وتشكيل لمبادئ ومفاهيم وأفكار سابقة للإنجاز المادي للظاهرة الحضارية نفسها. أي أنها مبنية على التفكر والتأمل الذي يشكل المفهوم الثالث في فلسفة التاريخ الإسلامي كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل.

**التفكر والتأمل**

هذا المفهوم يشكل في رأيي محور فلسفة التاريخ الإسلامي، فهو يجمع بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي. فالأول يتم بالتفكر والنظر بالمحسوسات، الذي يؤدي بدوره إلى النظر التأملي، الذي يصل إلى كماله بالمعرفة العقلية، كما سأبين لاحقاً. وبهذا المفهوم العقلاني أسست الحضارة الإسلامية بنيتها وفسرت ظواهرها، ودعمت كيانها، وفرضت حضورها، ورسمت شخصيتها، وحددت علاقاتها بغيرها من الحضارات.

وبهذا المفهوم خاطب الله عز وجل المسلمين وغيرهم، وبه فسر تاريخ الأمم السابقة وجعله أداة للتعرف والتبين، والاتعاظ والازدجار، فوصله بمفهوم الدروس والعبر من حيث قراءة الظواهر الحضارية السابقة للإسلام، والتفكر بما كانت عليه والاتعاظ بما آلت إليه. فجميع الآيات السابقة توضح ارتباط المفهومين ببعضهما البعض. وتتجلى قيمة هذا المفهوم في أن الله سبحانه وتعالى جعله وسيلة النظر التأملي العقلي لتفسير الظواهر العلمية والكونية كما في قوله تعالى:(١٠٦)

{فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِ زَوْجٍ
بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِ عَبْدٍ مُنِيبٍ...}.

وفي قوله تعالى(١٠٧):

{أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر....}

والآيات(١٠٨) الكريمة الداعية إلى التفكر والتأمل، كثيرة وعظيمة الدلالة على عقلانية الحضارة الإسلامية، وفلسفة تاريخها. فهي تبدأ بالإدراك الحسي عبر المعايشة الحسية مع الظواهر الكونية لتنتهي إلى التأمل العقلي ثم إلى التفسير العلمي المبني على الاستدلال العقلي.

ولقد تبنى هذا المفهوم المفكرون المسلمون ووظفوه في تشكيل بنية الحضارة الإسلامية وتفسير ظواهرها وتحديد علاقاتها بغيرها من الحضارات. فالجاحظ كما بينت في الاقتباس السابق وظف هذا المفهوم في تفسير ظاهرة الاجتماع الإنساني، ثم وضحه في تفسير ظاهرة البيان العربي فقال:(١٠٩)

"... فالأجسام الخرس الصامتة، ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من صحة الشهادة، على الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه... ".

ثم وظفه مرة أخرى في توضيح منهجية الفطرة عند الحيوانات وفسر به اجتماعها وكيفية تحصيل معاشها فقال:(١١٠)

دورية إلكترونية .مُحكَمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

"والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات ... فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتنع عن الإنسان وإن تعلم ... ثم جعل تعالى عز وجل هاتين الحكمتين إزاء أعين الناظرين، واتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار وعلى الاتعاظ الازدجار، وعلى التعرف والتبين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفكر منشئ الخواطر... ."

فمفهوم التفكر والتأمل إذن هو منهج لتفسير الظواهر الحضارية ومنها العمارة كما وضح إبن قتيبة، فذكر أن قوماً من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مسألة من حد المنطق، فقال لهم ما معنى:[١١١]

"أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة. فسألوه التأويل، فقال لهم: مثل هذا كمثل رجل قال إني صانع لنفسي كناً فوقعت فكرته على السقف ثم انحدر فعلم أن السقف لا يقوم إلا على حائط وان الحائط لا يقوم إلا على أس وأن الأس لا يقوم إلا على أصل ثم ابتدأ في العمل بالأصل ثم بالأس ثم بالحائط ثم بالسقف فكان ابتداء تفكره آخر عمله وأخر عمله بدأ تفكره."

فمفهوم التفكر والتأمل هنا ظاهر الحضور وواضح الدلالة في تفسير الظاهرة المعمارية. فالتفكر هنا كان نتاج تأمل عقلي أسفر عن تقدير عملي لطريقة البناء قبل العمل، أي أن التقدير ناتج عن تفكير مسبق. فالتفكير إذن أساسه التفكر والتأمل العقلي. ولهذا كانت دعوة الله عز وجل للمسلمين إلى التفكر والتأمل في مخلوقاته للتعرف على عمليات التقدير التي وظفها في إنتاجها وخلقها، كما في قوله تعالى:[١١٢] {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، وكذلك في قوله تعالى:[١١٣] {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} وفي قوله تعالى:[١١٤] {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}. فالتقدير هنا بمعنى التصميم وهو نتاج عمل تأملي عقلي عند البشر كما عبر عنه إخوان الصفا،[١١٥] حيث بينوا أن إنتاج الأجسام يتم بالتقدير قبل العمل، أي بالتفكير المسبق، وتتم عبر مراحل: أولها تحديد المكان، أي في أي موضع يعملها، وثانيًا تحديد الزمان أي في أي وقت يبتدئ فيها، وثالثاً، إمكانية عملها، أي هل يقدر على إنتاجها أم لا، ورابعاً، بأي أدوات وآلات يعملها، وخامساً، كيف يؤلف أجزائها.

ولقد شارك إخوان الصفا في وضع منهجية التقدير أو التفكير المسبق على إنتاج العمل، الكثير من العلماء المسلمين، نخص منهم: البوزجاني[١١٦] (٣٢٨-٣٨٨هـ)، والحسن بن الهيثم[١١٧] (٣٥٤-٤٣٢هـ). ونخلص من كل ما سبق إلى أن مفهوم التفكر والتأمل في فلسفة التاريخ أسفر، إضافة إلى تفسيره للظواهر الحضارية، عن وضع منهجية التقدير أو التفكير المسبق، التي وظفت في الممارسات المعمارية، والحرفية، والصناعية، فأضفت طابعاً عقلياً على التفسيرين النظري والعملي للظاهرة المعمارية، وأسفرت بدورها عن منظومة قواعد وأحكام وبيانات تصميم، عرفت بأحكام البنيان الإسلامية، حكمت بدورها ممارسة العمل المعماري ووحدته على الرغم من تنوع إنتاجه، وهذا يقودنا إلى المفهوم الأخير في فلسفة التاريخ الإسلامي وهو التنوع داخل الوحدة.

عرضت فيما سبق لثلاثة مفاهيم لفلسفة التاريخ الإسلامي، وبينت دور كل مفهوم منها في تفسير الظاهرة المعمارية ووضحت مدى ارتباطه بمنهجيات ممارستها. ونفيت من خلال هذه المفاهيم، وتحديداً من خلال مفهوم التواصل التاريخي، دور فلسفة التحقيب التاريخي الغربية التي تنفي وجود جسم نظري فكري يفسر العمارة العربية الإسلامية، واستبدلته بجسم نظري فكري بديل، قائم على التحليل الشكلي للأعمال المعمارية العربية الإسلامية، بعد أن صنفتها لحقب وأضفت طرازاً لكل حقبة. فاختصرتها إلى عمارة مورست خارج حيز الوعي، وبمنهجية التجربة والخطأ، وليس بمنهجية الأحكام التي هي أرقى منهجيات التصميم المعماري قاطبة، والتي انفردت بها العمارة الإسلامية منذ نشأتها. كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل، والذي سيخصص للمفهوم الرابع و الأخير لفلسفة التاريخ الإسلامي وهو التنوع داخل الوحدة.

### التنوع داخل الوحدة

بينت فيما سبق أن الحضارة العربية حضارة ذات جذور عميقة موغلة في التاريخ، وخلصت إلى أن الإنجازات الحضارية، والمعمارية منها بصفة خاصة، لجميع الأقوام التي عاشت على الأرض العربية، سواء قبل الطوفان أو بعده، إما أن تكون إنجازًا عربيًا خالصًا أو إنجازًا شارك فيه العرب. كما بينت أن الحضارة العربية كانت قد تواصلت مع الحضارة الإسلامية، وشكلت مادتها الأولى. ونظرًا لتعدد هذه الأقوام فقد تنوعت منجزاتها الحضارية، والمعمارية منها بصفة خاصة، تبعاً لتنوع البيئة جغرافياً وجيولوجياً، ولما يفرضه هذا التنوع من أساليب وطرق وتقانات لمعالجة البيئة وتطويعها لتلبية حاجات القاطنين فيها. ولقد زاد هذا التنوع ثراءً بتوسع انتشار الحضارة الإسلامية في آسيا وجنوب أوروبا، فضمت إليها الإسهام الحضاري لأقوام فارس والهند ودول وسط آسيا وتركيا (بيزنطة) والأندلس وجنوب إيطاليا وأجزاء من شرق أوروبا.

لكن هذا التنوع العرقي (وما تضمنه من إسهام حضاري، أخص منه المعماري) تم دمجه في وحدة فكرية واحدة هي العقيدة الإسلامية، التي أفرزت نظاماً اجتماعياً موحداً لجميع هذه الأعراق، أفرز بدوره منظومة قيم، تم ترجمتها إلى أحكام، وحدت بدورها

دورية إلكترونية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المنجز الحضاري الإسلامي، فأحكام البنيان الإسلامية هي التي وحدت المنجز الحضاري المعماري على الرغم من تنوع أشكاله وتباين تفاصيلها المعمارية على امتداد العالم الإسلامي. فأحكام البنيان التي دونت في كتب المذاهب الفقهية الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، كانت ملزمة لجميع المسلمين ومطبقة في جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولقد تم جمعها في كتب مستقلة أهمها وأشملها هو كتاب[١١٨] المعلم ابن الرامي، المتوفى حوالي (٧٥٠هـ-١٣٤٩م)، الإعلان بأحكام البنيان. ولقد عالج فيه مواضيع تخص التصميم وأخرى تخص التنفيذ، ومن هذه الأحكام: الخصوصية، وحقوق الارتفاق، ونفي الضرر على جميع أنواعه، وأخص منها المتطلبات الاجتماعية والنفسية للمستعملين: كنفي ضرر الرائحة، والدخان والضوضاء، وأحكام الجدار والحيطان والمجاري والخرجات (البروزات) وأحكام الطريق والأسواق وغير ذلك.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار قواعد التصميم البيئي[١١٩] التي وضعها البلخي (٢٣٥-٣٢٢هـ/٨٤٩-٩٤٣م) في كتابه، مصالح الأبدان والأنفس، على الرغم من كونها أحكاماً ملزمة في أحكام البنيان الإسلامية، إلا أنها شكلت نظريات مستقلة للتصميم البيئي، ما زالت فاعلة حتى يومنا الحاضر، لكنها منسوبة للحضارة الغربية، التي لم تعرفها إلا في نهاية النصف الأول من القرن العشرين بصورة النقاط الخمس للكوربوزية. وإذا أضفنا إلى كل ما سبق، البيانات الفنية للتصميم،[١٢٠] التي وضعها أحمد بن شادان (٧٠٨هـ/١٣٠٨ م) في كتابه، ***أدب الوزراء***، المتمثلة في الأبعاد والمقاسات والمساحات، الخاصة ببعض المباني، كالأواوين والدور والبيوت، والبهو، والمعاصر، والإسطبلات، والمساجد، والحمامات، وارتفاع جلسات الكوى والشبابيك، ومقاسات الأبواب وغير ذلك، لوجدنا أن العمارة الإسلامية مورست بأرقى منهجيات التصميم المعماري وهي منهجية الأحكام، التي عملت كأداة لوحدة الظاهرة المعمارية في الحضارة الإسلامية، ومن ثم جاء مفهوم التنوع داخل الوحدة في فلسفة التاريخ الإسلامي، كآلية لتفسير ظواهر الحضارة الإسلامية المتعددة والمتنوعة والمتباينة شكلاً ومظهرًا والموحدة فكرًا ومضمونًا.

وبقيت أحكام البنيان سائدة كأداة لوحدة العمارة في الحضارة الإسلامية إلى أن تم تغييرها وتغييبها بنشأة البلديات في المدن الإسلامية وما ترتب عليه من تغيير سلطة أدارة المدينة، من المحتسب والقاضي إلى سلطة رئيس البلدية ومجلسها والقضاء المدني. وتم استبدال أحكام البنيان الإسلامية بقانون البناء العثماني ثم بأنظمة البناء الأوروبية. حيث كان أول ظهور للبلديات في العالم العربي هو بلدية القدس[١٢١] سنة(١٨٦٣م) وذلك أثر الضغوط التي مارستها القوى الصاعدة في أوروبا في حينه (وهي بريطانيا وفرنسا والنمسا) على الدولة العثمانية. التي أسفرت عما يعرف في تاريخ الدولة العثمانية بالتنظيمات،[١٢٢] حيث غيرت معظم قوانين الدولة العثمانية واستبدلت بعض أنظمتها بالأنظمة الأوروبية. ومما يعنيني هنا هو التغييرات التي طالت الظاهرة المعمارية التي أشرت إليها سابقًا. حيث سادت أنظمة البناء الأوروبية كبديل لأحكام البنيان الإسلامية في عهد الاستعمار وحتى وقتنا الحاضر.

واللافت للنظر؛ أن أحكام البنيان الإسلامية كانت موحدة وتطبق على جميع التجمعات السكانية (الحضرية والريفية) في العالم الإسلامي، ومن هنا جاء مفهوم الوحدة. أما أنظمة البناء الأوروبية فهي لا تختلف من مدينة إلى أخرى فقط، بل تختلف داخل المدينة الواحدة. فقضت بذلك على العنصر الرئيسي لمفهوم وحدة الظاهرة المعمارية وعملت على اجتثاثه بالكامل. وكرس هذا الأمر، أي القضاء على عنصر الوحدة، بإسقاط المستشرقين لفلسفة التاريخ الغربي القائمة على التحقيب التاريخي في تفسير ظاهرة العمارة الإسلامية، وذلك بتصنيفها إلى حقب تاريخية فقضت على مفهوم التواصل التاريخي.

ثم جعلت لكل حقبة من هذه الحقب طرازًا خاصًا بها كالطراز الأموي والعباسي والطولوني والفاطمي ...الخ؟! فاختصروا بذلك العمارة الإسلامية، من عمارة مورست في حيز الوعي، وبالتفكر والتأمل، وبأرق منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام، إلى عمارة مورست خارج حيز الوعي، وبمنهجية التجربة والخطأ، ثم التكرار، على شكل طرز. ثم قاموا بعملية تغييب كامل للجسم النظري الذي حكم إنتاج الظاهرة المعمارية، واستبدلوه بجسم نظري مستحدث قائم على التحليل الشكلي، ونسبوا معظمه إلى تأثير العمارة البيزنطية والعمارة الساسانية. علمًا بأن العمارة الساسانية هي التي تأثرت بالعمارة العربية للحضارات المسماة بالسامية في العراق. أما العمارة البيزنطية فهي التي تأثرت بالعمارة الإسلامية وهذا يتضح في الزخارف الإسلامية التي استعملت في العمارة البيزنطية[١٢٣] كما وضحها أوين جونز (١٨٥٦م) Owen Jones في كتابه قواعد الزخرفة The Grammar of Ornament.

استنادًا إلى كل ما سبق؛ فإن التفسير التاريخي للعمارة الإسلامية يجب أن يكون نابعًا من فهمنا لتاريخ الحضارة الإسلامية ولبناها الفكرية، وتوظيفنا لمناهج التفكير وطرائق النظر التي استثنتها في تفسيرها لظواهرها. وأخص من طرائق النظر هنا فلسفة التاريخ الإسلامي كما بينتها على مدار هذه الدراسة. أما تفسير الحضارة الغربية المتمثل في الإستشراق والقائم على التحقيب التاريخي، الذي مر في مرحلة استلاب وعينا وتزييفه، وتغييب فكرنا ومن ثم استبداله، فيجب نبذه والتنصل منه وإعادة توظيف فكرنا المغيب ومناهج التفكير وطرائق النظر التي أبدعتها حضارتنا الإسلامية.

## خـــاتمة

تناولت هذه الدراسة موضوع التفسير التاريخي لظاهرة الثقافة المعمارية العربية الإسلامية، فبينت في مقدمة طويلة الواقع الحالي لتفسير العمارة العربية الإسلامية، ضمن فلسفة التاريخ الغربي، القائمة على التحقيب التاريخي، والتحليل الشكلي، الذي تم من خلاله تغييب الجسم النظري والفكري الذي حكم ممارسة العمارة

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

العربية الإسلامية، واختصارها من عمارة مورست في حيز الوعي وبأرق منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام، إلى عمارة مورست خارج حيز الوعي، وبمنهجية التجربة والخطأ.

كما عرضت في هذه المقدمة لمفهوم التاريخ ولفلسفته في الحضارة العربية الإسلامية وفي الحضارة الأوروبية، وبينت تقدمهما زمنيًا، وتفوقهما معرفيًا، في الحضارة العربية الإسلامية عنها في الأوروبية. ثم عرضت الدراسة للبداية الزمنية للتاريخ العربي لأتتبع التطور الحضاري، وبالذات المعماري، للجنس العربي، فعرضت للطوفان، وبينت علاقة العرب بالساميين، وخلصت إلى أن الإنجاز المعماري للأقوام التي عاشت على الأرض العربية، سواء كانوا ساميين أم غير ساميين، وسواء كان الساميون عربًا أم غير عرب، هو إنجاز عربي أو إنجاز شارك فيه العرب. وبذلك يكون العرب قد شاركوا في خلق قواعد وتقانات للفكر والعمل المعماريين.

ثم تناولت الدراسة البيئة الجغرافية التي عاش بها العرب ونزح منها الساميون فعرضت لحدودها الجغرافية التي وضعها الجغرافيون العرب، ثم عرضت للسمات الطبيعية للجزيرة العربية، وبينت كيف أثرت هذه السمات على نوعية المساكن وتطويع البيئة. ثم عرضت الدراسة للروابط والصلات التاريخية لسكان الجزيرة العربية، وبينت وحدة التجمعات البشرية العربية في شمال ووسط وجنوب الجزيرة. فعرضت للتواصل الحضاري بين هذه التجمعات من خلال توضيح العلاقات التجارية والاجتماعية والسياسية، وذلك للتدليل على وجود تاريخ عربي مشترك وحضارة عربية مستقلة و مؤثرة، ذات فكر معماري، نشأ وتطور في محيط عربي جغرافي وبشري من ناحية، ولدحض محاولات الاستشراق في تفكيك أوصال التاريخ العربي وحضارته ووصمها بالتبعية للحضارات الأخرى.

وقد عرضت الدراسة لفلسفة التاريخ العربي في الجاهلية، وبينت تواصلها مع فلسفة التاريخ الإسلامي. فوضحت ماهيتها وعرضت لدورها في رؤية الحضارة لكيانها، وتصورها لذاتها ومحيطها الكوني ولعلاقاتها بالحضارات الأخرى، وركزت على دورها في تفسير الظاهرة المعمارية، ووضحت ارتباط مفاهيم فلسفة التاريخ بمنهجيات التصميم المعماري، وبينت أن العمارة الإسلامية مورست في حيز الوعي وبأرق منهجيات التصميم المعماري وهي منهجية الأحكام.

وخلصت الدراسة إلى؛ أن التفسير التاريخي للعمارة الإسلامية يجب أن يكون نابعًا من فهمنا لفلسفة تاريخ الحضارة الإسلامية، ولبنيتها الفكرية، وتوظيفنا لمناهج التفكير وطرائق النظر التي استنتها كما بينتها على مدار هذه الدراسة. كما خلصت إلى وجوب نبذ الاستشراق ومناهجه وطرائق تفكيره، وإلى وجوب إعادة توظيف فكرنا المغيب واستعادة وعينا المستلب.

## الهوامش:

(١) أنظر: ابن قتيبة، (٢١٣-٢٧٦هـ/٨٢٨-٨٨٩م)، **أدب الكاتب**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧، عن طبعة جامعة ليدن، هولندا، ١٩٠٠م، (ص: ٧). حسين، طه، دكتور، ١٩٢٥م، **حديث الأربعاء**، ٣ أجزاء، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، (ج١/١٥).

(٢) أنظر: بدوي، عبد الرحمن، دكتور، **دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي**، الطبعة الثالثة، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، ص٥.

(٣) أنظر: أحمد، محمد خلف الله، ومجموعة باحثين، (١٩٨٧م)، **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون مع اليونسكو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (ص: ١١).

(٤) أنظر: ابن خلدون (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **المقدمة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر،( ص:٩).

(٥) أنظر: الجاحظ، أبي عثمان بن عمر بن بحر، (١٥٠-٢٥٥هـ/٧٦٧-٨٦٨م)، **الحيوان**، ٧ أجزاء، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، بدون تاريخ نشر، (ج١/٤٢-٤٤).

(6) See: Collingwood, R. G. The Idea of History, Oxford (1976) University Press, N. Y. PP. 9-10.

(7) See: Butterfield, H. (1969). Man On His Past, Cambridge University Press, London. PP.128-14.

(٨) أنظر: بدوي، السيد محمد، دكتور، (١٩٨١م)، **مبادئ علم الاجتماع**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، (ص: ٧٩-١٧٩/٨٠-١٨٢).

(٩) أنظر: المرجع السابق، ص١٧٩-١٨٢. الصباغ، ليلى، دكتورة، (١٩٨٠م)، **دراسة في منهجية البحث التاريخي**، جامعة دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، (ص:٢٥٤-٢٦٨).

(١٠) أنظر: الصباغ: دكتورة، مرجع سابق، (ص: ٢٤٥-٢٦٨).

(١١) أنظر: منتصر، عبد الحليم، دكتور، (١٩٨٠م)، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه**، دار المعارف، القاهرة، (ص:٢١).

(١٢) أنظر: فوكامايا، فرانسيس، (١٩٩٣م) **نهاية التاريخ**، ترجمة، د. حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت.

(١٣) أنظر: هانتنتون، صموئيل، (١٩٩٨م)، **صدام الحضارات**، ترجمة طلعت الشايب، سطور، القاهرة.

(١٤) أنظر: اركون، محمد دكتور، (١٩٩٢م)، **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد**، الطبعة الثانية، ترجمة هاشم صالح، الساقي، لندن، (ص:٤٦). أركون، محمد، (١٩٩٧)، **نزعة الأنسنة في الفكر العربي**، الساقي، لندن، (ص: ٢٧٦). رباط، ناصر، دكتور، (٢٠٠٢م)، **ثقافة البناء وبناء الثقافة**، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، (ص: ١٦، ١٧، ٧٨، ١٠٩، ١١٢، ١٢٣...الخ.)

(١٥) أنظر: فكري، أحمد، دكتور، (١٩٦٩م)، **مساجد القاهرة ومدارسها**، جزآن، دار المعارف، القاهرة. شافعي، فريد، دكتور(١٩٨٢م ) **العمارة العربية الإسلامية، ماهيتها، وحاضرها، ومستقبلها**، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض. ريحاوي، عبد القادر، دكتور (١٩٩٠م)، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.

(16) See: Collins, P. (1965). Changing Ideals in Modern Architecture, Faber, and Faber, London, PP.30-41

(١٧) أنظر: دروزة، محمد عزة، (١٩٥٩م) **تاريخ الجنس العربي**، ١٣جزء، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (ج١/٨).

(١٨) المرجع السابق، (ج١/١٦).

(١٩) أنظر: علي، جواد، دكتور (١٩٧٦م)، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ودار النهضة، بغداد، (ج١/٢٢٣).

(٢٠) أنظر: دروزة، محمد، مرجع سابق، (ج١/١٧).

(٢١) المرجع السابق، (ج٦/٤).

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٢٢) المرجع السابق، (ج٣/٢٠).

(٢٣) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/١٣).

(٢٤) المرجع السابق، (ج١/٣٤).

(٢٥) قسم المؤرخون العرب الجنس العربي إلى ثلاثة طبقات: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. أنظر: أبو حنيفة الدينوري، (٢٨٢هـ/٨٩٥م)، **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٠، (ص:٣-١٤). المسعودي: (م.٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الطبعة الرابعة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١م، (ج١/٥٢، ج٢/١١-١٤). ابن خلدون، (٧٧٩هـ/١٣٩٤م)، **تاريخ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، بدون تاريخ نشر، (ج٢/١٨-٣٢). علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٢٣٤-٢٥٤).

(٢٦) قوم عاد هم الجيل الرابع المنحدر من قوم نوح حسب التسلسل الذي أورده المؤرخون العرب وهو: عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح. أنظر: المرجع في الهامش السابق.

(٢٧) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية: (٦٩).

(٢٨) أنظر: ابن خلدون، مرجع سابق، (ج٢/٢٣٧).

(٢٩) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج٤/٢٧٥).

(٣٠) أنظر: حدد الجاحظ بداية الشعر العربي، بـ١٥٠-٢٠٠ سنة في الإسلام. أنظر: الجاحظ: **الحيوان**، مرجع سابق، (ج٣/٧٤). الرافعي، مصطفى صادق، (١٩٤٧م)، **تاريخ أداب العرب**، ٣ أجزاء، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت، (ج٣/٢٠-٢١).

(٣١) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٣٢-٣٣).

(٣٢) المرجع السابق، (ج١/٨).

(٣٣) المرجع السابق، (ج١/١٣).

(٣٤) أنظر: الطبري، (٢٢٤ – ٣١٠هـ/٨٥٨-٩٢٢م)، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، ١١ جزءاً، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، (ج١/٥٥٨). المسعودي، مرجع سابق، (ج٢/ ١٣٠). علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/ ٦٠٧).

(٣٥) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج٢/٧٣).

(٣٦) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية: (٧٧).

(٣٧) أنظر: اليعقوبي، (م. ٢٨٤ أو ٢٩٢هـ/٨٩٧ أو ٩٠٥م)، **تاريخ اليعقوبي**، جزآن، دار صادر، بيروت، (ج١/١٣-١٥).

(٣٨) أنظر: **القرآن الكريم**،المؤمنون، الآية: (٢٧).

(٣٩) أنظر: **القرآن الكريم**، هود، الآية: (٣٦).

(٤٠) أنظر: **القرآن الكريم**، الفرقان، الآية: (٣٧).

(٤١) أنظر: الهمداني، الحسن بن أحمد، (٢٨٠-٣٥٦هـ/٨٩٣-٩٦٦م)، **وصف جزيرة العرب**، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م، ص٣-٧. ابن حوقل، (القرن ٤هـ/١٠م) **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١٦. البكري، عبد الله، (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، **معجم ما استعجم**، جزآن، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (ج١/ ٧).

(٤٢) أنظر: الشطي، إبراهيم، وآخرون، (١٩٨٠م)، **الأطلس الجديد**، دار الكتاب اللبناني.

(٤٣) أنظر: **ديوان زهير ابن أبي مسلمي**، (١٩٦٨م)، المكتبة الثقافية، بيروت، المعلقة، (ص: ١٦).

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد تم ترضع فتفطم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

وأيضاً (ص: ١١٤-١١٧):

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمرأو يبدو لهم ما بدا ليا

ألم تر أن الله أهلك تبعاً ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا

وأهلك ذي القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون جياداً طغى والنجاشيا

(٤٤) أنظر: **ديوان النابغة الذبياني**، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر، (ص/ ٣١، ٣٤):

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

أحكم كحكم فتاة الحي، إذ نظرت ... إلى حمام شراع، وارد الثمد

يحفه جانباً نيقٍ وتتبعه ... مثلَ الزجاجةِ، لم تكحل من الرمد

قالت:

ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا ونصفه فقد

فحسبوه، فألفوه، كما حسبت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد

فكلمت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبة في ذلك العدد

فتاة الحي، هي زرقاء اليمامة وهي فتاة من قبيلة طسم تزوجت في جديس اشتهر بقوة بصرها. والرواية كما ذكرها الطبري (ج١/٦٢٩-٦٣٠) أن ملك طسم عملوق أذل وقهر جديما وأمر بأن لا تدخل فتاة بكر من جديس بزوجها "حتى تدخل عليه فيفترعها" فثارت جديساً وغدروا بملك طسم وقومه، فاستعانت طسم بحسان بن تبع ملك اليمن، فسار إلى منازل جديس باليمامة، فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من اليمامة، احتالوا بأن قطعوا أشجاراً واحتملوها، حتى يخدعوا زرقاء اليمامة، إلا أن زرقاء اليمامة كشفتهم وحذرت قومها ولكنهم لم يصدقوها وانطلقت الحيلة وتمكن حسان بن تبع من إبادتهم جميعاً.

أنظر: القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار الصادر، بيروت، بدون تاريخ نشر، (ص: ١٣٣-١٣٤).

ذكر القزويني قصة زرقاء اليمامة كاملة وما كان بينها وبين قومها جديس من حيث حذرتهم من قدوم جيش حمير:

خذوا خذوا حذركم يا قوم ينفعكم ... فليس ما قد أرى بل أمر يحتقر

إني أرى شجراً من خلفها بشر ... لأمر اجتمع الأقوام والشجر

فلما داهمهم حسان قال لها ما رأيت، قالت الشجر خلفها بشر، فأمر بقلع عينيها، وصلبها على باب جو، وكانت المدينة قبل هذا تسمى جوا، فسماها تبع اليمامة وقال:

وسميت جوا باليمامة بعدما ... تركت عيونا باليمامة هملا

نزعت بها عيني فتاة بصيرة ... رعاما ولم أحفل بذلك محفلا

تركت جديساً كالحصيد مطرحاً ... وسقت نساء القوم سوقاً معجلا

أدت جديساً دين طسم بفعلها ... ولم أك لولا فعلها ذاك أفعلاً

وقلت خذيها يا جديس باختها ... وأنت لعمر كنت في الظلم أولاً

فلا تدع جوا ما بقيت باسمها ... ولكنها تدعى اليمامة مقبلاً

أنظر: ديوان النابغة، (ص: ١٠٧):

أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المعفة والآفات والإثم

(٤٥) أنظر: الأعشى، ميمون بن قيس، (٧هـ-٦٢٩م)، **ديوان الأعشى**، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر، حيث أتى علي ذكر زرقاء اليمامة، (ص: ١٠٦):

قالت أرى رجلاً في كفه كتف ... أو يخصف النعل لهفي أية صنعا

فكذبوها بما قالت، فصبحهم ... ذو آل حسان يزجي الموت والشرعا

فاستنزلوا أهل جو من منازلهم ... وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

(٤٦) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، حيث ورد شعر متمم بن نويرة، في كتابه **المفصل بتاريخ العرب قبل الإسلام**، (ج١/٣٠٧):

أمسين عاد ثم آل محرق ... فتركتهم بلدا وما قد جمعوا

أنظر: الخطيب التبريزي، (٤٢١-٥٠٢هـ/١٠٣٠-١١٠٨م) **شرح اختيارات المفضل الضبي**، جزآن، تحقيق، الدكتور فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، بدون تاريخ نشر، (ج١/٢٧٣).

(٤٧) أنظر: **ديوان الأعشى**:

فأضحت كبنيان التهامي شاده ... بطين وجبار وكلس وقرمد

وايضاً (ص:٧١):

ألم تروا إرما وعادا ... أودى بها الليل والنهار

بادوا فلما أن تآدوا ... قفى على أثرهم قدار

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وقبلهم غالت المنايا طسماً ولم ينجها الحدار
وحل بالحي من جديس يوم من الشر مستطار
واهل غمدان جمعوا للدهر ما يجمع الخيار
وأهل جو أتت عليهم فأفسدت عيهم فباروا
ومر حد على وبار فهلكت جهرة وبار

والمقصود بالتهامي: منازل طسم وجديس، وأهل غمدان: الدولة الحميرية، وأهل جو: طسم وجديس وهي اسم بديل لليمامة، وبار، من مساكن عاد بالأحقاف.

(٤٨) أنظر: الخطيب التبريزي، مرجع سابق:

غلبت عاداً ومن بعدهم وأبت بعد، فليست تتضع

(٤٩) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٣٠٨).

(٥٠) أنظر: المرجع السابق، (ج١/٣٠٨).

(٥١) أنظر: إبن النديم، (٣٧٧هـ-٩٨٧م)، **الفهرست**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر، (ص:١٤١).

(٥٢) ٥٢- أنظر: المسعودي، مرجع سابق، (ج٢/١٠٢-١٣٢).

(٥٣) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٢٩٤-٣٥٢).

(٥٤) المرجع السابق، (ج١/٣٥٤-٥٢٨).

(٥٥) أنظر: المسعودي، مرجع سابق، (ج١/١٧٩-ج٢/٨٧-٨٨). علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٤٩٩).

(٥٦) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج١/٥٠٠)

(٥٧) أنظر: الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، (١٥٠-٢٥٥هـ/٧٦٧-٨٦٨م)، **البيان والتبيين**، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م، (ص:١٦٣).

(٥٨) أنظر: الكلبي، هشام بن محمد السائب، (م. ٢٠٤هـ/٨١٩م)، **الأصنام**، تحقيق الدكتور، أحمد زكي، المكتبة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ( ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م).

(٥٩) أنظر: الهمداني، **الإكليل**، مرجع سابق.

(٦٠) أنظر: **الهامش**، رقم ٣٤.

(٦١) أنظر: ابن خلدون، مرجع سابق، (ج٢/٢٣٦-٢٣٧).

(٦٢) أنظر: ابن خلدون، مرجع سابق، (ج٢/٢٦٦-٢٦٧). اليعقوبي: مرجع سابق، (ج١/٢١٥).

(٦٣) أنظر: المسعودي، مرجع سابق، (ج٢/٥٨). علي، جواد، مرجع سابق، (ج٣/٥٢٦)

(٦٤) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج٤/٣٧٠-٣٨٨).

(٦٥) لمعرفة المزيد من الأحداث وملابساتها وظروف حدوثها وأثرها وانعكاساتها على المجتمع العربي أنظر: ابن قتيبة، (٢١٣-٢٧٦هـ/٨٢٨-٨٨٩م)، **المعارف**، تدقيق محمد إسماعيل الصاوي، الطبعة الثانية، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، (ص: ٢٦٠-٢٦٢). ابن رشيق، أبي علي الحسن، (٣٩٠-٤٥٦هـ/٩٩٩-١٠٦٣م)، **العمدة**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر، بيروت، ١٩٧٢م (ج٢/٢٠٠-٢٢٤). علي، جواد، مرجع سابق، (ج٥/٣٣٣-٤٦٨).

(٦٦) قال عنترة بن شداد يتوعد النعمان بن المنذر، أنظر: **ديوان عنترة**، (ص:٩٢):

إن كنت تعلم يا نعمان، أن يدي قصيرة عنك فالأيام تنقلب
اليوم تعلم، يا نعمان، أي فتى يلقى أخاك الذي قد غره العصب

(٦٧) أنظر: علي، جواد، مرجع سابق، (ج٣/٢٥٥-٢٥٧)، وانظر: معلقة عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا وأمهلنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تكون لقيلكم فيها قطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا

(٦٨) فقد ورد ذكر الأسلحة والتياب كثيراً في الشعر الجاهلي منها ما هو مصنوع بالشام كالسيوف المشرفية التي ورد ذكرها في شعر عنترة، أنظر: **ديوان عنترة**، (ص: ٥٢):

فظللنا نكسر المشرفية فيهم وخرصان لون السمهري المثقف

وكذلك ورد ذكر السيوف اليمانية في شعر عنترة، (ص: ٧٠):

به كنت أسطو حينما جدت العدا غداة اللقا نحوي بكل يماني

وكذلك ورد ذكر الرماح الخطية من صناعة البحرين في شعر عنترة،(ص:٧٢):

بأسمر خط الرماح لون وأبيض صارم ذكر يمان

كما ورد في شعر طرفة ذكر السيوف اليمانية، أنظر: **ديوان طرفة**، (ص: ٧٦):

أتعرف رسم الدار قفراً منازله كجفن اليمان زخرف الواشي مائله

كما ورد في شعر الأعشى ذكر الرماح الخطية وأسماء صناعتها،

أنظر: **ديوان الأعشى**: (ص:١٢):

ولون من الخطى فيه أسنة دخائر مما سن من أبزي وشرعب

وأيضاً ورد في شعر الأعشى ذكر الحبرات أو البرود اليمانية، (ص: ٢٥):

إذا الحبرات تكون بهم وجروا أسافل هدابها

كما وردت ذكر الدروع اليمانية في شعر عمرو بن كلثوم، معلقة عمرو بن كلثوم:

علينا البيض والليب اليماني وأسياف يقمن وينحنينا

(٦٩) أنظر: البعقوبي، مرجع سابق، ج١/٢٧٠). علي، جواد، مرجع سابق، (ج٧/٣٦٩-٣٨٩).

(٧٠) أنظر: المرجع السابق، (ج٧/٣٦٩-٣٨٩).

(٧١) أنظر: **القرآن الكريم**، قريش، الآيتان (١-٢).

(٧٢) أنظر: الرافعي، مرجع سابق، (ج١/٩٧). ضيف، شوقي، (١٩٨٢)، **تاريخ الأدب العربي**، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، (ج١/٢٧٤).

(٧٣) ذكر المسعودي أن سبب الحلف أن رجلاً من زبيد من اليمن باع سلعة للعاص بن وائل من قريش فتأخر الأخير بالدفع فلجأ الأول إلى التظلم للقريشيين وأنشد:

يا للرجال [ردوا] لمظلوم بضاعته في بطن مكة نادى الحي والنفر
إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

وعلى أثرها اجتمعت قريش في دار الندوة ثم في دار عبد الله بن جدعان، واتفقوا على أن ينصفوا المظلوم من الظالم وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا أباة الضيم تهجر كل عار

أنظر: المسعودي، مرجع سابق، (ج٢/ ٢٧٠)

**(٧٤)** أنظر: **معلقة عمرو بن كلثوم.**

(٧٥) أنظر: **ديوان النابغة**، مرجع سابق، (ص: ١٠).

(٧٦) المرجع السابق، (ص: ٩٢).

(٧٧) أنظر: **ديوان الأعشى**، مرجع سابق، (ص:١١٠).

(٧٨) أنظر: البكري، **معجم ما استعجم**، مرجع سابق.

(٧٩) أنظر: **ديوان الأعشى**، مرجع سابق، (ص: ١١٤).

(٨٠) أنظر : **ديوان زهير بن أبي سلمى**، مرجع سابق، (ص: ١١٨).

ألم تر للنعمان كان بنجوة من الشر لو أن أمراً كان ناجيا.

(٨١) أنظر: الحموي، ياقوت، (م. ٦٢٦هـ-١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيروت، ١٣٧٩هـ-١٩٧٧م، (ج١/١٥٤).

كما ورد في شعر حسان بن ثابت ذكراً للغساسنة:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزل

(٨٢) أنظر: **ديوان النابغة الذبياني**، مرجع سابق، (ص: ٨٠-٨٢).

(٨٣) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية: (١٣٠):

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكرون". الأعراف، الآية: (١٣٣): "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين". يونس الآيتان: (٨٨-٨٩)، وسورة الشعراء: الآيتان: (٦٥-٦٦).

(٨٤) أنظر: **القرآن الكريم**، هود، الآيات: (٣٦-٤٠):

"وأوحى ربك إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه قال أن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم".

(٨٥) أنظر: **القرآن الكريم**، الفجر، الآيات: (٦-١٠): "ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد".

(٨٦) أنظر: **القرآن الكريم**، هود، الآيتان (٦٦-٦٧):

"فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز، وأخذ الذي ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين".

(٨٧) أنظر: القرآن الكريم، هود الآيتان (٨١-٨٢): "قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت أحد إلا إمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عالها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود".

(٨٨) أنظر: **القرآن الكريم**، هود الآية (٨٤): "وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط".

(٨٩) أنظر: **القرآن الكريم**، العنكبوت، الآيتان: (٤٠-٤١).

(٩٠) أنظر: **القرآن الكريم**، الفجر، الآيتان: (٦-٨)، أنظر أيضاً: الهامش رقم (٨٥).

(٩١) أنظر: **القرآن الكريم**، غافر، الآيتان (٢١-٨٢)، يوسف، الآية: (١٠٩)، النحل، الآية (٣٦)، فاطر، الآية (٤٤)، محمد، الآية (١٠).

(٩٢) أنظر: حموي، ياقوت، مرجع سابق، (ج١/١٥٥-١٥٧). الأبشيهي، شهاب الدين، (٧٩٠-٨٢٧هـ / ١٣٨٨-١٤٢٣م)، **المستطرف في كل فنٍ مستظرف**، تحقيق عبد الله الطباع، دار القلم، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، (ص: ٣٧٧).

(٩٣) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية، (٦٩).

(٩٤) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية (٧٤).

(٩٥) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية (١٥٧).

(٩٦) أنظر: **القرآن الكريم**، إبراهيم، الآية (٤٥).

(٩٧) أنظر: الجاحظ، **الحيوان**، مرجع سابق، (ج١/٤٢-٤٤).

(٩٨) هذه الإضافة من وضع المحقق، كنتيجة لإسقاطه ما بين القوسين في النسخة التي اعتمدها للتحقيق، وما عدا ذلك فمن وضع الباحث.

(٩٩) أنظر: المعري، أبو العلاء، (٣٦٣-٤٤٩هـ/٩٧٣-١٠٥٧م)، **رسالة الغفران**، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، (ص: ٢٠٠).

(١٠٠) أنظر: حسين، طه، **حديث الأربعاء**، مرجع سابق، (ج٢/٦٩). أشار إلى هذين القانونين في كتابه.

(١٠١) أنظر: إبن الرامي، (م. ٧٣٤هـ ـ/١٣٣٤م)، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق صالح بن عبد الرحمن الأطرم، رسالة ماجستير قدمت لجامعة محمد بن سعود، الرياض، (١٤٠٣هـ /١٩٨٠م). إبن الرامي، قام بجمع أحكام البنيان من أمهات كتب فقه المذاهب الأربعة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، وركز على مدونة الفقية المالكي، القاضي سحنون، وهناك كتب كثيرة في أحكام البنيان منها: صنع الله الحنفي، **مراصد الحيطان**. الدامغاني، **كتاب الحيطان**.

(١٠٢) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية (٢٤).

(١٠٣) أنظر: **القرآن الكريم**، الأعراف، الآية (٣٤).

(١٠٤) أنظر: **القرآن الكريم**، الحجر، الآيتان: (٤-٥).

(105) See: Jencks, C (1977), The Language of Post Modern Architecture, Academy Editions, London

أنظر: جميع مؤلفات Jencks الصادرة بعد هذا الكتاب وكذلك معظم أعداد **مجلة التصميم المعماري AD** التي صدرت في لندن منذ سبعينات القرن الماضي وحتى الآن. وكذلك كل ما كتب عن ما يسمى بالتفكيك Deconstruction، بصفة خاصة، مقالات Stanley Tigerman, Peter Eisenman، أنظر على سبيل المثال:

See: Tigerman, S., (1989), Construction, (De) Construction (Re) Construction, Architectural Antinomies and (Re) newed Beginning, Published in AD,Vol.58,No., 1-2, 1989, PP.: 77- 81.

(١٠٦) أنظر: **القرآن الكريم**، ق، الآيات: (٦-٨).

(١٠٧) أنظر: **القرآن الكريم**، الغاشية، الآيات: (١٧-٢١).

(١٠٨) أنظر: القرآن **الكريم**، الأنعام، آية: (١١)، الأعراف، الآية: (١٨٥)، يوسف، الآية: (١٠٩)، النحل، الآية: (٣٦)، الحج، الآية: (٤٦)، الشعراء، الآية: (٧)، العنكبوت، الآية: (٢٠)، الروم، الآية: (٤٢)، السجدة، الآية: (٢٧)، فاطر، الآية: (٤٤)، غافر، الآية: (٢١-٨٢)...الخ.

(١٠٩) أنظر: الجاحظ، **الحيوان**، مرجع سابق، (ج١/٣٤).

(١١٠) أنظر: المرجع السابق، (ج١/٣٥-٣٧).

(١١١) أنظر: ابن قتيبة، **أدب الكاتب**، مرجع سابق، (ص:٥٠٤).

(١١٢) أنظر: **القرآن الكريم**، الفرقان، الآية (٢).

(١١٣) أنظر: **القرآن الكريم**، عبس، الآيتان (١٨-١٩).

(١١٤) أنظر: **القرآن الكريم**، سبأ، الآية (١١).

(١١٥) أنظر: العابد، بديع، دكتور، **الفكر المعماري عند أخوان الصفا**، **مجلة اتحاد الجامعات العربية**، مجلد ٩، عدد ٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، (ص: ٣٠، ٣٣، ٤٠). أنظر: أعيد نشر هذا البحث في **مجلة المدينة العربية** في العددين، ١٢٢، ١٢٦.

(١١٦) أنظر: البوزجاني، أبي الوفاء، (٣٢٨-٣٨٨هـ/٩٣٩-٩٩٨م)، **ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة**، تحقيق الدكتور صالح العلي، ١٩٧٩م.

(١١٧) أنظر: ابن الهيثم، الحسن، (٣٥٤-٤٣٢هـ/٩٦٥-١٠٤١م) كتاب **المناظر**، تحقيق الدكتور عبد الحميد صبرا، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٨٣م.

(١١٨) أنظر: الهامش، رقم (١٠١).

(١١٩) أنظر: العابد، بديع، دكتور، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، أحكام البنيان الإسلامية نشأتها ومجالاتها، **المهندس الأردني**، العدد ٥١، (ص: ٩-١٦). أنظر: البلخي، أبا زيد، (٢٣٥-٣٢٢هـ/٨٤٩-٩٤٣م)، **مصالح الأبدان والانفس**، تحقيق الدكتور محمود المصري، الناشر منظمة الصحة العالمية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٥، (ص:١٣١-١٤١).

(١٢٠) أنظر: ابن شادان، أحمد، (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، **أدب الوزراء**، مخطوط محفوظ، في مكتبة ليدن، هولندا، باب البنيان وتقدير مواضعه. أنظر: العابد، بديع، أحكام البنيان الإسلامية، مرجع سابق، (ص:١٤-١٥).

(121) See: Ben-Arieh, Y., (1984), Jerusalem in the 19th Century, The Old City, St, Martien's Press, N. Y., PP.: (122-125).

(122) See: Ben-Arieh, Y., (1986), Jerusalem in the 19th Century, Emerging of the new City, St, Martien's Press, N. Y., PP.: (360-366).

أنظر: عوض، عبد العزيز محمد، (١٩٦٩م)، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية**، دار المعارف، القاهرة، ص١٢-٤٤.

(123) See: Jones, O., (1988), The Grammar of Ornament, Studio Editions, London, First published in 1856, PP.: (52-54).

# الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية

## "الأندلس نموذجًا"




أنور محمود زناتي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية التربية – جامعة عين شمس

القاهرة –جمهورية مصر العربية



**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

أنور محمود زناتي، الوَقْف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية: الأندلس نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٤٠ – ٤٤.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

كان للوَقْف الإسلامي دورًا كبيرًا في خدمة الدعوة الإسلامية، فقد تنوعت الأغراض والجهات التي يوقف عليها، من مساجد، ومدارس، وأربطة، ودور لرعاية الأيتام، وأبناء السبيل، وتسبيل الماء، وحفر الآبار، والمصحات، ورعاية العلم وطلابه، وحفظ كرامة العلماء، واحتضان المؤسسات الحضارية الإنسانية، كالمساجد، ودور العلم، والمستشفيات، ومواساة الأرامل والفقراء واليتامى، وكانت الأوقاف كفيلة برعاية مجتمعات بأسرها من خلال مواردها التي لا تنضب. ويعرض هذا المقال لدور الوَقْف على المكتبات في النهضة العلمية للأندلس، حيث انتشرت المكتبات والكتب في جميع أنحاء البلاد.


## مُقدِمة

تشير القراءة المتأنية لتاريخ الحضارة الإسلامية، في عصورها المختلفة إلى أن الوَقْف(١) قام بدور بارز في تطوير المجتمعات الإسلامية اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وعمرانيًا، فقد امتدت تأثيراته لتشمل معظم أوجه الحياة بجوانبها المختلفة.(٢) ومن أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف هو "إنشاء المكتبات"، وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم، وهو ما يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه.(٣)

وفي هذه الصفحات سوف نتعرض لأهمية الوَقْف على الكتب والمكتبات ودوره في النهضة العلمية في المغرب والأندلس وكيف ارتقت الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعًا، جعلت العلامة الفرنسي جوستاف لوبون يقول في كتابه الشهير "حضارة العرب" "أنّ العرب في الأندلس قد حقّقوا تطوّرًا ماديًّا كبيراً وقفزة علميّة نوعيّة ونجحوا في جعل الأندلس تتبوّأ صدارة الدّول الأوروبية".(٤)

## الوَقْف على الكتب

يعد الوَقْف على الكتب من أفعال الخير التي يقوم بها بعض الناس تقربًا من الله تعالى فهو صدقة جارية وعلم ينتفع به. مصداقًا لقول رسول الله ﷺ "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".(٥) وكانت الأوقاف المصدر الأساسي الذي ينفق منه على المكتبات العامة وخاصة مكتبات المساجد وما يلزمها ويشمل ذلك ترميم البناء، وتزويد المكتبة بالكتب، ودفع مرتبات الموظفين.(٦) ويشير ابن الخطيب إلى الأوقاف عند حديثه عن القرى المحيطة بغرناطة(٧) ولأملاكها فيقول: "وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها من في الأزمنة، في العام بتقريب، ومعظمها السقى الغبيط الممين العالي مايتا ألف وثنتان وستون ألف، يضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد. وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط خمسمائة ألف وستون ألف".(٨)

وقد انتشرت مكتبات الوَقْف في الأندلس والمغرب على مَرِّ التاريخ، وكان شعب الأندلس شعبًا يقبل على العلم للعلم ذاته، ومن ثَم كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم لأنهم يسعون إليها مختارين غير مدفوعين بهدف غير التعلم، وكان الرجل ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم، ومتى عُرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس اليه بالبنان.[٩] أما العلماء فقل مَن تجده متبحرًا في علم واحد أو علمين؛ بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين.[١٠]

## مكتبات الأوقاف

هي مكتبات خاصة وقفها أصحابها على طلاب العلم فصارت مكتبات عامة متاحة لجميع الدارسين وقد انتشرت تلك المكتبات في العالم الإسلامي، فقد ارتبط ظهور المكتبات العامة وانتشارها بمبدأ وقف الكتب أي حبس الكتب على كتب معينة أو طائفة معينة من القراء، ولا يجوز التصرف فيها بحال من الأحوال.[١١] وقد كثرت مكتبات الأوقاف في الأندلس، وكانت تتاح فيها استعارة الكتب للجميع، ولا أدل على ذلك من الخبر الذي أثر على أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ( ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م) "إذ كان يعيب على مشتري الكتب، ويقول: الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف وقضيت حاجتي".[١٢]

وفي ذلك يقول الشاعر:

يا طالب العلم هذا بابه فتحاً فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
واشكر مجيرك من حل مرتحل إذا قرب الله من رماك ما نزحا[١٣]

من ناحية أخرى؛ فإن اسم صاحب الأحباس قد ظهر في أكثر من ترجمة، مما يشير إلى كثرة هذه الأحباس إلى درجة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالاشراف إليها كما هو الحال في التنظيمات الإدارية الأخرى، فيقال عن محمد بن عمروس بن العاصي المتوفي ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م، أنه انصرف إلى الأندلس وشهر بالعلم وكان موثرا وتولى الأحباس بقُرْطُبَة.[١٤] وكانت الكتب تحبس[١٥] لصالح الطلاب بقصد إبعاد الفضوليين والجاهلين الذين يظهرون بمظهر العلماء، لذا يشترط أن يكون المستفيد من طلاب العلم متحليًا بسلوكهم.[١٦]

وتعتبر مكتبات المساجد هي النواة التي قامت على أساسها كل أنواع المكتبات الأخرى، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب دينية وثقافية، وقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد ليضمنوا حفظها وإتاحتها للطلاب والدارسين.[١٧] فخلال مدة إقامة المسلمين الطويلة في الأندلس وجد العديد من المكتبات الملحقة بالمساجد والتي يستخدمها الناس الذين ليس لديهم مكتبات خاصة، فقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد لضمان حفظها وجعلها متاحة للطلاب الدارسين وكانت هذه المكتبات تمتلئ بالكتب القيمة ذات الخط الجميل والتجليد الرائع والمصاحف وكتب الفقه وعلم الكلام.[١٨]

وكانت هناك مكتبة مسجد طُلَيطِلَةُ[١٩] حيث كان من المساجد الشهيرة وتعقد فيه حلقات الدروس التي تجتذب الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوروبا بما فيها إنجلترا وإسكتلندا، وقد بلغت شهرة مكتبتها من حيث هي مركز للثقافة إلى أقصى البلاد النصرانية في الشمال.[٢٠] ومكتبة المسجد الجامع بقُرْطُبَة،[٢١] التي أسَّسَهَا الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وقد أقام لها موظَّفِين مخصَّصِين للعناية بشئونها، وجمع فيها النسَّاخ، وعيَّن لها عددًا كبيرًا من المجلِّدِين، وقد ظلَّتْ محطَّ أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس[٢٢]، وقد أمها مختلف الطلاب المسلمين والمسيحيين لا من اسبانيا فقط ولكن من أنحاء أخرى من أوروبا وافريقيا وأسيا. ومكتبة مسجد الزهراء.[٢٣] ومكتبة مسجد مالقة وكان العلماء يدعمونها بما يحبسونه عليها من كتب ومنهم محمد بن لب الكناني، الذي وقف جزءً كبيرًا من مكتبته الخاصة على الجامع الكبير بمالقة،[٢٤] وكان ابن لب "ذاكرًا للعلوم القديمة معتنيًا بها عاكفًا عليها وقبل وفاته حبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير ومكتبته.[٢٥]

وقام المسجد بدور المدرسة ولذلك وجد به الكثير من الكتب القيمة وإن كانت الصفة الغالبة على هذه الكتب هي كتب الفقه وعلم الكلام، بينما تقل فيها كتب الشعر غير الديني وكتب الفلسفة.[٢٦] وتذكر المستشرقة سيجريد هونكة أن الحكام أنشئوا في كل حي دارًا للكتب وزودوها بمئات الألوف من الكتب وجعلوها في متناول الجميع وفي مختلف فروع المعرفة، وكانت مجموعاتها ما بين عشرة آلاف ومائة ألف مجلد.[٢٧] كمكتبة إشبِيلِيّة العامة أيام الراضي بن المعتمد.[٢٨]

وكان الإنفاق على المكتبات بصفة عامَّة من ريع الأوقاف التي تُوقَف عليها؛ حيث كانت الدولة تُخَصِّصُ لها أوقافًا مُعَيَّنَة، ويُقَدِّمُ لها بعض الأغنياء وأهل الخير أوقافًا تساعد في الإنفاق عليها.[٢٩] وحظى الأندلس في مختلف عصوره بالمكتبات الوَقْفية والتي انتشرت في المدن الرئيسية مثل قُرْطُبَة وإشبِيلِيّة وغرناطة... الخ، وكان لها أكبر الأثر في نشر الثقافة الاسلامية واختفاء الأمية نهائيًا من الأندلس.

وعلى وجه العموم؛ كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة. وكان نصيب قُرْطُبَة وحدها عشرين مكتبة فيها عشرات الآلاف من الكتب.[٣٠] أما المقري[٣١] صاحب نفح الطيب[٣٢] فيذكر أنه وجد بقرطبة وحدها إبان عزها خمس وثلاثون مكتبة منفتحة الأبواب لجميع الناس، ولم تنفرد قرطبة وحدها بالمكتبات العامة، فقد وصلت معلومات عن خزانة كتب عامة في إشبِيلِيّة[٣٣] أيام الراضي بن المعتمد (ت ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م) اطلع على بعض كتبها العالم الأندلسي محمد بن مزين،[٣٤] وعندما تقلص الحكم الاسلامي في غرناطة الأندلس الصغرى وجد بها سبعون مكتبة من المكتبات العامة.[٣٥]

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية . مُحكَمة . ربع سنوية

## الدور الحضاري

وقد ساهمت تلك المكتبات بدور فعال في عملية الاتصال بين العلماء، حيث عملت على إمداد المؤلفين الأندلسيين بمصادر للمعلومات كان لها تأثير على مؤلفاتهم فيما بعد. كما وفرت تلك المكتبات الكتب النادرة والموجودة في المشرق سواء توفرت هذه الكتب في مكتبات خاصة، أو شبه عامة، أو عامة، حتى أتاحت للمؤلفين وإن لم يسافروا إلى خارج الأندلس أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات.[٣٦] ونتيجة لتلك الأوقاف على الكتب في الأندلس نشأت حضارة شامخة ارتكزت على مجموعة من الركائز من أبرزها توفير الكتب للعامة فانتشرت المكتبات في طول البلاد وعرضها، وتعلق الأندلسيون بالكتب تعلقاً ملفتاً، وانتشرت موجة حب الكتب والقراءة بين جميع طبقات المجتمع الأندلسي بلا استثناء.

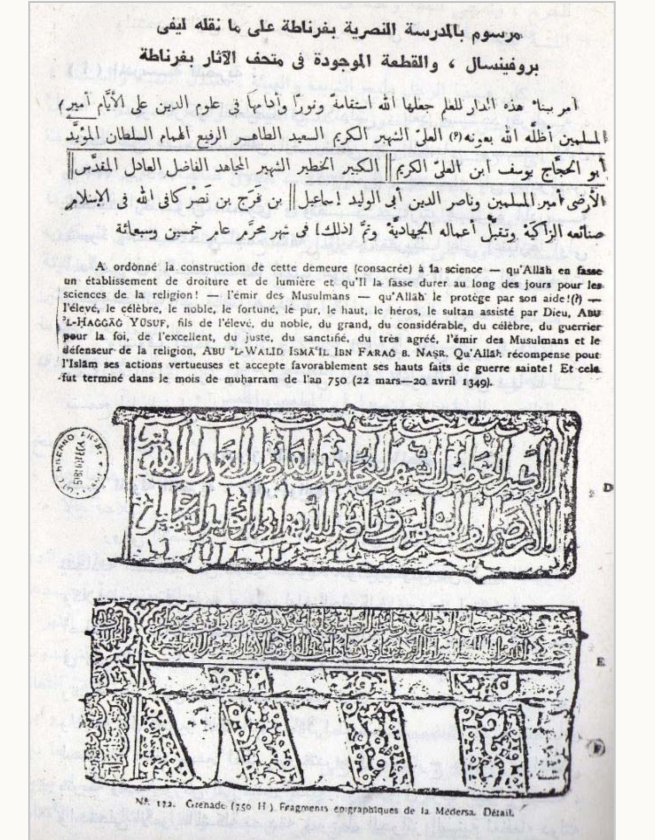
كما انتشرت ظاهرة وقف الكتب في الأندلس والمغرب على مر العصور، وجرت العادة أن تسلم للخزانات العامة، لتوضع تحت تصرف طلاب العلم والعلماء. وبفضل وقف الكتب والمكتبات انتشرت الثقافة في العالم الإسلامي وشملت جميع طبقات الناس، فقد كان نظام المكتبات يشجع الناس على الإقبال عليها لما يجدونه من العناية والنفقة السخية والإقامة المريحة، فينكبون على القراءة والنسخ والمطالعة، لايزعجهم هَمٌّ، ولايشغلهم خوف، كل هذا بفضل الخير العميم الذي فاض على المجتمع الإسلامي من مؤسسة الوَقْف العامرة.[٣٧]

كما ساهم الوَقْف على الكتب بطبيعة الحال في تنشيط حركة التأليف في الأندلس، حيث تفرغ عدد كبير من العلماء في مختلف المجالات للتأليف نتيجة توفر المكتبات الوَقْفية ووجود عدد لا بأس به في كل مدينة أندلسية. كما كانت تلك المكتبات تفتح أبواب المعرفة أمام الجميع، وأتاحت لهم فرصة الاطلاع على كتب وعلوم جديدة لم تكن متاحة لعدد كبير من الناس ولعبت دورًا في تثقيف الناس وجعلت من بينهم المفكرين والعلماء والأدباء، وأمدتهم بما يحتاجون اليه في تأليف كتبهم.

ولم تكن تلك المكتبات مجرد خزائن كتب، وإنما كانت مؤسسات تعليمية وتربوية أيضًا، فقد كانت أشبه ما تكون بالمدارس والجامعات، وبالتالي أسهمت نصيب وافر في العملية التعليمية فكانت مكانًا لعقد حلقات الدرس والمحاورات والمناقشات بين العلماء وأهل العلم، مما يتيح الفرصة للطلاب لعرض الأسئلة والاستفسارات وتلقي الإجابة عنها. وكان كثير من الأهالي يحبسون كثيرًا من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل عبد الملك بن حبيب السلمي (٢٣٨/ ٨٥٢م) الذي كان له أرض وزيتون بقرية بيرة وهي إحدى قرى غرناطة وكان بها مسجد قراءته وحبس جميع ذلك على مسجد قُرْطُبَة[٣٨] ومكتبته بطبيعة الحال.

وأمثلة وقف الكتب في الأندلس كثيرة منها أن العالم أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ / ١٠٨١م) أوقف كل كتبه على مسجد ببيرة عند أبي الحكم عبد الرحمن بن الحاج اللخمي (ت ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤م) خطيب المسجد القائم بالإشراف على مكتبة المسجد.[٣٩] وهناك العالم ابن مروان الباجي الذي وقف كل كتبه على مكتبة المسجد الجامع بإشـبِيلِيّة. وكذلك وقف محمد بن محمد بن لب الكناني طائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة.[٤٠] كما كان الوَقْف الطريقة التي حصلت بها الجامعات العظيمة مثل جامعتي قرطبة وطُلَيطِلَةُ[٤١] على مكتبتهما.[٤٢]

وكانت الكتب الموقوفة منهلاً صافيًا لطلاب العلم، وكان بعض العلماء يحبسون كتبهم عند أشخاص يثقون فيهم لضمان الحفاظ عليها وعدم تبديدها، وحتى يستفيد منها طلبة العلم بعد وفاة حابسها، ومنهم هارون بن سالم (ت ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢م) الذي وقف كتبه عند أحمد بن خالد،[٤٣] وقاسم بن سعدان بن عبد الوارث (ت ٣٤٧ هـ/ ٩٥٧م) الذي حبس كتبه عند محمد بن أبي دليم.[٤٤] وقام الفقيه محمد بن عيسى بن اسحق التجيبي (ت ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) بحبس كتبه على طلاب العلم بالعدوة.[٤٥] ووقف أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م) كتبه على أهل العلم فانتفع بها الناس،[٤٦] كما قام محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني (ت ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨م) بوقف كتبه على أصحاب الحديث،[٤٧] ومحمد بن محمد بن محارب الصريحي المالقي (ت ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩م) فقد عهد بريع كبير على طلبة العلم وحبس عليهم كتبه.[٤٨]


مرسوم بالمدرسة النصرية بغرناطة على ما نقله ليفى
بروفينسال ، والقطعة الموجودة فى متحف الآثار بغرناطة

أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونورًا وأدامها فى علوم الدين على الأيام أمير المسلمين أظله الله بعونه(؟) العلىّ الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف ابن العلىّ الكريم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضى أمير المسلمين وناصر الدين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم [ذلك] فى شهر محرم عام خمسين وسبعمائة

A ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allāh en fasse un établissement de droiture et de lumière et qu'Il la fasse durer au long des jours pour les sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allāh le protège par son aide!(?) — l'élevé, le célèbre, le noble, le fortuné, le pur, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, ABU 'L-ḤAGGĀG YŪSUF, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le défenseur de la religion, ABU 'L-WALĪD ISMĀ'ĪL IBN FARAĠ B. NAṢR. Qu'Allāh récompense pour l'Islām ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela fut terminé dans le mois de muḥarram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).

Nº 122. Grenade (750 H.) Fragments épigraphiques de la Médersa. Détail.

نقلاً عن: محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٨٩

دورية إلكترونية . مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ونتيجة للوقف على الكتب كثر النساخ ولم يقتصر هذا الأمر على الرجال بل تجاوزه إلى النساء، فقد حكي ابن فياض أنه كان يوجد بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة ينسخن المصاحف بالخط الكوفي.(٤٩)

## خاتمة

تعتبر المكتبات بصفة عامة، ومكتبات الوَقْف بصفة خاصة من أهم دعائم الحضارة، فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الشعب الأندلسي بالفكر والعلم والعلماء. والوَقْف على المكتبات، يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه، وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله أقبل الناس على وقف الكتب، وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، فقد كان وقف المكتبات والكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات.(٥٠)

## الهوامش:

(*) قدمت هذه الورقة في مؤتمر "**أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية**"، المنعقد في جامعة الشارقة (الإمارات) خلال الفترة ٦ - ٧ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ/ ٩ - ١٠ مايو ( أيار) ٢٠١١م.

(١) **الوقف في اللغة**: هو الحبس والمنع، وهو مصدر وقف الثلاثي، يقال وقفت الدار، أي حبستها، ولا يقال أوقفتها، لأنها لغة رديئة، ويقال للشيء الموقوف: وقف من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول. والوقف في الاصطلاح الشرعي فقد تعددت عبارات الفقهاء في تعريفه بناء على اختلاف آرائهم في لزومه، وتأبيده، وملكيته. عرفه الإمام أبو حنيفة بقوله: "هو حبس العين على حكم ملك الواقف، وتسجيل منفعتها على جهة من جهات البر، وعبارة الإمام هنا تدل على أنه يرى أن ملكية العين الموقوفة تبقى في يد الواقف. وعرفه بعض المالكية بقوله: هو جعل المالك منفعة مملوكه، ولو كان مملوكًا بأجرة، أو جعل غلته كدراهم، لمستحق، بصيغة مدة ما يراه المحبس". ويقسم الفقهاء الوقف إلى قسمين الأول: وقف خيري، وهو الذي يقصد به الواقف التصدق على وجوه البر، سواء أكان على أشخاص معينين كالفقراء والمساكين والعجزة، أم كان على جهة من جهات البر العامة، كالمساجد والمستشفيات والمدارس وغيرها، مما ينعكس نفعه على المجتمع ، راجع:

علي جمعة محمد: **الوقف وأثره التنموي**، أبحاث ندوة "نحو دور تنموي للوقف"، صفحة ٩١، وأحمد أبو زيد: **نظام الوقف الإسلامي: تطوير أساليب العمل وتحليل نتائج بعض الدراسات الحديثة**، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الرباط، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠.

(٢) راجع: محمد عبد القادر الفقي: **دور الوقف الإسلامي في التنمية**، مجلة الوعي الإسلامي، عدد رقم ٥٣٢، بتاريخ 03-09-2010.

(٣) راجع أحمد أبوزيد: **نظام الوقف الإسلامي**، مرجع سابق.

(٤) راجع جوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٦.

(٥) صحيح مسلم، **كتاب الوصية**، ج١١، ص ٨٥.

(٦) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الاسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣، ص ١٧٨.

(٧) **غَرْناطة** (Granada): بفتح أوله وسكون ثانيه ثم ونون بعد الألف طاء مهملة. مدينة في جنوب أسبانيا عاصمة بني زيرى من ملوك الطوائف وعاصمة بني الأحمر، استطاع الأسبان أن يوقعوا الفتنة بين خلفاء علي بن الحسن ولما تم لهم ذلك حاصروا غَرْناطة وأرسل فرديناند ملك أسبانيا رسله إلى قادة غَرْناطة المسلمة العربية بالاستسلام فرفضوا فنزل جيش أسباني مكون من ٢٥ ألف جندي واتجهوا صوب المزارع والحدائق وخربوها عن آخرها حتى لا يجد المسلمون ما يأكلونه، ثم جهزت ملكة أسبانيا ايزبيلا جيشا آخر من ٥٠ ألف مقاتل لقتال المسلمين في القلاع والحصون الباقية وبعد قتال مرير استسلمت المدينة وسقطت في أيدي الأسبان، راجع: ياقوت: **معجم**، ج٤، ص ١٩٥.

(٨) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ٢٠٠١، ص ١٣٢.

(٩) مصطفى الشكعة: **الأدب الأندلسي**، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٣، ص ٧١.

(١٠) مصطفى صادق الرافعي: **تاريخ آداب العرب**. ج٣، مطبعة الاستقامة، ط١، ١٩٤٠، ص ٣٣١.

(١١) شعبان عبد العزيز خليفة: **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى**، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧، ص ٣٠٩.

(١٢) المقري: **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عباس ط ١. دار صادر بيروت، ١٩٦٨، ج٧، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧.

(١٣) ابن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ج٤، ص ٣٠٩.

(١٤) محمد عبد الحميد عيسى: **تاريخ التعليم في الأندلس**، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٨٢، ص ٢٧٨.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية . مُحكّمة .ربع سنوية

(١٥) **تحبيس**: هو اللفظ المستخدم في الدول الإسلامية التي ساد فيها المذهب المالكي مثل الأندلس، ويقصد به علماء المالكية: الوقف راجع، أحمد شوقي بنين: **دراسات في علم المخطوطات**، ص ٤٣ ، ٤٤.

(١٦) يوسف العش: **دور الكتب العامة وشبه العامة**، ترجمة: نزار أباظة ومحمد صباغ، درار الفكر، بيروت، ١٩٩١، ص ١٩٤.

(١٧) محمد محمد أمان: **الكتب الإسلامية**، مكتبة فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٠، ص ٥٩.

(١٨) رضا سعيد مقبل: **تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب-جامعة المنوفية، ٢٠٠١، ص ٨٩.

(١٩) شعبان عبد العزيز خليفة: **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى**، مرجع سابق، ص ٣٤٩.

(٢٠) دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الوهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٣٨، ص ٢٨٣.

(٢١) خوليان ريبيرا: **التربية الإسلامية في الأندلس**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٩٤، ص ٢٠٧.

(٢٢) ابن الأَبَّار: **التكملة لكتاب الصلة**، ١٩٠/١.

(٢٣) أحمد فكري: **قُرْطُبَة في العصر الإسلامي: تاريخ وحضارة**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٢٣.

(٢٤) **مَالَقَةُ** (Malaga): بفتح اللام والقاف كلمة عجمية. مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رَية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وأَلمرّية. قال الحُمَيّدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكُوَرة كالبادية لها أي الرستاق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم. منهم عزيز بن محمد اللخمي المالقي وسليمان المَعافري المالقي. راجع: ياقوت: معجم، ج٥، ص ٤٣، أبو بكر الزهري: **كتاب الجغرافية**، ص ٩٣.

(٢٥) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ص ٨٠.

(٢٦) خوليان ريبيرا: **التربية الإسلامية في الأندلس**، ص ١٨٨.

(٢٧) سيجريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون، ط٧، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢٨) حسين مؤنس: **تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس**، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٨.

(٢٩) محمد حسين محاسنة: **أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين**، دار الكتاب الجامعي، العين. ٢٠٠١ ص١٦١.

(٣٠) سيجريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون، ط٧، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٩٩.

(٣١) ولد أحمد بن محمد بن أحمد المقرى القرشى المكنى بأبي العباس والملقب بشهاب الدين سنة ٩٨٦ بمدينة تلمسان وأصل أسرته من قرية مقرة بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة؛ نشا بتلمسان وطلب العلم فيها وكانت م اهم شيوخة التلمسانين عمة الشيخ سعيد المقرى. وهو واحد من أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، سطعت فضيلته العلمية في تلمسان وفاس بالمغرب العربي، وذاعت في مصر والحجاز وبلاد الشَّام بالمشرق العربي إبان حكم العثمانيين الأتراك. وقد شهد له معاصروه بالإمامة والفضل، في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلوم القرآن، وفي علوم العربية.

(٣٢) كان اسم الكتاب أولاً "عرف الطيب، في التعريف، بالوزير ابن الخطيب" فلما ألحق به أخبار الأندلس، وأفاض فيها، اتخذ له هذا الاسم الجديد. جعل المؤلف كتابه قسمين كبيرين: يشمل الأول رحلة المؤلف، ووصف جزيرة الأندلس وما تحويه من المحاسن، وفتح المسلمين لها، ومن تعاقب عليها من الأمراء والخلفاء إلى ملوك الطوائف، ووصف قُرْطُبَة ومحاسنها، وتراجم من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، وفيهم جماعة من النساء، وذكر مذاهب الأندلسيين وسائر أحوالهم إلى خروجها من أيدي المسلمين. ويشتمل القسم الثاني على ترجمة مفصلة لـ "لسان الدين بن الخطيب" وأقواله، وأشعاره، ومشايخه، وغير ذلك. وفي كل باب من أبواب الكتاب يحشد "المقرى" مجموعة هائلة من المعلومات التاريخية والجغرافية والأدبية والاجتماعية، منقولة من كتب مختلفة، يعتبر أكثرها في حكم المفقود وما يجعل للكتاب قيمة لا تقدر، ويصفه في طليعة المراجع الأولى لتاريخ إسبانيا الإسلامية.

(٣٣) **إشبِيلِيّة** (Sevilla): بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة. م، وتقع مدينة إشبِيلِيّة في الأندلس، كانت على جانب من الأهمية أيام الفينيقيين، اتخذها الرومان عاصمة لمقاطعة بيتيكا، وبنو بجوارها مدينة اتاليكا، تتصل بالمحيط الأطلنطي بنهر الوادي الكبير، فتح المسلمون إشبِيلِيّة في شعبان ٩٤ هـ/ ٧١٣م بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهر، وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل وهو أول ولاتها من المسلمين، راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ١٩٥.

(٣٤) حسين مؤنس: **تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس**، ص ٣٨.

(٣٥) جرجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج٣ ، دار الهلال، ١٩٦٨، ص ٢٣٠.

(٣٦) شرين السيد عبده: **الاتصال الوثائقي في الأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص ١٥٨.

(٣٧) راجع أحمد أبو زيد: **نظام الوقف الإسلامي**، مرجع سابق.

(٣٨) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج٣، ص ٥٤٨.

(٣٩) شرين السيد عبده: **الاتصال الوثائقي في الأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص ١٥٧.

(٤٠) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج٣، ص ٨٠ – ٨١.

(٤١) **طُلَيطِلَةُ**: كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طار، وهي: مدينة قديمة في أسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة ٩١ ك جنوبي غربي مدريد. كانت مزدهرة أيام الرومان وتسمى توليتم (Toletum) ثم صارت حاضرة الدولة الْقُوْطِيَّة. فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ (٧١٣م) وجعلوها قاعدة الثغر الأدنى للدولة الإسلامية وحينما سقطت دولة الخلافة الأُمَوية وانقسمت الأندلس إلى طوائف كانت طُلَيطِلَةُ مستقلة يحكمها بنو ذي النون سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) وهم من زعماء البربر وسقطت طُلَيطِلَةُ في يد ملك (قَشْتَالَة) (الفونسو السادس) في المحرم سنة ٤٨٧ هـ ١٠٨٥م وينتسب إليها كثير من العلماء منهم عيسى بن دينار الغافقي الطليطلي ومحمد بن عبدالله بن عيشون الطليطلي وصاعد الأندلسي صاحب كتاب طبقات الأمم. راجع، ياقوت: **معجم البلدان** ( ٤ / ٣٩)، أبو بكر الزهري: **كتاب الجغرافية**، ص ٨٣، ويوسف بني ياسين: **بلدان الأندلس**، ص ٣٩١.

(٤٢) محمد محمد أمان: **الكتب الإسلامية**، ص ٥٩.

(٤٣) القاضي عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، مجلد ٢، ج٣، ص ٤٨.

(٤٤) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، ج١، ص ٣٦٧.

(٤٥) ابن بشكوال: **الصلة**، ص ٥٥٨.

(٤٦) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مج ٨، ص ٥١٨، المقري: **نفح الطيب**.

(٤٧) المقري: **نفح الطيب**: ج٢، ص ١٥٧.

(٤٨) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٣، ص ٧٩.

(٤٩) المراكشي: **المعجب**، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الاستقامة، القاهرة ١٩٤٩، ص ٣٧٢.

(٥٠) للمزيد من التفاصيل: راجع أحمد أبو زيد: **نظام الوقف الإسلامي**، مرجع سابق.

# الجغرافيا الطبية عند العرب والمسلمين




أ. د. عبد الرحمن محمد الحسن

أستاذ الجغرافيا المشارك – كلية التربية
عميد الشئون العلمية – جامعة بخت الرضا
النيل الأبيض – جمهورية السودان



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عبد الرحمن محمد الحسن، الجغرافيا الطبية عند العرب والمسلمين.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٤٥ – ٥١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

تتناول هذه الدراسة الجغرافيا الطبية عند العرب والمسلمين، وكان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع هو أهمية الامراض وانتشارها وتأثيرها علي السكان، ودور العرب والمسلمين فيما عرف لاحقًا بالجغرافيا الطبية، وهدف البحث إلى توضيح مفهوم وتعريف الجغرافيا الطبية، وأهم الأمراض التي أشار إليها العرب والمسلمين، كما هدفت إلي توضيح أثر العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية في انتشار الأمراض. اكتسب البحث أهميته من أهمية الجغرافيا الطبية، والدور الكبير الذي لعبه العرب والمسلمين في العلوم وخاصةً الجغرافيا الطبية، ولتحقيق أهداف البحث تم تناول تعريف الجغرافيا الطبية، وأهم الأمراض التي أشار إليها العرب والمسلمين، وبعض العوامل الجغرافية التي تساعد في انتشارها.

وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها أن العرب والمسلمين كان لهم السبق في هذا الفرع من فروع الجغرافيا والذي عُرف لاحقًا بالجغرافيا الطبية، كما توصلت الدراسة الي أنهم اكتشفوا عدد من الأمراض، وربطوا الإصابة بها وانتقالها وانتشارها بعوامل جغرافية مختلفة. وعليه أوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بالدراسات التي تناولت الأمراض والعوامل الجغرافية التي ساعدت علي انتشارها لدي العرب والمسلمين.


## مُقدِّمة

اهتم الجغرافيون العرب والمسلمين بالجوانب البشرية اهتمامًا كبيرًا بحيث لا نجد أي فرع من فروع الجغرافيا البشرية المعاصرة المتعارف عليها، إلا وكتب فيه الجغرافيون العرب والمسلمون. فركز علم الجغرافيا منذ القدم علي كشف العلاقة بين البيئة والإنسان، فإذا كان الإنسان ابن بيئته، فمن البديهي أن يكون للبيئة بالغ الأثر على مجاله الحيوي، وعلى صحته وسلوكه وشخصيته، وعلى سائر جوانب نشاطه. ولا شك أن تزايد الاتجاهات الفلسفية والأخذ بالمناهج العلمية وتنوع الموضوعات التي يدرسها هذا العلم أعطى تعددًا لفروعه. ومن ضمن هذه الفروع ما تمحور حول اظهار العلاقة بين صحة الإنسان والعوامل البيئية وهو ما أطلق عليه فيما بعد اسم الجغرافيا الطبية (medical Geography).

وتعتبر الجغرافيا الطبية فرعًا أساسيًا من فروع الجغرافيا التطبيقية، والتي أمكن لها أن تلعب دورًا في مجال الدراسات البيئية وتقصى أسباب الأمراض والأوبئة المنتشرة بأي مجتمع من المجتمعات (الغامدى ١٩٨٤ : ١٠)، وعلاقة الجغرافيا بالعلوم الطبية علاقة متبادلة بحيث يدعم كل منهم الآخر، وقد ذكر البشرى والبيوك (١٩٩١: ١) أن ياقوت الحموي ( ١١٧٩- ١٢٢٩ ) أشار إلى أنه من اللازم على الذين يمارسون المهن الطبية أن يكونوا على دراية ومعرفة جيدة بالظروف الجغرافية أو بعلم الجغرافيا. فكانت إسهامات العرب والمسلمون في الجغرافيا الطبية إسهامًا كبيرًا. وفى العصر الحديث يقول كل من Mayer و Fraizer إن كل التساؤلات الطبية عادةً ما يكون لها أساس جغرافي.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وقد تعرضت كتب التراث الجغرافية لذكر بعض المناطق وأمراضها، وإعتقد كثير من الجغرافيين أن هناك علاقة بين المناخ والأمراض، وعبروا عن ذلك "بأمزجة البلدان وأهوائها"، فكان لهم السبق في ذلك. فإذا أراد القارئ أن يجد في القرن الحادي عشر عجيبة من العجائب الجغرافية فلا يبحثن عنها في أوربا التي صارت آنذاك بربرية، ولكن ليبحث عنها عند العرب (وجدي ١٩٦٧ : ١٢٢). وفي العصر الحديث أدركت الحضارة الغربية أهمية الجغرافيا الطبية فأدرجتها ضمن المقررات الدراسية حتى في أقسام الطب الوقائي (طب المجتمع) ناهيك عن إنشاء كليات متخصصة فيها كما هو الحال في هولندا (الرديسي ٢٠٠١ : ١١).

## مشكلة الدراسة

أهتم الإنسان بالأبعاد المكانية الجغرافية للمرض وحاول تأطيرها خرائطيًا، فتدرس الجغرافيا الطبية أدق التفاصيل، وتعرض لما تخلفه البيئة من ضرر على صحة الإنسان، وما ينتج عنها من أمراض، وتهتم بدراسة المرض ونوعه، والبيئة التي ينشأ فيها، وتحدد مسببه وناقله ومضيفه، والمتضرر به ودورة حياته، كما تعرض للظروف البيئية المواتية للمسبب والناقل والعائل، والتي اهتم المسلمون بها كثيرًا. وتمثلت مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي: هل عَرف المسلمين الجغرافيا الطبية؟ وتتفرع منه الأسئلة الآتية: ما هي أهم الأمراض التي كانت موجودة في بيئتهم؟ وما هي العوامل الجغرافية التي تؤثر في انتشار الأمراض؟

## أهداف الدراسة

تهدف هذه إلى:

١ – التعرف على دور المسلمين في الجغرافيا الطبية.

٢ – الوقوف علي بعض الأمراض المنتشرة في بعض المناطق.

٣ – استعراض بعض العوامل الجغرافية التي ساهمت في الاصابة بالأمراض.

## أهمية الدراسة

بلغت مكانة علوم الحياة في ظلّ الإسلام مبلغًا عظيمًا، حتى أصبح المسلمون فيها سادة، وقد ملكوا ناصيتها كما ملكوا ناصية العالم، فغدت جامعاتهم مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا من بلادهم لطلب تلك العلوم، وطفق ملوك أوربا وأمراؤها يَفِدُون إلى بلاد المسلمين ليعالَجوا فيها، وهو ما دعا العلاّمة الفرنسي جوستاف لوبون يتمنى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة (لوبون ١٩٦٩ : ١٣)، وقال أيضًا تعبيرًا عن عظمة الحضارة العلميَّة في الإسلام: "إن أوربا مدينة للعرب (المسلمين) بحضارتها (لوبون ١٩٦٩ : ٥٦٦). لكل ذلك كانت أهمية هذه الدراسة.

## تعريف الجغرافيا الطبية

تعد الجغرافيا الطبية أحد الفروع الحديثة لعلم الجغرافيا، وقد عرفها البعض بأنها ذلك العلم الذي يتم فيه تطبيق الأساليب الجغرافية علي المشكلات الصحية، وذلك لإبراز التوزيع المكاني لأنماط الأمراض المرتبطة بالإنسان (Hunter 1974 : 46). توجد تعريفات متعددة للجغرافيا الطبية، فهي تعنى دراسة العلاقة بين البيئة وصحة الإنسان، أو هي العلم الذي يبحث عن التفسيرات الجغرافية لظهور الأمراض وانتشارها (شرف ١٩٨٦ : ٩) وإنها علم مستقل من العلوم الأخرى يركز على دراسة الأمراض المعقدة والمركبة ذات العوامل المتعددة (ماجلاشان Mc Glashan ١٩٧٢ : ٥). وفى تعريف آخر لبانكس ذكر بأنها تهتم بدراسة العوامل الجغرافية وتأثيرها على الصحة والمرض (بانكس Banks ١٩٥٩ : ٢١٥ ).

كما عرفها سكوفورتسوف Skvortsov بأنها تهتم بدراسة المناطق المتنوعة من الأمراض، وذلك من وجهة نظر التأثير الكلى أو الجزئي لهذه البيئة على الحالة الصحية للسكان (اللبان ١٩٩٩: ١). وأيضًا عرفها (ماى May : ١٩٥٠ : ٩) بأنها تهتم بدراسة العلاقات بين العوامل الباثولوجية (Pathogens) والعوامل الجغرافية (Geogens). وعليه تصبح الجغرافية الطبية بأنها ذلك العلم الذي يتم فيه تطبيق الأساليب الجغرافية على المشكلات الصحية، وذلك لإبراز التوزيع المكاني لأنماط الأمراض المرتبطة بالإنسان. وفي سنة ١٩٦٣م قدم هنتر (Hunter) تعريفًا للجغرافيا الطبية بأنها تطبيق للمفاهيم والأساليب الجغرافية لدراسة الصحة والمشكلات المرتبطة بها.

## أهم الأمراض

يشير الحموي في مقدمة معجمه إلى أن الأطباء في حاجة إلى معرفة الجغرافيا، وأن حاجتهم إليها ضرورية (الحموي ١٩٥٥م: ١). لقد كان الجدري من الأمراض الجلدية التي تركت بصماتها علي الجنس البشري حيًا وميتًا، ويزعم بعض الكُتَّاب أن المرض انتشر في أوربا مع قبائل القوط والجومان، حيث يصف جريجوري في فرنسا مرضًا ينطبق عليه، ولكن الوثائق التاريخية تثبت أن هذا المرض كان منتشرًا في شمال إفريقيا قبل أن يحل القرن السادس الميلادي، ويصف أبو بكر الرازي في صدر القرن العاشر الميلادي هذا المرض وصفًا دقيقًا، حيث كان منتشرًا في بلاد الشرق الأدنى في ذلك الوقت، وهناك إِعتقاد أن المرض وفد من بلاد الحبشة عن طريق العرب إبان حرب عام الفيل، ثم نقله العرب إلى مصر ومنها إلى أسبانيا، ومن خلالها إلى دول القارة الأوربية (السبعاوي ١٩٩٧: ٥).

وتناول ابن خرداذبة في عجائب طبائع البلدان ما يمكن أن يندرج تحت "الجغرافيا الطبية"، يقول ابن خرداذبة مَن أقام بقصبة الأهواز حولاً فتفقد عقله وجده ناقصًا، ولا يوجد بها أحد له وجنة حمراء، والحُمىَ بها دائمة. ذكر الجاحظ أن عدة من قوابل الأهواز أخبرته أنهن ربما قبلن المولود فيجدنه محمومًا... ومَن دخل بلاد الزنج فلابد أن يجرب، ومَن سكن البحرين عظم طحاله. قال الشاعر: ومَن يسكن البحرين يعظم طحاله... ويحسد بما في بطنه وهو جائع (خرداذبة ١٨٨٩م: ١٧٠– ١٧١).

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وإن روعة الإسهامات الإسلامية في الجغرافيا الطبية والطبِّ لتتجلَّى في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطِّبية النادرة، التي كان لها الفضل الكبير في تحويل مسار الطبِّ إلى اتجاه آخر، تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا. وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجِدَ على ظهر الأرض وهو يهتدي إلى أنواع من التطبيب تتَّفِق مع مستواه العقلي وتطوُّره الإنساني مع ربطه لذلك بالبيئة الجغرافية للبلدان والمناطق، وكان ذلك النوع من الطبِّ يُعرف بالطبِّ (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون يذكر أن: "... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحيّ، وربما صحَّ منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي" (ابن خلدون ١/ ٦٥٠).

ويشير المقدسي إلى أهل بغداد بأنهم قليلو الأعمار (المقدسي ١٩٠٦: ٣٤). ويضيف فيقول: "فيه أيضًا للمقيم بق وبراغيث وكرب عظيم، وفي الليل دبس وفي النهار حر السموم (المقدسي ١٩٠٦: ٤١٠)، ويتحدث المقدسي عن عين ماء بطبرية تغلي تعم أكثر حمامات البلد.. وفي هذه الكورة ماء مسخن يسمي الحمة حار اغتسل فيه ثلاث أيام ثم اغتسل في ماء آخر بارد (حمام السونا) وبه جَرَب أو قروح أو ناسور أو أي علة تكون، برأ بإذن الله.. وبحيرة صُغَر أعجوبة يقلب فيها نهر الأردن ونهر الشراة .. وأن احتقن بمائها اشفي من علل كثيرة، ولها موسم في شهر آب يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل" (المقدسي ١٩٠٦: ١٨٥).

وقد برزت شخصيات إسلامية لامعة في ميدان علم الطب والجغرافية الطبية، من أمثال ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، لدراسة البيئة الجغرافية دراسة جيدة، والذي استطاع أن يُقَدِّم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصَّل إليه من اكتشافات، وما يسَّره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أوَّل من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأوَّل مَرَّة طُفَيْل (الإنكلستوما)، وسمَّاها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالِم الإيطالي (دوبيني) بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أوَّل من وصف الالتهاب السحائي، وأوَّل من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ، والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقرَّ عليه أساطين الطبِّ اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أوَّل من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي (النجار: ١٣٢، ١٣٣)، كما كشف ابن سينا - لأوَّل مَرَّة أيضًا - طُرُقَ العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجُدَرِيّ والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحيَّة الدقيقة في الماء والجوِّ، وقال: "إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجرَّدة، وهي التي تسبِّب بعض الأمراض" (الدفاع ١٩٩٨: ٢٩٨). وهو ما أكَّدَهُ (فان ليوتهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخِّرون من بعده بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن ابن سينا يُعَدُّ أوَّل من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتلُّ مرتبة عالية في الطبِّ الحديث؛ فقد وَصَفَ لأوَّل مَرَّة (التهاب السحايا الأولي) وفرَّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) - وهو الالتهاب السحائي - وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدَّث عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها (النجار: ١٣٣). ويذكر ابن الفقيه أن من عيوب الشام كثرة طواعينها والناس يقولون حمي خيبر وطواعين الشام ودماميل الجزيرة وجرب الزنج وطحال البحرين، قالوا ومَن أقام بالموصل حولاً وجد في قوته فضلاً ومن أطال الصوم بالمصيصة خيف عليه الجنون (ابن الفقيه ١٨٨٥م: ١١٨). وقد تناول النويري (٦٧٧ – ٧٣٢ هـ) الأقطار الشهيرة بأنواع معينة من الأمراض فقال: طواعين الشام، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وحمي خيبر، وجنون حمص، وعرق اليمن، ووباء مصر، وبرسام العراق، وقروح بلخ (النويري ١٩٢٣: ٣٧٠ – ٣٧١).

## العوامل الجغرافية المؤثرة في إنتقال الأمراض

من خلال تعريف الجغرافيا الطبية يتضح أن العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية لها أثر كبير في انتشار الأمراض، والمسلمين من خلال اهتمامهم بالبيئة أشاروا إلى هذه العوامل الجغرافية المختلفة ومدى تأثيرها في انتقال وانتشار الأمراض بين الناس، وهنا سيتم التطرق إلى بعض هذه العوامل:

### ١- المناخ:

يعتبر المناخ من أكثر العوامل الطبيعية تأثيرًا علي حياة وصحة الإنسان، فبعض الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطي قد لاحظوا العلاقة الكبيرة بين المناخ والصحة والمرض (البشري والبيوك ١٩٩١م: ١)، ومن أولئك الجغرافيون ابن حوقل الذي حاول الربط بين المناخ والنشاط البشري. وهناك ابن خلدون وما ذكره في أثر المناخ في أخلاق البشر والعلاقة بين المناخ وسلوك الإنسان (محمدين ١٩٩٣: ٢٠٣). كما يوجد كتاب المسعودي "مروج الذهب" الذي أشار في قسم منه إلى العلاقة بين البيئة وصحة الإنسان.

### ٢- فساد الهواء:

للهواء وتلوثه دور كبير في انتشار الأمراض، فيعزي المجوّسي (كان حيًا قبل سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) حدوث وانتشار الأوبئة إلى تبدلات الجو وفساد الهواء بالعفونات فيقول: فأما خروج الهواء عن الاعتدال في جملة جوهره، فهو أن يستحيل في جوهره وفي كيفياته إلى الفساد والعفن، فيحدث في الناس أمراضًا وأعراضًا رديئة ... وتسمى هذه الأمراض، بالوافدة وإنما سميت أمراض زمان واحد، وذلك لأن السبب المحدث لها عامل مشترك وهو الهواء المحيط بنا. وأما تغير جوهر الهواء من قبل الموضع فيكون إما من بخارات تحدث من كثرة الثمار والبقول إذا عفنت فيرتفع منها بخارات رديئة تخالط الهواء، أو من بخارات ترتفع من الخنادق، أو من البحيرات من الآجام، أو من أقذار المدن، وأما من حيث القتلى والموتى تكون في

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

البلد أو بالقرب منه إما حرب يقتل فيه كثير من الناس، أو موت البهائم، ثم إذا حدث فيهم الوباء فيرتفع من تلك الجيف بخارات رديئة فتخالط الهواء فيستحيل الهواء إلى جوهر البخار وكيفيته فيستنشقه الناس فتكثر فيهم الأمراض الرديئة المهلكة كالموت الذي عرض لأهل أثينا (المجوسي ١٢٩٤هـ: ١٦٨ – ١٦٩).

أستدعى الخليفة في بغداد شيخ الأطباء أبا بكر الرازي وطلب منه أن يعد تصميمًا لمستشفى كبير في ضواحي بغداد يكون أكبر وأحدث ما أنشئ في زمانه.. فاشترى الرازي فخذه لحم كبيرة وقطعها إلى قطع صغيرة.. ووضعها في أماكن مختلفة من ضواحي بغداد.. وأخذ كل يوم يمر على اللحم ليرى تأثير الجو والزمن عليها.. فالقطعة التي تلفت بسرعة إعتبر أن الهواء في هذه المنطقة فاسدًا ولا يصلح لإقامة المستشفى.. أما القطعة التي ظلت صالحة إعتبر الهواء في هذه المنطقة صحيًا أكثر من غيره.. وبهذه الفكرة الذكية وضع الرازي أول قاعدة لاختبار البيئة الصالحة للاستشفاء والعلاج.

ويعرّف ابن سينا (٣٧١ – ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ – ١٠٣٧ م) الهواء الجيد فيقول: الهواء الجيد الجوهر هو الهواء الذي ليس يخالطه من الأبخرة والأدخنة شيء غريب، وهو مكشوف للسماء غير محقون الجدران والسقوف (ابن سيناء، بدون تاريخ: ٨٤). وللإمام الغزالي قول جدير بالذكر عن حقيقة حامل المكروب وفترة الحضانة، يقول: إن الهواء في البلدة المصابة بالوباء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلاّ بعد التأثير في الباطن فالخارج من البلد يقع به الوباء لا يخلص غالبًا مما استحكم به (البار: ٧٦). ويذكر ابن رضوان (ت ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧م) بأن فساد الهواء هو أحد أسباب حدوث الأمراض الوافدة (الأوبئة) فيقول: والهواء تتغير كيفيته على ضربين، أحدهما تغيره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضًا وافدًا ولست أسميه تغيرًا ممرضًا، والثاني تغيره الخارج عن مجرى العادة وهذا هو الذي يحدث المرض الوافد، وكذلك الحال في الباقية فإنها إما أن تتغير على العادة فلا يحدث مرضًا، وأما أن يكون تغيرها تغيرًا خارجًا عن العادة فيحدث المرض الوافد وخروج تغير الهواء عن عادته يكون إما أن يسخن أكثر أو يبرد أكثر أو يرطب أو يجف أو يخالطه حال عفنية، والحال العفنية إما أن تكون قريبة وإما بعيدة (ابن رضوان ١٩٨٨: ٤٦).

وكذلك ذكر إبراهيم عبد الرحمن الأزرق (كان حيًا ٨١٥ هـ / ١٤١٢م) في كتابه (تسهيل المنافع) الصريح في ذكر وتحديد الأمراض المعدية نتيجة تلوث الهواء حيث يقول: وينبغي للإنسان اجتناب الأمراض المعدية بواسطة الهواء إلى مجالسة أصحابها كالجذام ... والرمد والسل فليحذر القرب من أصحابها وليتباعد عنهم إلى فوق الرمح إلى ما بعد (الأزرق، بدون تاريخ: ١٨٠).

**٣- المياه:**

يلعب الماء دورًا مهمًا في الصحة والمرض، فيؤثر الماء في المرض بعدة طرق منها الأمراض الناتجة عن قلة المياه، والأمراض المنقولة بواسطة المياه، والأمراض الناتجة عن تلوث المياه. فإن رسالة ابن رضوان (دفع مضار الأبدان بأرض مصر) محاولة رائدة في مجال الجغرافية الطبية. كما يمكن أيضًا اعتبارها بحثًا مبكرًا في طب الأمراض المتوطنة. فأكد ابن رضوان على أن مياه النيل تتلوث نتيجة وقوفه عن الحركة لاحتقان الماء فيه وعند الفيضان حيث يجلب العفونات والأوساخ من المستنقعات والمدن التي يمر منها، لذلك يؤكد على ضرورة غليه وتصفيته قبل شربه، كما أكد أيضًا أن مياه آبار القاهرة لا تصلح للشرب لأنها تختلط بما يرشح فيها من عفونة المراحيض، جاءت آراؤه هذه في رسالته (دفع مضار الأبدان بأرض مصر)، وقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة وأنه ذو أجزاء كثيرة وأن هواؤها وماؤها رديئان وأردأ ما يكون النيل بمصر عند فيضانه وعند وقوف حركته وعلى ذلك فينبغي أن يغلى الماء ويبالغ في تصفيته ... فرداءة ماء النيل ناتجة من وقوف حركته في زمن الصيف ومن حركة زيادته لأن يجلب معه الأقذار والعفونات، ولذلك ينبغي أن يسقى النيل من المواضع التي فيها جريانه أشد والعفونة فيها أقل. وأما الآبار فإن ماؤها لا يصلح للشرب منه لقرب مياه القاهرة وضواحيها من وجه الأرض مع سخافتها يوجب ضرورة أن يصل إليها بالرشح من عفونة المراحيض شيء ما ولأن بطائح الأرض تمتلئ متى صار ماء النيل في أيام فيضانه (الخطابي ١٩٨٨: ١٥٧).

ويقول ابن زهر ( ٤٦٤ – ٥٥٧ هـ/ ١٠٧٢ – ١١٦٢م): وأما المياه فإنها إن كانت مياهًا راكدة تنتن وتكون عكرة بما تحتها من حمأ وأقذار، فإنها قد يكون عنها ما ذكرته من الوباء بالحميات الدقية (ابن زهر ١٩٨٣: ٤٢٢). وجاءت إشارات عديدة لدى الأطباء العرب والمسلمين حول العلاقة بين المستنقعات وانتشار الأوبئة من ذلك قول الزهراوي في الحمى الوبائية: من أسباب إفراط الكيفيات على الهواء من بخارات المياه الراكدة المتعفنة وما يغلب على الهواء من روائح الجيف والقتلى... وما شاكل ذلك، فإذا تغير الهواء وفسد بأحد هذه الأسباب، ولاسيما نتن الجيف والموتى فهو أعظم ضررًا فيعرض عند ذلك تغير لأكثر الناس أمراض خبيثة رديئة ... وتحدث هذه الحميات ... باستنشاق الهواء (الزهراوي: ١٥٧).

وعن كيفية الحصول على الماء الصالح أو استصلاحه يري ابن سينا أن أفضل المياه، مياه العيون الجارية والمتحدرة من مواضع عالية وكذلك ماء المطر، ومن نصائحه لإصلاح الماء قوله: والتصعيد والتقطير مما يصلح المياه الرديئة فإن لم يكن ذلك فالطبخ. وأما مياه الآبار فرديئة وذلك لأن مياهها محتقنة مخالطة للأرضيات... وأردؤها ما جعل لها مسالك في الرصاص فتأخذ من قوته وتوقع كثيرًا من قروح الأمعاء. وهذه إشارة صريحة إلى حالات التسمم بالرصاص. والمياه الراكدة الأجية خصوصًا المكشوفة فرديئة... والمياه الراكدة كيفما كانت غير موافقة للمعدة... والمياه التي يخالطها جوهر معدني وما يجري مجراه والمياه العلقية فكلها أردأ ولكن في بعضها منافع (ابن سينا بدون تاريخ: ٩٣). وقد أشاروا إلى غليان الماء وذلك

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بغرض قتل الميكروبات وغيرها، فيقول ابن رضوان: وينبغي أن ما يروق ويشرب، وإن تصفيه بأن تجعله في آنية الخزف والفخار أو الجلود، وتأخذ ما يصل منه بالرشح، وإن شئت أسخنته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق، ثم قطعت منه ما راق، إذا ظهرت لك فيه كيفية رديئة محسوسة فأطبخه بالنار ثم برده (ابن رضوان ١٩٨٨: ٢٤، ٤٢، ٧٤).

٤- السكن:

أفاض ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ/ ٩٨٠ – ١٠٣٧م) الحديث عن شروط السكن الصالح فمن جملة ما يقول: (ينبغي لمن يختار المساكن أن يعرف تربة الأرض وحالها في الارتفاع والانخفاض والانكشاف والاستتار، وماؤها وجوهر ماؤها... ويعرف رياحهم هل هي الصحيحة الباردة وما الذي يجاورها من البحار والبطائح والجبال والمعادن ويتعرف حال أهل البلد في الصحة والأمراض ... وجنس أغذيتهم ... ثم يجب أن يجعل الكوى والأبواب شرقية شمالية ويكون العمدة على تمكين الرياح الشرقية من مداخلة الأبنية وتمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها فإنها هي المصلحة للهواء ومجاورة المياه العذبة الكريمة الجارية النظيفة التي تبرد شتاءً وتسخن صيفاً خلافاً الكامنة أمر جيد منتفع به (ابن سينا، بدون تاريخ: ٩٨ - ١٠١). وقد ذكر الرازي أن أصحاب الأبدان الصلبة والبلدان الباردة مستعدة للسل أكثر من أصحاب البلدان الحارة والأبدان اللينة، والرطوبات إذا أزمنت في الرئة والصدر تقيحت (الرازي ١٩٥٧).

وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يكن طبيبًا إلاّ أنه أكد بأن الزحام والهرج هما سببين رئيسيين من أسباب سرعة انتقال الأمراض المعدية خصوصًا أمراض الرئة، ويستعرض بإيجاز أسباب تلوث الهواء في المدن المزدحمة وأخطار ذلك على صحة الأفراد، ويؤكد على ضرورة ترك الفراغات بين الأبنية للتهوية كطريقة للحيلولة دون تلوث الهواء أو للإقلال من التلوث. يقول ابن خلدون: "أما الموتان فلها أسباب كثيرة – المجاعات، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء، وهو غذاء الروح الحيواني وملامسة دائمة فيسري إلى مزاجه، فإذا كان قويًا وقع المرض في الرئة... وإن كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات وتمرض الأبدان وتهلك". ثم يقول: "إن تخلخل الهواء والقفر بين العمران ضروري لكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن.... ويأتي بالهواء الصحيح (ابن خلدون، بدون تاريخ: ٢٩٣). وينحو ابن رضوان نفس المعنى فيقول: "أول شيء يحتاج إليه في هذا هو أن تكون المساكن والمجالس فسيحة لينحل منها من البخار المقدار الوافي... ويدخل منها شعاع الشمس، وينبغي أن تكون هذه المساكن والمجالس مرخمة أو مبلطة (ابن رضوان ١٩٨٨: ٦٦).

٥- الحيوانات والحشرات:

الحيوانات والحشرات لها علاقة قوية بكثير من الأمراض، فجاء ذكر مرض داء الكلب لدى أغلب الأطباء العرب والمسلمين من أمثال علي بن العباس المجوّسي، وابن سينا، وابن النفيس، والدميري وغيرهم ووصفوه قبل باستور(محمد ١٩٨٧: ٢٨١) الذي أعلن أنه أول مَن اكتشفه ووصف اللقاح للتحصين منه، ويتبين مما كتبه الأطباء العرب إلى معرفتهم بأن مرض داء الكلب من الأمراض المعدية التي تنتقل للإنسان عن طريق الكلاب. وهذا جعل المسئولين ينتبهوا إلى خطر الكلاب السائبة على البيئة والإنسان، فمما يروى أن الإمام ابن سحنون قاضي القيروان (المتوفى سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م) أمر الشرطة بقتل الكلاب التي تجول بطرقات المدينة (بن ميلاد ١٩٨٠: ١٥٣). ومما يؤثر عن الطبيب ابن التلميذ أنه ذكر ضرر الذباب على الجرح قبل اكتشاف المتأخرين له، حيث قال: لا تحقرن عدوًا لان جانبه ولو يكون قليل البطش والجلد، فللذبابة في الجرح الممد يد تنال ما قصرت عنه يد الأسد (ابن أبي أصيبعة ١٩٥٦: ٢٨٣).

وعرف الأطباء العرب والمسلمون أن ناقل مرض حبة بغداد (أو يسمونها البلخية) حشرة تشبه البعوض (ذبابة الرمل). يقول ابن سينا عن ذلك: والبلخية من جنس السعفة الرديئة وربما كان سببها لسعًا مثل البعوض الخبيث (ابن سينا: ٢٨٨)، وهذا من أقدم الإشارات إلى حدوث أو انتقال مرض مستديم ومستوطن بعد عضة حشرة (محمد، التقي ١٩٨٢: ١٠٦). وقد أسهب الأطباء العرب والمسلمون في ذكر تأثير عضة الحيوانات والهوام والحشرات وكذلك في كيفية التخلص من الأنواع الضارة (كالحيات، والعقارب، والبراغيث، والبعوض، والفأر، والذباب، والزنابير، والخنافس، والأرضة... الخ). وكل ذلك لتأمين بيئة صحية خالية من الأمراض.

٦- الانتقال المباشر للعدوى:

تواجد السكان في حيز واحد يساعد في كثير من الأوقات علي انتقال المرض من الشخص المصاب إلى الشخص السليم، ولقد جاءت أقوال الرازي (٢٥١ – ٣١٤ هـ/ ٨٦٥ – ٩٢٧م) مؤكدة هذه الحقيقة حيث يقول: "ومما يعدي الجذام والجرب والحمى الوبائية (التيفوئيد) والسل .... إذا جلس مع أصحابها في البيوت الضيقة وعلى الريح، والرمد ربما أعدي بالنظر إليه ، والقروح الكثيرة الرديئة ربما أعدت بالجملة كل علة لها نتن وريح فليتباعد عن صاحبها (الرازي ١٩٨٧: ٢٢٥). وكتب أبو جعفر أحمد بن خاتمة المراكشي المتوفى سنة (٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م) في كتابه (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد) وثبت فيه بداية انتشار الطاعون في السواحل الأندلسية ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٧م وأنه شهد انتشاره في مسقط رأسه المرية وأشار في كتابه إلى المسائل التي تتعلق باستعداد أناس للإصابة بعدوى الطاعون ومناعة آخرين، وتكلم عن انتقال المرض من المصاب إلى السليم من طريق الملابس والفرش الملامسة،

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية    ISSN: 2090 – 0449

يقول وجدت بعد طول المعاناة أن المرء إذا لامس مريضًا أصابه الداء ظهرت عليه العلامات.

كما حذر من أكل لحوم الماشية التي وقع فيها الموتان – أي الوباء – وذلك من باب الوقاية والتحفظ. وجاء التأكيد الواضح والجلي حول ذلك في أقوال ابن الخطيب وابن خاتمة عند التحدث عن وباء الطاعون يقول ماكس مايرهوف: فوصف المؤرخ والطبيب ابن الخطيب الغرناطي (١٣١٣ – ١٣٧٤) عدوى الطاعون في غرناطة سنة ٧٤٩هـ في رسالته الشهيرة (مقنعة السائل في المرض الهائل) التي جاء فيها: وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة وهذه مواد البرهان ... و ... وقوع المرض في الدار أو المحلة فالثوب والآنية حتى القرط أتلف من علق بإذنه وأباد البيت بأسره ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في أفراد المباشرين، ثم جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق (أرنولد ١٩٨٢: ٤٨٧ – ٤٨٨). وهو ما أشير إليه لاحقًا بدراسة الانتشار في الجغرافيا الطبية. ولعل من أهم إسهاماتها تحليل كثير من العوامل المساعدة على انتشار مرض ما عن طريق دراسة الانتشار لهذه الأمراض وطرقها وأسبابها (الغامدى، ١٩٨٤ :١٠)، إذ أن معرفة توزع وانتشار الأمراض من ناحية الظروف الطبيعية من مناخية ونباتية وغيرها، ومن الناحية البشرية من خلال العدوى وانتقال الأشخاص المصابين من مناطق إلى أخرى مسببين بذلك عاملاً وسيطاً لنقل المرض.

## خاتمة

من العرض السابق يتضح أن هذه الدراسة تناولت الجغرافيا الطبية عند العرب والمسلمين، فقد تم تناول تعريف الجغرافيا الطبية، كما تطرقت إلى بعض الأمراض التي تم اكتشافها بواسطتهم والتي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والعوامل الجغرافية التي تؤثر في تواجد وانتشار الأمراض، وعليه توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، نذكر منها:

١- إن العرب والمسلمون رواد في مجال الجغرافيا الطبية، وذلك من خلال إشاراتهم واكتشافاتهم لبعض الأمراض.

٢- هناك أمراض منتشرة في مناطق وبلدان دون غيرها.

٣- تعرضوا لبعض العوامل الجغرافية التي تؤثر في انتقال وانتشار الأمراض، والتي كان أهمها المناخ وخاصةً الهواء، وكذلك المياه، والإسكان، والحيوانات.

وعليه توصي الدراسة بضرورة الاهتمام بالدراسات التي تناولت الأمراض والعوامل الجغرافية التي ساعدت علي انتشارها لدي العرب والمسلمين، لتأكيد ريادتهم في هذا الفرع من فروع الجغرافيا والذي تم تسميته بالجغرافيا الطبية.

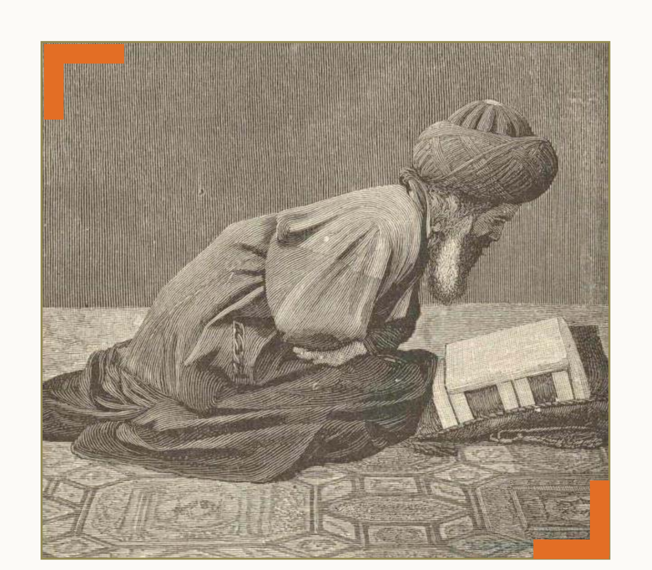
## المصادر والمراجع:


- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ١٩٥٦: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج ٢، دار الفكر، بيروت.
- ابن خلدون (بدون تاريخ): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيت الأفكار الدولية.
- ابن رضوان، علي ١٩٨٨: **رسالة في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر**– تحقيق د. رمزية الأطرقجي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد.
- ابن زهر، أبي مروان عبد الملك ١٩٨٣: **التيسير في المداواة والتدبير**، الطبعة الأولى، ج ٢ – تحقيق د . ميشيل الخوري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- ابن سينا، أبو علي الحسين (بدون تاريخ): **القانون في الطب** – طبعة بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد ١٨٨٥: **مختصر البلدان**، ليدن.
- أرنولد، توماس ١٩٧٢: **تراث الإسلام**، ترجمة جرجيس فتح الله، ط٢، دار الطليعة، بيروت.
- الأزرق، إبراهيم عبد الرحمن (بدون تاريخ): **تسهيل المنافع في الطب والحكمة** – ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد الحنفي، مصر.
- البار، محمد علي: **العدوى بين الطب وحديث المصطفى** – الطبعة الأولى، دار الشرق، جدة.
- البشرى، البيوك، السيد، فاطمة أحمد ١٩٩١: **أهمية البحث والتدريس في الجغرافية الطبية**، الندوة الجغرافية الرابعة لأقسام الجغرافية بالمملكة العربية السعودية، ٢٤- ٢٦ ديسمبر، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- بن ميلاد، الحكيم أحمد ١٩٨٠: **تاريخ الطب العربي التونسي**– مطبعة الاتحاد التونسي للشغل، تونس.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ١٩٥٥: **معجم البلدان**، طبعة بيروت.
- خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله ١٨٨٩: **المسالك والممالك**، طبع بمطبعة بريل بمدينة ليدن.
- الخطابي، محمد العربي ١٩٨٨: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الدفاع، علي بن عبد الله ١٩٩٨: **رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية**.
- الرديسي، سمير محمد على ٢٠٠١: **الجغرافيا الطبية**، دار عالم للكتاب، المملكة العربية السعودية.
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا ١٩٥٧: **كتاب الحاوي في الطب**، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد في الهند.
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا ١٩٨٧: **المنصوري في الطب** – تحقق الدكتور حازم البكري الصديقي، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت.
- الزهراوي، أبو القاسم خلف: **التصريف لمن عجز عن التأليف** – نقلاً عن العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية.
- السبعاوي ١٩٩٧: محمد نور الدين إبراهيم، **الجغرافيا الطبية، الاتجاهات الحديثة في الدراسات الجغرافية – مناهج البحث وأساليب التطبيق**.
- الغامدي، عبد العزيز صقر ١٩٨٤: **توزع وانتشار الأمراض بين الحجاج في المشاعر المقدسة**، سلسلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، مركز البحوث التربوية والنفسية، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- اللبان، خلف الله حسن محمد ١٩٩٩: **الصحة والبيئة في التخطيط الطبي**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.


ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

- لوبون، جوستاف ١٩٦٩: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد ١٩٠٦: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة ليدن.
- المجوّسي، علي بن العباس ١٢٩٤ هـ، **كامل الصناعة الطبية**، ج١، المطبعة الكبرى بالديار المصرية.
- محمد، التقي، عبد الحافظ حلمي، منى ١٩٨٢: **تاريخ مرض الليشمانيا الجلدي ودور العلماء المسلمين فيه**، محاضرات مؤتمر الطب الإسلامي الأول – الكويت.
- محمد، محمود الحاج قاسم ١٩٨٧: **الطب عند العرب والمسلمين... تاريخ ومساهمات**، الدار السعودية للنشر، جدة.
- محمدين، محمد محمود، ١٩٩٦، **الجغرافيا والجغرافيون عبر الزمان والمكان**، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض.
- النجار، عامر: **في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية**.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ١٩٢٣: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، السفر الأول، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- وجدي، محمد فريد ١٩٦٧: **دائرة معارف القرن الرابع عشر**، المجلد الثالث، دار المعرفة، بيروت لبنان.

- Banks. A. L 1959, **the study of geography of diseases**, geographical journal. Vol. 125, PP. 192 – 215.
- Hunter (J. M) 1974, **the challenge of medical geography**, in the geography of health and diseases.
- May. J 1950, **Medical Geography: its methods and objectives**. Geographical review vol. 40, PP. 9 – 41.
- M C Glashan. N. D 1972, **Medical Geography, and introduction – techniques and field studies**, Methuen and co. ltd, London.
- Stamp. D1974, **Some Aspects of medical geography**, Oxford university press, London.



# من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية "المكتبات الخاصة"

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية الإسلامية
خبير في التراث الثقافي
القاهرة – جمهورية مصر العربية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

يسري عبد الغني عبد الله، من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: المكتبات الخاصة.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٥٢ – ٥٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

## ملخص

تعد المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي عني بها المسلمون، وكان لها دور كبير في الحياة الثقافية والعلمية، ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوُجدت في قصور الخلفاء، وفي المدارس، والكتاتيب، والجوامع، ويعرض هذا المقال إضاءات ورؤى على مكتبات خاصة جدًا هي: مكتبة الفتح بن خاقان، مكتبة حنين بن إسحاق، مكتبة ابن الخشاب البغدادي، مكتبة الموفق بن المطران، مكتبة القفطي، مكتبة ابن فاتك، مكتبة إفرائيم الزفان، مكتبة العماد الأصفهاني.

## مُقدِّمة

"المكتبات الخاصة" هذه النوعية من المكتبات أنشأها العلماء والأدباء وأهل الفكر لاستعمالهم الخاص، وهذا النوع من المكتبات كان كثيرًا جدًا، بل يمكن القول أنه كان واسع الانتشار في أرجاء المعمورة الإسلامية. وفي الواقع أنه كان من العسير أن نجد عالمًا أو أديبًا أو مفكرًا أو رجلاً يشتغل بالتأليف والإبداع والتحقيق دون أن يكون له مكتبة خاصة به، يرجع إليها في دراساته واطلاعاته وكتاباته، وبالطبع كانت هذه المكتبات عزيزة على قلب صاحبها، يضحي بالغالي والنفيس من أجلها.

وفي هذه السطور سنقوم باختيار عدد قليل من هذه النوعية من المكتبات، التي نتحدث عنها من منطلق كونها مكتبات الخاصة كان لها دورًا تعليميًا واضحًا، ثم آلت إلى أن تكون مكتبات عامة مفتوحة الأبواب للباحثين والدارسين والقراء دون قيد أو شرط. وفي رأينا المتواضع أن المكتبة التي تفيد الناس وتفتح أبوابها لهم في كل وقت، دون شروط أو قيود، هي المكتبة الجديرة بالكلام والحديث، فعندما تحبس الكتب عن الناس، وفي مقدور صاحبها أن يفيدهم بها فذلك فعل مشين لا يليق بمحب الكتب، العارف بدورها في التحضر والثقافة.

## مكتبة الفتح بن خاقان

الفتح بن خاقان هو وزير المتوكل على الله الخليفة العباسي، وقد قتل معه في مدينة سامراء (سُر من رأى) سنة ٢٤٧ هـ، وكان الفتح رجلاً محبًا للعلم والعلماء، واسع الاطلاع، عالمًا، مولعًا بالقراءة والبحث، حتى قيل: "إنه كان يحضر لمجالسة المتوكل العباسي، فإذا أراد أن يقوم للوضوء أخرج كتابًا فلا يزال يطالعه في ممره وعوده للمتوضأ، فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية (مجلس الخليفة) أعاده حيث كان.[١]

ومن الطبيعي جدًا أن يكون لهذا الرجل المثقف مكتبة ضخمة ثرية، فهو رجل حباه الله بالمال الوفير، والرغبة الحميمة في الاطلاع والمعرفة، وقد عهد الفتح بمهمة تكوين هذه المكتبة إلى رجل من خيرة رجال العصر علمًا وفكرًا وأدبًا، ألا وهو علي بن يحيي بن أبي المنصور المنجم (الفلكي). وكما يقول ابن النديم في كتابه (الفهرست) فإن المنجم اتصل بالفتح بن خاقان، وعمل له خزانة

حكمة (أي مكتبة)، نقل إليها من مكتبته، ومما استكتبه الفتح، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط.[٢]

أما الكتب التي استكتبها الوزير الفتح بن خاقان فقد كانت من الكثرة بمكان، كتبها اعاظم رجال الفكر والدب في ذلك الوقت، وفي مقدمتهم شيخنا الموسوعي الجاحظ. فيقال: إنه ألف للفتح كتاب: (التاج في أخلاق الملوك) المنسوب للجاحظ، وكتاب: (مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة)، كما ألف له محمد بن الحارث التغليبي، ومحمد بن حبيب كتبًا قيمة أخرى، ضاعت أصولها فلم تصل إلى أيدينا. وقد حق لابن النديم، أن يصف هذه الخزانة بأنها لم يُر أعظم منها كثرة وحسنًا.[٣]

## مكتبة حنين بن إسحاق

يحدثنا ابن أبي أصيبعة في كتابه الشهير (عيون الأنباء ) عن حنين بن إسحاق، فنعرف أنه كان من أبرز الأطباء والمترجمين في عهد الخليفة المأمون العباسي (الفتى الذهبي للحضارة الإسلامية)، وكان أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية، إلى حد كبير لم يصل إليه أحد من النقلة الذين كانوا على أيامه، مع براعة فائقة لا توصف في اللغة العربية، ومداومة لا تنقطع في الاشتغال بالعلم والترجمة، حتى صار من جملة المتميزين فيها، وظل يشتغل بالعلم والعلوم حتى وفاته سنة ٢٦٤ هـ.[٤]

ويصفه القفطي صاحب (أخبار الحكماء ) بأنه كان فصيحًا، لسنًا، بارعًا، شاعرًا، وكان شيخه في اللغة العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب معجم (العين)، وواضع علم العروض (موسيقا الشعر)، وقد نقل حنين بن إسحاق كتبًا عديدة إلى اللغة العربية، وكل جل اهتمامه كان ينصب على كتب الحكمة والطب.[٥] ولعل ذلك ما جعل مكتبة العالم المترجم حنين بن إسحاق الخاصة الضخمة، تتميز بثروة وفيرة جدًا من كتب الطب بجمع ألوانه وأنواعه وأشكاله، وبعدد غزير من المؤلفات المكتوبة باللغات الأربع التي كان يجيدها قراءة وكتبة ونقصد بها: اليونانية، والسريانية، والفارسية والعربية.

وكان حنين بن إسحاق من هواة الكتب، يجمعها، ويقرأ فيها بعمق وتمعن وتمحيص، ويقال أنه سافر إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب. وقد عد ابن النديم في(الفهرست) جملة كبيرة جدًا من الكتب، ذكر أنها مؤلفات حنين بن إسحاق.[٦] وهذه الكتب التي عدها ابن النديم لحنين بن إسحاق يمكن أن تشكل وحدها مكتبة ضخمة عظيمة الشأن، فما بالنا إذا أضيفت لها المراجع والمصادر التي اعتمد عليها حنين بن إسحاق في تأليف كتبه!!

## مكتبة ابن الخشاب البغدادي

يحدثنا ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) عن ابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ. فنعرف أنه عبد الله بن أحمد الخشاب البغدادي، كان أدرى الناس بكلام العرب، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والنسب، كما أن له مؤلفات غزيرة، وكتب مفيدة بها فكر جيد.[٧] وكان ابن الخشاب إذا كتب كتابًا يشترى بالمئين، ويتنافس عليه المتنافسون من أهل العلم، ولعل ذلك أكبر دليل على مدى شهرته، وثقة الناس في علمه.

كان ابن الخشاب ثقة في رواية الحديث النبوي الشريف، صدوقًا نبيلاً في حجته وكلامه، إلا أنه . والعدة على ياقوت الحموي لم يكن في أخلاقه كذلك، والسبب أنه جمع كتبًا كثيرة جدًا، ولكنه لم يتحرى الطريق القويم السوي في جمعها، فقد امتلك حب الكتب عليه نفسه (أقطار نفسه)، وشغف بها وبجمعها شغفًا كبيرًا لا حدود له. ثم كان في الوقت نفسه بخيلاً لا يحب أن يدفع الكثير من المال ثمنًا لها، وعلى هذا تنكب سواء السبيل، فكان يحتال لجمعها، فإذا استعار من أحد كتابًا وطالبه به، قال: دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه (أي لا أقدر على العثور عليه).. !! وإذا حضر سوق الكتب شراء كتاب غافل الناس، وقطع منه ورقة، وقال بصوت مسموع: إنه مقطوع، لينصرف المشترون عنه، فيأخذه بثمن بخس!! إلا أنه في خاتمة حياته أوقف كتبه على أهل العلم، فجزاه الله خيرًا، وغفر له ولنا.

**محاولة للتوضيح:**

إن كلام ياقوت الحموي عن ابن الخشاب البغدادي يمكن لنا أن نحلله فنخرج بعدة أمور نراها على درجة كبيرة من الأهمية:

**الأمر الأول:** يعتبر ياقوت ابن الخشاب البغدادي رجل حاد عن جادة الصواب أو عن الطريق السوي، لأنه جمع العديد من الكتب التي شغف بها أو تملكت أقطار نفسه، وجمع الكتب وحبها، والحرص على امتلاكها وعدم التفريط فيها تحت أي ظرف من الظروف، أمر حضاري رائع، ولكن بشرط أن نلتزم في ذلك بالأخلاق والقيم التي تمليها علينا مبادئ العلم وأخلاقياته. فلا يصح بأي حال من الأحوال ألا ندفع ثمن الكتب التي اشتريناها أو حصلنا عليها، ولا نبخس الناس أشياءهم، ولا يصح أن نعطيهم أقل من حقهم المقرر أو المتفق عليه، كما لا يصح أن نحتال عليهم من أجل الوصول إلى أخذ ما نريد، فكل هذا لا يليق بأهل العلم ومحبيه. ومن الجدير بمحبي الكتب والقراءة والعلم أن يكونوا في طليعة العارفين بآداب البيع والشراء، وأن يكونوا أكثر الناس تحليًا بالأدب الرفيع والسلوك القويم.

**الأمر الثاني:** نعرف من كلام ياقوت أن ابن الخشاب كان لا يعرف آداب الاستعارة وأخلاقها، فكان إذا استعار من أحد كتابًا وطلبه منه، قال: إن الكتاب دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه !! ، وهذا لا يصح من رجل أحب العلم، وحرص على الكتب، وغني عن البيان أن أدبيات استعارة الكتب من الأمور المهمة التي أعطتها الحضارة العربية الإسلامية كل الاهتمام، وتكلم فيها العديد من العلماء والمفكرين، وقد كتبنا عدة مقالات في هذا الموضوع، نشرنا بعضها في مجلة (أحوال المعرفة) التي تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة، وفي غيرها من المجلات التي تهتم بالمكتبات والمعلومات. ولعل موقف ابن الخشاب يذكرنا بهؤلاء الذين يتظرفون أو يستظرفون فيقولون: إن السرقة حرام إلا في الكتب

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فهي حلال !! ونقول لهم: إن السرقة هي السرقة، ومن الأولى بنا أن نكون أمناء في تعاملاتنا مع العلم والكتب، وهذا ما تعلمناه من الحضارة العربية الإسلامية على مدى تاريخها الطويل.

**الأمر الثالث:** يدخل البعض إلى المكتبات العامة، ويكون في حاجة إلى باب أو فصل من كتاب، أو لوحة، أوشكل توضيحي، فيغافل المشرفين على المكتبة، ويقوم بنزع ما يريد، ويفاجأ المشرفون على المكتبة أثناء مراجعتهم لهذه الكتب أو إذا إطلع عليها قارئ آخر، بهذا السلوك المشين، والكتاب مثل الكائن الحي، فكيف تسول لنا أنفسنا ببتر جزء من هذا الكائن ؟!

ومهما كانت المبررات التي يسوقها هؤلاء كتوفير الوقت أو الجهد، أو أن الكتاب في المكتبة ملك عام، فإن هذه تراهات فارغة يجب أن يتنزه عنها كل محب أو متعامل مع الكتب.

أقول هذا ونحن نستمع إلى ياقوت الحموي الذي يحدثنا عن ابن الخشاب البغدادي الذي كان يحضر أسواق بيع وشراء الكتب، وسرعان ما يغافل الناس في السوق ويقطع من الكتاب الذي يريده ورقة، ويقول بصوت يسمعه الناس: إنه مقطوع! وبالتالي ينصرف عنه الناس، فيأخذه ابن الخشاب بثمن بخس. وبالطبع نلح هنا على أن هذا لا يليق ولا يصح من أهل العلم، ولا يصح من باب أولى من رجل كان من علماء اللغة العربية، والحديث النبوي المطهر. ويبدو أن (ياقوت) تعرض لموقف معين مع ابن الخشاب، فيقوت كان يعمل معظم حياته بالنسخ وبيع وشراء الكتب، أي أنه كان (كتبيًا) محنكًا، أضف إلى ذلك كونه مؤلفًا موسوعيًا بارعًا، ولا يعرف الأمور التي كان يفعلها ابن الخشاب إلا (كتبي) ضليع مثل شيخنا ياقوت الحموي.

الذي يهمنا هنا رغم عدم إقرارنا أو رضانا عن تصرفات ابن الخشاب البغدادي بأي شكل من الأشكال، فإن الرجل أوقف في نهاية حياته مكتبته العامرة بما لذ وطاب من المصنفات والمؤلفات على أهل العلم، أي حولها من مكتبة خاصة جدًا إلى مكتبة عامة، فلعل هذا السلوك الحضاري الراقي منه، والذي يهدف إلى خدمة أهل العلم وطلابه، لعل هذا السلوك يغفر له سيئاته مع الكتب وأصحابها.

## مكتبة الموفق بن المطران

في الجزء الثاني من كتابه (عيون الأنباء) يحدثنا ابن أبي أصيبعة عن: الموفق بن مطران المتوفى سنة ٥٨٧ هـ، فنعرف أنه: موفق بن المطران الدمشقي، عرفه الناس بحدة ذهنه، وفصاحة لسانه، وكثرة اشتغاله بالعلم.(٨) ولابن المطران تصانيف كثيرة تدل على فضله ونبله في صناعة الطب، فقد خدم بطبه وعلمه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وحظي في أيامه بالمقام الرفيع، كما كان رفيع المنزلة عند صلاح الدين، عظيم الجاه. وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وجمعها، حتى أنه مات وفي خزانة كتبه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد، هذا بالإضافة إلى ما استنسخه.

وكان الموفق بن المطران صاحب عناية فائقة بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدًا (بصفة دائمة)، يعطيهم المرتبات، ويقدم لهم الطعام والشراب والمأوى. وكتب ابن المطران بخط يده كتبًا عديدة، وقد اطلع عليها ابن أبي أصيبعة أو اطلع على عدد منها، وقال أنها كانت في نهاية حسن الخط، والحجة، والإعراب. وعرف عن ابن المطران كثرة المطالعة للكتب، فهو لا يفتر من ذلك في أكثر أوقاته، بل أن كل أوقات فراغه من العمل يقضيها في القراءة والاطلاع.

كما أن معظم الكتب التي كانت في مكتبته صححها بنفسه، وأتقن تحريرها، وعليها خطه بذلك، كما أنه ككان يضيف عليها بعض التعليقات أو الحواشي المفيدة. وعرف عنه كرم النفس، ولطالما وهب لتلامذته الكتب المفيدة المهمة تشجيعًا لهم على العلم والمعرفة والتحصيل. كما كان عنده أولوف من المجلدات الصغيرة (كتيبات) فكان أبدًا لا يفارق في كمه مجلدًا يطالعه على باب دار السلطان أو أين توجه، ولعل هذا يذكرنا بالوزير العباسي الفتح بن خاقان الذي كان يضع هو الآخر في كمه كتيبًا لا يزال يطالعه في ممره وعوده للمتوضأ، فإذا وصل إلى مجلس الخليفة أعادا الكتيب إلى كمه حيث كان.

ابن المطران رجل عالم فاضل، احترم الكتاب فأجله التاريخ، ما أحرانا أن نقتدي بابن المطران وبمثله !! فالأمم التي تحترم العلم والكتب، أمم يحترمها التاريخ، ويسجل دورها الثقافي والعلمي بأحرف من نور.

ولنقارن بين الطبيب العالم الموفق بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ هـ، وعبد الله ابن أحمد الخشاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، نلاحظ أن ابن الخشاب الذي سبق وأن تكلمنا عن مكتبته الخاصة مصاب بما يسمى في علم النفس الحديث بمرض (الببليوماتيا) أي الهوس بجمع الكتب، ومن الممكن القول بأنه مصابًا أيضًا بما يسمى مرض (الببليوكليتيا) أي مرض سرقة الكتب، وتلك محاولة للاجتهاد من جانبنا، والله أعلم بالعباد. أما الموفق بن المطران فقد كان الرجل يفهم معنى الكتاب، ومعنى الكتب، وكيفية احترامها، وآداب التعامل معها.

## مكتبة القفطي

ندخل الآن إلى مكتبة جمال الدين القفطي الخاصة، والقفطي هو الوزير القاضي جمال الدين أبو الحسن، المولود في صعيد مصر، في مدينة قفط حيث نسب إليها، والمقيم بحلب السورية، والذي أجاد علوم اللغة العربية وبخاصة اللغة والنحو، كما كان بارعًا في علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وعلوم الأصول، والمنطق، والفلك، والهندسة، والتاريخ. كانت وفاته سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م، وهو من علماء القرن السابع الهجري، وصاحب كتاب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، والذي طبع لأول مرة في مدينة (ليبسيك) سنة ١٣٢٠ هـ.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جمع جمال الدين القفطي من الكتب ما لا يوصف، وجاء بها له من الآفاق طمعًا في كرمه وسخائه، وكان لا يحب من دنياه سوى الكتب، فأوقف عليها نفسه، ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها. والقفطي لم يتزوج مثله في ذلك مثل: الزمخشري، والطبري، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وعباس محمود العقاد... وغيرهم .. وقد علل القفطي عدم زواجه لكي لا يحول ذلك بينه وبين التصنيف والقراءة والعلم، وإن كان ذلك يخالف سنة الحياة وطبيعتها وفي نفس الوقت تعاليم الإسلام التي كان يعيها القفطي وغيره، والله تعالى أعلم وأدرى بالأحوال والسرائر.

على كل حال؛ فقد أوصى جمال الدين القفطي في نهاية حياته بمكتبته كاملة للملك الناصر صاحب حلب السورية، فمن وجهة نظره الخاصة أنه الوحيد الذي يقدر قيمة العلم والكتب.. !! ويقال أن مكتبة القفطي كانت تساوي في ذلك الوقت أكثر من خمسين ألف دينار !! وللقفطي حكايات ونوادر عديدة تؤكد لنا عشقه الشديد وحبه الكبير للكتب التي جعلها خير رفيق، وفضلها على الزوجة والأولاد.

**قول على قول:**

إن إهداء العالم اللغوي جمال الدين القفطي مكتبته كاملة لحاكم حلب السورية، أو أنه أوقفها عليه، يذكرنا بقصة وردت عن عبد القادر البغدادي زعيم اللغويين في القرن العاشر الهجري، وصاحب خزانة الأدب، هذه القصة موجزها: إن الشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ، وأستاذ عبد القادر البغدادي أوصى بامتلاك تلميذه عبد القادر لمكتبته بعد وفاته.[٩] وكان للشهاب الخفاجي خزانة كتب حافلة بأعظم ما ادخره علماء القرون المتأخرة لما احتوت عليه من نفائس دواوين العرب، ومجاميع الشعر العربي الأصيل، وتعليقات أئمة اللغة العربية عليها، فلما انتقل الشهاب الخفاجي إلى رحاب ربه راضيًا مرضيًا، تملك البغدادي هذه المكتبة العامرة، وضم عليها على مر الأيام كتبًا أخرى عظيمة، وإذا اطلع القارئ على خزانة الأدب للبغدادي سيرى من أسماء الأمؤلفات التي وقف البغدادي عليها ما يقضي بالعجب العجاب!!.

في زمن الحب الحقيقي للعلم والمعرفة، في زمن نقي تقي لا يعرف المادية الزائلة الزائفة، لا يعرف الأحقاد والضغائن، لا يعرف تردي القيم الإنسانية النبيلة، في زمن عرف حقًا وصدقًا معنى الأستاذية ومعنى طلب العلم، كان الأستاذ إذا توسم في تلمسيذه الخير المرتجى، والموهبة والكفاءة التي قد تأتي ثمارها فتنفع الناس، كان الأستاذ لا يتردد في أن يهدي تلميذه ثروته كلها، وثروة العالم الحقيقية ليست في الأموال التي يودعها المصارف، إنما في مكتبته التي هي رأسماله الحقيقي، التي يستفيد منها في مشروعاته العلمية، لأنها خير زاد حقيقي، وهذا ما فعله الشيخ الشهاب الخفاجي مع تلميذه النجيب عبد القادر البغدادي.

وفي زماننا هذا نسمع ونقرأ عن أمور يندى له جبين المرء، أمور لا تمت بأي صلة إلى قيم وأخلاقيات ومبادئ العلم والمعرفة، فنسمع عن ابن العالم (فلان)، وشقيق العلامة (علان)، وابنة المفكر (س)، وزوجة الباحث أو الأديب (ص)، وقد باعوا مكتبته لثري من المكان الفلاني، أو لغني من المكان العلاني، أو لتاجر للكتب من أجل مبالغ زائلة فانية من المال. وقد يكون بعضهم صاحب عقل متفتح وقناعة، فيهدي كتبهم للدولة، وهذا شيء جميل طيب محمود، بشرط أن يضمن استفادة الناس بها، واستفادة أهل العلم ومحبي الفكر والثقافة منها استفادة حقيقية، أما أن تسلم للدولة فتسرق وتنهب وتبدد وتباع كما رأينا وشاهدنا بعيوننا في بعض الدول العربية، فذلك أمر مشين مرفوض، لا تجب أي حجج حتى لو قيل أن الفقر وسوء الأحوال الاقتصادية هو السبب !!.

## مكتبة ابن فاتك

ابن فاتك توفي في نهاية القرن الخامس الهجري، وهو الأمير أبو الوفا المبشر بن فاتك، من أعيان أمراء مصر، وأفاضل علمائها، أجاد في علوم الهيئة، والعلوم الرياضية والفلسفية، كما أنه مارس واشتغل بالطب، ولازم الطبيب الشهير علي بن رضوان، وعرف عن المبشر حبه الشديد للكتب، وغزارة كتاباته وتصانيفه.[١٠] ويحكي لنا ابن أبي أصيبعة أنه وجد في مكتبة المبشر بن فاتك العديد من تصانيف المتقدمين بخط يده، وكان المبشر قد اقتنى كتبًا كثيرة جدًا على مر الأيام، وبعضها قد تغير لونه، أو لون أوراقه، بسبب غرق أصابه (أصاب الكتب).

**الغيرة من الكتب:**

يحدثنا الشيخ سديد الدين المنطقي عن سبب هذا الغرق (الكتبي)، أن الأمير المبشر بن فاتك كان محبًا عاشقًا للقراءة والاطلاع والعلم، وكان محبًا لتحصيل العلوم والمعارف، لا متعة له إلا في قراءة الكتب، وفي خزانة كتبه أي في مكتبته العظيمة كان يقضي جل وقته، يجلس فيها ولا يفارقها أبدًا، وكانت له زوجة فاضلة، ولكن داخلها غيرة كبيرة من الكتب ومن المكتبة، من المطالعة والكتابة التي لا ينفك عنها زوجها، فلما توفى الأمير المبشر نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب لوعة لا حدود لها، لأنه كان يشتغل بها أغلب وقته منصرفًا عنها، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة وسط الدار هي وجواريها، ثم أخرجت الكتب بعد ذلك من الماء، وقد غرق أكثرها، فهذا هو سبب تغير لون ورقها.

إذن شيخنا ابن أبي أصيبعة رأى هذه الكتب وعرفها بعد وفاة الأمير المبشر، أي بعد ما فعلته الزوجة بها. ويبدو أن الزوجة أصيبت بحالة هستيرية بعد وفاة الزوج نجم عنها ما فعلته بالكتب، وفاتها أن الفاضل حقًا من أحب الكتب واحترمها، من احترم وبجل ما يحبه الزوج، والزوج كان يحب الكتب في حياته، فلما لا تحترمها في مماته ؟ ! ويبدو أنها كانت تغير جدًا من الكتب التي تأخذ زوجها منها في حياته، ولكنها باستطاعتها أن تغرق كتب الزوج وهو حي يرزق، فظلت تكبت هذه الرغبة المدمرة بداخلها إلى أن نفذتها على الفور بمجرد وفاة الزوج.

إن تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يحفل بأسماء سيدات فضليات احترمن العلم والمعرفة، وكتب التاريخ أسماءهن بحروف من نور جزاءً وفاقًا لما قدمن من فكر جاد نفع الإنسانية قاطبة، ولكن ماذا نقول فلكل قاعدة استثناء !! .

## مكتبة إفرائيم الزفان

إفرائيم الزفان، طبيب مصري مشهور، كانت وفاته سنة ٥٠٠ هـ، خدم الخلفاء، ونال منهم أعظم العطايا، قرأ علوم الطب على الطبيب النابغة أبي الحسن علي بن رضوان، فكان من أفضل طلابه، وكانت له الهمة العليا في تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كانت لديه العديد من خزائن الكتب التي تضم كتب الطب وغيرها من كتب المعارف والعلوم المختلفة.[١١] وينقل لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء) عن والده أن رجل من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية كي يشتري كتبًا ويتوجه بها إلى العراق، وأنه اجتمع مع الطبيب المصري إفرائيم الزفان، واتفق الحال فيما بينهما أن باعه إفرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد.

ويقال إن ذلك كان على أيام الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمال الذي يعرف بأمير الجيوش، سمع الأفضل بهذه القصة فقرر ضرورة أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية، ولا يمكن نقلها إلى موضع آخر، فبعث إلى إفرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق عليه بين إفرائيم الزفان والتاجر العراقي، ونقل الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها ألقابه.

ويؤكد لنا ابن أبي أصيبعة أنه رأى كتبًا كثيرة من هذه المجموعة، وقد كتب عليها اسم إفرائيم، وبجوارها ألقاب الوزير الأفضل الفاطمي. وخلف إفرائيم من الكتب ما يزيد عن عشرين ألف مجلدًا، أي أنه ترك مكتبة ضخمة، بذل الجهد الكبير في جمع كتبها، وقد عرف عن الرجل حب الكتب واحترامها.

**مجرد تساؤلات:**

في عهد الأفضل بن بدر الجمالي تم إغلاق دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، لتكون بمثابة مؤسسة أو أكاديمية علمية على أعلى مستوى، وليس مجرد مكتبة عامة يستفيد منها الناس، محتزيًا بذلك خطوات الخليفة العباسي المأمون الذي أنشأ وطور بيت الحكمة ليكون بمثابة منارة علمية وفكرية جعلته بحق الفتى الذهبي للحضارة الإسلامية. لم نقرأ عن أي إنجاز علمي أو أي اهتمام بالكتب والمكتبات من جانب الأفضل، فكيف يسعى بكل ماله وجهده لوقف الصفقة التي تمت بين إفرائيم الطبيب المصري والتاجر العراقي ؟!

ثم هل من اليسير جدًا على رجل أحب العلم والمعرفة مثل إفرائيم الزفان، الذي وصف بأنه صاحب همة عالية في تحصيل الكتب، هل من السهل عليه في أن يفرط في عشرة آلاف مجلد كاملة، وإذا عرفنا أن مكتبته كانت تضم حوالي عشرين ألف مجلد، معنى ذلك باع نصف مكتبته بالتمام والكمال !! فهل هذا من العقل والمنطق؟

لقد تولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٨٧ هـ، أي بعد وفاة والده بدر الجمالي، وتوفي مغتالاً سنة ٥١٥ هـ، بينما توفى إفرائيم الزفان ٥٠٠ هـ، وعليه فإننا نشك في هذه القصة، إلا إذا كان إفرائيم أراد أن يتخلص من مكتبته لضائقة مالية شديدة مرت به مثلاً، أو لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في تلك الفترة من تاريخ مصر، أو أنه قرر أن يغادر البلاد لضغط سياسي أو عقائدي معين تعرض له. كل ذلك من الجائز، ولكن من المؤكد لنا أنه من الصعب على عالم جليل مثل إفرائيم أن يفرط بهذه السهولة المطلقة في مكتبته القيمة !!

وقد يقول قائل إن الأفضل الجمالي هذه المجلدات من قبل الشهرة وحب الفخامة والعظمة والتباهي، لذا وضع ألقابه عليها، وهذا مؤكد دون شك إن كانت هذه الصفقة قد تمت بالفعل !!؟. ولماذا نستبعد أصلاً استيلاء الأفضل الجمالي على مكتبة إفرائيم بطريقة أو بأخرى، على كل حال فلنضع في الاعتبار إن أبي إصيبعة يحكي عن والده هذه القصة، وهو لم يشاهدها بنفسه، ومن هنا يكون احتمال الشك فيها قائمًا....

## مكتبة العماد الأصفهاني

العماد الأصفهاني الذي نقصده هو صاحب كتاب (تاريخ آل سلجوق)، والذي نشر لأول مرة سنة ١٨٨٩م، وصاحب كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي)، والذي طبع في ليدن (لندبرج) سنة ١٨٨٨م، أي أنه غير ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد، المعروف بابن العماد، المؤرخ الكبير، وصاحب كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، والمتوفى في مكة المكرمة عام ١٠٨٩ هـ.

عماد الدين الأصفهاني كان مولده في أصفهان سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥م، وينتمي إلى أسرة ولي كثير من أفرادها وظائف مهمة في الدولة السلجوقية، وفي حكومة الخلافة العباسية، درس الفقه والحديث على أساتذة المدرسة النظامية ببغداد، كما برع في نظم الشعر وصناعة الكتابة، وتقلب في بعض الوظائف في حكومة الخلافة العباسية، ثم انتقل إلى دمشق السورية بعد اضطراب الأمور في بغداد، فعمل مدرسًا في المدرسة النورية، فذاع صيته ودخل في خدمة نور الدين زنكي، ثم ابنه الصالح.

ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي بإشارة من القاضي الفاضل سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م، فلم ينقطع عن مصاحبة الناصر صلاح الدين حتى إذا مات ٥٨٩ هـ/١١٩٣م، اختلفت أحوال الأديب والكاتب والمؤرخ عماد الدين الأصفهاني، فلزم بيته، وتفرغ للتأليف والتصنيف، حتى وافاه أجله بدمشق سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م. خص الكاتب العماد الأصفهاني صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته التي يبلغ عددها ١١ كتابًا، وهما كتاب (البرق الشامي) وكتاب (الفتح القسي)، وأشهرهما كتاب (الفتح القسي)، الذي استهله بوصف الاستعدادات لمعركة حطين التي دارت سنة ١١٨٧م، وانتهى فيه إلى وفاة صلاح الدين، وتقسيم دولته سنة ١١٩٣م،

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكَمة .ربع سنوية

فتناول بذلك نفس الفترة التي تناولها المؤرخ أبو شامه في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية).

هذه المقدمة أردنا أن نؤكد بها على أن عماد الدين الأصفهاني كان من الأدباء والمؤرخين المشهود لهم بالمقدرة والكفاءة، كما أنه كان من محبي الكتب وعشاقها، ومن الساعين بكل الجهد إلى اقتنائها والاستفادة منها، ها هو أبو شامه في كتابه (الروضتين) ينقل لنا عن العماد الأصفهاني فيقول: كان لبيع الكتب في القصر (مقر الحكم الأيوبي أيام عماد الدين الأصفهاني وأبي شامه، ومقر حكم الفاطميين سابقًا)، إثر سقوط الدولة الفاطمية، كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وقد كانت في القصر مرتبة البيوت، مقسمة الرفوف، مفهرسة، فأراد دلالو الكتب أن يشتروها بثمن بخس، فخدعوا بها الوزير بهاء الدين قراقوش متولي القصر والمشرف على عملية بيع الكتب، فأشاروا عليه بإخراج الكتب من الرفوف لتهويتها ونفضها مما يكون قد لحق بها من أتربة.

فاستجاب لهم، وتسبب عن ذلك أن اختلطت الكتب واضطربت، فأصبحت تجد كتب الطب مع كتب التفسير، كما توزعت أجزاء المؤلف الواحد فلا تكاد تعثر عليها جميعًا. وقد نتج عن هذا أن أصبحت الكتب تسام بالدون، وتباع بالهوان، والدلالون يجمعونها ويرتبوها في الخارج، وبالطبع يحملونها بعد ذلك لبيعها بأغلى الأسعار!![١٢] وعندما رأى عماد الدين الأصفهاني الأمر هكذا، حضر إلى مقر القصر، حيث بيع الكتب، واشترى كما اشتروا، فلما عرف السلطان (صلاح الدين الأيوبي) ما ابتاعه، وكان بمئين (أو بمائتين)، أنعم عليه بها، وأبرأ ذمته من ثمنها، ثم وهب له أيضًا من خزانة القصر ما اختار من كتبها.[١٣]

ويحكي عماد الدين الأصفهاني أيضًا: أنه دخل على صلاح الدين الأيوبي ذات يوم، وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من مكتبة القصر، وهو ينظر في بعضها، ويبسط يده لقبضها، وكان العماد طلب كتبًا عينتها لأخذها من مكتبة القصر، فقال صلاح الدين للعماد: وهل في هذه شيء منها ؟، فقال العماد: كلها !! فوهبها له كلها، وأخرجها العماد من عند السلطان بحمال.[١٤] وهكذا تكونت مكتبة عظيمة بالمجان للمؤرخ والأديب عماد الدين الأصفهاني، من هذه الهبات السخية جدًا، بالإضافة إلى ما كان عنده من كتب ووثائق خاصة به.

**تأملات في الرواية الأصفهانية:**

بقراءة كلام عماد الدين الأصفهاني الذي رواه المؤرخ أبو شامه، يتضح لنا عدة أمور نحب أن نقف أمامها:

١- موقف صلاح الدين الأيوبي من الكتب والمكتبات، موقف عجيب وغريب، حيث باعها بأرخص الأثمان وأبخسها، بل أنه يعطيها بالمجان، وبأكبر كمية ممكنة لمن يعرفه، وهذا ما فعله مع العماد الأصفهاني الذي خرج من حضرة صلاح الدين بكتب لا يقدر على حملها إلا حمال قوي خبير مدرب، أما كان من الأوفق أن يتركها كما هي أو يزيد عليها كي تكون زادًا ثقافيًا للقراء وأهل العلم، يطع عليها ما أراد ؟ وما المانع في أن يحولها إلى مكتبات عامة لصالح الناس وفائدتهم؟! وهذا كان معروفًا ومتبعًا على أيامه بل قبل أيامه، ولو فعل ذلك لأضيفت مكرمة إلى مكارمه، وعرف بحق أنه محب للفكر والعلم مهما اختلف مع توجهه.

٢- لقد دخل العماد الأصفهاني على صلاح الدين وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من مكتبة القصر، أي أنه كان يقرأ فيه، وكان الأصفهاني قد طلب كتبًا معينة له، ويسأله صلاح الدين: هل في هذه الكتب شيء منها؟ إذن قد يفهم القارئ من هذا الكلام أن صلاح الدين لا يعرف الكتب التي أمامه بالتحديد، ثم بسهولة شديدة وغريبة يعطيها كلها للأصفهاني دون أن يقرأ منها أي شيء !!.

٣- التاجر هو التاجر في أي زمان وأي مكان، الذي يهمه في بيعه وشرائه أن يكسب فقط لا غير، ويبدو أن تجار الكتب في مطلع الدولة الأيوبية كانوا لا يتسمون بالصدق والأمانة، فرغم أن الكتب كانت تباع في مقر الحكم الأيوبي بثمن زهيد، فهم يدبرون الحيلة ليخدعوا الوزير بهاء الدين قراقوش طالبين منه أن يأمر بخروج الكتب للتهوية ونفض التراب عنها، والذي نعرفه كباحثين ودارسين في المكتبات العربية والإسلامية، أن المكتبات كانت تلتزم في اختيار أماكنها بضرورة التهوية حرصًا على الكتب، في نفس الوقت الذي كان فيه عدد كبير من العمال أو الفراشين المعينين في كل مكتبة وظيفتهم تنظيف الكتب من أي تراب قد يعلق بها. المهم أن التجار أصحاب الذمم الخربة خدعوا قراقوش ذلك المهندس الذكي المتمكن من فن الإدارة والذي عرف عنه الحسم والحزم، وبالذات عندما تولى الإشراف على قلعة صلاح الدين الشهيرة، كانت النتيجة اختلاط الكتب واضطرابها، وتوزعها، فنجم عن ذلك أن أصبحت الكتب تباع بأرخص الأسعار، في الوقت الذي كان التجار يجمعونها ويرتبونها خارج القصر لبيعها بأغلى الأسعار، وهم بالطبع في غاية السعادة بهذا الكسب المادي الذي لم يكن على بالهم أو خاطرهم !.

٤- هكذا محب العلم في كل زمان وكل مكان، فعماد الدين الأصفهاني بمجرد أن سمع ببيع الكتب سارع إلى القصر كي ينهل من هذه الثروة غير المنتظرة بالثمن الذي يشتري به التجار، ولكن طاقة القدر فتحت له، وحصل على مكتبة كاملة بالمجان!!

٥- نخلص من كلام الأصفهاني أن الكتب في المكتبات الفاطمية كانت مرتبة تمام الترتيب، مقسمة على الرفوف، منسقة، مبوبة، مفهرسة، وهذا أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالكتب والمكتبات، ورعايتهم لها، ومعرفتهم بفنون الفهرسة، والتصنيف، والتقسيم، والترتيب، وكيفية تنسيق الكتب على أكمل وجه.

٦- إذا كان الحاكم بأمر الله الفاطمي شخصية غامضة وغريبة، لم تتمكن الدراسات والأبحاث حتى الآن من إنصافها وفق منهج علمي سليم، فإن دوره في خدمة العلم والكتب والمكتبات كان معروفًا وقد أشاد به من كتب عن عصره إشادة كبيرة.

٧- في الدولة الأيوبية شخصية يجب أن نعطها حقها ألا وهي الوزير بهاء الدين قراقوش الذي كتب عنه ابن مماتي كتابه الشهير (الفاشوش في حكم قراقوش)، ونعرف من التاريخ أن قراقوش كان بارعًا في علم الهندسة والإدارة، وكان هو الوزير المسئول عن بناء قلعة صلاح الدين الأيوبي، يضرب بيدًا من حديد على يد هؤلاء الذين يهملون أو يستهترون أو ينفلتون أثناء أداء العمل، أو يغشون في مواد البناء، ويقال أنه كان عبقريًا في التصميم والبناء، ويبدو أن بعض المقاولين أصحاب الضمائر الميتة أو غير الملتزمين الذين كان يوكل لهم العمل في بناء القلعة هم أول من أطلق الشائعات التي تتهم قراقوش بالظلم والاستبداد والقسوة والتعسف، وحبكوا حوله الأساطير والشائعات، بل أنه أضحى في التراث الشعبي ملكًا أو حاكمًا ظالمًا متجبرًا، والحقيقة غير ذلك على الإطلاق، فقد خدم الرجل الدولة الأيوبية بكل التفاني والإخلاص. وبهاء الدين قراقوش لا نرى له أدنى علاقة بمسألة بيع وشراء الكتب ن فليس من المستبعد أن تنطلي عليه خدعة تجار الكتب عندما طلبوا منه أن يخرج الكتب كلها من الرفوف، وهو في بيع الكتب ينفذ رغبة صلاح الدين وليست رغبته هو.

وختامًا نقول: إن العماد الأصفهاني الذي خدم من قبل نور الدين زنكي، ثم رافق الناصر صلاح الدين الأيوبي في جميع حملاته، وكتب مؤلفًا مهمًا أرخ فيه لفتح بيت المقدس الشريف أسماه (الفتح القسي)، يعد من أوثق ما يصور هذا الفتح الكبير، والعماد الأصفهاني يعد من الرجال الذين أخلصوا في خدمة صلاح الدين مثله في ذلك مثل قراقوش (معناها الغراب الأسود)، والأديب الكاتب القاضي الفاضل، والشاعر الرحالة السياسي أسامة بن منقذ.

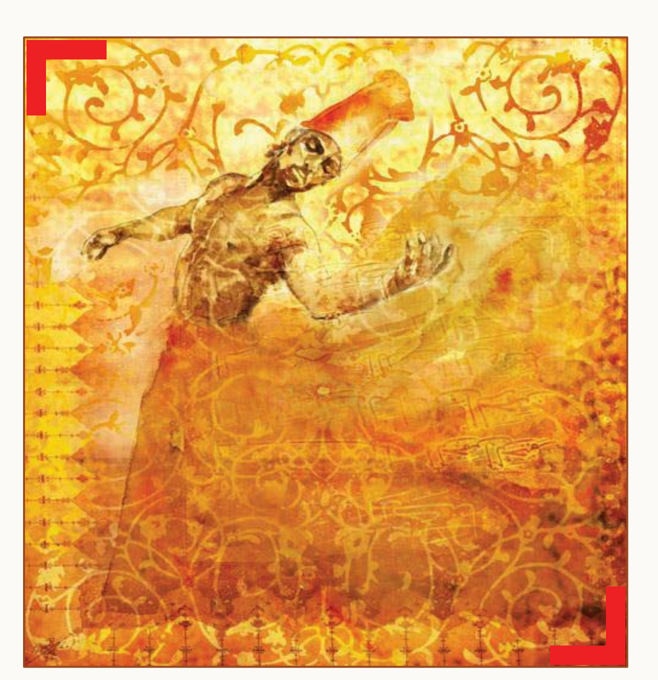
## خاتمة

لقد انتشرت المكتبات العامة في العالم الإسلامي في عصور حضارته الزاهرة كمؤسسات خيرية وتعليمية، إلا أن المكتبات الخاصة انتشرت هي الأخرى في شرق العالم الإسلامي وغربه، فقلّ أن تجد عالمًا إلا وله مكتبة خاصة تحوي آلاف الكتب، لذا ألقينا الضوء في الصفحات السابقة على عدد من المكتبات الخاصة التي تحدث التاريخ عن أخبارها بإعجاب.

## الهوامش:

(١) ابن طباطبا العلوي، **الفخري**، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٣.
(٢) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٢٠٥، بتصرف من عندنا.
(٣) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ١٦٩، بتصرف من عندنا.
(٤) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست ميللر، ١٨٨٤ ، ١ / ١٨٦، بتصرف من جانبنا.
(٥) القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ليبسك، هولندا، ١٣٢٠ هـ، ص ١٧٤.
(٦) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٤١٠.
(٧) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، نشرة مرجليوث، لندن، بدون تاريخ، ٤ / ٢٨٦ . ٢٨٧، وكذلك ١٢ / ٤٩
(٨) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة، أوجست ميللر، ١٨٨٤ ، ٢ / ١٧٥ . ١٧٩، بتصرف من عندنا.
(٩) أسماء أبو بكر محمد، **عبد القادر البغدادي: زعيم اللغويين في القرن العاشر الهجري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٥، وما بعدها بتصرف.
(١٠) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست موللر، ١٨٨٤، ٢ / ٩٨ . ٩٩.
(١١) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست موللر، ١٨٨٤ ، ٢ / ١٠٥.
(١٢) أبو شامه، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، القاهرة، ١٢٨٧ هـ . ١٢٨٨ هـ، ١ / ٢٦٨، بتصرف من عندنا.
(١٣) أبو شامه، المرجع نفسه، الموضع نفسه، بتصرف من عندنا.
(١٤) أبو شامه، المرجع نفسه، الموضع نفسه، بتصرف من عندنا.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية



# الخلاف بين الطريقة الصوفية الخلوتية وحركة قاضي زاده حول زيارة المقامات المقدسة

## اعتمادًا على مخطوط من أدب الزيارات بالعربية في القرن الثامن عشر




أ. د. غالب عنابسة

رئيس قسم اللغة العربية

كلية بيت بيرل الأكاديمية – باقة الغربية

محاضر في أكاديمية القاسمي للتربية

مرشد لطلبة الماجستير في كلية أورانيم



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

غالب عنابسة، الخلاف بين الطريقة الصوفية الخلوتية وحركة قاضي زاده حول زيارة المقامات المقدسة، اعتمادًا على مخطوط من أدب الزيارات بالعربية في القرن الثامن عشر.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٥٩ – ٦٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

**خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢**



## ملخَص

تحاول صفحات هذه الدراسة الوقوف على الخلاف الذي وقع بين الطرق الصوفية وبالتحديد أتباع الطريقة الخلوتية في الإسلام،(١) وتيار قاضي زاده الذي تبنى أفكار محمد أفندي البركوي، في الفترة العثمانية، حيث كانت بداية هذا التيار في القرن السادس عشر، ومن خلال المخطوطة التي استندنا إليها، فيبدو أن الخلاف بين الفئتين كان حول زيارة الأماكن المقدسة (مثل: مقام، أو ضريح، أو أثر لشخصية دينية وغيرها) ابتغاء التبرك بها، والتوسل والقيام بالطقوس الدينية المختلفة بجانبها. إن تيار قاضي زاده -كما يبدو لنا- قد تبنى الفكر الحنبلي في الإسلام، المتمثل بفئة قليلة من أتباع ابن تيمية (ت. ١٣٢٨م) وتلاميذه الذين عارضوا زيارة الأماكن المقدسة على اختلاف أنواعها، والتبرك والتوسل بها، لأن ذلك يتنافى مع تعاليم الإسلام السني. وهذا الجانب كما نعلم يعتبر مسألة خلاف بين العلماء المسلمين، وكذلك المذاهب الإسلامية المختلفة.(٢)

وفي سبيل إسكات الصراع بين الفئتين المختلفتين، طردت السلطة العثمانية أتباع حركة قاضي زاده من استانبول. ومن المعروف لدينا أن السلطة العثمانية قد شجعت الطرق الصوفية ليس لأسباب دينية فحسب وإنما لأسباب سياسية، وهذا يتشابه نسبيًا مع سياسة المماليك، الذين أرادوا طابعًا دينيًا وسياسيًا لحكمهم. ومن المعلوم أن مدينة القاهرة في القرن السابع عشر، كانت مركزًا لتعليم الحديث، وفي حالات معينة لتعليم أصول الفكر الصوفيّ، لكن معظم ممن درس هناك أكمل تعليمه في القدس، وهذا يعني أن مكانة رجال الصوفية في القدس العثمانية، كان مرموقًا، فضلاً عن وجود علاقة بين رجال الصوفية والحكام المحليين في دمشق من قبل السلطة العثمانية.

لقد اعتمدنا في دراستنا على مخطوطة مصطفى البكري الصديقي الدمشقي، وهي تحت عنوان "برء الأسقام في زيارة برزة والمقام" والتي ترجع الى القرن الثامن عشر، ويبدو لنا بأن المؤلف أراد أن يثبت لحركة أتباع قاضي زاده بواسطة البراهين التي يذكرها في المخطوطة بأن زيارة الأماكن المقدسة والاستعانة بها يعتبر شرعًا في الإسلام،(٣) فضلاً عن زيارته للمقام المنسوب إلى إبراهيم عليه السلام في قرية برزة وأماكن مقدسة أخرى في سوريا.


## مُقدِّمة

ليس من جديد أن نشير إلى أن مسألة زيارة الأماكن المقدسة (عدا الزيارة لأجل الحج أو العمرة)، تعتبر موضوع خلاف بين العلماء المسلمين، نخص بالذكر في الفترتين المملوكية والعثمانية. نأخذ على سبيل المثال العالم ابن تيمية (ت. ١٣٢٨م) الذي رفض مثل هذه الجوانب وتبعه فيما بعد بعض تلاميذه ممن يمثل التيار الحنبلي، وبالمقابل هناك مَن اعترض على هذه الأفكار بدءًا بالفترة المملوكية وحتى الفترة العثمانية. ويستمر الجدل بين مؤيد ومعارض، (مؤلف ضد مؤلف) أي ظهرت في هذه الفترة مؤلفات تؤيد الزيارة وأخرى تعارضها، ولا يزال هذا الخلاف قائمًا حتى اليوم.(٤)

## عنوان المخطوطة وأسباب الزيارة

إن المخطوطة التي اعتمدنا عليها، هي - كما أشرنا أعلاه- "بُرْء الأسْقام في زيارة بَرْزة والمقام"[٥] (Recovery from Illness by Making pilgrimage to Barza and Holy site) لمصطفى البكري الصديقي الدمشقي الخلوتي (ت. ١٧٤٩م) أما تاريخ الرحلة فكان عام ١٧١١م، وكما نعلم فإن الفضل يرجع إليه في نشر الطريقة الصوفية الخلوتية في كل من سوريا وفلسطين والحجاز في القرن الثامن عشر، بعد أن بايع شيخ الطريقة في سوريا وهو عبد اللطيف بن حسام الحلبي الخلوتي (ت. ١٧٠٩م) وأخذ الطريقة الخلوتية عنه.

هذه الرحلة المذكورة أعلاه، خصها المؤلف بقرية "برزة" في سوريا،[٦] حيث نسب إليها مقام إبراهيم[٧] (وليس المقصود هنا مقام إبراهيم في مكة) وفق بعض الروايات، التي تشير إلى مكان ولادته فيها، نخص بالذكر ما ورد لدى ابن عساكر في كتاب "تاريخ مدينة دمشق"، لكن من جهة أخرى، يذكر ابن عساكر قائلاً: "والصحيح أنه ولد في كوثى ريّا وهي قرية من أقاليم بابل العراق."[٨] من الجانب الجغرافي، تقع قرية برزة شمال مدينة دمشق بالقرب من جبل قاسيون، ونتيجة للامتداد العمراني لهذه القرية أصبحت جزءًا لا يتجزأ من مدينة دمشق.[٩]

يبدو لنا في البداية أن الهدف من الزيارة التي قام به البكري الصديقي هي زيارة مقام إبراهيم المنسوب إليه في هذه القرية المذكورة أعلاه، وأماكن مقدسة أخرى في ضواحي دمشق، حيث يقال بأن مقام إبراهيم ومسجده فيها، وفق العديد من الروايات التي ظهرت في أدب فضائل الشام أي فلسطين وسوريا بالمفهوم العام أو سوريا فقط بالمفهوم الخاص. لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود روايات محلية والتي لا تمثل إجماع العلماء المسلمين، ولم تذكر في كتب الحديث الرسمية في الإسلام وهي روايات ظهرت بشكل ملحوظ في أدب فضائل الشام في القرون الوسطى، والتي تستهدف إثبات قدسية مكان مقدس دون الآخر.[١٠]

ورد في مقدمة مخطوطة البكري الصديقي: "كنت كثيرا ما أزور مقام برزة المنسوب للخليل (أي إبراهيم الخليل) منحنا الله به مراما في سنة ١١٢٣" للهجرة / ١٧١١م.[١١] وفي صفحات لاحقة يتركز المؤلف بأسباب تسمية إبراهيم الخليل بهذا الاسم، ثم ينتقل إلى الدافع الذي جعله يزور هذا المكان، كمكان يستجاب به الدعاء من بين ثلاثة أمكنة وفق مصدر يعتمد عليه.

ورد في المخطوطة: "وكان الداعي إلى تكلمنا في هذا المقام، أنا ذهبنا يوما إلى المقام المنسوب إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي فوق قرية برزة.... إن من الأماكن التي يستجاب الدعاء فيها ثلاثة: مغارة الأربعين التي تسمى بمغارة الدم، لكن شرطه أن يكون الدعاء في ليلة الجمعة، والموضع الثاني في جامع بني أمية، لا زال معمورًا بالذكر والعبادة في كل ساعة إلى أن تقوم الساعة.... والموضع الثالث هو المسجد الذي هو المسجد الذي فوق مقام برزة."[١٢]

لكن ربما الهدف من وراء زيارة مقام إبراهيم عليه السلام كما ورد في المخطوطة يعكس الخلاف بين حركة قاضي زاده في استانبول والطريقة الخلوتية، حول زيارة الأماكن المقدسة، وما يثبت هذا الجانب ما ورد في مخطوطة البكري الصديقي المشار إليها أعلاه، فيها: "وإذا كان تعظيم المساجد واحترامها متحتما، فكيف بأنبياء الله ورسله والخاصة من عباده، وإذا كان رفع الصوت عند الرسول يحبط العمل، فكيف بمن يقول بهدم قبورهم، التي بنيت لتعظيمهم واحترامهم وقد وقع إجماع أكابر الأمة على ذلك من غير نكير يصعب اقتحام المسالك، إلا فرقة تعصب جداليّة يُسمون في العموم بالزادلية، ينتسبون إلى شيخ زادة، وكان هذا الشيخ ذا ورع بزيادة، فزاد أتباعه في التشديد، ومدوا فيه باعهم المديد، وترجمته مشهورة سيما في الروم، فلا حاجة لذكرها لأنه علم معلوم، وقد تبعته هؤلاء الطائفة، التي على الجدال طائفة، وزادوا عليه ما لم يسمع منه ونسبوا إليه ما لم يصرح به ولا ينقل عنه، وتبعهم شرذمة من جهلة الناس الذين على أقوالهم لا يُعتمد ولا يُقاس، لموافقتهم بعض عقول عن النظر إلى الأدب معقولة، والوقوف مع أفكار غير منورة بالأذكار ولا مصقولة، فنعوذ بالله من شرور نفوسنا الأبيّة، وسيّئات أعمالنا التي للحق غير مرضيّة، ونسأله العافية من كل بليّة ورزيّة، والسلامة من كل سوء بجاه أنبيائه وأحبابه أهل المزيّة، آمين."[١٣]

يبدو لنا من خلال النص أعلاه، أن البكري يشير إلى أتباع الشيخ زاده الذين نسبوا إليه (أي إلى الشيخ) أقوال لم يقلها، وتبعهم كثير من الناس، ومن جهة أخرى يظهر لنا بوضوح من خلال النص أعلاه استحباب الشيخ البكري الصديقي لزيارة الأماكن المقدسة والتوسل بها لقضاء حاجات روحانية ودينية وغيرهما اعتمادًا على روايات أو أحاديث مختلفة، وقد ورد في أكثر من موضع من المخطوطة ما يبين ذلك.

## أمثلة من المخطوطة حول وجوب زيارة الأماكن المقدسة

ورد في المخطوطة: "فزيارة القبور من حيث هي سنة قال عليه الصلاة والسلام: كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة". وفي موضع آخر "ومعلوم أن زيارة الصالحين الذين أقامهم الله سببًا في قضاء مهمات المسلمين من الأحياء والميتين مندوبة شرعًا وعقلاً فإن اتخاذ الوسائط قد صح نقلاً."[١٤] وفي مواضع مختلفة من المخطوطة، يذكر الصديقي بأن كرامات تحدث بجانب الأماكن المقدسة، ورد في المخطوطة: "وأخبرني أخونا الشيخ عبد الكريم القطان، اسكنه الله جنة الفردوس الأعلى عن والده الشيخ علي المبيض رحمه الله تعالى قال: قال لي والدي زرت مرة أخي الشيخ بكار وقرأت عنده سورة يس فردّني أربع مرات".

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

يورد الصديقي مثالاً آخر بأن صداع الرأس لديه قد زال لدى زيارته مقام النبي موسى بالقرب من أريحا، في زيارة سابقة له، ورد في المخطوطة: "ولقد اتفق لي أنني زرت سيدي موسى الكليم، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، وكانت أول مرة زرته عليه الصلاة والسلام فيها فلما وصلت حضرته الشريفة تأخرت عن زيارته لعائق، فحصل لي صداع شديد ولم يزل يشتدّ حتى دخلت حضرته الكليمية، ذات الأسرار والأنوار الرحمانية الرحيمية، وصلّيت ركعتين وأخذت السّتر بيدي وقبّلته ومسحته على رأسي وشكوت له ما به فما وضعته حتى زال كان لم يكن."(١٥)

نورد مثالاً أخيرًا من المخطوطة يبين ضرورة الاستعانة بأشخاص لهم مكانتهم الدينية والروحانية، ورد في المخطوطة: "بل قد تكون الاستعانة واجبة، ألا ترى انك لو وقعت في حفرة، فمرّ عليك إنسان، وتحققت من نفسك، انك إذا لم تستعن به وتقول له خذ بيدي لتخرج من تلك الحفرة هلكت، فتكون الاستعانة هنا واجبة، فإذا تفعل وقعت في وعيد من ألقى نفسه إلى التهلكة."(١٦)

من المعلوم أنه في الفترة العثمانية وبالتحديد القرنين السابع والثامن عشر، جرى نقاش أو جدل بين أتباع الطريقة الخلوتية التي شجعت زيارة قبور الأولياء والأنبياء والصالحين والأماكن المقدسة والتوسل بها من جهة، وأتباع محمد بن محمد المعروف بقاضي زاده (ت. ١٦٣٤ ) أو بالشيخ زاده كما ورد في المخطوط في استانبول. وقد مثّل الخلوتية في تلك الفترة عبد المجيد السيواسي (ت. ١٦٣٩م) بينما مثّل قاضي زادة، محمد قاضي زاده (ت. ١٦٣٤م) ومحمد الاسطواني الشامي الأصل (ت. ١٦٦٦م). لكن بعد أن جاء الصدر الأعظم محمد باشا الكوبريلي بين سنوات ١٦٥٦- ١٦٦١ والذي عرف بحزمه بالأمور العسكرية والدينية، استطاع أن يقضي على هذه الحركة ونفي العديد من أتباعها من استانبول، وبهذا قُضي على هذا النزاع الذي قد يولّد فتنة داخلية. بالرغم من أن السلطة العثمانية تعاملت بحذر في البداية بالنسبة للصراع بين الطرق الصوفية وحركة قاضي زاده.

لكن كما يبدو فإن حركة قاضي زاده بقيت قائمة في سياقها الديني والعقائدي، ولكن أوقفت نشاطها بعض الوقت تجاه أتباع حركات التصوف من بينها الخلوتية في استانبول وخارجها.

## شهادة الجبرتي حول هذا الصراع

يورد المؤرخ الجبرتي (ت. ١٨٢٢م) أيضا في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ما يشير إلى الصراع المشار إليه أعلاه، حيث يورد رواية تشير إلى مجيء رجل رومي (تركي) إلى مصر حيث كانت ظاهرة زيارة الأماكن المقدسة والتوسل بها منتشرة، فاخذ يعظ الناس على ترك ذلك، ورد في الكتاب وفق عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م وهو نفس تاريخ زيارة الشيخ البكري لقرية برزة: "وفي شهر رمضان قبل ذلك جلس رجل رومي (تركي) واعظ يعظ الناس بجامع المؤيد، فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد وأكثرهم أتراك ثم انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه وعلى ولاة الأمور السعي في إبطال ذلك..... ويضيف " وانه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ويجب هدم ذلك".(١٧)

في سبيل الإيجاز كما ورد لدى الجبرتي، المجموعة التي كانت تستمع للواعظ بدأت بمحاربة مثل هذه الظواهر، عندئذ ذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر ليخبروهم بذلك، فكتب علماء الأزهر فتوى تنفي ما يقوله الواعظ، وجاءوا بها إلى الواعظ الذي كان في المسجد، فغضب غضبًا شديدا وطلب أن يناقشهم لدى قاضي العسكر. وفي النهاية أمر الباشا بنفي الواعظ من البلد ومن يؤيده، حتى سكنت الفتنة على حد قول الجبرتي. وهذا يتشابه ما حصل في استانبول بالنسبة لنفي أتباع حركة قاضي زاده. لا شك لدينا أن هذه القصة التي أوردها الجبرتي تشير إلى الخلاف بين بعض التيارات الدينية والفكرية في الإسلام حول التبرك والتوسل بالأولياء والأماكن المقدسة.

## البركوي وحركة قاضي زاده (Kadi Zade)

حول بداية حركة قاضي زاده، يبدو لنا أنه في القرن السادس عشر ظهرت انتقادات ضد الإسلام الشعبي بغية تنقية الدين من البدع (Puritanism) هذه الانتقادات جاءت من شخص يدعى محمد البركوي (ت. ١٥٧٣م) وهو أحد كبار العلماء الأتراك الذي وصف كل المعتقدات التي تراكمت مع مرور الزمن بعيدا عن الكتاب والسنة (القرآن والحديث النبوي) بأنها بدعة، وقد كان أبوه عالما من أصحاب الزوايا، لكن الابن واصل طيلة حياته يدافع عن آرائه، نعني رفضه للمعتقدات الباطلة والبدع التي أشاعها المتصوفة باسم الدين. ولا شك أنه ربما قد تأثر بأفكار ابن تيمية، وهو بذلك يتهم السلطة العثمانية، بأنها المسئولة عن شيوع مثل هذه العقائد.(١٨)

أشارت بعض كتب التراجم إلى أن البركوي تفقه بالدين وكان ورعًا زاهدًا، وقد كان تركي الأصل والمنشأ من أهل قصبة باليكسرى (Balikseri)وكان مدرسًا في قصبة بركي فنسب إليها، ومن خلال مؤلفاته بالعربية التي وردت في بعض كتب التراجم نظن أنه أراد مواجهة البدع التي كان يفعلها الناس، وله مخطوط رسالة تدعى "إنقاذ الهالكين" حققها حسام الدين بن موسى عفانه، من جامعة القدس العربية يرجع تاريخ نسخها عام ١١١٣هـ/١٧٠٢م، وقد حصلنا على نسخة من التحقيق.(١٩)

## خاتمة

نستنتج ما ورد أعلاه ما يلي:

- علينا أن نذكر أن الخلاف بين أتباع قاضي زاده وأتباع الطريقة الخلوتية ليس جدلاً بين الإسلام السني والإسلام الصوفي الشعبي - إن صح التعبير- لأن هذا يضع الإسلام السني في المركز والإسلام الشعبي في الأطراف، وإنما هو الإسلام الذي هو بمثابة بعض المظاهر الدينية، والإسلام الذي يعتبر نهجًا لحياة اجتماعية، نعني أن الأحداث التي ترتبط بالدين في الدولة العثمانية ليس

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مصدرها الدين، بل هي أحداث اجتماعية استخدمت المنهج الديني انسجامًا مع الزمان والمكان.

- ربما نستطيع أن نحدد بأن حركة قاضي زاده وأتباعه تحمل سياسة مذهبية معينة، كونهم أخذوا فكر البركوي الذي يتركز في رفض البدع، وبالغوا بآرائه، حتى تحولت حركة قاضي زادة إلى حركة تعصب، وهذا ما جعل السلطة العثمانية تحاول القضاء عليها.
- لا شك لدينا؛ أن حركة أتباع قاضي زاده حملت العداء للتصوف، نخص بالذكر الطريقة الخلوتية، وكذلك أظهروا انتقادات راديكالية ضد الإسلام الشعبي، وهم بذلك قد خرجوا عن النهج الذي طالب به البركوي بالنسبة للبدع في الإسلام، فضلاً أن الأخير لم يظهر عداءه للتصوف.
- إن مسألة التاريخ الديني لدى العثمانيين ليس مجرد حركات أو حوادث مختلفة، وإنما من المفروض جدلاً أن نجد العلاقة بين هذه الحوادث والأوضاع السياسية والاجتماعية.

## الهوامش:

(١) الخلوتية هي طريقة صوفية في الإسلام، كانت بدايتها في الفترة المملوكية، ويبدو أن أول من استخدم مصطلح "خلوتية" هو محمد بن نور الدين الخلوتي الباليسي (ت. ١٢٦٧م). انظر:

De Jong F., "**Khalwatiyya**", in: *EI²*IV, P. 991 - 993.

ومن المعروف أن الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي قام بنشر الطريقة الخلوتية في القرن الثامن عشر، بعد أن أخذ الطريقة عن شيخه عبد اللطيف الحلبي (ت. ١٧٠٩م). راجع:

Ralf Elger, Mustafa al-BaKri, **Zur Selbstdarstellung eines syrischen Gelehrten**, Sufis und Dichters des 18., p. 45.

(2) Meri. J., **The Cult of Saints among Muslims and Jews in Medieval Syria**, pp. 17-20; 63-64;idem "**Aspects of Baraka (Blessings) and Ritual Devotion among Medieval Muslims and Jews**", pp. 46-69. idem "**A Late Medieval Syrian Pilgrimage Guide**: Ibn Al-Hawrani's al-Ishārāt ilā 'Amākin al-Ziyārāt; Idem "Ziyāra", in EI², Leiden, pp. 524-529; Can'ān. T. **Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine**, pp. 47-77.

(3) Meri, J. "**A Late Medieval Syrian Pilgrimage Guide**: Ibn Al-Hawrani's al-Ishārāt ilā Amākin al-Ziyārat, Medieval; idem "Ziyāra", in: EI² , pp. 524-529. Idem, **The cult of Saints among Muslims and Jews in Medieval Syria**, pp.50-55.

(٤) انظر: ابن تيمية، ابن تيمية (ت. ١٣٢٨م)، **كتاب الزيارة**؛ تقي الدين السبكي (ت. ١٣٥٣م) يرد على ابن تيمية الذي عارض الزيارة كهدف للتوسل والتبرك، في كتابه، **شفاء السقام في زيارة خير الانام**؛ ومحمد بن احمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي (ت. ١٣٤٣م)، يرد على السبكي في كتابه، **الصارم المنكي في الرد على السبكي**. قارن: غالب عنابسة، أبعاد في أدب فضائل الأرض المقدسة: دراسة في بعض المصادر منذ نهاية الفترة المملوكية وحتى الفترة العثمانية، حول مراكز دينية منتخبة: في الشام فلسطين، سوريا، مركز دراسات الأدب العربي، ٢٠٠٦، ص٥٠ - ١٤٤.

(٥) **مخطوطة عارف حكمت في المدينة في السعودية**، مكتبة عارف حكمت، رقم ٣٨٤٠، وكذلك: مخطوطة أخرى في جامعة برينستون: (Yahuda garret, Col, MS.no.4478)

لكننا اعتمدنا على مخطوطة المدينة في السعودية. وقد قمت بإصدار المخطوطة مؤخرًا، تحت عنوان، "**برء الأسقام في زيارة برزة والمقام**". في مؤسسة دار الفكر في الأردن، ودار الهدى في كفر قرع، ٢٠٠٩.

(٦) انظر حول برزة: الربعي، **فضائل الشام ودمشق**، يذكر حديثًا "عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ولد إبراهيم عليه السلام بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون" ص٧٠؛ الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، يذكر كوثى ربّا، في العراق، ص٢٠؛ قارن مقال:

M. J. Kister "**Sanctity Joint and Divided**", JSAI XX, pp.27 – 28.

نشير إلى أن القرية سميت برزة لأن إبراهيم عليه السلام برز على أعدائه في هذا المكان وفق مؤلفات فضائل الشام المذكورة في هذه الملاحظة الهامشية.

(٧) ليس المقصود هنا مقام إبراهيم المشهور والمعروف في السعودية. انظر:

M. J. Kister, "**Maqam Ibrahim**", in: EI² VI , pp. 104 - 107.

(٨) انظر: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ١: ٢٧٨.

(٩) انظر: النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ٢: ١٩٩٠،

J. Meri, **The cult of Saints among Muslims and Jews in Medieval Syria**, pp. 196-199.

(١٠) انظر: غالب عنابسة، **أبعاد في أدب فضائل الأرض المقدسة**، ٤٤ - ٤٥.

(١١) انظر: برء الأسقام في زيارة برزة والمقام، ورقة ٥٤ ب.

(١٢) وقد سميت بمغارة الدم لأنه يُقال إن قابيل قتل هابيل هناك، وسبب تسميتها بمغارة الأربعين لأنه يُقال أن أربعين نبيًا ماتوا بها من الجوع، أو لأن فوقها مسجدًا فيه أربعون محرابًا. انظر: عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، **حدائق الإنعام في فضائل الشام**، ص٩٤ - ٩٨؛ قارن: الربعي، **فضائل الشام ودمشق**، ٩٦.

(١٣) انظر: برء الأسقام في زيارة برزة والمقام، ورقة ٦٤ ب- ٦٥ أ.

(١٤) انظر: برء الأسقام، ورقة ٥٦ ب- ٦٢ أ؛ مسند أحمد بن حنبل، ١: ١٤٥؛ وقارن:

Kister, M. J, "**Sanctity Joint and Divided**", pp. 27 - 28.

(١٥) انظر: الرواية الأولى، **برء الأسقام**، ورقة ٦٢ ب، والرواية الثانية، ورقة ٦٥ أ؛ هذه إشارة للشفاء لدى المكان المقدس، وقد وردت الكثير من الروايات لدى الشيخ مصطفى البكري الصديقي في رحلاته المختلفة إلى بيت المقدس حيث انتهزها في كل وقت فرصة لزيارة مقام النبي موسى عليه السلام، انظر على سبيل المثال مخطوطة **الخمرة المحسية في الرحلة القدسية** للشيخ البكري الصديقي، مكتبة عارف حكمت، المدينة (السعودية) رقم ٣٨٤٠.

تشير بعض مصادر التاريخ العثماني إلى وجود سبعة مقامات للنبي موسى وهي: (دمشق، أريحا، لد، مدين، تيه بني إسرائيل، بصرى، البلقاء). انظر: محمد بن محمد الخليلي، **تأريخ القدس والخليل عليه السلام**، مؤسسة الفرقان، لندن، ص١٨٧.

(١٦) انظر: **برء الأسقام**، ورقة ٦١ ب.

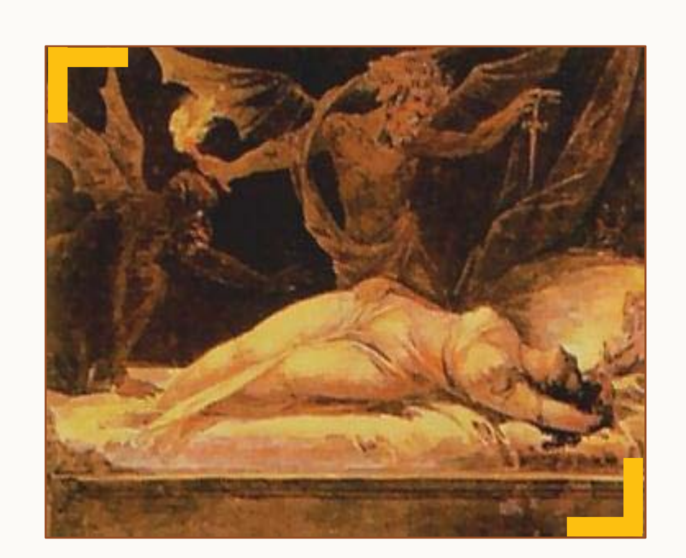
(١٧) انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار**، ١: ٤٨ - ٤٩، ١٧٨ - ١٧٩. قارن:

Winter, M., **Egyptian Society Under Ottoman Rule 1517 - 1798**, pp. 105-128; Wardi, Chaim., "**The Question of the Holy Places in Ottoman Times**", pp. 385 - 393.

(18) Kufrevi, K. "**Birgewi**", in: *EI²*I , p. 1235

(١٩) اعتمد المحقق على مخطوطة الرسالة في مكتبة المسجد الأقصى المبارك رقم ٢١٣؛ وهناك نسخة مصورة في مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية في القدس رقم ٢/١٥٧.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



# العفاريت والأرواح الشريرة وأشباح الموتى ودورها في ديانة بلاد الرافدين




د. أسامة عدنان يحيى

مدرس تاريخ العراق القديم والشرق الأدنى

كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

بغداد – جمهورية العراق



**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

أسامة عدنان يحيى، العفاريت والأرواح الشريرة وأشباح الموتى ودورها في ديانة بلاد الرافدين.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٦٣ – ٦٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخص

إن الاعتقاد بالشياطين وامتلاك الشياطين للبشر ظهر كواقع حضاري منذ العصور القديمة، فقد نشأ اعتقاد لدى سكان حضارة وادي الرافدين بوجود العفاريت والأرواح الشريرة داخل الكيان المادي للإنسان وما حوله، وكان اعتقادهم ناشئًا من أن هؤلاء الجن والعفاريت هم أبناء الآلهة ولا يمكن التخلص من شرورهم، وبالتالي كان جميع أهالي بابل يؤمنون بالأسطورة القائلة :"إن مَن يمشي بلا إله في الشارع سيكون العفريت دثاره"، لذا تسلط صفحات المقال الضوء من خلال النصوص على العفاريت والأرواح الشريرة وأشباح الموتى ودورها في ديانة بلاد الرافدين، في محاولة لتوضيح نفسية الإنسان البابلي والرعب الذي سكن داخله من هذه الشخصيات المهمة.


## مُقدِمة

في بلاد الرافدين كان السكان يعتقدون بأن الكون مليء بالعفاريت الطيبة والخبيثة. والأخيرة هي أولاد آلهة الشر الذين دحرهم مردوك، أما الطيبون فهم أبناء انو وايتليل وأيا، وتميزوا بأجنحتهم. والخبيثة أكثر عددًا من الطيبة، فهي كما يقول نص: "... كالعشب الذي يغطي وجه الأرض، برقها يصعق ويحرق كالنار، تصيب الإنسان بالمرض وهو في فراشه، وتضيق على جسده، وتملأ المدن والأرياف نواحًا وآهات"،(١) وأن ارتباط هذه القوى بالأمراض هو اعتقاد نقرأ عنه في أقدم وثائقنا المكتوبة.(٢) وهذه العفاريت تُرسل من قبل الآلهة إلى البشر: "لقد خرجوا من عالم الجحيم، إنهم مرسلو اينليل، سيد البلدان".(٣)

لقد كانت هذه الشياطين كائنات إلهيه أو شبه إلهية (يسبق اسمها دائمًا إشارة الإلوهية)،(٤) ذات قدرة تفوق طاقة البشر، فهي أكثر قدرة منه ولكنها أقل مقدرة وعلو من الآلهة، بيد أنها تشارك الأخيرين في العديد من مميزاتهم المتمثلة في القوة والذكاء وربما الخلود أيضًا،(٥) فالعفاريت كما يتضح من النصوص خالدة لا تموت ولا يمكن تدميرها فعلاً، ولكن يمكن دفنها بعيدًا عن طريق الأذى، كأن يكون إعادتها للعالم الأسفل.(٦)

## العفاريت والأرواح الشريرة وأشباح الموتى

تزودنا النصوص المسمارية بتفاصيل جيدة عن هذه القوى الشريرة وصفاتها فهي تسكن في كل مكان تقريبًا، على الرغم من وجود أماكن تفضلها بوجه خاص مثل الأماكن المهجورة، والمظلمة، والخرائب، والمدافن، والصحاري، وكل مكان يبعث على الرهبة مثل الشيطان "اوتوككو" الذي يعيش في المقابر والصحاري، و"الألو" الذي يقطن الخرائب، وأحيانًا تسكن العالم الأسفل، فنعرف مثلاً إن الشيطان أساك (Asag) وهو المسبب للمرض والحمى كان مقره في كور (العالم الأسفل)، وقد تلعب ظروف خاصة في زيادة نشاط أولئك العفاريت، مثلاً حينما تنتظر المرأة الولادة أو عند ولادتها طفلها توًا، لذا فإن التفكير القديم يعزي إلى العفاريت النسبة العالية من حمى النفاس وموت الوليد.(٧) وتعيش العفاريت بشكل

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جماعات منهم "الاوتوككو" الأشرار المعروفين بالسبعة غير متميزي الجنس، ونقرأ عن كونهم قبيلة.[٨] إذ نقرأ في نص:

**"إنها سبعة تسكن الأرض**
**إنها سبعة خرجت من الأرض**
**إنها سبعة ولدت على الأرض**
**إنها سبعة ترعرعت على الأرض**
**جاءت لتطأ بأقدامها شواطئ المحيط".[٩]**

وفي نص أخر:

**"هي سبعة! ولدت في جبل الغرب**
**هي سبعة! ترعرعت في جبل الشرق**
**وتسكن كهوف الأرض**
**وتظهر فجأة في الأماكن المهجورة من الأرض**
**سبعتها تركض فوق جبل الغرب**
**سبعتها ترقص فوق جبل الشرق".[١٠]**

ويطلق على هذه الشياطين أسماء تعبر عن وظائفها وعن دورها المخرب، وعما يسببونه من أذى ودمار. ومن تلك الأسماء الآخذ أو الماسك (ahhazu)، المتربص أو المنتظر(rabasu)، المخرب أو الداخر(Labassu)، روح الليل(lilu)، وأنثاه ليليتو(lilitu). ويطلق عليها أحيانًا أسماء ليست لها علاقة بوظائفها مثل الو-كالو-لماشتو-بازوزو-نمتارو...الخ[١١]. وكانوا يصورونها بهيئة مخلوقات بشعة الخلق والهيئة وسفاكة للدماء[١٢]. ويمكن لهذه الشياطين أن تتشكل في أية صورة، فيمكن لها أن تستلقي بهيئة أتان في انتظار قدوم الرجل، أو تطوف المدينة ليلاً في شكل ثعلب، أو تدور في مجموعة ككلاب الصيد، أو تنساب على الأرض كالأفاعي. ويمكن لها أن تنفذ من أي جسم، وأن تتحرك في كل مكان دون أن يراها أحد، وأن الإجراءات الوقائية ذات تأثير ضئيل فيها،لأنها تستطيع أن تزحف على البيوت خلال شق في باب البيت، أو تندفع مثل تيار هوائي، وهم يدخلون البيوت والإسطبلات لإحلال الأذى والقتل. وليس هذا فقط بل إنها قادرة على القيام بحركات خاطفة لا يمكن تصديقها، فهي توصف بأنها يمكن أن تطير بسرعة خاطفة كالشهب.

وكانت العفاريت تدل على وجودها بأصوات حيوانية، تبعث الفزع الشديد في الأماكن الموحشة، وأصواتهم هذه عادةً تكون أشد وطأً من عضاتهم، وهي تجمع عادة في إشكالها بين البشر ورؤوس الحيوانات، أو تظهر بأعضاء حيوانات مختلفة[١٣]. ويقدم نصًا تصورًا جيدًا عن هذه العفاريت: "إن كنت الو الشرير لا فم له، إن كنت الو الشرير لا أعضاء له، إن كنت الو الشرير لا سمع له، إن كنت الو الشرير لا هيئة له... إن كنت الو الشرير لا يرى حتى في نور الشمس...إن كنت الو الشرير الإلوهية التي تهرب في الليل، والتي أياديها ملوثة، وهي تجهل الخوف...إن كنت الو الشرير ينام على الإنسان وينهق مثل الحمار، إن كنت الو الشرير لا يعرف الذبائح ولا تقدم له قرابين الدقيق...إن كنت الو الشرير مثل خفاش يخرج من شق يطير في الليل، إن كنت الو الشرير مثل طائر ليلي يطير هناك في الأماكن المظلمة...إن كنت الو الشرير لا يمكن رؤيته مثل الليل، إن كنت الو الشرير مثل ثعلب في مدينة مهجورة يطوف بصمت في الليل"[١٤]. وفي نص أخر نقرأ:

**"إنهم من دون رحمة مثل شيطان الو إنهم مثل...**
**ليسوا سوى جسد واحد وليس لهم سوى فم واحد"[١٥].**

وثمة نص يصف العفاريت بدقة أكثر:

**"بين سبعتها واحد هو ريح الجنوب (في هيئة تنين)**
**الثاني تنين فاغر فاه**
**الثالث غير مفترس...**
**الرابع ثعبان عظيم...**
**والخامس أسد هصور لا يمكن اجتناب وثبته**
**والسادس...**
**والسابع زوبعة دوامة..."[١٦].**

تقدم لنا الأدلة الفنية تصورات أخرى عن هذه العفاريت، فشيطان الحمى ويصور برأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط؛ وكان يمسك بيديه أفاع هائلة، وكان كلب أسود وخنزير يداعبان ثدييه[١٧]. ونمتلك حاليًا منحوتة تظهر فيها شيطانة ربما تمثل لبرتو أو لماشتو، وتصور هذه الشيطانة وهي ممسكة في كل يد ثعبانًا، وتدلى على صدرها خنزير وكلب يرضعان من ثدييها، وقد ثنت ركبتها على ظهر حصان يربض في زورق يسير في المياه.[١٨]

لقد كان البابلي يعتقد إن الخطيئة تجلب المرض، فحين يذنب الإنسان يغتاظ منه الإله ويتخلى عنه: "هذا الرجل الشرير المرذول اذبحه كما يذبح الحمل، فقد خرج الإله من جسده، وتخلت عنه آلهته"، أو "فإن إلهه قد ترك جسده"،[١٩] وإذا ما اختار الإله هذه الطريق الأخير لإظهار غضبه ويخرج من جسد الخاطئ المذنب فإنه يصبح من غير مدافع عنه، في وقت تكون الأرواح الشريرة التي تحوم حوله هي المنتفعة من الخطيئة، فيصبح فريسة لها، التي تدخل إليه وتقيم في جسده مع حاشية الشر والشقاء، بل إنها تسيطر عليه وتمتلكه: "لقد وضع رأسه على رأس المريض، ويده على يده، وقدمه على قدمه"، وأنه (أي الشيطان) يجلس معه على نفس المقعد وينام في فراشه ويدخل معه في مخدعه.[٢٠]

وقد كان البابلي يدرك النتيجة المترتبة على الذنب، وصلاته عادةً تعكس حالته النفسية: "مَن لا إله له ويمشي في الشارع يغطيه وجع الرأس كالرداء"، أو"مَن لا آلهة تحميه يُمزق لحمه كما بالخنجر"،[٢١] فالإنسان يشعر بوجودها من خلال الشعور بعوارض غير مريحة تظهر على أشدها من خلال المرض، وهذا هو الدليل على أنه وقع تحت سيطرة الروح الشريرة،[٢٢] "لقد استقر عفريت الاساككو الشرير في جسم الرجل، إنه يغطي الرجل كالرداء أثناء تجواله إنه يمسك بيديه ورجليه ويشل أطرافه".[٢٣] لذا يمكن القول إن هذه الأرواح الشريرة بمثابة أداة الغضب الإلهي الذي يصيب الإنسان المذنب: "في السماء وعلى الأرض تنقض كصاعقة وتنزل غضبها على الفريسة، وحين ينزل الإله غضبه تسرع أمامه

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مطلقة الصرخات"، ورغم قدرتها على التسبب بالمرض إلا أنها تحت رحمة الآلهة ولا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا بإشارة منها، ويجب عليها أن تحوز على سبب وجيه لأخذ موافقة الآلهة للإيقاع بالإنسان،[٢٤] وتوضح النصوص هذه الحقيقة:

**"هنا يثار غضب الآلهة (بسبب الإثم)**
**ليت الشياطين تسرع بالمجيء وهي تصرخ"**[٢٥].

والأمر لا يتوقف على التمني بأن تأتي القوى الشريرة لمعاقبة المذنب بل يخطو الإله خطوة عملية لمعاقبة المذنب:

**"لقد وضعنا اساككو في جسدك ليعذبك**
**وقدرنا لجسدك مصيرًا سيئًا**
**وأدخلنا إلى جسدك مرضًا**
**مرضًا قاتلاً وضعنا في جسدك**
**وضعنا الخطيئة والألم في جسدك**
**وضعنا الألم في جسدك**
**وضعنا في الرجل الشرير وجهًا شريرًا**
**وفما شريرًا ولسانًا شريرًا**
**والسحر والرقية والتعويذة**
**وجميع الآلام التي في جسد المريض"**[٢٦].

تتحدث النصوص عن الكثير من الأمراض التي تسببها هذه القوى الشريرة، وتتحدث نصوص الإنذار الأكّدية عن ذلك: "إذا لم يتوقف صدغاه عن الاختلاج، وكان يتقلب في فراشه فإن ذلك ضربة الشيطان رابيصو"، أو "إذا كان مريضًا لمدة أربعة أو خمسة أيام فان الشيطان اخخازو قد استحوذ عليه"، أو "إذا لم تنتاب الحمى طفلاً ولكن عرقه كان غزيرًا فإن الشيطان اخخازو قد استحوذ عليه".[٢٧] وتتحدث النصوص عن صداع يختلف عن الصداع الذي يصيب الرأس الذي نعرفه، وهو مرض خطير ربما يكون مرض الملاريا، وهذا المرض الذي يصيب الرأس يسببه شيطان شر الرأس المعروف باسم تيئو(Ti'u) أو(di'u)، وهو في السومرية(SAG-GIG) وهناك نص ورد فيه ما يلي:

**"تيئو يطوف في الصحراء يحدث عاصفة كالرياح**
**ويبرق كالبرق، وينتشر في الأعالي والأسفل**
**من لا يخاف إلهه يحطمه كما يحطم قصبة**
**ويحطم خيننو(hinnu) عضلاته كقصبة**
**ومن لا إلهة له تحميه يطعنه في جسده**
**ويلمع كما تلمع قبة السماء، وينساب كماء الليل**
**نحو الرجل الذي يلاقيه على الطريق**
**ويرديه كما يفعل اومو**
**ويقتله كما يحطم أضلاعه**
**ويلقيه في نار لاهبة**
**هذا هو تيئو الذي طريقه**
**عاصفة ثقيلة ولا يعرفه أحد**
**ولا أحد يعرف روابطه الشخصية"**[٢٨].

وفي نص آخر نقرأ عن العفريت الو: "إن كنت الو الشرير... مثل جدار يتمايل وينهار على الإنسان، إن كنت الو الشرير الذي يربط الفم ويقيد الأذرع والساق...إن كنت الو الشرير الذي يستحوذ على الإنسان في فراشه الليلي ووقت رقاده، إن كنت الو الشرير، يسلب النوم، الذي هو هناك ليأخذ هذا الإنسان...إن كنت الو الشرير ينام على الإنسان...إن كنت الو الشرير يغطي الإنسان مثل قفة، إن كنت الو الشرير مثل شبكة يلقى على الإنسان على الأرض".[٢٩]

وأحيانًا نجد إن عدة شياطين تهاجم فردًا واحدًا حيث ينقض كل واحد منها على عضو من أعضاء جسمه ويكون سبب علته، فاساككو/اشاككو(asakku/ašakku) يسبب الصداع واوتوككو(utukku) (الذي يطابق أحيانًا أرواح الموتى الشريرة) يهاجم البلعوم، والو(alu) يهاجم الصدر، واطيممو(وهو يطابق أيضًا أرواح الموتى أو الأشباح الشريرة) يهاجم الخاصرة، ورابيصو (rabisu) يسبب أمراض الجلد ولباسسو (Labassu) يسب الصرع ويمكن أن نقرأ عن هذه الحالة:

**"يقترب اساككو(asakku) من رأس الرجل**
**ويقترب نمتارو(namtaru) من حلقه**
**ويقترب اوتوككو(utuku) الشرير من عنقه**
**ويقترب الو(alu) الشرير من صدره**
**ويقترب اطيممو(etimmu) الشرير من قوامه**
**ويقترب غاللو(gallu) الشرير من يده**
**ويقترب ايلو(ilu) الشرير من قدمه"**[٣٠].

وفي نص آخر نقرأ:

**"إن الشرير اوتوككو(utukku) والشرير لاما(Lama) سكنا فيه**
**ديممة(dimme) وديماني(dimani) يقتربان منه ليلاً**
**وحتى نمتار(Namtar) وازاككا (Azagga) يقتربان منه أيضًا"**.[٣١]

وفي آخر نقرأ: "اوتوككو الشرير الذي في الصحراء يقتل الإنسان المتمتع بصحة جيدة. الو الشرير الذي يغطي مثل ثوب، اطيممو الشرير، كالو الشرير اللذان يقيدان الجسد، لماشتو، لاباسو، اللذان يجعلان الجسد متألمًا، ليلو الذي يتجول في كل موضع من الصحراء، إنهم اقتربوا من الإنسان الذي أصبح لذلك مضطربًا. وضعوا في جسمه اساككو المؤلم، إنهم في جسمه ماميت المسيئة، وضعوا في جسمه دما فاسدًا، إنهم في جسمه المصير السيئ، إنهم في جسمه السم الرديء، إنهم في جسمه اللعنة السيئة، إنهم في جسمه الشر والخطيئة، إنهم عليه السم والعقاب، لقد وضعوا(عليه) الشؤم"،[٣٢] وفي آخر يقول الطبيب الساحر: "حينما أدنو من المريض الذي استحوذ عليه نمتار، الذي انقض عليه اساككو".[٣٣]

وأحيانًا يمكن أن نقرأ عن اختصاص كل نوع من العفاريت بعمل فالرابيصو يرهب الناس في الليل، وتهاجم عفاريت الاخخازو، واللابرتو، واللاباسسو الأطفال في الغالب، أما الليلو فهو عفريت نصفه بشر والآخر شيطان وهم في الغالب ذكور دونما إناث لذا فهم يؤذون النساء، ويقابلهم الاردات ليلي(ليليتو)، وهن إناث دونما ذكور

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ويلاحقن الرجال لإشباع رغبتهن منهم والإضرار بهم، وكان يولد من اتحاد الليليتو بالرجال مخلوقات كالالو والگلو وهي وحوش بدون أوجه تمزق من يقع تحت سلطتها التي كانت تتجمع حول منام الرجل المريض لتحمي أباها بعد الموت.(٣٤)

وهناك عفاريت أخرى تسبب المرض مثل العفريتة "لماشتو" التي يعتقد إنها تصيب الرجال بالأمراض، وتهدد النساء عند الولادة، وتسرق الأطفال من صدور أمهاتهم،(٣٥) والنامرتو عفريت الطاعون والأمراض الخبيثة وهو رسول الإله نركال إله العالم الأسفل.(٣٦) وإلى جانب تدخل العفاريت المباشر هناك اعتقاد الإصابة بالعين، وفحوى هذا الاعتقاد إن بعض الأرواح الشريرة تسكن جسم الإنسان، فإذا نظر بتفرس إلى شخص أخر فإن الأرواح تترك جسم الناظر عن طريق العينين لتنتقل إلى جسم الشخص المنظور إليه، هذه الإصابة لا تتم إلا من شخص له القدرة على توجيه تلك النظر المتفرسة، ولا فرق إن كانت متعمدة أو من شخص بريء، وأقدم رقيم ذكر فيه هذا المعتقد يعود إلى عهد الملك آشوربانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق. م).(٣٧)

كان يعاون هذه الشياطين والأرواح الشريرة كائنات تعرف بالأشباح وهم أشباح الموتى ويطلق عليهم في اللغة الأكّدية اسم اطيممو(etemmu) وهي كلمة تعني على وجه العموم روح الميت أو شبحه، كما استعملت في العصرين البابلي القديم والأشوري القديم. ومن المعاني الأخرى للاطيممو ما يشير إلى نوع من الشياطين ولاسيما في حالة عدم دفن جسد الميت والتقريب له، فتخرج روحه على هيئة شيطان تسبب الأمراض للبشر حيث يرد في أحد النصوص: "إن يد الاطيممو (الشبح) الغريب أمسكته في البرية"، ونقرأ في أحد التعاويذ الأشورية إن: "الاطيممو الشرير قد أمسك بكتفيه"، وذلك في معرض ذكرها لعدة أمراض سببتها الشياطين لأجزاء مختلفة من جسد أحد الأشخاص.(٣٨)

ونفهم من النصوص المسمارية إن أرواح الموتى الذين لم تدفن أجسادها بالرغم من أنها تنزل للعالم الأسفل، إلا أنها تبقى قلقة فيه وتنتهز كل فرصة لها لتخرج إلى عالم الأحياء بهيئة أشباح تهاجم الأحياء وتلحق الأذى بهم انتقامًا منهم لقدرها التعس. فقد كانت أرواح الموتى بحاجة إلى سد احتياجاتها من الطعام والشراب، وكان انقطاع القرابين والسوائل عن الأرواح يؤدي إلى جعلها أمام أمرين، فهي إما إن تبقى معتمدة على الطين والماء العكر غارقة في بؤس العالم الأسفل، أو إنها تخرج إلى عالم الأحياء غاضبة منزعجة تأكل فضلات الشوارع وتتربص بالأحياء لتشعرهم بوجوب ذكرها، وإيفائها حقها، وذلك بإلحاق الأذى بهم، أو للانتقام منهم لتسببهم في حرمانهم الراحة في العالم الأسفل بسبب إهمالهم في دفن جسد صاحبها في القبر بعناية، ووفق الطقوس الخاصة. وهكذا كان الدافع لعودة هذه الأرواح إلى الأرض هو عدم تمكنها من الحصول على الراحة طالما بقي جسد صاحبها غير مدفون أو غير مقرب له.(٣٩)

وهناك العديد من التعاويذ الخاصة بطرد الأشباح تشير إلى أشباح الذين بقيت أجسادهم بلا دفن، ومنها تذكر: "إذا كنت شبحًا خرج من الأرض... أو شبح شخص مات في البرية أو ظل جسده في الصحراء لا يغطيه التراب أو شخص لم يدفن جسده..."، وأخرى تشير إلى أشباح: "مَن ألقي في خندق ...أو من لم يغطَ قبره فتمدد جسده بلا غطاء (مثل) ابن الملك الذي رمي جسده في البرية، أو في الخرائب، أو وسط السهول".(٤٠) وفي نص أخر: "سواءً أ كنت شبح شخص غير مدفون أم كنت شبح الذي لم يلق عناية لائقة أم شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء أو كنت شبح الذي لم يذكر اسمه".(٤١)

فضلاً عن هذه الحالات فإن أشباح الموتى التي تبقى قلقة في العالم الأسفل ويتوقع خروجها إلى عالم الأحياء الأشخاص الذين يموتون بحوادث معينة كأن يكونوا قد سقطوا من على نخلة، أو ماتوا في غرق سفينة، كذلك روح الذي مات موتًا مبكرًا بسبب الوباء، أو الذي قضى نحبه بصورة فجائية، أو مَن مات جراء جفاف، أو مجاعة، أو ضربته صاعقة، كذلك المرأة التي ماتت وهي عذراء، والشاب الذي مات بعمر الزواج، وهو أعزب، والمرأة التي ماتت في المخاض أو في فترة الحضانة لطفلها، والميت الذي قضى نحبه في مكان غريب.(٤٢) وتتحدث النصوص عن الأمراض التي يسببها أشباح الموتى: "إذا أصيب رأسه وجسمه وطرف أنفه برضوض وإذا كان يعض شفتيه... فإن شبح أحد أقاربه الذي كان قد مات ظمأ، قد استحوذ عليه"، أو "إذا أصيب في رقبته وكانت يداه ترتجفان وكانت أحشاؤه معاقة فإنها يد الشبح".(٤٣)

ليس فقط الأشباح وأرواح الموتى يمكن أن تبتلي الإنسان في الواقع، ولكنها يمكن أن تنفذ له عن طريق الحلم، لاسيما إذا أدركنا إن البابلي كان يرى الحلم على أنه حقيقة ويمكن أن نقرأ: "إذا رأى النائم في الحلم، أنه قبله أحد الأموات فإنه سيموت بسبب البرد"، وفي نص أخر: "إذا رأى النائم في الحلم أنه سكبت الأرواح ماء على يديه، فإن إحدى عينيه ستعمى".(٤٤)

## خلاصة

اعتقد السكان في بلاد الرافدين بأن الكون مليء بالعفاريت سواء كانت طيبة أو خبيثة، ولعل أبرز العفاريت كانت الصنف الأخير التي ارتبطت بالأمراض هو اعتقاد نقرأ عنه في أقدم وثائقنا المكتوبة. ولقد كانت هذه الشياطين كائنات إلهيه أو شبه إلهية. وتزودنا النصوص المسمارية بتفاصيل جيدة عن هذه القوى الشريرة وصفاتها، فهي تسكن في كل مكان تقريبًا على الرغم من وجود أماكن تفضلها بوجه خاص مثل الأماكن المهجورة، والمظلمة، والخرائب، والمدافن، والصحاري، وكل مكان يبعث على الرهبة، ويطلق عليها أسماء تعبر عن وظائفها وعن دورها المخرب، وعما يسببونه من أذى ودمار. وكان يعاون هذه الشياطين والأرواح الشريرة كائنات تعرف عادة بالأشباح وهم أشباح الموتى، ونفهم من النصوص المسمارية إن أرواح الموتى الذين لم تدفن أجسادها

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بالرغم من إنها تنزل للعالم الأسفل، إلا إنها تبقى قلقة فيه وتنتهز كل فرصة لها لتخرج إلى عالم الأحياء بهيئة أشباح تهاجم الأحياء وتلحق الأذى بهم انتقامًا منهم لقدرها التعس.

## الهوامش:

(١) جورج بوييه، **المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية**، ترجمة سليم الصويص، (بغداد: شركة المطابع النموذجية،١٩٨١)، ص٥٣؛ سامي سعيد الأحمد، **المعتقدات الدينية في العراق القديم**، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨)، ص٦١ - ٦٢.

(٢) صموئيل نوح كريمر، **من ألواح سومر**، ترجمة: طه باقر، (القاهرة: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،١٩٥٧)، ص١٣٥.

(٣) رينيه لابات، **المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين: مختارات من النصوص البابلية**، ترجمة: ألبير أبونا ووليد الجادر، (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٨)، ص١٥٥.

(٤) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٥.

(٥) جان بوتيرو، **الديانة عند البابليين**، ترجمة: وليد الجادر، (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٥)، ص١٢٢.

(٦) هاري ساكز، **الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور**، ترجمة: كاظم سعد الدين، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٠)، ص٢١٨.

(٧) سيبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: السيد يعقوب بكر، مراجعة: محمد القصاص،(القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بلا.ت)، ص٧٦؛ صموئيل نوح كريمر، **السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم**، ترجمة: فيصل الوائلي،(الكويت: دار غريب للطباعة، ١٩٧٣)، ص٢٠١؛ نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦)، ص١٧٧؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢؛ ساكز، **الحياة اليومية**، ص٢١٣.

(٨) الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢.

(٩) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٤.

(١٠) ساكز، **الحياة اليومية**، ص٢١٥.

(١١) حنون، **عقائد ما بعد الموت**، ص٢١٦؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢؛ بوتيرو، **الديانة عند البابليين**، ص١٢٢.

(١٢) حنون، **عقائد ما بعد الموت**، ص٢١٦؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢.

(١٣) موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ص٧٦؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢؛ ساكز، **الحياة اليومية**، ص٢١٥ - ٢١٦.

(١٤) لابات، **المعتقدات الدينية**، ص١٥٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص٣٩٦.

(١٦) ساكز، **الحياة اليومية**، ص٢١٥.

(١٧) موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ص٧٧.

(١٨) حنون، **عقائد ما بعد الموت**، ص٢١٨.

(١٩) مارغريت روتن، **علوم البابليين**، ترجمة: يوسف حبي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص ٧٢؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٤.

(٢٠) جورج كونتينو، **الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور**، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩)، ص٤٣٦؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٧؛ بوتيرو، **الديانة عند البابليين**، ص١٢٢.

(٢١) روتن، **علوم البابليين**، ص٧٢؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٧.

(٢٢) موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ص٧٧؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٨.

(٢٣) هاري ساكز، **عظمة بابل**، ترجمة:عامر سليمان، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٩)، ص٣٥٠.

(٢٤) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٤؛ بوتيرو، **الديانة عند البابليين**، ص١٢٣.

(٢٥) بوتيرو، **الديانة عند البابليين**، ص١٢٣.

(٢٦) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٦٣.

(٢٧) عبد اللطيف البدري، **الطب في العراق القديم**، (بغداد: منشورات المجمع العلمي، ٢٠٠٠)، ص٣١ - ٣٢.

(٢٨) فاضل عبد الواحد علي، "**ثم جاء الطوفان**"، مجلة سومر، م:٣١، لسنة: ١٩٧٥، ص٢٤؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٥.

(٢٩) لابات، **المعتقدات الدينية**، ص١٥٧ - ١٥٨.

(٣٠) علي، **ثم جاء الطوفان**، ص٢٤؛ بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٧؛ حنون، عقائد ما بعد الموت، ص٢١٦ - ٢١٧.

(٣١) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص١٩٩.

(٣٢) لابات، **المعتقدات الدينية**، ص١٥٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(٣٤) ساكز، **عظمة بابل**، ص٣٤٨؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢ - ٦٣.

(٣٥) ساكز، **عظمة بابل**، ص٣٤٧؛ فاضل عبد الواحد علي، "**العرافة والسحر**"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤)، ج١، ص١٧٥؛ ساكز، **الحياة اليومية**، ص٢١٥.

(٣٦) ساكز، **عظمة بابل**، ص٣٤٧؛ الأحمد، **المعتقدات الدينية**، ص٦٢.

(٣٧) البدري، **الطب**، ص٣٢.

(٣٨) بوييه، **المسؤولية الجزائية**، ص٥٧؛ حنون، **عقائد ما بعد الموت**، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٣٩) حنون، **عقائد ما بعد الموت**، ص١١٧ - ١٢٣.

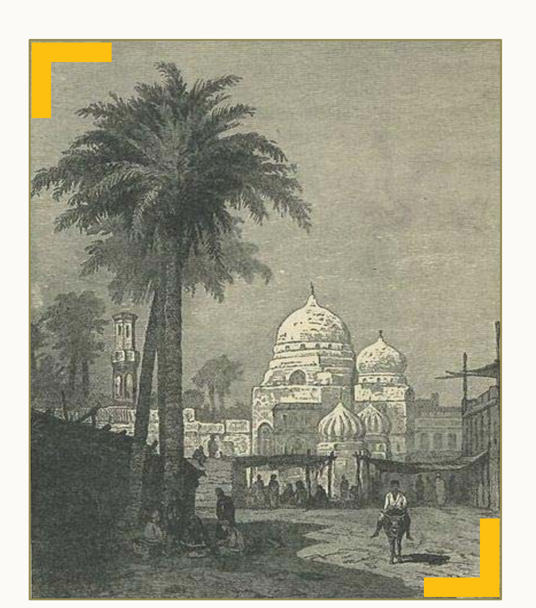
(٤٠) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص١٢٣- ١٢٤.

(٤٢) المصدر نفسه، ص١٢٨- ١٢٩.

(٤٣) رينيه لابات، **التشخيص والإنذار في الطب الأكدي**، ترجمة: عبد اللطيف البدري، (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٦)، ص٢٢؛ البدري، **الطب**، ص٣٠.

(٤٤) البدري، **الطب**، ص٤٧.



# العادات الاجتماعية في الفسطاط وأثرها على البيئة من واقع نصوص المقريزي "السحابة السوداء"

أ. د. فاتن محمد البنداري الشيخ
أستاذ مشارك – قسم السياحة
المعهد العالي للسياحة والفنادق - السيوف
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
فاتن محمد البنداري الشيخ، العادات الاجتماعية في الفسطاط وأثرها على البيئة من واقع نصوص المقريزي "السحابة السوداء".- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٦٨ – ٧٢.
www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

## ملخَص

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على أثر العادات الاجتماعية على البيئة المصرية والمثبتة لدى أقوال المقريزي، ودراستها لاستخلاص الحقائق التاريخية في محاولة منا للوقوف على الأسباب الاجتماعية المتعلقة باستمرار تواجد ظاهرة السحابة السوداء لأكثر من خمسة قرون من الزمان وحتى وقتنا الحاضر، ومحاولة منا لرصد الظواهر والعادات المؤدية لتواجدها، متبعين في ذلك منهج البحث الوصفي والتحليلي، ومقارنة النصوص التاريخية بغيرها من المصادر الأصلية التي تفيد الدراسة.

## مُقدِّمة

تعتلي الشئون البيئية في مصر بصفة خاصة وفي العالم من حولنا بصفة عامة، مكانة كبيرة من جملة الاهتمامات الخاصة بمجال التنمية السياحية. فالبيئة الجيدة هي أخصب مناخ للتنمية السياحية، كذلك الزائر يتطلع إلى العديد من عوامل الجذب السياحي، ويحرص على الاستمتاع بقضاء وقت طيب والاطمئنان إلي وسلامة بيئة البلد المضيف، فكم من رحلات سياحية قد ألغيت بسبب عدم سلامة الأحوال البيئية للبلد المضيف، سواء كانت المعلومة مغلوطة أو صحيحة، وعليه فإن للبيئة الجيدة الصحية دور هام وأساسي في مجال التنمية السياحية وهو أمر لا جدال فيه.

## مشكلة الدراسة

تتلازم العوامل البيئية الجيدة مع التنمية السياحية فهما، وجهان لعملة واحدة ، كذلك فإن للعادات الاجتماعية عظيم الأثر نحو دفع عجلة التنمية السياحية، ذلك أن هناك علاقة مطردة بين سلامة البيئة وسلامة العادات الاجتماعية، فكان ما أورده المقريزي من نصوص تاريخية يثبت أن العادات السيئة للمجتمع تضر بالبيئة مما يترتب عليه العديد من المؤثرات، بل أن العادات الاجتماعية السيئة قد تساعد على تغيير العوامل الجغرافية لذلك الإقليم من حيث المناخ، وقد أورد المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في هذا الشأن ما استرعى اهتمامنا، ظاهرة السحابة السوداء التي وردت في نصوص من قبل خمسمائة عام وأكثر، فكان استمرار ظهورها في وقتنا الحاضر أمرًا جديرًا بالدراسة.

## العوامل الجغرافية والعادات الاجتماعية وأثرها على البيئة

تشير النصوص التاريخية إلى أن عادات المجتمع قد تؤثر بالسلب أو بالإيجاب على البيئة الخاصة بذلك المجتمع، خاصةً إذا اجتمع ذلك مع العوامل الجغرافية. فقد أورد المقريزي[١] عند ذكره ما قيل عن مدينة الفسطاط[٢] بقوله "والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء، الفسطاط والقاهرة[٣] والجزيرة والجيزة، وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة، وجبل المقطم في شرقها وبينها وبين مقابر المدينة، وقد قال الأطباء[٤] أن أردأ المواضع ما كان الجبل شرقيه، يعوق ريح الصباغة، وأعظم أجزائها هو

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الفسطاط، ويلي الفسطاط من الغرب، النيل، ... ومتى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال رأيت وضعها في غور، وقد بين أبقراط أن المواضع المنسفلة أسخن من المواضع المرتفعة، وأردأ هواءً، لاحتقان البخار فيها ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها، وأزقة الفسطاط ضيقة وشوارعها ضيقة، وأبنيتها عالية، وقال .... إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها لأنها وبيئة ... أن البخار لا ينحل منها كما ينبغي لضيق الأزقة وارتفاع البناء".[٥]

ويتضح من نص المقريزي أن مدينة الفسطاط هي من أشهر مدن مصر وأنها مرتفعة الحرارة في فصل الصيف وأنها تطل على النيل من الجهة الغربية، إلا أن وجود جبل المقطم قد أفسد عليها ريحها مستندًا على ما أورده الأطباء بضرورة البعد عن الأماكن التي تقع الجبال في جهتها الشرقية، فكان ذلك حال الفسطاط مع جبل المقطم الذي يقع في شرقها، كذلك يتضح أن موضع الفسطاط الجغرافي وكونه في جزء منخفض مما يجعل هواءها ساخنًا وغير متجدد بالإضافة إلى ضيق أزقتها وكثرة الازدحام بها.[٦] فهذا من حيث الموقع والمناخ، أما من حيث تقسيم البناء الخاص بالفسطاط فيفهم من قول المقريزي، أن الأبنية العالية والشوارع والأزقة الضيقة تعوق تجدد الهواء بالشكل الكافي.

وعن تطور آخر لأثر العادات الاجتماعية على البيئة يذكر المقريزي بقوله: "ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب، ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس، في شوارعهم وأزقتهم، فتعفن فتخالط عفونتها الهواء، ومن شأنهم أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها ... وربما انقطع جري الماء فيشربون منه ... وفي خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط".[٧]

ويفهم مما سبق؛ أن اجتماع العادات الاجتماعية الرديئة مع العوامل الجغرافية المتمثلة في انخفاض الأرض مع ارتفاع درجات الحرارة مما يؤثر بالسلب على العوامل البيئية، فكان من عادات المصريين زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ من استخدام النيل بشكل سيء رغم شربهم لمياهه، كذلك كثرة المستوقدات، لعلها التي تستخدم لطهي بعض الحبوب والأطعمة أو في بعض الصناعات، مما يكثر الدخان الصاعد منها، هذا إذا أضفناه لما سبق فإن ذلك يوضح مدى الأثر السلبي على البيئة في فسطاط مصر زمن المقريزي.

وقد أورد المقريزي ما هو جدير بالاهتمام كما هو جديد بالدراسة عن ظاهرة "السحابة السوداء" في مدينة الفسطاط بقوله: "وهي أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى أنك ترى الهواء في أيام الصيف كدرًا، يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد ... ويعلوها في العشيان خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر ، سيما إذا كان الهواء سليما من الرياح ... فيتولد أذاً في البدن من هذه الأعراض ، .... وأن المواضع المكشوفة في هذه المدينة هي أصح هواء".[٨]

ولنا وقفة هامة عند هذا النص خاصةً عند قوله: "الهواء في أيام الصيف كدرًا ... خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود"، معنى ذلك أن ظاهرة السحابة السوداء المنتشرة في وقتنا الحاضر في مصر خاصة بالقاهرة، هي ظاهرة عرفها المجتمع المصري قبل حوالي خمسمائة عام أي زمن المقريزي الذي توفى في عام ٨٤٥هـ فالمقريزي يرجع سبب ظهور السحابة السوداء إلى كثرة الغبار، وسخونة الأرض، ومع عدم تجدد الرياح لوجود جبل المقطم في جهتها الشرقية كما سبقت الإشارة، هذا بالإضافة إلى سوء العادات الاجتماعية لدى بعض الأهالي بالفسطاط في ذلك الوقت من حيث الاستخدام السيئ للنيل، وعفونة المياه في بعض المواضع نتيجة لإلقاء مخلفاتهم في مياه النيل، واختلاط مياهه بما يلقي فيه من حيوانات قد نفقت، كذلك إقامتهم للمستوقدات ذات الحرارة الشديدة، والدخان المتصاعد، فكان اجتماع ذلك كله سببًا عند المقريزي لظهور ظاهرة السحابة السوداء في الفسطاط في ذلك الوقت.

ويرى المقريزي أن سكان منطقة القرافة في ذلك الوقت أفضل حالاً من سكان الفسطاط، وذلك لأن جبل المقطم يحول بينهم وبين البخار الصاعد من الفسطاط. أما عن اختيار سكان مصر للشريط الضيق لنهر النيل منذ القدم، فعن ذلك يذكر المقريزي: "وأردأ موضع في المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلي النيل والسواحل"،[٩] وفي موضع آخر يوضح أن أهل الفسطاط قد قصروا بناءهم عليها. ثم يكمل المقريزي أن العلة في اختيار قدماء المصريين عاصمتهم القديمة في موضع بعيد عن الفسطاط نابع من درايتهم بأنها لا تصلح للمعيشة لفساد هوائها، فوقع اختيارهم على منف أو الإسكندرية وغيرهما من المواضع لسلامة هوائها.[١٠]

وقد أورد المقريزي نقلاً عن ابن سعيد بقوله: "وهي مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ... وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ، .... ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة". وقد ورد عن ابن حوقل عن الطبيعة المناخية للفسطاط: "الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهي كبيرة نحو ثلث بغداد .. إلا أنها .. سبخة الأرض غير نقية التربة، وتكون بها الدار سبع طبقات وستاً وخمساً وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب". ويفهم من نص كل من المقريزي وما أورده ابن حوقل[١١] أن طبيعة التربة في مدينة الفسطاط تميل إلى السواد، فإذا جاءت الرياح اختلطت مع ما تكدر من التربة فتصعد في سماء الفسطاط فتصبح غير نقية الأجواء، وهو ما يُعرف بالسحابة السوداء.

أما فيما يتعلق بالتكوين البنائي لمساكن أهل الفسطاط فإنهم كانوا يستخدمون القصب والقش عند البناء مما يعفي قش الأرز

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

من إحراقه فهو ليس السبب في ظهور السحابة السوداء، فقد كانت السحابة السوداء ظاهرة معروفة في سماء الفسطاط رغم عدم إحراق القش حيث كان القش يستخدم كأصل مكونات البناء. ومما هو جدير بالدراسة؛ تلك الأبيات الشعرية التي تصف فصل الصيف في مصر في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي من واقع الطبيعة البيئية في الأدب المصري، فيصف ابن وكيع فصول السنة الأربعة ويبدؤها بوصف فصل الصيف بقوله:

| | |
|---|---|
| أما المصيف فاستمع ما فيه | من فطن يفهم سامعيه |
| نهاره مقسم بين قسم | جميعها يعاب عندي ويذم |
| يلصق منه الجسم بالثياب | وتعلق الأذيال بالتراب |
| حتى تراها مثل منديل الغمر | فهن تخطيط كالحبر |
| حر يحيل الأوجه الغرانا | حتى ترى الروم حبشانا |
| يعلو به الكرب ويشتد القلق | وتنضح الأبدان منه بالعرق(١٢) |

ويفهم من الأبيات السابقة فيما يخص الطبيعة البيئية لمصر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن فصل الصيف من أكثر فصول السنة سوءً لدى الشاعر لشدة الحرارة، فاليوم مقسم عنده ما بين سيء وأسوأ، حتى أن الثياب تتسخ ويعلق بها التراب وأن من شدة السوء يصبح الثوب الأبيض بمجرد ارتدائه متسخًا، وأن حرارة الشمس تحول من كان ذا بشرة بيضاء مشربة بالحمرة إلى صاحب بشرة سوداء، وأن السماء يعلوها مثل السحابة السوداء التي أطلق عليها اسم "الكرب"، فكونه شاعرًا شبة السحابة السوداء لقتامتها بالكرب.

أما عن أثر أساليب الحياة المعيشية على البيئة من واقع نصوص المؤرخين، فكان ما نقله المقريزي في خططه نقلاً عن ابن سعيد: "تشوقت إلى معاينة الفسطاط .. فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة للركوب، لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد، .. وأشار إلى أن أركب حمارًا.. فأنفت من ذلك جريًا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر... وعندما استويت راكبًا أشار المكاري على الحمار، فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي.. فقلت:

| | |
|---|---|
| رأيت بمصر أشد البوار | ركوب الحمار وكحل الغبار |
| وخلفي مكار يفوق الرياح | لا يعرف الرفق بهمي اسطتار |
| وقد مد فوقي رواق الثرى | وألحد فيه ضياء النهار(١٣) |

فيتضح من النص السابق أن باب زويلة بالقاهرة هو المكان المخصص للركوب ووسيلة التنقل المتاحة والمنتشرة للوصول إلى الفسطاط من داخل القاهرة عند باب زويلة. كما أن ابن سعيد قد شعر بالخجل لركوب الحمار، وأوضح عدم اعتياده على ذلك في عاصمة بلاده بالمغرب، وبصرف النظر عن سوء حظه عند وقوعه في يد "المكاري" المتسرع الذي أعطاه انطباعًا سيئًا عن المدينة. إلا أن تكرار وصف سواد التربة والغبار عند ابن سعيد كزائر لمصر وعند نصوص المؤرخين كالمقريزي وعند الأدباء والشعراء مثل ما كان من ديوان ابن وكيع، وغيرهم مما يؤكد على أن عاداتنا السيئة تسيء للبيئة، بل والأعمق أنها تسيء بسمعة البلاد خاصة لدى الزائرين، وهو أمر لا يتفق وسلامة البيئة، وكذلك يخالف ما نصبوا إليه من عوامل جذب أو تنمية سياحية.

وبمعنى آخر إذا كان هذا هو حال البلاد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فمع اختلاف العصر ونحن في القرن الحادي والعشرين، ومع اختلاف المسميات من "مكاري" إلى وسائل المواصلات المتوافرة في عصرنا هذا، إلا أن الدارس يجد أن نفس الأسلوب المعيشي ونفس المعتقد السائد لدينا منذ عصر المقريزي، كذلك زمن زيارة ابن سعيد، فالمكاري أخذ يطير بدابته وعليها ابن سعيد لكي يصل إلى الفسطاط في أسرع وقت، وذلك ما يتم إتباعه عند استخدام وسائل المواصلات الحالية "منخفضة التكاليف" في عصرنا الحاضر، دون الاعتبار إلى راحة الفرد أو المستخدم لها كوسيلة مؤجرة، الأمر الذي جعل مفهومنا أنه من الأفضل السير على الأقدام من احتمالات التعرض لأمور لا ترضي الشخص الحاصل على تلك الخدمة.

وعن ذلك ما يذكر ابن سعيد، "فدفعت إلى المكاري أجرته، وقلت له إحسانك إليّ أن تتركني امشي على رجلي، ومشيت إلى أن بلغتها "الفسطاط"،(١٤) ويفهم من قوله ابن سعيد: أن أعيان مصر كانوا يركبون الحمير كوسيلة رخيصة للمواصلات، في حين أنه أمر يأنفه أهل المغرب فيركبون الجمال والخيل والبغال وغيرها من الدواب، كذلك فإن ابن سعيد فضل السير على الأقدام عن الاستمرار في ركوب الحمار بهذا الشكل السريع مما فيه خطورة، واتساخ للثياب، وعفرة التراب، الذي يثيره سرعة ركض الحمار.

وفي مواضع أخرى يصف عادات المجتمع عند وصفه للجامع العتيق رغم ما شعر به من ارتياح وطمأنينة عند دخوله للمسجد، وعلل ذلك لوقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند انشائه، كما وصف ابن سعيد عراقة الفسطاط وحضارتها وأسواقها العامرة، إلا أن طبائع بعض الأهالي تحجب هذا الرونق وتضفي عليه صبغة تخفي حقيقة جمال الفسطاط، مثال ذلك ما كان من أمر وصف ابن سعيد: "إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع .. وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من الباب إلى باب يقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك، والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع، والصبيان يلعبون وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة، .... إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفته".(١٥)

دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449
كان التاريخية

**ونستخلص من النص:**

أن من عادات بعض أهالي الفسطاط اجتياز الجامع من باب إلى آخر تيسرًا لهم في العبور من موضع لآخر، وأن الباعة ينتشرون عند بابه بأنواع المأكولات والحلوى، وأن من عاداتهم السيئة أكل الطعام داخل المسجد دون استحياء وترك ما يتخلف عن ذلك بصحن المسجد، من غير الشعور بأدنى استحياء، والأهم من ذلك أن هذا وإن كان فيه بعض المبالغة من قبل ابن سعيد، أو لعله قد يكون هذا الانطباع يرجع إلي اختلاف الثقافات مما يعطي للشخص مردود عكسي في أمور غير معتاد عليها، بمعنى قد يكون قول ابن سعيد به بعض المبالغة، إلا أن التأكيد على صحة ما جاء به رغم أنه أمر مؤسف، إلا أننا نعاني حتى وقتنا الحاضر من عادات مماثلة لدى بعض الأهالي مع اختلاف العصر والمسميات، هذا مما يدعونا إلى تصديق وصف ابن سعيد إلى حد كبير.

والأهم هو دراسة تلك الظاهرة ومحاولة القضاء عليها، فهي أسوأ من ظاهرة السحابة السوداء، أو بالأصح ضرورة القيام معا بالدراسة البيئية مع الدراسة الاجتماعية مع تصحيح المفاهيم حتى نجتاز ذلك الأثر الاجتماعي السيئ المستمر منذ أكثر من خمسة قرون، وهو أمر جدير بالدراسة والاهتمام في ضوء ما نناشده من تنمية سياحية، فإذا كان ما رواه المؤرخون من مثالب العادات الاجتماعية، إلا أن الأمر لا يزال باقيًا حتى كتابة هذه السطور، ومستمر حتى زوال المؤثر في القرن الحادي والعشرين، فإذا كان ذلك انطباع المؤرخين مع استمراره مع اختلاف العصور والمسميات والملابسات فكيف يكون انطباع من يأتي إلينا من السياح فأرضنا التي وهبنا الله إياه بكل ما فيها من طبيعة جغرافية[١٦] وحضارية وآثارية وتراثها وما به من قيمة على مر العصور، وحتى لا يضيع من الناس ذلك هباءً بسبب قلة قد لا تدرك مدى الإساءة التي تلحقها بالبلاد، وللأسف يصبح تعميمًا مغلوطًا على أهل البلاد، الأمر الذي يجعل الزائر يشعر بعدم الارتياح لما يراه من بعض العادات التي تخفي جمال وعراقة البلاد. بل وتؤثر على بيئتها واقتصادها وكيانها، فإذا كان أمر الأزقة ضيقة، فكان الأجدر بها أن تكون غير مزدحمة، وإذا كانت كذلك فالأحرى بها أن تكون نظيفة مرتبة، فقلة الإمكانيات المعيشية أمر لا يتعارض مع النظافة والأسلوب المعيشي المنظم.

فكيف لنا أن نتطور ونلاحق الركب الحضاري والتنمية السياحية، وعاداتنا الاجتماعية كما هي منذ أكثر من خمسة قرون، من إهمال وعدم الحرص على نظافة وحسن استخدام لما لدينا من تراث وحضارة وتاريخ، وقد تزداد الدهشة مع ما أشارت إليه النصوص التاريخية السابقة أن هذه العادات السيئة لم تكن أثر كساد اقتصادي، أو أحوال معيشية مُتردية، أو أن ذلك الاستخدام السيئ للنيل، إثر مجاعات مثلاً أو ما شابه، بل هي أحوال معيشية عادية، لذلك كانت الدراسة ترصد تلك العادات محاولةً إلقاء الضوء على بعض العادات الاجتماعية الرديئة لتوضيح مدى أثرها السلبي على البيئة، ومن ثَم على التنمية السياحية بصفة عامة.

فكانت بساطة المصريين وتلقائياتهم وحسن استقبالهم وكرم ضيافتهم هو الأساس الذي تناشده، مع التأكيد على أهمية أثر العادات الاجتماعية الجيدة والارتقاء بها من أجل سلامة البيئة المصرية. وأن السحابة السوداء ظاهرة حدثت في مصر منذ أكثر من نصف قرن وأثبتت النصوص السابقة الذكر، أن العادات الاجتماعية السيئة تؤدي إلى تلوث بيئي، مما يترتب عليه فساد ومؤثرات سلبية على المناخ، مما له عظيم الأثر على اقتصاد البلاد وتنميتها السياحية. مثال ذلك ما كان من أمر الفسطاط، فهي منخفضة عن الأرض نوعًا ما، ويحدها من الشرق جبل المقطم، وهذا في حد قول المقريزي سببًا كافيًا لسخونة أرضها من الناحية الجغرافية. أما من حيث البناء، فإن الفسطاط ضيقة الشوارع والأزقة، مزدحمة الأعداد عامرة بأهلها، كما أن عادات بعض الأهالي المعيشية، وسوء استخدامهم لمياه النيل من حيث إلقائهم للمخلفات الآدمية والحيوانية فيه، وفي نفس الوقت الاعتماد على مياهه للشرب، وغيرها من العادات البيئية كالازدحام في الطرقات، وتكدس المباني، وتراكم السكان في ذلك الشريط الضيق على النيل بالفسطاط.

فإذا ما اجتمع كل ما سبق من عوامل جغرافية، وجغرافية سكانية للفسطاط، مع ضيق شوارع وأزقة الفسطاط، والعادات المعيشية السيئة بالإضافة للازدحام، فمن البديهي أن يؤدي ذلك ليس فقط لسحابة سوداء بل لتلوث بيئي لا يحمد عقباه لذلك نرى أن سوء العادات الاجتماعية تؤثر بالسلب على الحياة البيئية مما ينتج عنه آثار وخيمة وتغيير للمناخ، مما له عظيم الأثر على اقتصاد البلاد وتنميتها بصفة عامة، والسياحية بصفة خاصة.

## نتائج الدراسة

ثبت بالدراسة أن ظاهرة السحابة السوداء ظاهرة عرفتها مصر منذ أكثر من خمسة قرون، وأنها ظهرت لتعدد حدوث بعض السلبيات والمظاهر الاجتماعية السيئة.

- كما أثبتت الدراسة أن اجتماع العديد من العوامل، منها الجغرافية والاجتماعية والبيئية، أدت إلي تكدر الأجواء وظهور ما يعرف بالسحابة السوداء.
- كثرة المستوقدات، وتصاعد أدخنتها في سماء الفسطاط ساعد على ظهور تلك الظاهرة.
- موقع جبل المقطم في شرق الفسطاط حجب عنها تجدد الهواء بالقدر الكافي مثل ما كان الحال مع باقي مدن مصر في ذلك الوقت، كالقطائع والقاهرة.
- كما ثبت بالدراسة أن سبب ظهور السحابة السوداء لا يتعلق باحتراق أنواع القش كقش القصب أو القش بصفة عامة، حيث أنه كان يستخدم في أغراض البناء كأحد طبقات

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التكوين البنائي في ذلك الوقت بالتبادل مع الطوب "طبقة من قش القصب وطبقة من الطوب.

- ثبت بالدراسة أيضًا أن أجواء الفسطاط خاصةً في فصل الصيف هي التي يظهر فيها ما يعرف بالسحابة السوداء لكثرة غبارها وسخونة أرضها، كذلك الملوثات البيئية الناتجة عن سوء العادات الاجتماعية لبعض الأهالي مع كثرة الازدحام وضيق الشوارع والأزقة.
- كما أوضحت الدراسة أن تلك الظاهرة "السحابة السوداء" قد ثبتت في نصوص المؤرخين، وكتب الأدباء، وعلق على ذلك الشعراء في رصد للأدب المصري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.
- كذلك ثبت بالدراسة مدى التشابه الذي ورد في النصوص التاريخية، والملابسات المؤدية لظهور السحابة السوداء واستمرارها إلي وقتنا الحاضر نتيجة لاستمرار العادات الاجتماعية السلبية مع اختلاف المسميات والملابسات، إلا أن الأثر نفسه الخاص بالعادات الاجتماعية على البيئة المصرية قد أثر بالسلب على التنمية بصفة عامة، والتنمية السياحية(١٧) بصفة خاصة، وهو أمر لزم علينا رصده، وتقديمه، ودراسته محاولين وضع أيدينا على حقيقة تلك الظواهر والعمل على تحسينها.

## توصيات الدراسة

- توصي الدراسة بالعمل على التوقف عن العادات الاجتماعية السيئة والرديئة التي تتسبب في فساد البيئة عن طريق تشديد العقوبات الملزمة للأفراد، وعن طريق وسائل الإعلام، وكذلك عن طريق التوعية الإرشادية للطلاب، وغيرها من الأمور الرادعة والواجبة.
- كما توصي الدراسة بالمزيد من الأبحاث والدراسات البيئية والاجتماعية والجغرافية وغيرها لبيان مدى أهمية تحسين المفاهيم والعادات الاجتماعية، خاصةً لدي الطلاب في مراحل التعليم الأساسي، مع توضيح علاقتها الوثيقة بالشئون البيئية والأحوال الاقتصادية وتنمية البلاد.
- توصي الدراسة بالمزيد من تنمية المجتمع، خاصةً إذا تطلعنا إلى تنمية حقيقة للبلاد في شتى المجالات، وفي مقدمتها التنمية السياحية كأحد ركائز الاقتصاد القومي.

## الهوامش:

(١) المقريزي: تقي الدين ابن أحمد المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. – ج٢- نسخة مكتبة الإسكندرية.

(٢) **الفسطاط**: هي أولى العواصم الإسلامية في مصر، تم بناؤها على يد عمرو بن العاص عند فتح مصر سنة ٢١هـ/٦٤١ م في الموضع الذي يقع بين النيل والمقطم. (ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، ص ٤٧).

(٣) **القاهرة**: هي رابع حواجز مصر الإسلامية، تم بناؤها على يد القائد جوهر الصقلي قائد قواد الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م. (فاتن محمد الشيخ، **الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية الحضارية في مصر في العصر الفاطمي**، دار نشر نوابغ الفكر ٢٠٠٨، ص ١٠.

(٤) كان ظهور كبار الأطباء المسلمين أصحاب الرأي والنظر، قد ازدهر في خلافة المأمون العباسي، لاهتمامه ورعايته بهذا الأمر. (**تاريخ الطب الإسلامي**، تحرير: أحمد إبراهيم الهواري، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية). **من تاريخ الطب الإسلامي**، قاسم غني – تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى بك.

(٥) المقريزي، **الخطط**، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٦) عندما شرع جوهر الصقلي في بناء مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ / ٩٦٩م وذلك لما رأى أن فسطاط مصر عامر بأهلها الموضع المعروف بالقاهرة فيما بعد. (أبو الحسن، **النجوم الزاهرة**، ج ٣).

(٧) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(٨) المقريزي، المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(٩) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(١٠) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(١١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، نقله المقريزي عنه في خططه، ج، ٢ ، ص ٣٤٠.

(١٢) **الغُمر**: هو دسم اللحم (ديوان ابن وكيع/٦٦) وابن وكيع من شعراء القرن الرابع المصري الذين وصفوا الطبيعة المصرية وبيئتها على مدار فصول السنة، (عوض على الغباري، **شعر الطبيعة في الأدب المصري "القرن الرابع الهجري"**، طبعة الهيئة المصرية للكتاب سنة ٢٠٠٦، ص ١٠٦ ، ١٠٧).

(١٣) المقريزي، **الخطط**، ج ٢، ص ٣٤١. ابن حوقل، **صورة الأرض**، ابن سعيد الأندلسي، ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، تقديم وتحقيق محمد صبيح.

(١٤) ابن سعيد الأندلسي، عند وصفه لمصر الفسطاط، نقلها عنه المقريزي في خططه، ج ٢، ص ٣٤٠ ، ٣٤١.

(١٥) المصدر السابق نفسه.

(١٦) فاتن محمد الشيخ، **دراسات في جغرافية مصر السياحية**، دار العالم العربي للطباعة والنشر ٢٠٠٨، ص ٣٥ وما بعدها.

(١٧) أحمد إسماعيل علي، **دراسات في جغرافية المدن**، القاهرة سنة ١٩٧٨ – صلاح الدين عبد الوهاب– **أساس تنمية السياحة في مصر**، دراسة مقدمة إلى وزارة السياحة، ١٩٨٢.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

# التباين الإيديولوجي لقيادات مكتب ولجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة يرهن مشروع مستقبل وحدة المغرب العربي السياسية



د. العايب معمر

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

العايب معمر، التباين الإيديولوجي لقيادات مكتب ولجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة يرهن مشروع مستقبل وحدة المغرب العربي السياسية.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٧٣ – ٧٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

## ملخَص

أسس الأمير محمد عبد الكريم الخطابي (١٨٨٢ - ١٩٦٣) لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٨م بناءً على طلب مجاهدو شمال إفريقيا المقيمين في القاهرة بتكوين هيئة مغربية كبيرة توحد جهودهم، وبالفعل أصبحت اللجنة الممثل الشرعي للمغاربة، بعد أن نالت تأييد ودعم العديد من الدول العربية والإسلامية، خاصةً مصر. بيد أن تباين أفكار أعضاء اللجنة بدا واضحًا منذ اللحظة الأولى لممارسة اللجنة لنشاطها، ويعرض هذا المقال التباين الإيديولوجي لقيادات مكتب ولجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة وتأثيره على مشروع مستقبل وحدة المغرب العربي السياسية، حيث كان هذا التباين والاختلاف السبب المباشر في تعطيل العمل المغاربي العسكري والسياسي المشترك ضد الاستعمار، ومن ثَم كان سببًا في تعطيل مشروع المغرب العربي الموحد سياسيًا بعد الاستقلال.

## مُقدِّمة

يجمع أغلب المؤرخون والسياسيون الذين عاصروا أحداث فترة النضال المغاربي ضد الاستعمار الفرنسي، أن القيادات السياسية المغاربية قد ضيعت فرصة تاريخية لبلوغ الوحدة السياسية للمغرب العربي خلال فترة النضال المشترك، إذ ترى أن العمل السياسي الموحد الذي كان يهدف إلى تحقيق الاستقلال التام للمغرب العربي، كان حتمًا سيؤدي بشكل منطقي إلى الوحدة السياسية للمنطقة تحت سلطة مركزية واحدة.

غير أن فرنسا بتجربتها الاستعمارية العريقة تنبهت لخطورة مثل هذا المشروع على مستقبل تواجدها بالمنطقة المغاربية، لذلك سارعت إلى إجهاض هذا المشروع في المهد من خلال منحها تونس والمغرب الأقصى للاستقلال الداخلي سنة ١٩٥٦، والعمل باتجاه القضاء على رموز دعاة العمل الوحدوي المغاربي الذين تبنوا دعم الثورة الجزائرية فور اندلاعها، وبذلك نجحت فرنسا في تفتيت وشرذمة المغرب العربي إلى دويلات قطرية، في هذه الصفحات نحاول إعطاء صورة ولو بسيطة عن بعض القيادات السياسية المغاربية ومدى التباين والاختلاف الذي كان بينها بشأن مشروع وحدة المغرب العربي.

## أولاً: جذور تشكل إيديولوجية العمل السياسي المغاربي الموحد ضد الاستعمار

### ١/١- دور جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ومكتب المغرب العربي بالقاهرة:

إن المتتبع لتطور نشاط الحركة الوطنية المغاربية بعد الحرب العالمية الثانية، يقف عند المنحنى الجديد الذي ميز نشاطها، وذلك من خلال كثافة الاتصالات والمشاورات التي تمت بين زعماء قادة الحركات الوطنية المغاربية بهدف إيجاد صيغة مشتركة لتوحيد النضال السياسي المغاربي الموحد، وتسير نشاطها بالقاهرة منذ إنشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥.[١]

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وتبدأ هذه الاتصالات مع نهاية الحرب العالمية الثانية وفي هذا الشأن يذكر الشيخ الفضيل الورثلاني أن بعض السياسيين المغاربة المتواجدين بالقاهر، (...قد تكتلوا في "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية"، التي تأسست في ١٨ فيفري سنة ١٩٤٤، بالقاهرة تحت رئاسة شيخ الأزهر محمد الأخضر حسين، وكاتبه الشيخ الفضيل الورثلاني، وضمت أعضاء من جميع أقطار المغرب العربي، ومن جميع هيئات والأحزاب، ووضع لهذه الجبهة قانونًا أساسيًا، يهدف بالدرجة الأولى إلى استقلال هذه البلاد استقلال تامًا، لا زيف فيه ووحدة كاملة شاملة لا نقص فيها)،[٢] أما الرشيد إدريس فيذهب عكس ذلك حيث يذكر أن هذه الهيئة لم تكن على صلة مع الحركات الاستقلالية المغاربية وأن نشاطها كان محدود،[٣] وما يسجل لها أنها لعبت دورًا هامًا في التعريف بالقضية المغاربية وتوضيحها ونقلها إلى المشرق العربي، عن طريق "صحيفة النذير" الصادرة بالقاهرة والتي كانت تنشر المذكرات والبيانات المساندة والمتضامنة مع شعوب المغرب العربي.[٤]

مع تطور الأحداث التي شهدها المغرب العربي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ظهر جيل جديد من المناضلين المغاربة والذين اقتنعوا بعدم جدوى مسايرة السياسة الاستعمارية الفرنسية، خاصةً بعد أحداث ٨ مايو ١٩٤٥ الأليمة بالجزائر، والقمع الذي تعرضت له قريتي زمردين وبني حسان بتونس في ٣٠ جوان ١٩٤٦ وأحداث مدينة مكناس سنة ١٩٤٥،[٥] منذ هذا الوقت أصبح القادة المغاربة الجدد يفكرون بجدية في ضرورة تنسيق العمل بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاث لتحقيق مشروع استقلال المغرب العربي الموحد، ومن العوامل التي ساهمت في ذلك هو ظهور الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ كإطار سياسي مساند لقضايا التحرر في البلاد العربية،[٦] وفي هذا الشأن ساعدت على تنظيم مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة ما بين ١٥ إلى ٢٢ فيفري ١٩٤٧، والذي شارك فيه ممثلو الحركات الوطنية المغاربية المتواجدين بالقاهرة، بحضور عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية (١٩٤٥ - ١٩٥٢) ومن أهم التوصيات التي خرج بها المؤتمر:

أ- تقرير الكفاح المسلح في الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء.

ب- تنسيق العمل بين الحركات الوطنية في بلاد المغرب العربي ولتحقيق هذا الهدف:

ج- الاتفاق على غاية واحدة هو الاستقلال.

د- تكوين لجنة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل للكفاح المشترك.

أما أهم قرار توصل إليه الوطنيون المغاربة في هذا المؤتمر فقد تمثل في إعلانهم عن ميلاد مكتب المغرب العربي الذي تأسس عقب المؤتمر في يوم ١٥ فيفري ١٩٤٧، ومنذ هذا التاريخ حل مكتب المغرب العربي محل الأحزاب المغاربية الموجودة في مصر،[٧] فالغرض الأساسي من إنشائه هو تنسيق عمل الحركات الوطنية في بلاد المغرب العربي وتوحيد الخطط لتنسيق العمل السياسي المشترك الموحد، وفي هذا الإطار فقد لعب المكتب دورًا بارزًا في التعريف بالقضية المغاربية بمصر وفي أقطار المشرق العربي،[٨] وأعتمد في هذا الشأن على الأسلوب الدعائي عبر إنشاء العديد من الفروع والمكاتب له عبر مختلف أصقاع العالم، ومن أبرز أعماله أيضًا هو ترتيب عملية لجوء الأمير عبد الكريم الخطابي إلى القاهرة في ٣٠ مايو ١٩٤٧ وتمت هذه العملية بالتنسيق مع الجامعة العربية.[٩]

لقد أعطى مجيء الأمير عبد الكريم الخطابي دفعًا جديدًا لنشاط مكتب المغرب العربي، الذي استطاع أن يوسع نطاق دعايته للقضية المغاربية بداية من سنة ١٩٤٨، حيث استطاع تأسيس "لجنة تحرير المغرب العربي" يوم ٥ جانفي (يناير) ١٩٤٨، والتي أعلن عن ميثاقها في معظم الصحف المصرية،[١٠] ومن أهم بنود ميثاقها:

١- الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة.

٢- على الأحزاب المغاربية المنضوية داخل لجنة تحرير المغرب العربي، أن تدخل في مفاوضات مع ممثلي الحكومتين الفرنسية والإسبانية، شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المفاوضات أولاً بأول.

٣- حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام، لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية.

وأمضى ميثاق اللجنة رئيسها الأمير عبد الكريم الخطابي وممثلو الأحزاب الوطنية المغاربية،[١١] وسيرت من طرف مكتب تشكل من: محمد بن عبد الكريم الخطابي رئيسًا، وشقيقه أمحمد عبد الكريم وكيل دائم، والحبيب بورقيبة أمين عام للجنة، وأمحمد أحمد بن عبود أمين للصندوق،[١٢] وقد أقرت اللجنة في ميثاقها لأول مرة التعاون الإيديولوجي للمشروع الوحدوي المغاربي، وتم تبليغ ميثاق اللجنة إلى سفير فرنسا بالقاهرة الذي أبلغ حكومته بهذا الجديد، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا منشغلة بجبهات أخرى في مدغشقر والهند الصينية.[١٣]

أما نشاطها فقد تميز عن نشاط مكتب المغرب العربي الذي كان دعائيًا وإعلاميًا بصورة واضحة، فإن اللجنة سخرت جهودها منذ البداية إلى تنشيط أعمال أكثر ثورية، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى اتجاه مؤسسها عبد الكريم الخطابي الذي كان يؤمن بالعمل الثوري ضد الاستعمار وهو المعروف بزعامته لثورة الريف الشهيرة (١٩٢٠ - ١٩٢٥).[١٤]

## ثانيًا: بروز التباين الأيديولوجي لقادة مكتب ولجنة تحرير المغرب العربي

غير أن الملاحظ مع بداية سنة ١٩٤٨ أخذ التباين الأيديولوجي[١٥] بين القيادات المغاربية داخل مكتب ولجنة تحرير


ISSN: 2090 – 0449

المغرب العرب يطفو إلى السطح، حيث انقسموا إلى اتجاهين، الاتجاه الأول تزعمه رئيس اللجنة محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي اتخذ الأمور بصورة أكثر جدية، وكانت اللجنة بالنسبة له الوسيلة الوحيدة للتحرك والنزوع نحو العمل الثوري، أما الاتجاه الثاني فتزعمه رئيس حزب الدستور الجديد والأمين العام للجنة الحبيب بورقيبة الذي بقي وفيًا لمبادئ حزبه معتمدًا على مجموعته الشخصية ذات النزعة القطرية.[١٦]

**١/٢- الاتجاه الثوري ومحاولة تعميم الثورة في المغرب العربي:**

تميز الاتجاه الأول بنظرته الثورية كوسيلة أساسية لمواجهة الاستعمار الفرنسي في الأقطار الثلاثة، وتزعمه محمد بن عبد الكريم الخطابي وأنضم إليه الوطنيون الجزائريون من أعضاء حزب الشعب الجزائري الذي أخذوا يخططون للكفاح المسلح باعتباره الأسلوب الأنجع في معركة التحرير، وسعى حزب الشعب لإقناع الحزبين الشقيقين بهذه النظرة و"حاول إقامة جبهة واحدة من التونسيين والجزائريين والمغاربة للنضال ضد الجبهة الإمبريالية"،[١٧] والالتزام بتنسيق العمل فيما بينها في جميع مراحل المعركة التحريرية[١٨] وفي هذا السياق يذهب المؤرخ محمد حربي إلى القول: "...أن الوطنيين الجزائريين اتفقوا منذ سنة ١٩٤٨ على ضرورة الإعلان عن عمل عسكري، ولهذا أوفد حزب الشعب الجزائري (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) سنة ١٩٤٩، وفدين إلى تونس والمغرب فاتجه الوفد الأول إلى طنجة وضم شرشالي وخيضر، أما الوفد الثاني فأتجه صوب تونس وضم كل من دردور، أحمد بن بلة وبوقادوم، وهذا لوضع استراتيجية مشتركة "لإنشاء تنظيم شبه عسكري". فالتقى الوفد الأول بزعيم حزب الاستقلال علال الفاسي الذي أبدى تهربًا من هذا المشروع، أما الوفد الثاني فاتجه إلى تونس والتقى بالكاتب العام لحزب الدستور الجديد صالح بن يوسف الذي أعتبر المبادرة نوعًا من المجازفة والمغامرة المتهورة..."[١٩]

لقد كان المناخ السياسي المضطرب في المستعمرات الفرنسية وفي بلاد المغرب مع مطلع الخمسينات القرن العشرين، عاملاً مساعدًا بالنسبة لهذا الاتجاه ليحاول مرة ثانية تجسيد مشروعه على أرض الواقع خاصةً بعد انطلاق الحركة المسلحة في تونس والتي اتخذت شكل اغتيالات فردية ضد المستوطنين،[٢٠] ومواكبة مع هذه الأحداث فإن مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي عقدا اجتماعًا سنة ١٩٥٢ بالقاهرة، واتفقا على القيام بعمل ثوري مماثل لما يحدث في تونس والعمل على تعميمه في كامل المغرب العربي، والملاحظ خلال هذا الاجتماع أنه تم إقصاء الحبيب بورقيبة من اللجنة وهذا بسبب نظرته القطرية في حل المسألة التونسية، وعُين بدلاً منه علال الفاسي أمينًا عامًا للجنة، في هذه الأثناء التحق بمكتب المغرب العربي كل من محمد خيضر، أحمد بن بلة، صالح بن يوسف، وحسين آيت أحمد الفارين والمطلوبين من السلطات الاستعمارية الفرنسية.[٢١]

وتعود حقيقة الحركة المسلحة التي ظهرت في تونس إلى الاستعداد الذي أبدته بعض التشكيلات من الشباب التونسي التي كانت قد استعدت للعمل المسلح، متأثرة ببعض أفكار الأمير عبد الكريم الخطابي لكن دون أن تخرج نهائيًا عن الدائرة الواسعة التي كان يبسط عليها حزب الدستور الجديد تأثيره السياسي، وكانت أفكار هذه الفئة عن الكفاح المسلح أكثر جذرية ومرتبطة باستراتيجية موحدة للكفاح التحريري على مستوى المغرب العربي كله.

يؤكد السيد عبد الحميد مهري[٢٢] هذا الطرح بقوله: (...إن هذه التشكيلة هي التي بدأت المقاومة المسلحة في تونس منذ شهر ديسمبر ١٩٥٢، ولكنها لم تلبث أن التقت مع التشكيلات الرسمية للحزب...)،[٢٣] واصل أنصار هذا الاتجاه تجسيد المشروع من خلال محاولة تكوين شبكة للتنسيق لعملية الكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي، تكون أداة لتحقيق هذا الهدف وعن هذه الشبكة ذكر محمد بوضياف:[٢٤] "...أنه بعد إعادة تنظيم المنظمة الخاصة في سنة ١٩٥٢ والتي ارتبطت بعلاقات روابط مع حركات التحرر في تونس والمغرب، حل بالجزائر يومئذ ضابطان من الريف المغربي وهما: الهاشمي الطود وحمادي الريفي، وكان على اتصال بجهات ثلاث الأمير عبد الكريم الخطابي، ومصالح المخابرات المصرية وبعض ممثلي حزب الشعب الجزائري بالقاهرة، كلفهما الأمير عبد الكريم الخطابي بالإعداد لعمل ثوري منسق على مستوى الأقطار الثلاث، وقد اتصلا بقيادة الحزب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية)، ولكن لم يجدا التجاوب المطلوب، ولذلك اتصلا بطريقة غير رسمية بالأخ عبد الحميد مهري، عضو اللجنة المركزية للحزب والذي نظم اتصالاً بين محمد بوضياف وبين الضابطين وبناءً على ذلك قمت باستدعاء ديدوش مراد ليحضر لقاءه مع الضابطين القادمين من المغرب وبحث عملية تنسيق الكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي..."[٢٥]

هذه الشهادة التاريخية التي جاءت على لسان أحد مفجري الثورة التحريرية يؤكدها كذلك عبد الحميد مهري عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب الجزائري، ويضيف إلى شهادة محمد بوضياف أنه كان من المفروض حسب خطة هذه المجموعة أن يبدأ الكفاح المسلح في خريف ١٩٥٣، انطلاقًا من المغرب الأقصى ثم تونس، ثم يلتحق الجزائريون بركب الثورة، غير أن انفجار مستودع صنع الذخيرة في لأوراس أجل الأمر إلى غاية نوفمبر ١٩٥٤.[٢٦]

هذا الحادث لم يمنع من انطلاق الاستعدادات حيث عقدت سلسلة من الاجتماعات في باريس، شارك فيها أعضاء حزب الاستقلال المغربي وكان مجلس المقاومة المغربي على اتصال بالثوار الجزائريين، وهناك بعض الأدلة تشير إلى أنه كان المأمول تنسيق المعارك الأولى للجيش المغربي، مع بداية الهجمات الأولى في منطقة وهران الجزائرية، والملفت للانتباه خلال هذه الفترة أن علال الفاسي، الكاتب العام للجنة تحرير المغرب العربي خلفًا للحبيب

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بورقيبة المقال، ساهم مع ممثلين من الجزائر في القاهرة على إقامة مراكز للتدريب والتموين والعمليات في المغرب، فالمركز الرئيس للتدريب كان يقع بالقرب من الناظور في جبال الريف تحت إشراف العباسي مسعود وعبد الله الصنهاجي.(٢٧)

إن تفجير الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ أوجد وضعية جديدة في المنطقة، حاول دعاة بالعمل الثوري استغلاله لتعميم الثورة في كامل المغرب العربي، وفي هذا الإطار وقعت جبهة التحرير الوطني مع بداية سنة ١٩٥٥، اتفاقًا سريًا (وفق روح ميثاق القاهرة) مع علال الفاسي، وصالح بن يوسف، حول ضرورة انضمام ومشاركة تونس والمغرب إلى جانب الجزائر في الكفاح المسلح ضد فرنسا.(٢٨)

الملاحظ أن هذا الاتفاق لم يطبق، وهذا راجع إلى قبول الحبيب بورقيبة، والملك محمد الخامس، وعلال الفاسي بالاستقلال المشروط سنة ١٩٥٦، وهكذا فقد فوتت فرنسا على الوطنيين المغاربة الفرصة في تشكيل جبهة كفاح مسلح موحدة، خاصةً بعدما توفرت كل الإمكانيات الأساسية لإقامة هذه الجبهة من خلال تطور الأحداث على مستوى المغرب العربي كله، خاصةً وأن الاستعمار الفرنسي كان يواجه حربًا منهكة في الهند الصينية شغلت قسمًا كبيرًا من قواته العسكرية.(٢٩)

**٢/٢- الاتجاه السياسي القُطْري:**

تزعم الاتجاه الثاني داخل لجنة التحرير المغرب العربي رئيس حزب الدستور الجديد الحبيب بورقيبة الذي نشط فيما بين (١٩٤٥ – ١٩٤٨) في القاهرة، لصالح القضية المغاربية وفق الوجهة القومية العربية، لكنه بعد هذه الفترة نجده قد غير منهجه، وأصبح يعمل وفق مناهجه القديمة لصالح القضية التونسية خاصةً بعد خلافاته مع رئيس اللجنة محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي فصله من اللجنة وهذا لعدم انضباطه لروح ميثاق اللجنة وعين بدلاً منه علال الفاسي، وما يلاحظ أن التونسيين والمراكشيين كانوا خاضعين لسلطة السلطان وحزب الاستقلال، والتونسيون خاضعون لسلطة بورقيبة.(٣٠)

هذا الاتجاه بقي موجودًا داخل اللجنة رغم إقصاء زعيمه الحبيب بورقيبة منها ببقاء علي البلهوان عضوًا فيها،(٣١) والذي حل في القاهرة منذ سنة ١٩٤٨ وبعض الأحزاب المراكشية المحافظة، وكان بورقيبة غير متحمس لفكرة تعميم الكفاح المسلح في المغرب العربي، خاصةً مع تطور الأوضاع في كل قطر وانطلاق حركة المقاومة في تونس منذ سنة ١٩٥٢،(٣٢) وحصول تونس والمغرب على تطمينات ووعود من طرف السلطات الفرنسية لإجراء مفاوضات معها تفضي إلى استقلال البلدين، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت هذا الاتجاه يدعو إلى تجديد ميثاق اللجنة، وقد استطاع ممثلو الحركات المغاربية أن يتفقوا مبدئيًا على خطة جديدة لكن الأحداث تجاوزت محمد بن عبد الكريم الخطابي، لذا توصلوا بواسطة الأمانة العامة للجامعة العربية إلى إبرام اتفاق جديد يوم ٤ أبريل ١٩٥٤ وقعه ممثلو الأحزاب المغاربية ماعدا ممثل حزب الشعب الجزائري، وغاب عن هذا الاجتماع رئيس اللجنة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

رئيس المخابرات المصرية السيد فتحي الديب تحدث عن الاجتماع الذي أكد أن روح الخطابة طغت عليه، وأن ممثلي الأحزاب المغاربية المشاركة حاولوا إظهار أحزابهم بمظهر القوة لتحقيق المعجزات، فهدف المراكشيين والتونسيين كان المطالبة بالدعم بالمال حتى الاستقلال، ثم يأتي دور تحرير الجزائر، وفي هذا الاجتماع تدخل الشاب الجزائري(٣٣) الذي فاجئ الجميع برفضه المطلق للحزبية والتحزب الضيق وبنقد ممثلي الأحزاب في اعتمادهم على المقاومة السياسية، وأنه وإخوة له في الجزائر آمنوا بالكفاح المسلح ضد الاستعمار وما يطلبونه هو السلاح فقط ليقاتلوا به، أما محمد خيضر،(٣٤) فإن تدخله تطابق مع كلام صديقه وهاجم هو الأخر كل مَن يعطي لنفسه الحق في معرفة حقيقة الوضع في الجزائر، وأكد على أن أي كفاح في المغرب العربي لا يشمل الجزائر مقضي عليه بالفشل.(٣٥)

يرجع السيد عبد الحميد مهري موقف الطرفين التونسي والمغربي حول قضية توحيد العمل المسلح بالمغرب العربي، إلى وجود اختلاف أساسي في أسلوب المواجهة مع الاستعمار الفرنسي مؤكدًا أن هذا الاختلاف كان قائمًا بين هذه الأحزاب الثلاثة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية،(٣٦) فيما كان حزب الاستقلال وحزب الدستور الجديد يعتمدان أساسًا على العمل السياسي في الداخل والخارج، وخاصةً باتجاه الرأي العام الفرنسي ويميلان إلى صيغة مرنة من الوحدة بين الأحزاب الوطنية في المغرب العربي، تتجلى في مستوى الأهداف البعيدة أكثر مما تتجلى في مجال الإستراتيجية العامة للحركة، في الوقت الذي كان فيه حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية- يعمل على توحيد المعركة في المغرب العربي واتسم هذا العمل بأكثر راديكالية، حيث اقترح الوطنيون الجزائريون على شركائهم التونسيين والمراكشيين إلى تكوين منظمات شبه عسكرية مغاربية مثلما هي موجودة في الجزائر،(٣٧) وقد لقي هذا المقترح - السالف الذكر- الرفض من قبل تونس والمغرب، وكان من نتائجه أن انطلاق المقاومة المسلحة في المغرب العربي كان غير متزامن وغير منسق.

ففي تونس بدأ بمبادرات فردية، ثم توسع شيئًا فشيئًا إلى أن تعمم بدءً من مارس ١٩٥٤، عندما دعا بورقيبة علانية من منفاه في مالطة الدستور الجديد للدخول في المعركة، أما في المغرب بدأت حركة المقاومة بعد خلع الملك محمد الخامس في أوت ١٩٥٣.(٣٨) أثناء هذه الفترة كان حزب الشعب -حركة انتصار الحريات الديمقراطية- غارقًا في أزمة داخلية بين المركزين والمصاليين كادت أن تعصف بالنضال الوطني لولا أعضاء المنظمة الخاصة الذين سارعوا إلى التحاق بركب الحركة الثورية في تونس والمغرب، بعد تفجيرهم لثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤.

## خاتمة

بعد اندلاع الثورة الجزائرية وانتشارها في كل ربوع الجزائر تأكدت فرنسا أنها أصبحت تخوض حرب حقيقية في كامل أقطار المغرب العربي، وخوفًا منها في تشكل جهة موحدة تقود العمل المسلح يشمل كل المنطقة فإنها سارعت في بدء المفاوضات مع تونس والمغرب، التي انتهت بمنحهما الاستقلال الداخلي سنة ١٩٥٦، وبذلك نجحت فرنسا في تفويت الفرصة على العناصر الثورية التي كانت تؤمن بالعمل المسلح وضرورة تعميمه في كامل المغرب العربي، كحل وحيد لتحقيق الاستقلال التام للمغرب العربي، ومن ثمَ الوصول إلى تحقيق الوحدة السياسية للمغرب العربي تحت سلطة مركزية واحدة.

## الهوامش:

(١) محمد عابد الجابري: **فكرة المغرب العربي أثناء الكفاح من أجل الاستقلال**، في وحدة المغرب العربي، (ندوة)، الطبعة الأولى، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، جانفي ١٩٨٧، ص ١٨.

(٢) الفضيل الورثلاني: **الجزائر الثائرة**، الجزائر، عين مليلة، دار الهدى (بدون تاريخ)، ص ٢٧٦.

(٣) الرشيد إدريس، **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس ١٩٨١، ص ١٣.

(٤) الفضيل الورثلاني، المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٥) جون واتربوري، **الملكية والنخبة السياسية في المغرب**، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطيه، ط ١، دار الوحدة، بيروت لبنان ١٩٨٢، ص ١٧.

(6) SLIMANE CHIKH : **L'ALGERIE EN ARMES AU LE TEMPS DES CERTITUDES**, 2eme EDITIONS, CASBAH, ALGER, 1998. P 487.

(٧) الرشيد إدريس، ذكريات......، مصدر سابق، ص ١٠١ - ١٠٣.

(٨) كفاح كاظم الخزعلي: **مواقف حزب الاستقلال المغربي من القضايا القومية (١٩٤٥ - ١٩٥٦)**، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣١، معهد الدراسات القومية الاشتراكية، بغداد العراق، ١٩٨٧، ص ١٧٣.

(٩) محمد علي رفاعي: **الجامعة العربية وقضايا التحرر**، الشركة المغربية للطباعة والنشر، القاهرة، مايو ١٩٧١، ص ١٥١.

(10) MAHFOUD KADDACHE, **HISTOIRE DE NATIONALISME ALGERIENNE**, 2EME EDITION E.N.L, ALGER, TOME 2,, P 983.

(١١) الرشيد إدريس، ذكريات....، مصدر سابق، ص ١٣٩ - ١٤١.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٤١.

(13) POUL BALTA, **LE GRAND MAGHREB DES INDEPENDANCES A LAM 2000**, LA PHOMIC, E.N.A.G, ALGER 1990 P 21

(١٤) الرشيد إدريس، **كيان المغرب وآفاقه**، "في بناء المغرب العربي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ١٩٨٣، مرجع سابق، ص ١٧.

(١٥) عثمان بناني، **النشاط السياسي للوطنيين المغاربة بالقاهرة في عام ١٩٤٧**، في النهضة والتراكم، سلسلة المعرفة التاريخية، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، ١٩٨٦، ص ١٥١ - ١٨١.

(١٦) رخيلة عامر، **الثورة الجزائرية والمغرب العربي**، مجلة المصادر، العدد ١، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، جوان ١٩٩٩، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(17) BEN YOUCEF BEN KHADDA, **LES ORIGINES DU 1ER NOVEMBRE 1954**, EDITION DAHLAB ALGER, 1989, P 108

(١٨) عبد الحميد مهري: **أحداث مهدت لفاتح نوفمبر ٥٤**، الأصالة، العدد ٢٢، ١٩٧٤، ص ١٢.

(19) MOHAMED HARBI, **LE F.L.N MIRAGE ET REALITE DES ORIGINES A LA PRISE DU POUVOIR (1945 - 1962)**, JEUN AFRIQUE. PARIS 1985, PP 54 - 55.

حول نفس الموضوع أنظر كذلك: محمد حربي "**الوطنيون الجزائريون والمغرب العربي (١٩٢٨ - ١٩٥٤)**، في وحدة المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، جانفي ١٩٨٧، ص ٧٦ - ٧٧.

(٢٠) العقاد صلاح: **السياسة والمجتمع في المغرب العربي**، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧، ص ٢٨.

(٢١) فتحي الديب: **عبد الناصر وثورة الجزائر**، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٢.





(٢٢) عبد الحميد مهري: من مواليد ٣ أبريل ١٩٢٦ بالخروب بقسنطينة عضو مناضل في حزب الشعب الجزائري، وعضو اللجنة المركزية في حركة انتصار الحريات الديمقراطية عام ١٩٥٣. خلال هذه السنة يحاول توحيد الحركة النضالية التحررية على المستوى المغاربي يعتقل سنة ١٩٥٤ بعد عدة أشهر يطلق سراحه يلتحق بالثورة ويصبح ممثلاً لجبهة التحرير الوطني في سوريا. عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية منذ سنة ١٩٥٦، وعضو في لجنة التنسيق والتنفيذ، ووزير شؤون شمال إفريقيا في الحكومة المؤقتة ١٩٥٨، ثم وزير للشؤون الاجتماعية والثقافية في التعديل الحكومي الأول بعد الاستقلال يتقلد عدة مناصب عليا في البلاد. لمزيد من التفصيل أنظر: رشيد بن يوب، **دليل الجزائر السياسي**، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، جانفي ١٩٩٩، ص ١٧٩.

(٢٣) عبد الحميد مهري: المصدر السابق، ص ١٢.

(٢٤) محمد بوضياف (١٩١٩ - ١٩٩٢): ولد محمد بوضياف يوم ٢٣ جوان ١٩١٩ في المسيلة من عائلة عريقة، بعد الحرب العالمية الثانية يترك الوظيفة العمومية ويضع نفسه في خدمة الحركة الوطنية، يناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري، ويصبح مسئولاً عن المنظمة الخاصة O.S بناحية قسنطينة. خلال عامي (١٩٥٣ - ١٩٥٤)، كان العمود الفقري لتجمع أنصار الكفاح المسلح، أختطف مع بن بلة يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، بقي عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية (١٩٥٦ - ١٩٦٢). في سنة ١٩٥٨ يعين وزيرًا للدولة ثم نائبًا لرئيس الحكومة المؤقتة ١٩٦١ يعارض بشدة هيمنة الجيش وزعامة بن بلة ويؤسس حزب الثورة الاشتراكية في سبتمبر ١٩٦٢، يعتقل بوضياف يوم ٢١ جوان ١٩٦٣، ويؤيد محاولة انقلاب العقيد محمد شعباني ١٩٦٤، عاش في المغرب منفيًا. عاد إلى الجزائر لرئاسة المجلس الأعلى للدولة، يغتال في ٢٩ جوان ١٩٩٢. لمزيد من التفاصيل أنظر: رشيد بن يوب، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢٥) محمد بوضياف، في جريدة الشعب، العدد ٧٧٨٦ و ٧٧٨٧، ليومي ١٦ - ١٧ نوفمبر ١٩٨٨، ص ٥، حول نفس الموضوع أنظر:

MOHAMED BOUDAIF: **LA PREPARATION DU 1er NOUVEMBRE**, MEMORIA N° 1, LE MAGAZINE DE L'HISTOIRE, EDITIONS RAHMA , P (3 - 29).

(٢٦) عبد الحميد مهري: جريدة الشعب، العدد ٨٣٩٢، يوم ١ نوفمبر ١٩٩٠، ص ١ - ٢، وكذلك عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢٧) دوغلاس أي، أشفورد، "**التطورات السياسية في المملكة المغربية**"، ترجمة عائدة سليمان عارف، أحمد مصطفى أبو حاكمة، دار البيضاء، ١٩٦٣، ص ٢١٨.

(28) POUL BALTA, OP.CIT, P 22.

(٢٩) عبد الحميد مهري: أحداث مهدت لفاتح نوفمبر، مصدر سابق، ص ١٢.

(٣٠) الرشيد إدريس، **كيان المغرب وأفاقة**، مصدر سابق، ص ٣٠.

(٣١) **علي البلهوان** (١٩٠٩ - ١٩٥٨): هو علي بن عبد العزيز البلهوان، ولد في ١٣ أفريل ١٩٠٩ بتونس، التحق عام ١٩١٧ بمدرسة خير الدين الابتدائية حيث حصل فيها على الشهادة الابتدائية، في عام ١٩٢٤ ينتقل إلى الصادقية ليواصل دراسته الثانوية التي تحصل منها على ديبلوم تلك المدرسة سنة ١٩٣١، تابع دراسته العليا بكلية الآداب بباريس ابتداء من عام ١٩٣٢، أثناء تواجده بباريس شارك إخوانه من أبناء المغرب العربي في نشاط "جمعية طلبة المسلمين لشمال إفريقيا"، وانخرط في "منظمة نجم شمال إفريقيا"، بعد إحرازه على الإجازة في اللغة والآداب العربية دخل ميدان النضال الحزبي مبكرا مع حزب الدستور التونسي الجديد منذ عام ١٩٣٦، اعتقل عام ١٩٣٨، كلف بعدة مهام منها الإشراف على تنظيم الحزب عام ١٩٤٣، انتدابه عضوا في الديوان السياسي عام ١٩٤٨، ثم موفدا للحزب في المشرق، وعضو في الوفد التونسي في منظمة الأمم المتحدة مع الرئيس الحبيب بورقيبة عام ١٩٥٦، عين عضوا في الوفد التونسي في مؤتمر طنجة ١٩٥٨، عين أثناء هذا المؤتمر ليكون ضمن النواب الذين كلفوا بإبلاغ قادة المغرب العربي بنتائج المؤتمر وقراراته، لكن المنية فجاءته يوم الجمعة ١٠ ماي ١٩٥٨. لمزيد من التفصيل أنظر: رشيد الذوادي، **علي البلهوان، حياته وأثاره**، الطبعة الأولى، دار عطارد، تونس ١٤٤، ص ٢٢ - ٢٨.

(٣٢) الرشيد إدريس، ذكريات..... مصدر سابق، ص ٣٠.

(٣٣) الشاب الجزائري هو أحمد بن بلة، الذي التحق بالقاهرة باسم مستعار بعد فراره من سجن البليدة يوم ١٦ مارس ١٩٥٢، ويصبح بجانب محمد خيضر، حسين آيت أحمد، يمثلون جبهة التحرير في مصر. لمزيد من التفصيل أنظر: رشيد بن يوب، المرجع السابق، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣٤) **محمد خيضر** (١٩١٢ - ١٩٦٧): مناضل في حزب الشعب الجزائري عضو اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، أحد إطارات المنظمة الخاصة O.S، عضو في المجلس الوطني للثورة الجزائرية منذ أوت ١٩٥٦، سجن مع بن بلة بعد اختطاف الطائرة في أكتوبر ١٩٥٦، بعد الاستقلال عين عضو بالمكتب السياسي مسئول جبهة التحرير الوطني ومكلف بالمالية، يستقيل بعد خلافات مع أحمد بن بلة، عارض نظام بن بلة، تم اغتياله يوم ٤ جانفي ١٩٦٧، بجنيف. لمزيد من التفصيل أنظر: رشيد بن يوب، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣٥) فتحي الديب: **عبد الناصر وثورة الجزائر**، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣٦) عبد الحميد مهري، المصدر السابق، ص ١٢.

(37) MOHAMED HARBI, **LES ARCHIVES DE LA REVOLUTION ALGERIENNE**, LES EDITIONS, JEUNE AFRIQUE, P 15 - 49

(٣٨) محمد حربي: **الوطنيون الجزائريون والمغرب العربي (١٩٢٨ - ١٩٥٤)**، في وحدة المغرب العربي (ندوة)، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، جانفي ١٩٨٧، ص ٧٧.



# اللاجئـون الجزائريـون في تـونس إبـان الثـورة التحريريـة الجزائريـة (١٩٥٤- ١٩٦٢)

## "دراسـة نقديـة مـن خـلال وثائق الأرشـيف الفرنسـي"



د. لمياء بوقريوة
أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحاج لخضر – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
لمياء بوقريوة، اللاجئون الجزائريون في تونس إبان الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤- ١٩٦٢): دراسة نقدية من خلال وثائق الأرشيف الفرنسي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٧٩ – ٨٥.
www.kanhistorique.org ISSN: 2090 – 0449
خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

### ملخَص

بدأ تدفق اللاجئين الجزائريين على تونس والمغرب الأقصى بأعداد هائلة هروبًا من سياسة التقتيل الجماعي بعد تعرض القرى والمداشر والدواوير إلى التدمير الشامل، وقد أدى توافد اللاجئين باستمرار إلى عدم إمكانية هاتين الدولتان من استيعابهم. ففي سنة ١٩٥٦ وصل عدد اللاجئين إلى (٤٠) آلف نسمة، وبحلول خريف ١٩٥٧ قفز العدد إلى (١٠٠) ألف نسمة، وسبب ذلك هو تزايد العمليات العسكرية الخطيرة من طرف الجيش الفرنسي، وبعد عام واحد ارتفع العدد إلى (١٨٠) ألف لاجئ. لقد فاق عدد اللاجئين الجزائريين في كل من تونس والمغرب الأقصى خلال الثورة التحريرية (٢٠٠) ألف نسمة من شيوخ ونساء وأطفال ومعطوبين. وتسلط الدراسة الضوء على اللاجئين الجزائريين في تونس خلال الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤- ١٩٦٢) وذلك من خلال وثائق الأرشيف الفرنسي.

### مُقدِّمة

يلاحظ الدارس للتاريخ المغاربي منذ الوهلة الأولى تجدر فكرة الأخوة المغاربية في كيان أهالي المنطقة، وبالعودة إلى السيرورة التاريخية يمكن أن نستشف العمق التاريخي لفكرة الأخوة المغاربية التي عبرت عن كينونة سياسية اجتماعية واحدة لا يمكن الفصل بينها، رغم وقوف المستعمر الفرنسي على ضرب مقوماتها المتجدرة عبر التاريخ إلا أنه فشل في مسعاه بفعل الوعي الحضاري للشعب المغاربي وتمسكه بهويته ووحدته الوطنية والحضارية.

ومن هذا المنطلق، كان الدور الكبير لبلدان المغرب العربي عامة وتونس خاصة في دعم الثورة الجزائرية ونصرتها في المرحلة الأخيرة لتصفية الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي. ولعل الأسباب التي دفعتني إلى البحث في هذا الموضوع بالأساس هي محاولة الوقوف على السياسة الاستعمارية المطبقة في الجزائر عموما وفي المنطقة الشرقية بوجه خاص، ونظرا للطابع الذي يميزه الامتداد الجغرافي بين الجزائر، والروابط القوية بين أبناء الشعبين التونسي والجزائري، والسعي إلى الوقوف على العوامل المؤدية إلى تهجير الجزائريين وتشريدهم، والتطرق إلى أهم مناطق تواجد اللاجئين الجزائريين بتونس وإبراز معاناتهم وطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بينهم وبين السلطة التونسية منذ تواجدهم على التراب التونسي إلى غاية الاستقلال و تأثير ذلك على الثورة التحريرية. ولكل هذا كان يتحتم علينا إعطاء مفهومًا واضحًا لمعنى لاجئ لكي لا يكون هناك لبسًا لهذا المصطلح خلال هذه الدراسة.

### أولاً: مَن هو اللاجئ

حسب ما ورد في معاهدة اللاجئين للأمم المتحدة لعام ١٩٥١ بخصوص وضع اللاجئين فإن تعريف اللاجئ: "هو الشخص الذي بسبب مخاوف حقيقية من اضطهاد بسبب العرق، الدين، الجنسية، انتمائه إلى طائفة اجتماعية معينة أو ذات رأي سياسي، تواجد خارج البلد الذي يحمل جنسيته، وغير قادر بسبب هذه

المخاوف الاعتماد على حماية دولته أو العودة لبلده بسبب المخاوف من الاضطهاد". وما يلاحظ على هذا التعريف أنه لا يزال غير مفهوم ولا يستخدم بطريقة ثابتة ومستقرة في اللغة اليومية. فعلى سبيل المثال، غالبًا ما تخلط وسائل الإعلام بين اللاجئين، وأولئك الذين يهاجرون لأسباب اقتصادية وبين المجموعات المضطهدة في بلدانها.

وعليه فمفهوم لاجئ الذي نعتمده من خلال هذه الدراسة هو المفهوم الذي وجدناه في دائرة المعارف البريطانية والذي جاء فيه :"أن اللاجئين هم الأشخاص الذين يجبرون على ترك بيوتهم خوفًا من الاضطهاد سواء بشكل فردي، أو جماعي لأسباب سياسية، أو دينية، أو عسكرية، أو لمشاكل أخرى". وقبل الخوض في أسباب وجود فئة المشردين الجزائريين أثناء الثورة التحريرية المجيدة في تونس والسياسة الاستعمارية على الجزائر بصفة عامة والمنطقة الشرقية بصفة خاصة، لابد أن نوضح أهمية المنطقة الحدودية بالنسبة للثورة الجزائرية.

**أهمية المنطقة الحدودية الشرقية للثورة التحريرية الجزائرية**

لقد لعبت المنطقة الأولى التاريخية (الولاية الأولى لأوراس النمامشة) دورًا استراتيجيًا فعالاً طيلة أيام الثورة لاسيما في السنوات الأولى، فشهدت معظمها هجومات الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ كما تحملت عبء الحصار العسكري من طرف القوات الفرنسي، وكاد أن يؤدي إلى خنق الثورة وإجهاضها، وقد كان للناحية الشرقية منها والتي تمتد من خنشلة شرقًا إلى الحدود التونسية غربًا الدور المحوري للاعتبارات الجيواستراتيجية التالية:

١- كانت متاخمة للحدود التونسية وامتداد جغرافي واسع للأوراس غربًا عبر جبل النمامشة ومرتفعات تبسة المتاخمة لناحية سوق أهراس، كما أنها منفتحة جنوبًا نحو ناحية واد سوف، وعلية اعتبرت متسعًا للثورة التحريرية داخليًا وخارجيًا.

٢- استخدمت طيلة سنوات الثورة منطقة عبور في الداخل والخارج وذلك لوجود معظم القواعد الخلفية للثورة الجزائرية داخل التراب الوطني ومستقرًا لمؤسسات الثورة السياسية والعسكرية.

٣- كانت تمثل نقطة عبور لجيش التحرير الوطني للإمداد بالأسلحة والذخيرة وطريقًا في تأمين وصولها إلى المناطق والولايات الداخلية وتخزينها.

وقد شهدت المنطقة الأولى التاريخية خلال العام الأول من اندلاع الثورة نشاطًا سياسيًا وعسكريًا بين الجانبين التونسي والجزائري يتحتم علينا توضيحه من خلال التقارب بين أبناء الشعبين.

## ثانيًا: التقارب والاحتكاك بين الجزائريين والمقاومة التونسية وبين التونسيين واندلاع الثورة الجزائرية[١]

لقد تزعمت العناصر الثورية المتمسكة بميثاق لجنة تحرير المغرب العربي وعلى رأسها الخطابي وثوار حركة انتصار الحريات الديمقراطية استراتيجية تجذير وحدة المغرب العربي ووحدة الثورة في هذا الإطار بالدعوة للعمل المسلح ، وبذلك وضع الخطابي خطة شاملة من أجل تحرير أقطار المغرب العربي التي بدت للبعض أنها مثالية وصعبة التجسيد، ولكنها حققت نتائج مهمة لأنه اعتمد على تكوين الضباط وربط الاتصالات الميدانية وعلى خيار الكفاح المسلح في تونس وإنشاء قاعدة تموين خلفية في طرابلس وإرساء توافق مع المناضلين الجزائريين على مبدئي إعلان الثورة وتعميمها على كامل المغرب العربي.

ومن هنا انخرط عدد من أبناء الناحية الشرقية في كل من منطقة تبسة، ووادي سوف، وسوق أهراس ضمن صفوف الثورة التونسية، وهذا اعتمادًا على الوثيقة الصادرة عن بلدية الكاف التونسية. كما ساهم الكثير من الجزائريين في معارك ميدانية إلى جانب أشقائهم التونسيين ضد الاستعمار الفرنسي ومن بين أهم العوامل التي دفعتهم إلى الالتحاق بالثورة التونسية بين سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ هي:

١- الروابط الاجتماعية العميقة بين سكان المناطق الحدودية، فكان لبعض الجزائريين أملاك خاصة بناحية الرديف ونفطة وتوزر والتي تعتبر من أهم المواقع الرئيسية للثورة التونسية.

٢- مشاركة العديد من الجزائريين ضمن الأفواج التي أرسلتها تونس لدعم الفلسطينيين في أول حرب عربية إسرائيلية سنة ١٩٤٨.

٣- تواجد بعضهم في إطار العمل في مناجم الفوسفات القريبة من مدينة الرديف حيث تم الاحتكاك المباشر مع الثوار التونسيين، كما كان هذا الاحتكاك متواجدًا في إطار الدراسة، حيث تأثر الجزائريون بالفكر الثوري المنتشر في الجنوب التونسي للحزب الدستوري، خاصةً بزاوية نفطة القبلة المفضلة لأخذ العلم للناحية الشرقية.

ومن هنا كان الاحتكاك قويًا بين أبناء الشعبين على أساس أنهما يعانيان استعمارًا واحدًا، وتفطن هذا الأخير لأهمية المنطقة الحدودية الشرقية بالنسبة للثورة التحريرية هو الذي دفعه إلى إتباع سياسة تعسفية ضد الشعب الجزائري من أجل فصله عن ثورته وفصل الثورة عن قواعدها الخلفية، سواءً كان ذلك في الشرق أو في الغرب.

## ثالثًا: أسباب لجوء الجزائريين إلى تونس

بعد اندلاع الثورة التحريرية مباشرةً، تدفق اللاجئون الجزائريون بأعداد هائلة نحو القرى والمدن الحدودية – التونسية، وهذا بالتوازي مع منحى الاستراتيجية العسكرية الفرنسية للقضاء على الثورة، والتي ارتكزت على دعامتين أساسيتين:

١- استعمال القوة والإفراط فيها ضد الثوار ومحاصرتهم خاصة في المنطقة الأولى.

٢- محاولة فصل الشعب الجزائري عن الثوار وإقناعه بعدم جدوى العمل العسكري، بحيث عملت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال شاريار على محاصرة الجزائريين ومراقبة

الحدود الجزائرية التونسية، وخنق الثورة في مهدها بالمنطقة الأولى، ووقع التنسيق بينه وبين وزير الداخلية فرانسوا ميتران، ووزير الدفاع جاك شوفالي للقضاء على الثور بكل الوسائل وأمروا باستعمال الأسلحة المحرمة ضد الشعب خاصة في الريف مثل النابالم والقنابل المحرقة اعتقادا منهم أنهم يستطيعون القضاء على عزيمة الشعب وفصله عن الثوار.

ولم يصل شهر جانفي (يناير) ١٩٥٥ حتى أحدث الجنرال شاريار عمليات عسكرية وصفت بالآلة الضاغطة، كان الهدف من ورائها القضاء على كل متحرك في الجبال وخنق الثوار في مهدهم، وقطع أنصارهم في كل مكان.[٢] كما تدعمت الاستراتيجية الفرنسية بالقوانين الرادعة مثل قانون الطوارئ والتهجير الذي اعتمده البرلمان الفرنسي في أفريل(أبريل) ١٩٥٥ ليطبق في المنطقتين الأولى والثالثة أولا للقضاء على الثورة. كما شنت عمليات عسكرية خاصة على القرى الجزائرية الواقعة على الحدود الشرقية مع تونس وهذا بين تاريخ ٨ ماي(مايو) ١٩٥٦ و٤ جوان (يونيو) ١٩٥٧ في كل من مشتة واد الحوت، خنقة عون، القالة، روم السوق (عنابة)، عين سماعي، النحالة وأم لعراس وأم السكاك. مهددين من طرف مظليين الجنرال Massu والكولونيل Bigeard لجأ الآلاف من الجزائريين نحو تونس خوفا من الحرق والتعذيب، والإذلال والموت المسلط عليهم من القوات العسكرية الفرنسية.

ولقد كان قرار الحكومة الفرنسية بإنشاء المنطقة المحرمة على طول الحدود الجزائرية - التونسية. ما هو إلا قرار لإبادة أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ جزائري مقيم على هذه المنطقة، حسب إحصاءات رسمية نشرت بالجزائر سنة ١٩٥٤ حيث تم حرق الغابات وقصف السكان بواسطة الطيران الفرنسي. وتجلى هذا العمل أكثر بعد القصف التراجيدي لساقية سيدي يوسف الذي دفع بالحكومة الفرنسية لاتخاذ عدة إجراءات من أجل (تبيين حسن نواياها أمام الحكومة التونسية)، وحفظ ماء وجهها أمام الرأي العالمي.[٣]

ومن بين تلك الإجراءات، الإجراء الذي اتخذه مجلس الوزراء الفرنسي في ١٤ فيفري (فبراير) ١٩٥٨ والقاضي بإنشاء (un glacis) أو حاجز جليدي بين الجزائر وتونس، وهو عبارة عن منطقة مجردة أين يتم فيها الفضاء على كل شيء يتحرك (no man' land) على طول ٤٠٠ كلم، وعرض ٣٠ حتى ٥٠ كلم كما هو مبين على الخريطة، ومحدد من جهة الغرب بسكة حديد عنابة - تبسة ممدد بإنشاء رادار نقرين على الحدود الجزائرية - التونسية على مساحة ١٠.٠٠٠ كلم$^2$.

على هذه المنطقة كان السيد شبان دلمه (chaban Delmas) وزير الدفاع في حكومة فيليكس غايا، قد فرض سياسة الأرض المحروقة التي تم من خلالها تبديل أكثر من ٧٠.٠٠٠ ساكن من مقره على حد تصريحه. وفي الحقيقة الرقم يتعدى ذلك بكثير وهي ليست بعملية تبديل، وإنما عملية إبادة وتشريد للشعب الجزائري.[٤] والجداول التالية تبين عدد الجزائريين الذين كانوا متواجدين في المنطقة التي أعلنت محرمة وتم إجلاء سكانها.

**منطقة سوق أهراس**

| المنطقة | الجنسية | | |
|---|---|---|---|
| | جزائري | فرنسي | جنسيات أخرى |
| سوق أهراس | ١٢.٧٤٣ | ٤.١٨٥ | -- |
| عين تاحميمين | ٣٠٠ | ١٤ | -- |
| دوار بوكريشة | ١.٧٠٨ | ١٣ | -- |
| واد سالمي | ٩٨٧ | ٢٥ | -- |
| مزج الصفا | ١.٣٤٧ | ٧٢ | -- |
| برال | ٧٤١ | ٩٠ | -- |
| برال (نواحي) | ٢٠٥ | ٦ | -- |
| القحموصية | ٨.٦٨٣ | ٨١٦ | ٣٢ |
| مشاتي ومزارع | ١.٩٥٦ | ٢٠ | -- |
| المنطقة الخضراء (مدينة) | ٤١٢ | ٢١ | ٠٧ |
| سوق أهراس (نواحي) | ٥.١٥٩ | ١٥٨ | -- |
| قمبيطة | ٩٠٧ | ١٧٧ | ٠٤ |
| زارورية | ٧٨١ | ٦٨ | ٠٦ |
| مومن (الريف) | ٤.٧٤١ | ٠٣ | ١٤ |
| أولاد إدريس | ٤.٧٦٤ | ٠٢ | -- |
| دوار زارورية | ٣.٥٠٥ | ٢٠ | -- |
| دوار بني بربار | ٤.١٣٧ | ٠٩ | -- |
| أولاد سوكيس | ٤.١٤٣ | -- | -- |
| دوار الحمامة | ٦.١٤٤ | -- | -- |
| دوار الهدرة | ١.٨١٢ | ٠٧ | -- |
| دوار أولين | ٥.٩٧٧ | -- | -- |
| دوار راحية | ٥.٣٧٣ | ٢٥ | -- |
| دوار قدارة | ٥.١٧٩ | ٠٢ | ٠٢ |
| مارينا | ٣.٨٧٨ | -- | -- |
| أولاد بشيش | ٧.٣١٢ | ١٩ | ٠٤ |

**منطقة القالة**

| المنطقة | الجنسية | | |
|---|---|---|---|
| | جزائري | فرنسي | جنسيات أخرى |
| مدينة القالة | ٢.٣٦٣ | ١.٩٨٤ | ٤٣ |
| بلدية القالة المختلطة | ٣٧.٥٣١ | ٦٤٤ | ١١٩ |
| بوحجار | ١.٧٢٩ | ٢٥٩ | ٠٥ |
| دوار بوحجار | ١٠.٢٣٥ | -- | -- |
| راندون | ٣٠٣ | ١٥٢ | -- |
| بلدية راندون | ١١.٣٨٥ | ٥٨٥ | ١١٢ |
| موريس | ١.٢٣٢ | ٥٥٤ | ٠٩ |

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

**منطقة بونة**

| المنطقة | الجنسية | | |
|---|---|---|---|
| | جزائري | فرنسي | جنسيات أخرى |
| موندفيل | ٣.٨٢٨ | ٢٢٤ | ٠٦ |
| سانت جوزيف | ٥٦٠ | ٣٥ | -- |
| بودروة | ٤٢٥ | ٠٤ | -- |
| موند فيل | ٤.٤٤٦ | ٥٣٣ | ١٦ |
| دوار أولاد سريم | ٣.٥٧٨ | ٢٠ | -- |
| دوار الزقاقرنة | ٥.٦٠٦ | ٥٦ | -- |
| دوار الشفية | ٤.١٨٢ | ٢٤ | -- |
| دوار مرداس | ٣.٠١٤ | ١٦ | -- |
| دوار كورباس | ١.١٤٣ | ٤٨ | -- |
| بلاندن | ١.٤١١ | ١٥٧ | -- |
| لاكروا | ٩٤٧ | -- | -- |
| روم السوق | ٥٣٥ | -- | -- |
| توستان | ٤١٣ | ١٩ | -- |
| يوسف | ١.١٩٧ | ١٢٢ | -- |
| الطارف | ١.١٧٠ | ١٧ | -- |

**منطقة مورسوت – تبسة**

| المنطقة | الجنسية | | |
|---|---|---|---|
| | جزائري | فرنسي | جنسيات أخرى |
| دوار قوراي | ١٢.٢٥٠ | -- | -- |
| دوار مورسوت | ١٢.١٩٦ | -- | -- |
| دوار المريج | ١٥.٨١٧ | ٠٩ | ١٤٩ |
| الونزة | ٣.٢٤١ | ١.١٧٤ | ٢٣٣ |
| بوخضرة | ٣١٣ | ٢١١ | ٠٥ |
| الكويف | ٣.٢١٨ | ٦٤ | ٥٨ |
| مونتيسكيو | ٣.٨٥١ | ٦٤ | -- |
| فيلاج مورسوت | ٥٠١ | ٣٦ | -- |
| كلارفونتان | ١.٠٥٦ | ٧٨ | -- |
| بكارية | ١.٠٣٢ | -- | -- |
| مدرغين | ١.٧١٧ | ٦٧ | -- |

**منطقة جنوب تبسة**

| المنطقة | الجنسية | | |
|---|---|---|---|
| | جزائري | فرنسي | جنسيات أخرى |
| تبسة (مدينة) | ١٨.٩٠٥ | ١.٤٥٢ | ٧٤ |
| ثلث الدوار | -- | -- | -- |
| تبسة | ٢.٦٠٠ | -- | -- |
| ثليجان | ٨.٠١٢ | -- | -- |
| بحيرة الأرنب | ٨.٢١٦ | -- | -- |
| دوار السطح | ٥.٨٢٦ | -- | -- |
| الشريعة | ٩.٠٩٩ | -- | -- |
| الماء الأبيض | ٣.١٤٨ | -- | -- |
| المزرعة | ١٠.١٨٥ | -- | -- |
| تازبانت | ٧.٩٤٤ | -- | -- |

في كل منطقة سوق أهراس، القالة، عنابة، وتبسة. (حسب إحصاءات رسمية جزائرية سنة ١٩٥٤) وبعملية حسابية بسيطة وجدت عددهم يصل إلى ٤٧٥ ٣٣٤ جزائري.[٥] وبالرغم من ذلك لم يستطع الجيش الفرنسي أن يتغلب على شعب شجاع قرر الموت من أجل كرامته وحريته. وبدأ في فتح صفحة جديدة من تاريخه الأسود حيث بدأ يطبق سياسة الإبادة عن طريق الحرق والتجويع، بعد ما كان قد أنشأ (المناطق المحرمة) في جهات عديدة من التراب الجزائري.

- ففي ٤ فيفري (فبراير) ١٩٥٦ أنشأ المنطقة المحرمة في جهة وهران من سبابنة حتى الحدود المغربية.
- وفي ١١ أفريل(أبريل) من نفس السنة تم وفي الوقت الذي تم فيه إنشاء ٥١٧ موقع عسكري مزود بالسلاح الثقيل، ثم إعلان كل القبائل منطقة محرمة خاصة، عزازقة، Fort-National، Michelet، تيزي وزو، وطبق الحصار الغذائي على كل سكانها.
- وفي ٣ ماي (مايو) ١٩٥٧، دعي سكان دواوير وقرى مدينة جيجل والقل والميلية وبعض مناطق سكيكدة عن طريق منشورات تدعوا فيها القوات الفرنسية الشعب الجزائري إلى ترك منازلهم والتجمع في المراكز العسكرية الفرنسية (المحتشدات) حاملة فيها شعار (l'évacuation ou la  mort) (النزوح أو الموت).

وخصصت فيها القيادة العسكرية الفرنسية قوات جوية وبرية هائلة شاركت فيها من ١٧ إلى ٣٥ طائرة، إضافة إلى بناء السد الشائك المكهرب والملغم ابتداءً من شهر جويلية (يوليو) ١٩٥٦ من مدينة عنابة إلى مدينة تبسة، ثم تمديده إلى جنوب مدينة نقرين جنوب تبسة.[٦] ولعل هذا المشروع الضخم يعد من أهم الاستراتيجيات التي طبقتها السلطة الاستعمارية ضمن سياستها العسكرية الرامية إلى القضاء على الثورة التحررية، بعزل الشعب داخليًا وخارجيًا، ودعم الدول الشقيقة المجاورة خاصةً تونس، حيث أدى إلى مغادرة العديد من سكان المناطق التي شملها المشروع إلى تونس لتجنب الحصار المفروض. كما أدى ذلك إلى تعطيل حركة ونشاط الشريط الحدودي الذي اعتاد السكان من خلاله الذهاب والإياب من وإلى تونس لممارسة نشاطاتهم التجارية، كما تعطل النشاط الفلاحي والرعوي بحكم أن النشاط الاقتصادي السائد في هذه المنطقة يعتمد أساسًا على الفلاحة وتربية الماشية.

وفي صيف ١٩٥٧، قامت ٣٠٠ طائرة بقصف عدد كبير من الدواوير في منطقة الشرق الفلسطيني حيث نفذت العمليات باستخدام النابالم، كل هذه الإجراءات التعسفية جعلت ٣٦٥٠٠٠ جزائري يفر من مسكنه من أجل تجنب القصف، والحرق، وهتك الحرمات، والقتل، والحصار، والتجويع، لكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بين خط موريس وخط الرادار في الشرق، وبين القوات

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الفرنسية المتمركزة على طول الحدود التونسية في الغرب، فكيف يكون المصير؟ التعذيب والموت وكان المحظوظين منهم مَن يستطيعون خرق الحدود واللجوء إلى تونس. إن السياسة الفرنسية المطبقة في الجزائر خاصةً على الحدود الشرقية والغربية، بحكم أنها تمثل قوات خلفية للثورة الجزائرية، أسفرت على ظاهرة تشريد الجزائريين وتهجيرهم سواء داخل الوطن في المحتشدات أو خارجه في المناطق المجاورة.

## رابعًا: عدد اللاجئين الجزائريين في تونس

منذ سنة ١٩٥٧ ومع تزايد العمليات الرهيبة التي مورست على الشعب الجزائري للقضاء على ثورته من مناطق محرمة، ومحتشدات...الخ تزايد عدد اللاجئين على الحدود الشرقية والغربية للبلاد، وحسب إحصاءات جبهة التحرير الوطني فقد وصل عددهم في تونس لوحدها نحو ١٢٣٦٢٠ لاجئ في ١٣ ديسمبر١٩٥٧. وارتفع هذا العدد إلى نحو ١٣٠٠٠٠ لاجئ في جوان (يونيو) ١٩٥٨ حيث كانت نسبة ٥٥% منهم أطفالاً، و٢٠% نساء والباقي رجال أغلبهم شيوخ، وتمركزت أغلبيتهم على المناطق الحدودية وانقسمت منذ ١٣ ديسمبر١٩٥٧ على الشكل التالي:[٧]

| | |
|---|---|
| مدينة تونس وما جاورها | ١١٦٨٢ |
| مدن أخرى من وسط الشمال | ١٦٨٢ |
| الكاف | ٥٠٦١٦ |
| سوق لربعاء | ٣٢٨٦٠ |
| باجة | ٢٨٩٥ |
| الجنوب | ٢٣٨٨٥ |
| المجموع | ١٢٣٦٢٠ |

ومن خلال اطلاعنا على بعض الوثائق الفرنسية المتحصل عليها من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (Quai D'Orsay)، نجد أن السلطات الفرنسية تجد صعوبة في تحديد عدد اللاجئين، وهذا السفير الفرنسي المبعوث فوق العادة إلى تونس يبعث برسالة إلى سكرتير الدولة للعلاقات الخارجية بتاريخ ٢٥ فيفري (فبراير) ١٩٥٧ يقر فيها بذلك. وإننا نجد صعوبة في تحديد العدد، ولا نجد مصدرًا لذلك سوى (الإحصاءات العامة للسكان التي أجريت مع بداية سنة ١٩٥٦ من طرف قطاع الإحصاء التونسي)، بحيث لم يتجاوز عددهم ٦٦.٨٤٥ لاجئ. ونفس الوثيقة تعود وتؤكد بأن هذا الرقم ليس صحيحًا في كل الأحوال، لأن الإحصاءات كانت عامة ولم يطلب في العملية حتى تسجيل بطاقات الهوية، أي أن الجزائريين في تونس أعطوا معلومات بأنهم تونسيين، وبالتالي اعتبروا تونسيين أثناء الإحصاء لذلك جاء عددهم قليلاً.

ويرجع المفوض فوق العادة يقول أن من الصعوبة تحديد العدد، وإذا رجعنا إلى الوراء وما هو مقيد في (السجل القنصلي) وفيه إحصاء تقديري قام به مراقبون مدنيون سنة ١٩٥٤ أعطى رقمًا يصل إلى ضعف الرقم الأول وهو ١٢٠.٠٠٠ لاجئ جزائري. وتقول الوثيقة أنه رقم مبالغ فيه، ولا توجد وسيلة أخرى فعالة لإعطاء إحصاء دقيق وحقيقي للتغيرات التي يعرفها عدد اللاجئين. وفي آخر الرسالة يقدمها المفوض فوق العادة تقريره الشخصي لعدد اللاجئين الجزائريين وهو لا ينعتهم أصلاً بأنهم لاجئين، وإنما يقول أنهم الفرنسيين المسلمين للجزائر المقيمين في تونس les Français Musulmans d'Algérie يمكن تقديره بـ ٧٥.٠٠٠ إلى ٨٠.٠٠٠.[٨]

أما عن الرقم المصرح به من طرف الحكومة التونسية للأمم المتحدة سنة ١٩٥٩عن طريق سفيرها في واشنطن، منجي سليم، هو ٢٥٠.٠٠٠ لاجئ جزائري في كل من تونس والمغرب. أما السكرتارية العامة الفرنسية فتقلل هذا العدد بكثير وتقول أنه ٢٥٠٠٠ في تونس، و٣٢.٠٠٠ في المغرب، وأن هذا الرقم مضخم وذو أبعاد سياسية، فالحكومة التونسية مضغوطة من طرف جبهة التحرير من أجل لفت أنظار هيئة الأمم المتحدة للقضية الجزائرية، وكذلك من أجل البحث عن أكبر دعم ممكن من المنظمات الإنسانية الدولية للاجئين الجزائريين.[٩] (Extrait de la synthése mensuelle du consulat Général de France à Fés –septempre 1960).

## خامسًا: جهود الحكومة التونسية لمساعدة اللاجئين الجزائريين

لقد طرح مشكل اللاجئين الجزائريين مشكلتين أساسيتين بالنسبة لتونس، الأولى سياسية: تتمثل بقضية الاعتراف بالوضع القانوني للاجئين والدفاع عنهم أمام المنظمات الدولية، والثانية إنسانية: تتمثل في كيفية إغاثة ورعاية هؤلاء اللاجئين على الحدود التونسية. فماذا قدمت تونس لنصرة قضية اللاجئين الجزائريين على أراضيها؟

لقد نوه أحمد بومنجل (أحد مسئولي جبهة التحرير الوطني) في تقريره للحكومة المؤقتة بعمل الحكومة التونسية، التي قدمت تسهيلات هامة للاجئين الجزائريين حيث دمج بعضهم في الإدارة التونسية الناشئة كما أمنت لهم تسهيلات إدارية مختلفة على الإقليم التونسي (جوازات سفر، تأشيرات...الخ).[١٠] وعبرت الحكومة التونسية عن تخوفها وانشغالها بمسألة اللاجئين الجزائريين الإنسانية، وباشرت اتصالاتها الدولية بالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني من أجل طرح القضية على هيئة الأمم المتحدة وعلى المندوبية السامية للاجئين.[١١]

وأمام كل هذا واجهت الحكومة التونسية الفتية عبء اللاجئين، وسعت إلى أن تقدم مشروع قرار يتضمن حث المندوب السامي لشؤون اللاجئين على الإسراع بمساعدة اللاجئين بكيفية فعالة، القرار الذي تقدم به ممثلاً تونس والمغرب كل من المنجي سليم، والفيلالي، والذي أقرته هيئة الأمم المتحدة في ٦ نوفمبر ١٩٥٨،[١٢] والذي كلل بتدخل المحافظة السامية للاجئين والعديد من المنظمات

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الدولية والحكومات لتقديم مساعدات خاصةً بعد النداء الذي أعقب أشغال الندوة العالمية للهلال والصليب الأحمرين والذي جاء فيه: "بما أن عددا كبيرا من الجزائريين معظمهم من النساء والأطفال اضطرتهم حوادث الجزائر إلى الهجرة فلجئوا إلى تونس والمغرب، وبما أن أغلبية هؤلاء اللاجئين المتزايد عددهم كل يوم يوجدون في حالة احتياج تام... وبما أن الإعانات التي قدمتها الحكومتين التونسية والمغربية، واللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية الهلال الأحمر التونسي وجمعيات أخرى متمسكة بمبادئ الهلال الأحمر، لم تكف لدفع الخطر الكبير الذي يهدد حياة هؤلاء الضحايا البريئة فإن ...المؤتمر... يوجه للعالم نداءً حثيثًا لكي تتحقق مثل هذه المساعي في فائدة اللاجئين".[١٣]

وعلى إثر كل هذا تضاعفت المساعدات الإنسانية لصالح اللاجئين الجزائريين وبلغت ما قيمته ٢٢ مليون دولار أمريكي ما بين سنوات ١٩٥٩ و١٩٦٢.[١٤] وقد قامت الحكومة التونسية باستقبال هذه المساعدات وتوزيعها بمعرفتها على اللاجئين الجزائريين، الأمر الذي لقي إزعاجا من طرف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إذ أن التونسيين لم يتركوا لهم مجالاً للتعامل مباشرة مع المنظمات الدولية والهبات التي تأتي من طرف الدول الصديقة، لصالح اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية، وعدم شمولية توزيعها لكافة اللاجئين، وعليه فقد طالبت جبهة التحرير الوطني بمنحها صلاحيات توزيع المساعدات وتخويل الهلال الأحمر الجزائري بممارسة مهامه، غير أن السلطات التونسية لم تستجب لهذه المطالب إلا بعد تزايد ضغوط جبهة التحرير الوطني ولم ترفع قيودها على المساعدات الإنسانية إلا في سنة ١٩٦٠.[١٥]

## سادسًا: ملاحظات

إن ما وجدته في الوثائق الفرنسية يجرني إلى اتخاذ عدة ملاحظات.

١- السلطات الفرنسية لا تعتبر المشردين الجزائريين في كل من تونس والمغرب مشردين، أو لاجئين جزائريين بل يعتبرونهم الفرنسيين المسلمين للجزائر في تونس ( les Français Musulmans d'Algérie en Tunisie) أو: ( les (soi-disant) réfugiés Algériens de Tunisie).

٢- هم لا يعترفون بأن الجيش الفرنسي ومن ورائه الحكومة الفرنسية هي التي أنشأت هذه الظاهرة، بل جيش التحرير وهيئته هم المسئولون عن ذلك، وأن ارتفاع عدد اللاجئين في تونس معناه ارتفاع عدد جيش التحرير، فيما يعتبرونه بأحداث الجزائر (les évènement d'Algérie).

٣- تعتبر أن الحكومة التونسية وعن طريق مجهودات سفيرها، المنجي السليم، في واشنطن لدى هيئة الأمم المتحدة ولدى المفوضية العليا للاجئين هي التي تبحث عن خلق مشكل اللاجئين الجزائريين، في حين هو لا يعتبر مشكلاً صنعته الحكومة الفرنسية، بل (المتمردين) من جيش التحرير الجزائري وجبهته (FNA.FLN).

٤- كما ترى أن الحكومة التونسية تضخم العدد، وتبالغ فيه من أجل لفت أنظار هيئة الأمم والعالم للقضية الجزائرية، والحقيقة أن الحكومة الفرنسية هي التي تحاول تقليص عدد اللاجئين من أجل غض النظر عن هذه الشريحة الجزائرية المشردة، وعن الأعمال الاستعمارية التعسفية ضدها، والعمل على عدم تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية من أجل تقليص المساعدات الإنسانية الدولية، خوفًا من أن يذهب جزء منها إلى جيش التحرير الجزائري وجبهته المرابض على التراب التونسي.

٥- إن كانت تونس الفتية بعهد الاستقلال قد احتضنت اللاجئين الجزائريين وقدمت لهم بعض المساعدات الخاصة بالدفاع عن قضيتهم في المحافل الدولية، إلا أن إجراءاتها الإدارية في الوصاية ومراقبة المساعدات الإنسانية المقدمة للاجئين من طرف الهيئات الدولية والدول الصديقة أثار تحفظات جبهة التحرير الوطني، وطالبت هذه الأخيرة بمنحها صلاحيات توزيع المساعدات وتخويل الهلال الأحمر الجزائري بممارسة مهامه.

## خاتمة

إن السياسة الاستعمارية الفرنسية كانت جد تعسفية على الشعب الجزائري الذي حاول الدفاع عن قضيته، لأنه تيقن بأنه لا جدوى من المسار السياسي، ولا بد من المسار الثوري لتحقيق كرامته ووجوده على أرضه. غير أن الاستعمار واجه ذلك بشتى الطرق واستخدم أبشع الجرائم في حق الإنسانية ضده، وكان من أهم ذلك محاولة إبادته وتشريده وتهجيره عن أرضه وأرض أجداده، وخلق مشكل اللاجئين الجزائريين المشردين، وهي عملية إجرامية ضد حقوق الإنسان الجزائري، وضد المبادئ الحضارية التي كانت تدعيها فرنسا، فعلى التاريخ أن لا يفوت الحكم على فرنسا وبشدة على ما حاولت فعله من أجل سرقة ضمير الجزائريين. كما لابد للتاريخ أن يقف وقفة إجلال لكل الشعب الجزائري، الذي استطاع بكل ثقة وإيمان بثورته مقاومة الصعاب، ومقاومة مستعمر عربيدًا في استعماره.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

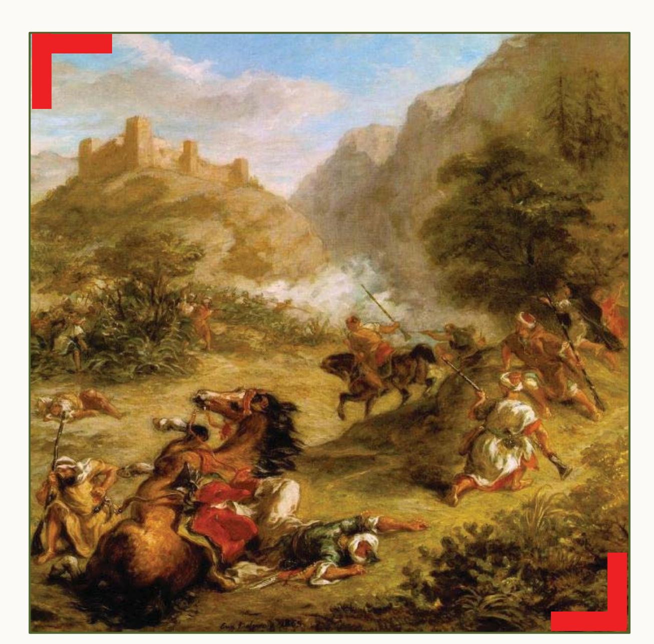
## الهوامش:

(1) Amira Aleya Sghaier,"La Tunisie et la Révolution algérienne", in Actes du 1er congres du forum d'histoire contemporaine sur méthodologie, de l'histoire des mouvements nationaux au Maghreb, Fondation Temimi, Septembre, 1998, P.110.
(2) Pierre Montagnon: La guerre d'Algérie, genèse et engrenage d'une tragédie, du 1 novembre 1954 au 3 juillet 1962, Parie 1954, PP 151- 155.
(3) Archives de ministère des Affaires Etrangères, Quai d'Orsay, Secrétariat d'Etat aux affaires Algériennes: 1959-1967, sous Série : FLN et algériens en Tunisie 1957, Carton N°85. Le drame des réfugiés algérien en Tunisie, République Tunisienne, Secrétariat d'Etat à l'information.
(4) IBID.
(5) IBID.
(6) IBID.
(7) El Sgahier, op.cit, p.128.
(8) A.M.A.E, Quai d'Orsay, Secrétariat d'Etat aux affaires Algériennes: 1959-1967, sous Série: FLN et algériens en Tunisie 1957, op.cit.
(9) A.M.A.E, Quai d'Orsay, Secrétariat d'Etat aux affaires Algériennes Maroc 1956-1968, sous Série: Réfugiés algériens, Carton 87, (Extrait de la synthèse mensuelle du consulat Général de France à Fés –septempre 1960).

(10) El Sgahier, op.cit, p.129
(١١) أنظر: **المقاومة الجزائرية**، ع١٦، ٣ جوان١٩٥٧، ص١٢.
(١٢) **المجاهد**: العدد (٣٣)، ٨ ديسمبر١٩٥٨، ص ١٣.
(١٣) **المجاهد**: العدد (١٤)، ١٥ ديسمبر١٩٥٧، ص ٤.
(١٤) بوحوش، **التاريخ السياسي بالجزائر منذ البداية ولغاية ١٩٦٢**، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٤٧، ٤٤٨.
(15) Farouk, Ben Atia, **Les Actions humanitaires pendant la lutte de libération** (1954 - 1962), ED.DAHLAB, Alger, 1999, P.P 93- 94.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





# معركة أقليش "صفحة مشرقة من تاريخ المسلمين في الأندلس"




عبد العزيز شاكي

أستاذ مشارك – قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة المسيلة

المسيلة – الجمهورية الجزائرية



**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

عبد العزيز شاكي، معركة أقليش: صفحة مشرقة من تاريخ المسلمين في الأندلس.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٨٦ – ٨٩ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

شكلت دولة المرابطين اللمتونيين طاقة نافعة للذود عن الإسلام والمسلمين بالأندلس، وقد أخذت على عاتقها مقارعة القوى النصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية، ومن أهم المعارك التي شكلت إحدى حلقات هذا الصراع هي معركة أقليش Battle of Uclés 501هـ / ١١٠٧م التي دارت بين جيش المرابطين، وجيش ألفونسو السادس Alfonso VI (1040 - 1109) بقيادة ابنه سانشو Sancho، وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. حيث خرجت قوات المرابطين من غرناطة بقيادة أبو الطاهر تميم، ثم انضمت إليه قوات جيوش مرسية بقيادة أبي عبد الله بن عائشة، وقوات أخرى من بلنسية بقيادة محمد بن فاطمة، ولما وصلت قوات المرابطين إلى مدينة أقليش حاصرتها ثم هاجمتها بعنف، فلم تستطع قوات النصارى الصمود، ولما سمع بهذا الأمر سانشو (ورد ذكره في المصادر العربية باسم شانجة) ابن الفونسو السادس جمع قواته وهاجم عسكر المرابطين، ودارت بينهم معارك طاحنة انتهت بانتصار قوات المرابطين، وقد مات في هذه المعركة سبعة من كبار فرسان النصارى، لذلك تُعرف هذه المعركة في المصادر الإسبانيّة باسم وقعة الأكناد السبعة أو الكونتات السبعة Seven Counts.

وتسلط صفحات المقال الضوء على معركة أقليش لكونها واحدة من معارك الإسلام الكبرى في الأندلس، إلا أنها لم تنل نفس شهرة معركة الزلاقة (١٠٨٦) أو معركة الأرك (١١٩٥)، وإن كانت لا تقل عنهما روعة. فقد ساهمت معركة أقليش في تثبيت سلطان المرابطين في الأندلس، ومنحت جرعات أخرى من الثقة في نفوس المرابطين، كما ساهمت في فرملة حركة الاسترداد المسيحي التي طالت أقاليم عدة من مدن المسلمين في الأندلس وأهلكت معها الحرث والنسل.


## مُقدِّمة

ورث علي بن يوسف أمير المرابطين دولة مترامية الأطراف عن والده، أمامها تحديات كثيرة منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، وكان لزامًا عليه أن يكون على مستوى هذه التحديات، خاصةً تلك المتعلقة بصد الخطر النصراني المتزايد في شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد أخذ هذا الأمير على عاتقه مهمة مقارعة القوى النصرانية، لذلك كانت حروب المرابطين مع نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية سجالاً لا ينتهي، ومن أهم المعارك التي شكلت إحدى فصول هذا السجال معركة أقليش ٥٠١هـ / ١١٠٧م التي كانت نصرًا مبينًا للمرابطين، قويت من خلالها شوكتهم في الأندلس وقد كانت هذه المعركة في مستهل حكم الأمير المرابطي الجديد علي بن يوسف[١] الذي تولى الحكم سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م.

## معركة أقليش

كانت أحوال الممالك المسيحية في إسبانيا قد تغيرت كثيرًا خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كما أن قوتها كانت متفاوتة. إذ أن مملكة قشتالة بدأت

تضعف بعد وفاة ألفونسو السادس، حيث خلفته ابنته دونيا أراكه ( URRACA )،[٢] ولما كانت سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧م أصدر أمير المرابطين علي بن يوسف أمرًا بتولية الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف واليًا على غرناطة[٣]، وقد جهز جيشًا، وخرج من غرناطة في العشرة الأخيرة من شهر رمضان ٥٠١ هـ / أوائل مايو ١١٠٨م، وسار بقواته شمالاً صوب جيان،[٤] وكانت الجنود والإمدادات تلحق به وهو في طريقه.[٥]

سار الأمير أبو الطاهر تميم إلى بياسة شمال شرق جيان، واتجه منها شمالاً إلى صوب أراضي قشتالة وانضمت إليه في الطريق جيوش مرسية[٦] بقيادة والها أبي عبد الله بن عائشة[٧]، وحشود بلنسية[٨] بقيادة والها محمد بن فاطمة، وقد اخترقت القوات المرابطية أراضي قشتالة وعاثت فيها، ثم اتجهت صوب بلدة أقليش[٩] الحصينة، فوصلت إليها في الرابع عشر من شوال ٥٠١ هـ / ١١٠٦م، وما كادت القوات المرابطية تصل اقليش حتى طوقتها وهاجمتها بعنف، ولم يستطع النصارى المدافعون عنها أن يثبتوا طويلاً أمام شدة وقوة هجوم المرابطين فسقطت في أيديهم في اليوم الموالي.[١٠]

كانت وقعة اقليش سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧م حسب رواية ابن عذاري وابن القطان،[١١] ولكن ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس يقول أن وقعة أقليش كانت سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م، حيث يقول: "وفي سنة اثنتين وخمسمائة كانت وقعة أقليج (وردت بهذا الاسم والمقصود بها أقليش) على النصارى، وكان أمير جيش المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين، وكان واليًا على غرناطة، فخرج منها غازيًا إلى بلاد الروم، فنزل حصن أقليج وبه جمع عظيم من الروم، فحاصرهم حتى دخل عليهم، فتحصن النصارى في القصبة".[١٢] أما ابن القطان صاحب نظم الجمان فيصف هذه الوقعة بقوله: "وفيها (أي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م) الجهاد في سبيل الله تعالى الذي كانت فيه وقعة أقليش في الأندلس وافتتاحها".[١٣]

كانت هذه المعركة نصرًا كبيرًا للمسلمين ويقول عن ذلك ابن القطان: "وهي من غر الوقائع وجليلها"،[١٤] ثم يتكلم عن سببها فيقول: "وشرح شأنها أن ابن أبي رنغي[١٥] صاحب قرطبة في ذلك التاريخ وجماعة الرؤساء بالأندلس، خاطب بعضهم بعضًا في النهوض إلى أقليش وكان البارهانش[١٦] للنصارى من جهة برتقال، وقتله لهم وعيثه في بلاد الشرك من تلك الجهة"،[١٧] وقد اقتحم المسلمون حصن اقليش، ولجأ كل من كان من النصارى من هذه المدينة إلى القصبة العليا، ونزلت جميع العساكر عليها وأحاطوا بها، حيث لم تتمكن القوات النصرانية من الصمود في وجه قوات المرابطين،[١٨] في هذا الوقت تأهب ألفونسو السادس لإنقاذ أقليش من أيادي المسلمين فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده شانجة ( SANCHO )[١٩] لمواجهة جيوش المرابطين بقيادة تميم، فسمع منها وبعث سانشو على رأس جيش كبير[٢٠] توجه نحو اقليش "فأخبر تميم بقدومه فأراد أن يقطع عن الحصن ويلقاهم".[٢١]

قدر ابن عذاري قوات النصارى التي جاء بها سانشو ( SANCHO ) بسبعة آلاف فارس،[٢٢] إلا أن ابن القطان صاحب نظم الجمان قدر قوات النصارى بحوالي عشرة آلاف فارس،[٢٣] وقد أشار عبد الله بن محمد بن فاطمة، ومحمد بن عائشة وغيرهما من قواد لمتونة على الأمير تميم أن يقيم ولا يرحل، وشجعوه وهونوا عليه الأمر فأطاعهم في ذلك وبعدها أتتهم جيوش النصارى في ألوف كثيرة، فلما رآهم تميم أراد الهروب والإحجام عن مقاتلتهم، فلم يجد سبيلاً للفرار، وصمم قادة المرابطين الآخرين على مقاتلة العدو[٢٤] "فوقعت بينهم حروب عظيمة لم يسمع بمثلها"،[٢٥] فكانت الدائرة والهزيمة على النصارى،[٢٦] وقد علق ابن أبي زرع على هذا النصر بقوله: "فالتقوا فكانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين، وقتل ولد ألفونسو (سانشو) السادس وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفًا ... ودخل المسلمون أقليج بالسيف، واستشهد فيها جماعة من المسلمين رحمهم الله، واتصل الخبر بألفونسو، فاغتم لقتل ولده ودخول بلده وهلاك عسكره، فمرض ... ومات لعشرين يومًا[٢٧] من الكائنة (وقعة اقليش)، وكتب تميم بالفتح إلى أمير المسلمين علي بن يوسف".[٢٨]

أما ابن القطان فيورد رواية مغايرة، حيث يذكر أن قوات النصارى هاجمت جيوش المسلمين في قرطبة، وهزموها، ثم هاجم ابن عائشة وابن فاطمة صاحبي مرسية وبلنسية قوات النصارى ولحق بهم تميم بن يوسف، ودارت حرب عنيفة انهزم فيها النصارى، ولكن لم يقتل سانشو حتى لحق به المسلمون إلى أحد الحصون وقتلوه،[٢٩] وبعدها رجع المسلمون إلى اقليش وترصدوا لكل الهاربين فقبضوا عليهم وقتلوا ما قتلوا وأسروا الباقين.[٣٠]

قُتل في هذه المعركة الإمام الجزولي، وكان رجل صدق كما قتل جماعة من الأعيان والعربان،[٣١] ويذكر الدكتور حسين مؤنس نقلاً عن الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصارى هلكوا في المعركة الواقعة في الأندلس والمسماة وقعة اقليش، ولهذا يسمونها وقعة الأكناد[٣٢] السبعة،[٣٣] أو الكونتات السبعة،[٣٤] وبعدها رجع الأمير أبو الطاهر تميم إلى غرناطة،[٣٥] وكتب إلى أخيه علي بن يوسف بتفاصيل انتصاره،[٣٦] وترك لابن عائشة وابن فاطمة مهمة حصار أقليش حتى أسروا ما تبقى من النصارى.[٣٧]

## خاتمة

وعلى أية حال؛ إن انتصار المسلمين في وقعة اقليش أعاد إلى الأذهان انتصارهم على النصارى في وقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م) أيام يوسف بن تاشفين، وقد كان لهذه المعركة أثر واضح على تدعيم سلطان المرابطين في الأندلس،[٣٨] وعززت من الثقة في نفوسهم مما جعلهم يعاودون الكرة حيث جاز علي بن يوسف مرة أخرى إلى الأندلس من أجل الجهاد،[٣٩] كما أنها ساهمت في التقليص من حدة حرب الاسترداد، ذلك أن سانشو قد مات في

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الحرب ولحق به أبوه ألفونسو السادس بنحو عام من ذلك،(٤٠) كما أن أهم الحصون والقلاع وبعض المدن مثل مدينتي قونكة، ووبذة صارت بيد المسلمين مما جعل ذلك يعزز التواجد المرابطي الذي صار حاضرًا بقوة في الأندلس.(٤١)

## الهوامش:

(١) هو الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن ورتاقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن وارتملي بن تمليت الصنهاجي اللمتوني، يُكنى بابي الحسن ولد بسبتة في ربيع الأول سنة ست وسبعين وأربعمائة ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣م. مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط ١، دار الرشاد الحديثة، الدر البيضاء، ١٩٧٩، ص ٨٤؛ عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٢١؛ الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرنئوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ج٢٠، ص ١٢٤؛ بينما ورد تاريخ آخر لولادته ذكره صاحب روض القرطاس وهو سنة سبع وسبعين وأربعمائة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م، ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٥٧؛ كان شجاعًا، عادلاً، مجتهدًا، متدينًا، ورعًا، صالحًا، معظمًا للعلماء، مشاورًا لهم، نفق (زال) في زمانه الفقه والكتب والفروع، حتى تكاسلوا عن الحديث والآثار. الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص١٢٤. أما النويري فقد ذكر بعض أوصافه حيث يقول: "وكان يقتدي في القضايا والأحكام بفقهاء بلاده، ويقربهم ويكرمهم، وإذا أتته نصيحة قبلها أو موعظة خشع لها وسار في رعيته أحسن سيرة فأحبه الناس واشتملوا عليه ومالوا إليه". النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: علي بوملحم، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ج ٢٤، ص١٥٠؛ ووصفه أحمد بابا التنبكتي بأنه الشيخ المتفنن، أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٨٩، ص ٣٦٦.

(٢) حمدي عبد المنعم: **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، ١٩٩٧، ص ١٥٧.

(٣) ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الجزء الرابع (قسم المرابطين)، تحقيق، إحسان عباس، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ج٤، ص٤٩. ويصف ابن عذاري في نفس الصفحة حالة الناس لما تولى أبو طاهر تميم ولاية غرناطة بقوله: "فاطمأنت النفوس وهجدت العيون بمملكته، وظهر بها جمال دولته، ونظر الأمير أبو طاهر في أسباب الغزو وأحسن إلى الجند".

(٤) مدينة بالأندلس خصبة الأراضي رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل، وفيها نحو ثلاثة آلاف قرية يربى فيها دود الحرير، بها جنات وبساتين، ومزارع وغلات، وهي تقع على سفح جبل عال جدًا، بها عيون وحمامات وأرحاء طاحنة وأسواق. كما أنها مشهورة بالمحارث والأخشاب. الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٨٣؛ ابن سعيد المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥، ج٢، ص ٤٩؛ أبو محمد الرشاطي وابن الخراط الاشبيلي: **الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار**، تحقيق: ايميليو مولينا و خاثينتو بوسك بيلا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية: معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد ، ١٩٩٠، ص ١٣٥.

(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٩، ويؤكد ابن عذاري أن الأمير أبو الطاهر تميم مكث في جيان أيامًا في انتظار مزيد من الجند حيث يقول في نفس الصفحة: "فلما احتل الجيش مدينة جيان تلوم بها الأمير أبو الطاهر أياما حتى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة".

(٦) مدينة بالأندلس بناها الأمير عبد الرحمان بن الحكم وصارت مقر الولاة وقادة الجيش، وهي على نهر كبير، بها جامع وأسواق وحمامات وصنوف من الخضر والفواكه مما يجعل الأسعار بها رخيصة، يكثر بها معدن الفضة وبها تصنع السبط الرفيعة (الأفرشة الرفيعة) وأهلها بارعون في هذه الصناعة عن غيرهم. الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٣٩.

(٧) عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس – عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** -، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٦١.

(٨) مدينة شهيرة بالأندلس تقع شرق قرطبة، وهي برية وبحرية ذات أشجار وأنهار، تعرف باسم مدينة التراب، وتتصل بها عدة مدن بينها وبين البحر فرسخ واحد، استولى عليها الروم ثم ملكها الملثمون (المقصود بهم المرابطين) ثم ملكها عبد المؤمن بن علي، وأهلها خير أهل الأندلس تطلق عليهم تسمية عرب الأندلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج ١، ص٤٩٠؛ مجهول: **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق: لويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٨٣، ص ٧٣- ٧٤؛ ابن الدلائي: **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الإخبار وتنويع الآثار**، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت، ص ١٧.

(٩) بضم الهمزة وسكون القاف، هي مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، مشهورة بعلمائها أمثال أبو العباس أحمد بن القاسم المقري الأقليشي، وأبو العباس أحمد معروف بن عيسى بن وكيل التجيبي الأقليشي. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧. وقد كانت فيها المعركة التي انتصر فيها المرابطون على القشتاليين. ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣ وما بعدها؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص٥٠؛ ويصفها الحميري بقوله: "حصن في ثغر الأندلس وهي قاعدة كور شنتبرية، وهي

محدثة، بناها الفتح بن موسى بن ذي النون، وفيها كانت ثورته وظهوره سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٧م، ثم اختار أقليش دارًا وقرارًا، فبناها ومدنها، وهي على نهر منبعث من عين عالية على رأس المدينة فيعم جميعها، ومنه ماء حمامها، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش، فإن طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر وإحدى عشر شبرًا، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف" الحميري: **صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار-** ، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط٢، دار الجيل: بيروت، ١٩٨٨، ص٢٨؛ الرشاطي والاشبيلي: المصدر السابق، ص ١٦.

(١٠)عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٦١؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(١١)ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٩؛ ابن القطان: **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق: محمود علي مكي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص٦٣.

(١٢)ابن أبي زرع: المصدر السابق ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ؛ BRIGNON , JEAN ET LES AUTRES : histoire du maroc , librairie nationale , Casablanca , 1967 P;92

(١٣)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣.

(١٤)المصدر نفسه.

(١٥)ويورده صاحب مفاخر البربر باسم أبو عبد الله محمد المعروف بابن أبي زنغي، حيث ولاه علي بن يوسف على قرطبة بعد عزل الأمير عبد الله بن الحاج، ثم عين عاملاً على غرناطة. مجهول: **مفاخر البربر**، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط ١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٥، ص ١٩٠.

(١٦)هو القائد القشتالي المسيحي " ALVAR FANEZ" ابن أخي السيد القنبيطور. وكان من كبار قواد ألفونسو السادس. ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣، هامش(٣).

(١٧)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣.

(١٨)المصدر نفسه، ص ٦٤؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٥٩؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٦١.

(١٩)والمقصود به سانشو "SANCHO" وكان يبلغ في ذلك الوقت نحو إحدى عشر سنة. ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢٠)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٣؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٥٩؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٦١؛ حسين مؤنس: **الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ١٩٩٢، ص٢٠.

(٢١)ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢٢)ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠.

(٢٣)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٤.

(٢٤)ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢٥)المصدر نفسه.

(٢٦)ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠.

(٢٧)والحقيقة أنه توفي بعدها بنحو عام يوم ٣ جوان ١١٠٩م / ٥٠٣ هـ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢٨)ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢٩)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٤ وما بعدها؛ وعن فرار سانشو وقتله يقول ابن القطان في الصفحة ٦٦: "فانهزم المشركون وقتلوا قتلاً ذريعًا، واتبعهم المسلمون إلى قرب حصن بلشون (بالإسبانية BELINCHON)، فيذكر أن ابن اذفونش أفلت في ثمانية من النصارى ورجع إلى حصن بلشون، وكان فيه لهم رعية من المسلمين، فاختبئوا عندهم رجاء أن يسلموا من القتل، فقتلوهم وقتل منهم ولد أذفونش".

(٣٠)نفس المصدر، ص ٦٦.

(٣١)المصدر نفسه.

(٣٢)بالإسبانية: BATALLA DE LOS SIETE CONDES

(٣٣)حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٠؛ محمد بن إبراهيم: **جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى- خلال عصري المرابطين والموحدين-**، ط١، دار أصداء المجتمع، القصيم، ١٩٩٨، ص ٢٨٢.

(٣٤)عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٣٥)ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٦٣؛ عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦٦.

(٣٦)حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣٧)ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣٨)عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦٦؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣٩)مجهول: **الحلل الموشية**، ص ٨٥. وقد كان ذلك سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩م.

(٤٠)ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٤١)حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٦٤.

# علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي "خلال القرن ١٢ هـ/ ١٨م"




**مبارك جعفري**

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
المركز الجامعي – وادي سوف
ولاية وادي سوف – الجمهورية الجزائرية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

مبارك جعفري، علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن ١٢هـ / ١٨م.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٩٠ – ٩٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

تقع منطقة توات حاليًا بالجنوب الغربي للجزائر، وهي تشكل ولاية أدرار وجزء من ولاية تمنراست، وقد عُرفت منطقة توات على مر التاريخ بأنها أرض أمان واطمئنان، وهو ما كان عاملاً أساسيًا في توافد عدد كبير من العلماء إليها من كافة الأقطار العربية والإسلامية. ومع مرور الأيام ازداد التواصل وتوسع وتأثر الأفارقة بعلماء وعلوم التواتيين وانكبوا على كثير من مؤلفاتهم ينسخونها ويدرسونها وحتى شارحين لها. وتسلط صفحات المقال الضوء على علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي، من خلال تنقلهم لإفريقيا خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.


## مُقدِّمة

يقع إقليم توات في الجنوب الغربي للجزائر, ويضم ثلاث مناطق أساسية هي: تينجورارين, توات الوسطى, تيدكلت(١). اختلف الرواة والمؤرخون في أصل التسمية ومعناها لعل من أهمها: ما ذكره عبد الرحمان السعدي؛(٢) من أنها اسم لمرض أصاب أصحاب السلطان المالي كنكن موسى(٣) في طريقهم إلى الحج, والبعض يرى أنها اسم لأحد القبائل الصحراوية بالجنوب.(٤) والبعض يرى أنها جاءت من الأتوات وهي الفاكهة التي كان يدفعها السكان لملك الموحدين بدل الضرائب.(٥) وهناك مَن يرى أنها سميت بذلك لأنها تواتي للعبادة, ولهذا سكنها الكثير من الأولياء والصالحين.(٦) ويرى ماندوفيل (Mandeville) أن اسم توات أطلقه الطوارق والعرب على الواحات المنتشرة على ضفاف واد الساورة وواد مسعود،(٧) بينما يرى (روكليس . Reclus) أن توات اسم بربري يعني الواحات(٨) ...إلخ من الروايات التي لم تستطع أي منها أن تحق الجزم، رغم أني أميل للأصول البربرية للأسم كون البربر من الملثمين، وزناته هم أول مَن سكن الإقليم، وكذلك كون معظم أسماء القصور بربرية.

لا تختلف بيئة الإقليم عن البيئة الصحراوية عامةً من حيث التضاريس ومعلمها كالعروق وأهمها العرق الغربي الكبير, والرق الذي يشغل مساحات واسعة من الإقليم, والشطوط والسباخ وأهمها سبخة (مكرغان) جنوب اقبلي, وسبخة تينجورارين. أما المناخ فهو صحراوي جاف يتميز بالحرارة الشديدة في فصل الصيف, تصل إلى خمسين درجة مئوية, والبرودة في فصل الشتاء, مع جفاف طوال أيام السنة, والرياح القوية خاصة في فصل الربيع والصيف.(٩)

تعود عمارة المنطقة إلى عصور ما قبل التاريخ وهو ما تدل عليه الآثار والشواهد كما استخدم الرومان طريق توات في علاقاتهم مع جنوب الصحراء(١٠) ويرى برنارد سافرو (Bernard Saffroy) أن اليهود وصلوا إلي توات منذ حوالي خمسين سنة قبل الميلاد واستقروا هناك،(١١) وبعد دخول الإسلام إلى شمال أفريقيا لعب الإقليم دورًا أساسيًا في العلاقة بين دول ومماليك المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وخاصةً بعد سقوط مملكة غانا وما نتج عنه من تراجع للطريق التجاري الصحراوي الغربي الرابط بين مراكش وغانا

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ليحل محله طريق توات كأحد أهم الطرق التجارية الصحراوية، مما زاد في أهمية المنطقة وعمارتها.[١٢]

وبحكم موقعها الإستراتيجي وكونها مركز عبور وسط الصحراء لعبت توات دورًا رياديًا عبر مختلف العصور في ربط السودان الغربي بمختلف المراكز الحضارية في الشمال، وكانت رفقة الحواضر الصحراوية طريق الاتصال الوحيد إلى غاية أزمنة متأخرة، وهو ما أشار إليه الكثير من الجغرافيين والرحالة، وفي مقدمتهم الإصطخري بقوله عن بلاد السودان: "... وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم...".[١٣]

إن العلاقة بين توات وأفريقيا الغربية ليست وليدة الأمس، بل تمتد عبر العصور في عطاء حضاري متبادل كان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في القرن التاسع الهجري ركيزته الأولى، وصاحب الفضل في إعطائه بعدًا وزخماً كبيرين لدوره وصيته وحركته الإصلاحية في ربوع أفريقيا، وبرحيله لم تتوقف وشائج الاتصال بل استمرت وبوتيرة أسرع أحيانًا، لتعرف أوجها خلال القرن ١٢ هـ/١٨م بفضل الازدهار العلمي والحضاري الذي عرفه الإقليم، وتنقل علمائه الدائم نحو السودان الغربي، هذا التنقل الذي ساهمت في تعزيزه مجموعة من العوامل يمكن ذكرها فيما يلي:

## القوافل التجارية

شكلت التجارة إحدى وسائل الاتصال المثمرة بين توات وأفريقيا، وفي توات كانت تجتمع القوافل من الشمال مع القوافل القادمة من بلاد السودان[١٤] بوصفها نقطة عبور وممر رئيسي لهاته القوافل، خاصةً بعد تراجع مكانة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة . وولاتا . غاو نتيجة للاضطرابات السياسية، وانتشار قطاع الطرق وظهور الأوربيين على السواحل، مما أدى إلى تدحرج التجارة شرقًا نحو طريق توات الذي أصبح الأهم خاصة مع ازدهار مملكة سنغاي،[١٥] وأدرك الأوربيون هذه الأهمية مبكرًا لأنها كانت تمثل الطريق للوصول إلى ذهب السودان، ولهذا الغرض كان مجيء التاجر الجنوي (أنطونيو مالفانتي . Antonio Malfante) إلى تمنطيط سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م للتعرف أكثر على المنطقة وطرقها التجارية[١٦] أين كانت تجتمع القوافل القادمة من الشمال لتنطلق جنوبًا.

وكانت القوافل عادةً ما تكون محملة بالكتب والمخطوطات بعدما راجت تجارتها في ذلك العصر بفضل ما كانت تدره من أرباح تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى،[١٧] بالإضافة إلى تجار توات المحليين الذين كانت تجارة غالبيتهم مع السودان الغربي،[١٨] مع تمتعهم بثقافة علمية واسعة أهلتهم للقيام بدور علمي إلى جانب نشاطهم التجاري، أو ما يُعرف بظاهرة الفقهاء التجار الذين أثروا العمل بالتجارة على التدريس والقضاء لبركتها ولما كانت توفره لأصحابها من مكاسب، أو هروبًا من تولي منصب القضاء، لكن دون انقطاع عن نشاطهم العلمي الذي واصلوا ممارسته انطلاقًا من التجارة، وفاق تأثيرهم العلمي في بعض الأحيان تأثير من تفرغوا للعلم. وقد تعرف الأفارقة على كثير من التجار التواتيين الفقهاء ومن الأمثلة على ذلك: الشيخ محمد فتحا ابن أبي محمد الأمريني التواتي[١٩] (ت١٠٠٨هـ/١٦٠٠م)، الذي دَرَسَ في فاس وتضلع في مختلف العلوم مما أهله لتولي منصب القضاء، فدعاه الملك السعدي أحمد المنصور بعد احتلاله لتوات ليكون قاضيًا عليها لكنه رفض العرض بعد أن قال لرسول المنصور: "...لأن يحاسبني الله على ألف قنطار، أيسر علي من أن يسألني عن قضية فاصلة بين اثنين..."،[٢٠] وفضل ممارسة التجارة التي كانت ترد عليه من بلاد السودان.

كما أن بعض العلماء التواتيين مارسوا التجارة انطلاقًا من الحاجة لتأمين مكاسب ونفقات الزوايا ومدارس العلم التي قاموا بإنشائها، ونذكر منهم في هذا الصدد: الشيخ سيدي علي بن حنيني(ت ١١١٥هـ/١٧٠٣م) صاحب الزاوية المشهورة بزاقلوا، الذي كان يملك قافلة وصل تعدادها تسعمائة جمل تتاجر في بلاد السودان،[٢١] وكانت أرباحها تنفق على طلبة الزاوية وعابري السبيل في توات وغيرها، وكان تأثير التجار الفقهاء كبيرًا؛ فهم سفراء لتوات في أفريقيا، وبفضل معاملتهم وطريقتهم المشبعة بالروح الإسلامية حازوا إعجاب وثقة الإنسان الإفريقي فراح هذا الأخير يقلدهم في سلوكهم المستمد من تعاليم الإسلام الحنيف، مما كان له دور في انتشار الإسلام، والطرق الصوفية، كما أسهموا في انتقال الكثير من العادات والتقاليد بين القطرين.

## ركب الحجيج

كانت توات إحدى المحطات الرئيسية لحجيج بلاد السودان الغربي، وشكل الحج فرصة سنوية مناسبة للكثير من الأفارقة لزيارة المنطقة والالتقاء بالعلماء والطلبة، وتسجل الكثير من المصادر التاريخية رحلات الحجيج التي قام بها الأفارقة عبر توات، ومنها تلك الرحلة الشهيرة للملك كنكن موسى الذي مر بها في طريقه إلى الحج سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، وأوردت معها كثيرًا من الأخبار والأساطير عن تلك الرحلة وما جرى خلالها من أحداث؛ من ذلك ما ذكره محمود كعت من أن زوجته (أنَارِ كُنْتِ) تمنت البحر بالقرب من توات فعمل لها حفرة كبيرة وأفرغ مياه القرب فيها لتستحم، وكان يبني في كل موضعًا ينزل فيه مسجدًا،[٢٢] وبغض النظر عن مدى صدق هذه الروايات من عدمه، إلا أنه من دون شك، كان لرحلة أول ملوك السودان إلى الحج أثر كبير في توطيد العلاقة بين توات والسودان الغربي.

كما ضمت قوافل الحجيج كثيرًا من العلماء والفقهاء الأفارقة ممن كانت لهم إسهامات وآثار بالمنطقة من دون شك، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الفقيهين الشيخ أحمد بن عبد العزيز القوراري،[٢٣] والشيخ محمد أبن الشيخ أحمد بابا التمبكتي، اللذان حجا رفقة الباشا علي بن عبد القادر (ت١٠٤٢هـ/١٦٣٢م)[٢٤] بعدما أراد الحج سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م، وكان معه ثمانين رجلاً، وفي توات لحق به القائد الفلالي بن عيسى الرحماني البربوشي وأصحابه، وأرادوا قتله، لكنه استنجد بالفقيهين المذكورين فتركوه لحرمتهما

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ومكانتهما، بعد أن منعوه الحج وقتلوا عددًا كبير من أصحابه، أما الفقهان فقد واصلا طريقهما إلى الحج.[٢٥]

ومن العلماء الذين زاروا توات في مواسم الحج: الشيخ الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي (ت.١١٤٦هـ/١٧٣٣م)، حج عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م رفقة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي،[٢٦] كما حج سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م[٢٧] الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي (ت.١١٩٩هـ/١٧٨٥م)، أتى معه من الحج بخزانة نفيسة من الكتب،[٢٨] ومن دون شك نَسَخَ أو أَسْتُنْسِخَ البعض منها في توات، وممن حج من الفقهاء الشيخ الحاج البشير بن أبي بكر بن الطالب محمد البرتلي (ت.١٢١٤هـ/١٧٩٩م)، حج سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م وله رحلة حول ذلك؛ يذكر فيها مراحل الطريق من توات إلى الحج.[٢٩]

وكان للحجاج الأفارقة أماكن محددة يأتون إليها داخل توات في أوقات معلومة من السنة، وهناك يلتقون بالطلبة والعلماء من الإقليم الذين يبقون في انتظارهم، وعندها يتم التبادل العلمي والإجازات والمخطوطات، وأهم مراكز الالتقاء: زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني بزاقلو، زاوية كنته، زاوية الركب النبوي بأقبلي بمنطقة تيدكلت،[٣٠] وتسابيت، وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت،[٣١] لمن اختاروا الحج عبر الطريق الشمالي.

## تنقل السكان

كان لتنقل السكان الدائم بين توات والسودان الغربي أثر بارز ودور كبير في نسج العلاقة العلمية بينهما، وبحكم الطبيعة الصحراوية للمنطقتين كان التنقل السمة الغالبة لدى كثير من السكان، وتذكر المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة لهذا التنقل: منها ما ذكره ابن بطوطة أثناء خروجه من بلاد السودان عائدًا إلى المغرب أنه خرج بصحبة أناس كثيرون من بينهم جعفر التواتي، ويصفه؛ أنه من الفضلاء،[٣٢] وفي الجهة المعاكسة يذكر السعدي في "تاريخ السودان": أنه تخلف بتوات عدد كبير من أصحاب السلطان كنكن موسى أثناء رحلته إلى الحج لوجع أصابهم في أرجلهم، واستوطنوا هناك[٣٣]، كما كانت تمبكتو وكثيرا من المدن الإفريقية الأخرى غاصةً بالتواتيين،[٣٤] وفي هذا المقام يذكر السعدي في "تاريخ السودان"، وابن بابير الأرواني في"السعادة الأبدية"، أنه كان في تمبكتو وحدها مقبرة ضمت خمسين تواتيًا كلهم من الفقهاء والعباد،[٣٥] ولم يقتصر التوافد البشري على الأفراد، بل شمل قبائل بأكملها توزعت بين المنطقتين حتى ليجد الدارسون والباحثون صعوبتا في تحديد الانتماء الجغرافي لها، هل هي من توات أم من السودان الغربي، وتعد كل من قبيلة (كنته) وقبيلة (فولان) مثال للتمازج بين المنطقتين.

## الطرق الصوفية

لعبت الطرق الصوفية دورًا كبيرًا في دعم العلاقة بين توات وأفريقيا وشكلت رباطًا روحيًا جمع المنطقتين على مر الزمن، وكانت توات بمثابة البوابة التي مرت منها هذه الطرق لأفريقيا وفي مقدمتها الطريقة القادرية، حيث عمل كل من المغيلي والشيخ أحمد البكاي على نشرها في أفريقيا، ثم جاء من بعدهما الشيخ عمر الشيخ الكنتي وواصل رسالة والده وشيخه. ولم يساهم التواتيون في نشر الطرق الصوفية في أفريقيا فحسب، بل أدلوا بدلوهم في تأسيس البعض منها: كالطريقة الرقانية التي أسسها الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني (ت.١٢٠٧هـ/١٧٩٣م)، وكان لها انتشار واسع في إفريقيا خاصة في (ولاته) وضواحيها، والفضل في ذلك يعود للشيخ مولاي زيدان التواتي (ت.١٢٠٢هـ/١٧٨٨م)، وكان لها أتباع كثيرون هناك منهم: محمد بن عبد الله البرتلي،[٣٦] أما الطريقة الحمالية،[٣٧] التي أسسها الشيخ حمى الله وحملت اسمه ودعت لتجديد الطريقة التجانية وإصلاحها، وكان لها انتشار واسع في حوض السنغال وعدة مناطق أفريقية، فقد قامت في الحقيقة بناء على تعاليم شيخ من توات؛ يسمى سيدي محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بالشريف مولاي الأخضر وكان يدرس التيجانية في السودان الغربي،[٣٨] هذه بعض الأمثلة عن وسائل الاتصال وطرق انتقال العلماء بين توات وأفريقيا.

## تنقل علماء توات لأفريقيا خلال القرن ١٢هـ/١٨م

تنقل الكثير من العلماء التواتيين خلال القرن الثاني عشر الهجري، إلى أفريقيا لطلب العلم أو بغيت التدريس هناك، وقلما تجد عالما في توات لم يقوم بزيارة لبلاد السودان خاصة للمراكز الحضارية التي تعدت شهرتها الأفاق: كتمبكتو، أروان، شنقيط، ولاته.. وغيرها، لما اشتهرت به من رخاء اقتصادي ومكانة علمية، وكان لهذا التنقل دور كبير في تطور وازدهار الحياة العلمية بتوات، كما ساهم في إمداد هذه المناطق بمختلف العلوم والمنتجات الفكرية للتواتيين.

ومن الأمثلة على ذلك: الشيخين عمر بن محمد بن المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي (ت. ١١٥٧هـ/١٧٤٤م)، الذي كان كثير التردد على بلاد التكرور لوجود عشيرته هناك. وأبي زيد عبد الرحمان بن عمر التنيلاني (ت.١١٨٩هـ/١٧٧٥م) الذي زارها مرتين؛ كانت الأولى مع الشيخ عمر بن محمد الكنتي وأغلب الظن أنها كانت في منتصف القرن الثاني عشر[٣٩] دامت شهرًا كاملاً وقد وصف لنا أجزاء منها في فهرسته.[٤٠] حيث يذكر أنه زار خلالها عدة مناطق مثل تاودني التي أقام بها مدة عند عشيرة الكنتي مرض خلالها بسبب صعوبة هوائها حسب قوله،[٤١] ليقرر بعدها مغادرتها للتوجه لقرية لمبروك،[٤٢] لكن رفيقه الكنتي ألح عليه للبقاء بجانبه في تاودني، فأجابه مكرها، ثم تنقل بعدها لمدينة أروان أين بقى هناك في حسن عيش ومذاكرة وقراءة حسب قوله والتقى خلالها بالشيخ أبو العباس احمد بن صالح السوقي التكروري،[٤٣] الذي قال عنه أنه كان عالمًا ملازمًا للتدريس أغالب أوقاته لكثرة طلبته، لكن رغم ذلك فرح به وخصص له بعضا من وقته عند القائلة، فقرأ عليه "الخزرجية" في علم العروض.

دورية إلكترونية مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ويصف لنا التنيلاني طريقته في التدريس حيث يقول: أنه كان يستمر في تعليم الطلبة طول النهار لا يعود لمنزله إلا بعد العشاء بساعات، وكان يدرس بأربع لغات وهي: العربية، الدارجة، لغة الطوارق، واللغة التكرورية، كما كان حليمًا صبورًا على جفوة أهل البادية وقلة أدبهم معه لأنهم أكثر طلبته، فبعضهم يجلس متكأ على شقه والأخر ماداً لرجليه وذاك متكأً على جدار، لكن رغم ذلك كان يداعبهم ويضحك معهم ويأتيه العوام منهم فيقطع التدريس ويخرج إليهم ويقضي حوائجهم، ويضرب لنا التنيلاني مثالاً على حسن خلقه ولباقته في التدريس؛ من أنه كان يومًا في مجلسه فمر صبي يمسك قردًا . ولم يكن التنيلاني رآه من قبل . فأثار انتباهه فلما رآه الشيخ السوقي طلب من الصبي صاحب القرد المجيء وقطع الدرس وتركه يشبع فضوله من رؤيت القرد، وهنا يقول التنيلاني أنه خجل من تصرفه هذا، ومن أروان توجه الأخير لقرية لمبروك لكنه ما لبث فيها إلا قليلاً ليعود بعدها لمدينة أروان ثانيةً التي يبدوا أنها أعجبته، ليعود منها إلى توات بعد ما ترك صديقه وشيخه الكنتي هناك.

أما رحلته الثانية، فقد جاءت بعد الأولى بسنوات ولم يحدد تاريخها ولا مع من تمت، غير ذكره أنه زار أثناها مدينة اروان التقى بها ثانية بشيخه أبو العباس سيدي احمد بن صالح السوقي التكروري الذي استقبله أحسن استقبال وضيفه بكبش، أكمل خلالها عليه دراسة "الخزرجية" وقرأ عليه "ألفية العراقي" في علوم الحديث حتى بلغ النصف تقريبا، لينتقل بعدها إلى تمبكتو التي بقى بها نيفا وعشرون يوما،[٤٤] ثم عاد لأروان وقبل مغادرتها إستجاز الشيخ أبو العباس السوقي فأجازه.

أما رفيقه الكنتي الذي صاحبه في الرحلة الأولى وكان دائم التردد على بلاد التكرور، فإلى جانب الطابع العائلي لتلك الزيارات التي كان يقوم بها لبلاد التكرور كان يقوم بأنشطة تعليمية، لا تختلف كثير عن دور الوسيط بين علماء توات وعلماء تلك الجهة، وهو من كان يرغب العلماء في توات لزيارة تلك المناطق، وفي هذا الصدد يذكر التنيلاني: أنه هو من قدمه للشيخ أحمد بن صالح السوقي، كما أن المدة التي قضاها معه في أروان أغلبها مضت في النقاش والمذاكرة.[٤٥]

ومن علماء القرن الثاني عشر الهجري، الذين تنقلوا إلى بلاد التكرور وكان لهم دور علمي هناك: الشيخ أبي الأنوار بن عبد الكريم التنيلاني (ت. ١١٦٨هـ/١٧٥٥م)، الذي كان تاجراً للتمور، وأثناء تواجده بأرض الأزواد اشتغل بالتدريس إلى جانب تسيير أموره التجارية، وإليه يعود الفضل في تأسيس حاضرة لمبروك الموجودة شمال مالي وهذا رفقة شيوخ كنته بالأزواد: كالشيخ الحاج أحمد بن أبي بكر والشيخ المحجوبي وذلك سنة ١١٢٥هـ/١٧١٣م.[٤٦] ونفس الدور قام به ابن بنته وخليفته على الزاوية التي أسسها الشيخ مولاي هيبة بن مولاي محمد(ت ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م)[٤٧] الذي انتقل إلى بلاد التكرور، وزار منطقة والن وأسس بها مسجدًا وقصبة كان يقصدها التجار وعابري السبيل من كل مكان بوصفها منطقة التقاء تجاري بين الأزواد وتوات، كما زار اكدز وتيكدة، وقبل عودته لتوات اشترى كتب ومخطوطات عديدة لإثراء مكتبته بالزاوية الأم في تيديكلت.

أما مولاي زيدان بن محمد بن مولاي أحمد بن سيدي حم (ت. ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م) فقد زار بلاد التكرور أربع مرات حسب البرتلي وكان رسول الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني لتلك المناطق وعمل على نشر طريقته هناك، ومن الأماكن التي كان ينزل بها ولاته؛ أين كان الناس يأتونه في الصباح والمساء للتبرك به والاستفادة منه ويقول عنه البرتلي: أنه أثر في الناس أيما تأثير وأعطي قدرة في الكلام فلا يناظره أحد إلا أفحمه وقد قصده في سبعين حاجة بين الدنيا والآخرة قضى الله له جميع حوائج الدنيا وهو يرجوه قضاء حوائج الآخرة.[٤٨]

ومن التواتيين في ولاته الطالب سيدي أحمد التواتي بن محمد بن عمر من بني علي بن عبد الله (ت١١٣٨هـ/١٧٢٦م)، يقول عنه البرتلي: أنه كان أحد الأولياء العارفين مداومًا على الأوراد مشتغلاً بالتصوف له خزانة مليئة بكتبه وغيرها توفي عام ١١٣٨هـ/١٧٢٦م وقيل عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م.[٤٩] كما تنقل الشيخ اللغوي محمد بن اب المزمري(ت. ١١٦٠هـ/١٧٤٧م) إلى بلاد السودان، وزار تمبكتو وأروان ودرس في الأخيرة علم العروض والقوافي ومن تلامذته هناك الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن صالح السوقي الأرواني،[٥٠] ولابن اب قصيدة[٥١] قالها عن أروان التي زارها ولم يلقى هناك الترحيب اللازم ولا الاهتمام عكس التجار وأصحاب المال مع صدود الناس عن العلماء وإقبالهم على التجار، والقصيدة تعطينا صورة واضحة عن ازدهار التجارة في المدينة وفي ربوع السودان وخاصة تجارة الذهب.[٥٢]

ومن العلماء الذين انتقلوا إلى أفريقيا الشيخ علي بن أحمد بن علي بن أحمد الرقادي (ت. ١١٩٤هـ/١٧٨٠م)، والذي قال عنه البرتلي: أنه كان من الصالحين وأهل العلم صاحب نفع وبركه كثير التنقل بين زاوية أجداده في توات وبلاد السودان ولقد تأثر به عدد كبير من التكروريين.[٥٣] كما تنقل لبلاد التكرور الشيخ محمد بالعالم الزجلاوي (ت. ١٢١٢هـ /١٧٩٨م) ومارس التدريس والإفتاء هناك، والشيخين محمد بن لمبروك البداوي (ت. ١١٩٨هـ/١٧٨٤م) والشيخ الإداوعلي (ت. قبل١١٩٨هـ/١٧٨٤م) اللذان تنقلا أيضًا لتمبكتو، وهناك توفي الإداو علي وصلى عليه رفيقه البداوي.[٥٤] ولم يكتف التواتيون في السودان الغربي خلال تلك الفترة بالتدريس وحده بل ساهموا في بناء المراكز العلمية والمساجد، ففي عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م بنا التواتيون مسجد في تمبكتو ظل يعرف باسمهم[٥٥] من أئمته الفقيه محمود بن محمود الزغوي التنبكتي،[٥٦] كما كانت للكنتيين مدارس وزوايا: كزاوية أبناء المصطفى وزاوية لمخاتير بازواد مالي، زاوية أهل سيدي علواته بمدينة تمبكتو، زاوية آل بابا حمد بن عابدين بواقادوقو ببوركينافاسو...وغيرها.[٥٧]


ISSN: 2090 – 0449

أما من الجهة المقابلة، فقد قدم أيضًا الكثير من العلماء والطلبة الأفارقة للدراسة بتوات, وكانت زوايا تنيلان وزاوية كنته وتمنطيط...إلخ تعج بهم. ومن الأمثلة على ذلك: الشيخ عبد الله الفلاني الذي قدم إلى تنيلان من بلاد التكرور في رحلة لطلب العلم ودرس على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التواتي التنلاني، ومكث عنده شهرين وست ليالي، وقام بتدوين تلك الرحلة التي يصور لنا من خلالها كيفية قدومه لتوات وبعضًا من الأحوال الاقتصادية بها، كما يتحدث عن إجازة الشيخ عبد الرحمان بن عمر له،[٥٨] ومن الذين قدموا لتوات من أفريقيا واستقروا بها الشيخ سيدي محمد الإداوعلي (ت. قبل ١١٩٨هـ/١٧٨٤م) نسبة لقبيلة (إدوعل) كبرى قبائل شنقيط، ولد في شنقيط ودرس بها، ثم خرج منها على رأس وفد من الحجيج من مختلف المناطق الإفريقية يريد البقاع المقدسة، ولما وصل إلى منطقة عين صالح بتوات توقف عن المسير وترك القافلة وعاد لزاوية الركب النبوي بأقبلي،[٥٩] وهناك استقبله شيخها أبي نعامة وطلب منه البقاء معه لكن الإداوعلي فضل الانتقال لتوات وبالضبط لتمنطيط عند الشيخ البكري بن عبد الكريم الذي استقبله وبقي عنده دارسًا ومدرسًا فذاع صيته في توات وطلبه أعيان عدد من القصور فاختار قصر أعباني بفنوغيل استقر هناك وأسس زاوية ومدرسة, لكن شده الحنين في آخر عمره لأفريقيا ثانيةً فغادر توات في آخر أيام عمره إلى تمبكتو وتزوج هناك لتوافيه المنية بها أواخر القرن ١٢هـ قبل سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م بعدما ترك أبناءه بتوات في قصر أعباني بمقاطعة فنوغيل, ولم يكن وحده من العائلة الذي تنقل إلى تمبكتو بل ابنه إبراهيم ويحتفظ ديوان الشاعر الإداوعلي بقصيدة شعرية أرسلها لولده في بلاد التكرور بعدما تركه ضريرًا في توات, وبعد وصول القصيدة عاد أبنه لتوات وتوفي بها وقبره يزار في قصر أعباني.

ولشدة تعلق الأفارقة بتوات وكثرة ترددهم عليها انتسب البعض منهم إليها حتى صاروا لا يعرفون إلا (بالتواتي) مثل: الحاج احمد بن الحاج الأمين[٦٠] الغلاوي الملقب بالتواتي كان من كبار العلماء والصالحين حج مرات عديد إلى بيت الله الحرام, وكان شيخ الركب من السودان إلى توات ليخلفه أبي نعامة من توات إلى الحج, عرف بكرمه وزهده وهمته, من مؤلفاته: كتاب سماه "كشف الغمة في نفع الأمة" توفي عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م بفزان في ليبيا أثناء عودته من الحج.[٦١]

## تأثر الأفارقة بتوات وعلمائها

تأثر الأفارقة بعلماء وعلوم التواتيين وانكبوا على كثير من مؤلفاتهم ينسخونها ويدرسونها وحتى شارحين لها أحيانًا, كما كانت توات دومًا حاضرة في مؤلفاتهم قبل وأثناء وبعد القرن الثاني عشر الهجري, واقترن دائمًا وصفها ببلاد العلم والأمان والطمأنينة فقلما تجد كتابًا أو مؤلفًا في الأغراض المختلفة لا يأتي على ذكرها ومن الأمثلة على ذلك: كتاب "المعين المبارك على منظومة ابن أب المزمري للمقدمة الأجرمية"[٦٢] للشيخ المختار بن الطالب عبد الله الشنقيطي الولاتي وهو شرح على مؤلف بن أب المذكور.

ومن بين العلماء الأفارقة الذين تأثروا كثيرا بعلماء توات خلال القرن ١٢هـ/١٨م أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت.١٢٠٢هـ) صاحب المؤلف المشهور"فتح الشكور في معرفة علماء التكرور" والذي أخذ ورد الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني ( ت. ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م)،[٦٣] وكان تلميذه عن طريق الشيخ مولاي زيدان التواتي (ت. ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م) الذي كان الوسيط بين الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني وإتباعه في أفريقيا, ولم تذكر المصادر أن كان البرتلي تنقل إلى توات للأخذ عن شيخه مولاي عبد المالك أم لا, بالرغم من وصفه الدقيق للزاوية برقان, كما بلغ من شدة احترامه وتأثره به تخصيص موضعًا وترجمة له وللشيخ مولاي زيدان في كتابه السالف الذكر رغم أنهما ليسا من بلاد التكرور،[٦٤] أما الشيخ الفقيه الطالب الأمين بن الطالب الحرشي (ت. ١١٦٦هـ/١٧٥٣م) فقد أخذ حكم ابن عطاء الله في التصوف "الحكم العطائية" على يد الشيخ أحمد بن عمر التواتي (ت. ١١٣٨هـ/١٧٢٥م)، وأخذ عنه الورد والطريقة في التصوف،[٦٥] كما أخذ الشيخ الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد نض البرتلي الولاتي (ت. ١١٦٥هـ/١٧٥٢م) الورد الغازي الناصري, ومبادئ التصوف على يد الشيخ احمد بن محمد عمر بن علي بن عبد الله التسابيتي[٦٦] التواتي،[٦٧] وكذلك الشيخ حمى الله مؤسس الطريقة الصوفية الحمالية أخذ تعاليم الطريقة على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بالشريف مولاي الأخضر الذي كان يدرس التيجانية في السودان الغربي.[٦٨]

أما من حيث التأليف، فقد حازت توات على اهتمام الأفارقة وراحوا يكتبون حولها مبدين إعجابهم واحترامهم لها, ومن الأمثلة على ذلك: ما كتبه الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي الذي عرف بحبه للنبي وقام بالحج عام ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م, وبعد عودته كتب رحلة يذكر فيها مراحل طريق الحج من بلاد توات إلى مكة،[٦٩] أما الشيخ محمد بلان بن ختار فله مؤلف بعنوان "رسالة بأخبار تودن وأخبار تحركات الغزوات بين هقار وتوات وتندوف وما جرى ذلك"،[٧٠] ويضم أخبار لبعض الوقائع بين توات والسودان الغربي كهجمات اللصوص وقطاع الطرق وغيرها.

## خاتمة

تناولت الصفحات السابقة  جزء يسير مما أسهم به علماء توات في نهضة وتطور السودان الغربي خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وهو من دون شك إضافة لما بدأه الكثير من العلماء التواتيين منذ أزمنة غابرة، وهو مستمر إلى اليوم في عطاء وتبادل حضاري قل نظيره، وهو بحاجة للمؤرخين والباحثين للكشف عنه وإبرازه.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

## الهوامش:

(١) يشمل حاليا ولاية ادرار (محافظة) في الجنوب الغربي للجزائر بجميع دوائرها باستثناء دائرة برج باجي المختار، بالإضافة إلى دائرة عين صالح وإينغر، التابعتين لولاية تمنراست.

(٢) عبد الرحمان بن عبد الله السعدي: **تاريخ السودان**, طبعة هوداس, باريس, ١٩٨١م, ص٠٧.

(٣) **منسا موسى أبي بكر**, تولى مقاليد مملكة مالي سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م, عُرفت المملكة في عهده درجة عالية من التوسع والازدهار والتقدم, قام برحلته الشهيرة إلى الحج عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م, توفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. للمزيد ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله السعدي: **تاريخ السودان**, طبع هوداس, باريس, ١٩٨١م, ص٧ وما بعدها. محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**, نشر هوداس, باريس, ١٩٦٤, ص ٣٢ وما بعدها. تذكر بعض المصادر أنه توفي سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٥م أنظر:
Robert cornevin: **Histoire de l'Afrique**, Paris, 1962.P.352.

(٤) أبو عبد الله الأنصاري: **فهرست الرصاع**, تحقيق محمد العنابي, المكتبة العتيقة, تونس, بدون تاريخ, ص ١٢٧.

(٥) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام**: مخطوط, خزانة كوسام, أدرار, الجزائر, ص٨, ٩.

(٦) مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: **نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات**, مخطوط, خزانة كوسام, ادرار, الجزائر, ص١٢.

(٧) Mandeville G: **L' Algérie méridionale et le Touat**, paris, 1898, p8.

(٨) Reclus Élisée: **Nouvelle Géographie universelle**, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris, 1886, P. 845.

(٩) الأطلس العالمي: **المعهد التربوي الوطني والديوان الوطني للمطبوعات المدرسية**, الجزائر, بدون تاريخ, ص١٨, ١٩.

(١٠) عليق ربحة نابت: **قصر ملوكة دراسة تاريخية وأثرية**, رسالة ماجستير, قسم الآثار, كلية العلوم الإنسانية, جامعة الجزائر ٢٠٠١ - ٢٠٠٢, ص ١٥.

(١١) Bernard Saffroy: **chronique du Touat**, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. p ٥١.

(١٢) مبارك جعفري: **العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن ١٢ هـ** دار السبيل للنشر والتوزيع, بن عكنون الجزائر, ٢٠٠٩, ص ٧٥.

(١٣) الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم: **مسالك الممالك**, مطبعة بريل, ليدن, ١٩٢٧م, ص ٤٠.

(١٤) الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): **وصف إفريقيا**, ترجمة محمد حاجي, ومحمد الأخضر, جزآن, ط٢, دار الغرب الإسلامي, بيروت, لبنان, ١٩٨٣.ج٢/ص ١٣٣.

(١٥) Robert cornevin: Op. Cit, 1962, P.357.

(١٦) نياني ج. ت وآخرون: **تاريخ إفريقيا العام**, المجلد الرابع (إفريقيا من ق ١٢ إلى ق ١٦) اليونسكو, المطبعة الكاثوليكية, بيروت, ١٩٨٨, ص ٦٧١.

(١٧) حسن الوزان, المصدر السابق, ج٢/ ص ١٦٧.

(١٨) مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: المخطوط السابق, ص ٣٤.

(١٩) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني**, مخطوط، خزانة كوسام, ادرار, الجزائر. ص ٥٠.

(٢٠) نفسه, ص ٥١.

(٢١) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **درة الأقلام**, المخطوط السابق, ص ٤٩.

(٢٢) محمود كعت : المصدر السابق, ص ٣٤ وما بعدها.

(٢٣) نسبة إلى منطقة ( تيميمون)

(٢٤) **الباشا علي بن عبد القادر**: تولى الحكم في تمبكتو بعد الباشا إبراهيم الجرّاريّ سنة ١٠٣٨ هـ إلى غاية سنة ١٠٤٢هـ، تميز عهده بكثرة الاضطرابات والنزاعات, مات مقتولاً سنة ١٠٤٢هـ ودفن بمقبرة أبي القاسم التواتي في تمبكت. للمزيد انظر ترجمته: عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان**, المصدر السابق, ص ٢٢٨ وما بعدها, مجهول, **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**, نشر هوداس, باريس, ١٨٩٩م, ص ٣٤.

(٢٥) أنظر: السعدي, المصدر السابق, ص ٣٣٣.

(٢٦) البرتلي الولاتي (أبي عبد الله): **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**, تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي, دار الغرب الإسلامي, بيروت, ١٩٨١م, ص ٧٦.

(٢٧) في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م توفي شيخ ركب الحجيج من بلاد السودان إلى توات الشيخ الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي الغلاوي, أثناء عودته من الحج, ودفن بفزان بليبيا, وتوفي معه في نفس الرحلة والمكان عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي التواتي, وكان بصحبته. أنظر: عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: **تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني**( فهرست التنلاني), مخطوط، خزانة تنلان, ادرار, الجزائر, ص ٣٧. وأضاف هذا الأخير تحديد للمكان بالضبط وهو قرية (زلة) بفزان, مما يوحي أن قافلة الحجيج في تلك السنة قد تعرضت, لمكروه ما, لم تذكره المصادر, أو ربما كان تزامن وفات الشيخين محض صدفة.

(٢٨) البرتلي, المصدر السابق, ص ٧٨.

(٢٩) نفسه, ص ٨٣.

(٣٠) عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق, ص ٥٤.

(٣١) وقد سلكه الرحالة أبي سالم العياشي سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: **الرحلة العياشية ١٦٦١م . ١٦٦٣م**, تحقيق د سعيد الفاضلي ود سليمان القرشي, جزآن, ط١, دار السويدي للنشر والتوزيع, الإمارات العربية المتحدة, ٢٠٠٦, ج١, ص ٧٩ وما بعدها.

(٣٢) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار**, ط١, دار صادر, بيروت, لبنان, ٢٠٠١م, ص٤٠٧.

(٣٣) السعدي, **تاريخ السودان**, المصدر السابق, ص٠٧.

(٣٤) نياني وآخرون, المرجع السابق, ص ١٩٤.

(٣٥) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق, ص ٦٠. أحمد ابن بابير الأرواني, **السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو الهية**, مخطوط، المكتبة الزيدانية, نيامي, النيجر, ص ٨٦.

(٣٦) البرتلي: المصدر السابق, ص ٩٧.

(٣٧) **الطريقة الحمالية**: فرع من فروع الطريقة التجانية تنسب للشيخ حمى الله (١٨٣٣م . ١٩٤٣م) الذي أراد العودة بالطريقة إلى قواعدها التي أرساها المؤسس أحمد التيجاني, انتشرت على طول نهر السنغال ووصلت إلى النيجر وموريتانيا. للمزيد أنظر عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : **الطرق الصوفية في أفريقيا ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا**, ندوة الإسلام والمسلمون في أفريقيا: تنظيم جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالتعاون مع معهد الدراسات الإفريقية التابع لجامعة القاهرة والجمعية المصرية الأفريقية للعلوم السياسية, المنعقدة بتاريخ ١٨ - ١٩يوليو ١٩٩٨م, طرابلس, ليبيا, ص ٠١ وما بعدها.

(٣٨) نفسه, ص ١١.

(٣٩) لأنه ذكر أن شيخه الكنتي بعد عودته ذهب إلى الحج, وتوفي في طريق عودته سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م.

(٤٠) عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق, ص ٣٦ وما بعدها.

(٤١) نفسه, ص ٣٧.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٤٢) أروان , تاودني , المبروك مدن تقع شمال مالي حاليًا.
(٤٣) نفسه, ص٤٣.
(٤٤) نفسه , ص ٤٤.
(٤٥) نفسه, ص ٣٧.
(٤٦) محمد الصالح حوتيه: **توات والأزواد**, جزآن, دار الكتاب العربي, الجزائر, ٢٠٠٧م, ص ٢٣٨,
(٤٧) نفسه, ج١, ص ص٢٤٠, ٢٤١.
(٤٨) البرتلي, المصدر السابق, ص ١٠٠.
(٤٩) نفسه, ص ٤٣.
(٥٠) عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق, ص ٤٧.
(٥١) يقول في القصيدة:

| | | |
|---|---|---|
| وقائلة لي يا بن ابّ محمد | ** | أرى الناس طُرّاً هاهنا فيك زُهَّدا |
| وبعضُ يكاد إن ذهبت لتبتغي | ** | مصافحة أن لا يمُدّ لك اليدا |
| فو الله لا أدري أذلك منهم | ** | تجاهل أو جهل بقدرك قد بدا |
| فقلت جهلت الأمر لو جئت تاجرا | ** | أسوق حمالة وأبرز عسجدا |

(٥٢) أحمد بالصافي جعفري: **محمد بن ابّ المزمري ١١٦٠هـ حياته وأثاره**, ط١, دار الكتاب العربي, القبة الجزائر, ٢٠٠٤, ص٦٦, ٦٧.
(٥٣) البرتلي: المصدر السابق, ص٢٠٠, ٢٠١.
(٥٤) أحمد جعفري: **الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين**, رسالة دكتوراه في الأدب, إشراف الدكتور محمد زمري, جامعة تلمسان, ٢٠٠٦/٢٠٠٧, ص ٣٢١.
(٥٥) أحمد بن بابير الأرواني: المخطوط السبق, ص١٨.
(٥٦) البرتلي, المصدر السابق, ص ١١٠.
(٥٧) عمر باحمد دمه الكنتي: **الزوايا الكنتية أعلامًا وجغرافية**, بدون دار للنشر, النيجر, ٢٠٠٥, ص ٤٤ وما بعدها.
(٥٨) جاءت الرحلة قصيرة في خمس صفحات, توجد منها نسخة بخزانة مولاي سليمان بن علي، ادرار.
(٥٩) أحمد بالصافي جعفري: **رجال في الذاكرة** (الشيخ سيدي محمد الإداو علي ق١٢ حياته وشعره), دار الغرب للنشر والتوزيع, وهران, الجزائر, ٢٠٠٨, ص ١٣ وما بعدها.
(٦٠) الأرجح أنه من علماء بلاد التكرور, انتسب إلى توات لكثرة تردده عليها وصار لا يعرف إلا بالتواتي.
(٦١) البرتلي: المصدر السابق ص٤٨ وما بعدها.
(٦٢) توجد نسختين من المؤلف في مركز أحمد بابا للتوثيق والمخطوطات بتمبكتو, تحت رقمي: ( ٥٣٨٩, ٤١٩٢).
(٦٣) البرتلي: المصدر السابق, ص ٢١.
(٦٤) نفسه, ص ٢٠١ وما بعدها.
(٦٥) نفسه, ص ٦٦.
(٦٦) نسبة إلى تسابيت.
(٦٧) البرتلي: المصدر السابق, ص ١٢٧.
(٦٨) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق, ص ١١.
(٦٩) البرتلي: المصدر السابق, ص٨٣.
(٧٠) المخطوط بمركز أحمد بابا للتوثيق, تحت رقم ٤٤١٩.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية    ISSN: 2090 – 0449

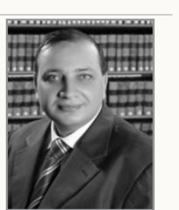



المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام

# الزراعة في بلاد الشام منذ أواخر العهد البيزنطي إلى نهاية العهد العثماني

## عمان – الأردن

## ١ – ٥ أبريل ٢٠١٢



**أ.د. خالد عزب**

مدير إدارة الإعلام

مكتبة الإسكندرية

الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

خالد عزب، تقرير عن مؤتمر: الزراعة في بلاد الشام منذ أواخر العهد البيزنطي إلى نهاية العهد العثماني ١٩٢٠.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٩٧ - ٩٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

### نبذة

تحت عنوان "الزراعة في بلاد الشام منذ أواخر العهد البيزنطي إلى نهاية العهد العثماني ١٩٢٠"، انعقد المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، من (١- ٥ نيسان ٢٠١٢) في رحاب الجامعة الأردنية وبالتعاون مع جامعتي اليرموك ودمشق، عرض فيه الباحثون (٨٨ بحثًا) في قاعتين للمؤتمرات بالجامعة الأردنية صباحًا، وفي قاعة المحاضرات بفندق "الميرديان" في عمان مساءً، وجرت مناقشتها بروح علمية جادة، على أن تُنشر بعد تقييمها في كتاب يصدر في عدة أجزاء عن "لجنة تاريخ بلاد الشام" التي يرأسها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت.

### موضوع المؤتمر

ناقش المشاركون في المؤتمر مصادر الأمطار والمحاصيل الشتوية والصيفية ووحدات الكيل والأوزان والمقاييس والأشجار المثمرة والضرائب، كما تناولوا الثروة الحيوانية والأوبئة والجوانح والكوارث الطبيعية وتربية الحيوانات والتقنيات الزراعية في بلاد الشام وتطورها بالإضافة إلى القوى البشرية العاملة في الزراعة. بالإضافة إلى مناقشة مصادر مطبوعة للنشاط الزراعي في بلاد الشام، ومصادر الأمطار، والمحاصيل الصيفية والشتوية، والكيل والموازين، والكوارث الطبيعية، وتربية الحيوانات، إلى جانب بحث ومناقشة مواضيع تتعلق بالتقنيات الزراعية والقوى العاملة في القطاع الزراعي خلال الفترة الممتدة من أواخر العهد البيزنطي حتى أواخر العهد العثماني.

### أبحاث المؤتمر

كان موضوع هذا العام عن الزراعة والري في بلاد الشام عبر العصور، هذا المؤتمر الذي تشكل سلسلة أبحاثه عبر دوراته المتعاقبة مرجعًا لا غنى عنه للباحثين في تاريخ بلاد الشام، ونستطيع أن نتوقف عند عدد من الأبحاث الهامة التي قدمت به، ومن أبرزها بحث الدكتور فتحي دراذكة عن **الموارد المائية في جبل عجلون**، حيث يغذي الجبل بالمياه عبر ثلاثة أودية هي وادي راجب، ووادي كفرنجة ووادي اليابس، وهي المنحدرات الطبيعية للجبل وتصب جميعها في نهر الأردن، وتعتبر من الأودية الرئيسة المغذية للنهر، أهم ما في هذه الدراسة هو ما ذكره الباحث عن مجموعة الطواحين التي تدور مع تدفق المياه وهي نماذج أثرية جيدة.

فيما قدمت الدكتورة هند أبو الشعر دراسة عن **صور المناخ والتعامل مع مصادر المياه في دمشق وريفها أواخر العصر المملوكي من خلال يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق** التي سجلها خلال الفترة (١٢٨٢ – ١٤٨٠)، عبر ثلاث مواسم شتوية، وخلصت الباحثة إلى ما يلي:

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

- حرص ابن طوق على متابعة دمشق وبوادرها وتابع باهتمام الأوضاع في ريف دمشق، وقرى الغوطة لأنه كان يزرع في قريته، ويتابع أوضاع الموسم فيها، كما ميز ابن طوق بين أهالي دمشق وريفها وسمى أهالي الريف الفلاحين.
- ميز بين المطر الرذاذ وتابع حالات الرياح والعواصف باهتمام، خوفًا من سقوط ثمار بستانه الذي اعتمده في معاشه، وتربية الدواجن فيه.
- أولى أوضاع الأنهار اهتمامًا خاصًا، فكان يتابع عملية "تعزيلها" وهي العملية التي يسمها أهالي دمشق قطع الأنهار، وتشارك فيها عادة حارات دمشق بدفع مبالغ مالية محددة، ويورد أيضًا أخبار اندفاع الأنهار شتاءًا، ويلاحظ لون الماء ودرجة اندفاعه ودلالات هذه التغيرات على الأنهار والقنوات التي تمر بدمشق.

هذه الظواهر وغيرها أوردها أيضًا المعنيين بالدراسات الجغرافية التاريخية مثل عبد الله الغنيم، ورشاد الشامي، وظهرت في العديد من مطبوعات وأبحاث الجمعية الجغرافية المصرية والجمعية الجغرافية الكويتية.

قدم إحسان الثامري دراسة عن **المعارف والمهارات الزراعية في بلاد الشام من خلال مخطوطة (جامع فرائد الملاحة في جوامع الفلاحة)** لرضي الدين الغزي المتوفى ٩٣٥هـ، وهو كتاب موسوعي يضم مادة زراعية جمة، فضلاً عن كثير من المعلومات الطبية والصحية المتعارف عليها آنذاك، والمهارات الفلاحية في معاملة الأرض والمياه والزرع، والخبرات العملية التي اكتسبها الناس ومارسوها، ولأهمية هذا الكتاب فله مختصران هما: (علم الملاحة في علم الفلاحة) لعبد الغني النابلسي، و(رسالة البيان والصراحة بتلخيص كتاب الملاحة في علم الفلاحة)، لمحمد بن عيسى الصالح الدمشقي.

وضع الغزي كتابه ليكون مرجعًا معولاً عليه في الفلاحة وعمارة الأرض، حيث أعطى معلومات وافية عن التربة والمياه والأشجار والتركيب والتطعيم والتوليد والتحسين وعلاج علل النبات، ودفع الآفات، وحرث الأرض وقلبها وكيفية زرعها وتعميرها بأنواع الأسمدة، وترتيب السقي، وما يسقى بالأمطار، وعلامات الخصب والجدب، وكلها مادة مفيدة للبيئة الدمشقية.

وقد أسهبت حنان ملكاوي في التطرق إلى **الزراعة في بلاد الشام من خلال كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لشيخ الربوة الدمشقي**، وهو يتناول كل ما يتعلق بأنواع مصادر المياه ومختلف الزراعات، لكننا سنتوقف عند الصناعات الغذائية، ومنها طرق صناعة ماء الورد. فقد كانت الورود والزهور تُزرع وتغطي مساحات كبيرة من الأراضي في دمشق وضواحيها، فقد انفرد شيخ الربوة بتفصيل أربع طرق لصناعة ماء الورد فلكونه دمشقي فقد أورد في كتابه صور توضيحية مع شرح مفصل لهذه الطرق.

تطرق كل من نعمان عمرو، وعبد الرحمن المغربي في دراسة رائعة إلى **زيت الزيتون، إنتاجه وتصنيعه في نيابة القدس خلال العهد المملوكي**، فشجرة الزيتون من أقدم الأشجار المثمرة التي عرفتها فلسطين بشكل عام، وتشكل معاصر الزيت الروماني أهم عناصر المواقع الأثرية في فلسطين، ويطلق الأهالي على أشجار الزيتون الضخمة والمعمرة اسم الزيتون الرومي، بسبب اهتمام الرومان بشجرة الزيتون قبل الفتح الإسلامي، وفي العصر الإسلامي خاصةً في العصر المملوكي انتشرت زراعة الزيتون، وعُثر على عدد من معاصر زيت الزيتون من هذا العصر، وقدم الباحثين شرحًا وافيًا لتقنيات عصر الزيتون واستخراج الزيت منه، والصناعات القائمة عليه، و قدما العديد من الوثائق والمراسيم المرتبطة بالزيتون زراعة وصناعة.

لكنني توقفت كثيرًا أمام دراسة محمود يزبك عن **برتقال يافا وأثرة في التغييرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عشر**، يعود انتشار زراعة البرتقال في ريف يافا إلى عثمان أغا وهو قائد فرقة بوسنية شبه عسكرية، حيث تملك قطعة أرض كبيرة وأنشأ نظام ري مكلف جدًا شمل حفر بئر وإنشاء بركة كبيرة لجمع الماء للأشجار، وخلال جمع المحصول استخدم عدد كبير من العمال، وأنشأ شبكة متطورة للتسويق، فصدر منتجاته لمصر وتركيا، وشق برتقال يافا طريقه للأسواق العالمية. وقد استعان الباحث بسجلات محكمة يافا الشرعية، وهو ما أكسب بحثه مصداقية أمدتنا بمعلومات جديدة وافية.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية




## ندوة عامة بعنوان

# دور الأرشيف في كتابة تاريخ الأمم والشعوب

## الدوحة – قطر

## ١ – ٢ مايو ٢٠١٢




**علي عفيفي علي غازي**

صحفي وأكاديمي مصري

باحث – مركز قطر الفني

الدوحة – دولة قطر



**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

علي عفيفي علي غازي، تقرير عن ندوة: دور الأرشيف في كتابة تاريخ الأمم والشعوب.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٩٩ – ١٠٤.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢


### نبذة

عقدت إدارة المكتبات العامة بوزارة الثقافة والفنون والتراث القطرية في إطار الأنشطة الثقافية والعلمية، ندوة عامة في فندق هيلتون الدوحة بعنوان "دور الأرشيف في كتابة تاريخ الأمم والشعوب" يومي الأول والثاني من مايو ٢٠١٢، بمشاركة نخبة من الباحثين والمفكرين العرب.

افتتح الندوة سعادة مبارك بن ناصر آل خليفة الأمين العام بوزارة الثقافة والفنون والتراث القطرية، مشيرًا إلى أن موضوع هذه الندوة من الموضوعات التي يهتم بها العالم أجمع لما للأرشيف من دور بارز في حفظ الوثائق التي تعد ثبتًا قانونيًا، وثبتًا تاريخيًا لحفظ الحقوق وحفظ التاريخ، مشيرًا إلى أن الوثيقة، مع تعدد مصادرها، واختلاف أنواعها، وتباين عصورها، وتفاوت لغاتها عامل فعال في خدمة الحضارة الإنسانية باعتبارها ضميرًا للشعوب وعنوانًا بارزًا في تاريخها، وأنه إذا قدر لهذه الشعوب أن تحفظ هذه الوثائق بأنواعها غدت الذاكرة واعية، وهنا يأتي دور الأرشيف كمستودع للحفظ والتنظيم والإتاحة فيحفظ الوثائق لتظل رسالة تواصل بين أجيال مختلفة وعبرة من الماضي لاستشراف المستقبل.

كما أكد على أن أمة بلا أرشيف هي أمة بلا ذاكرة وأن أمة بلا ذاكرة هي أمة بلا تاريخ، فحفظ التاريخ يعد جزءً لا يتجزأ من الثقافة والمعرفة، والأرشيف هو رافد أساسي لهذه الثقافة وتلك المعرفة. وأشار إلى اهتمام دولة قطر بهذا الجانب اهتمامًا كبيرًا شأنها في ذلك شأن دول العالم التي تسعى للحفاظ على تاريخها وماضيها موثقًا لتقدمه لأجيال الحاضر والمستقبل، داعيًا إلى تكاثف جهود مؤسسات الدولة جميعها للحفاظ على هذا التراث الحضاري، وتجميعه من أماكن إنشائه ودعم أرشيف الدولة به ليكون شاهدًا على عصر الآباء والأجداد و"شاهدًا علينا أمام أجيالنا القادمة، وهذه مسؤوليتنا جميعًا كل في مكانه وموقعه".

### أبحاث الندوة

أدارت الجلسات الإعلامية القطرية **الدكتورة إلهام بدر**، وكان أول المتحدثين **الدكتور عماد أبو غازي** وزير الثقافة المصري سابقًا، وأستاذ التاريخ والوثائق بكلية الآداب جامعة القاهرة، بورقة بحثية عن **"الأرشيف ذاكرة التاريخ"**. فأوضح أن الأرشفة لا تقتصر على عملية جمع الأوراق بين دفتين، بل تشكل كشف تاريخي وفتح تاريخي جديد لمراحل تاريخية قد تكون مرت واندثرت وطواها النسيان، والوثائق ليست مصادر معرفية جديدة فقط، بل هي إعادة قراءة، وإعادة إنتاج الأحداث التاريخية، فالأرشيف رافد أساسي للمعرفة، وحفظ التاريخ ضرورة قومية لاستشراف المستقبل.

وكلمة "أرشيف" تثير كثير من المعاني، فيرى البعض أنه ذلك المكان الذي تحفظ فيه الوثائق التاريخية حفظًا كاملا، بعد أن يكون قد انتهى استخدامها في العمل اليومي الرسمي للدولة، وتسمى هذه المؤسسة باسم الأرشيف القومي. وتطلق كذلك على بعض الأرشيفات الفرعية التي تحتفظ بمواد أرشيفية ذات طبيعة متخصصة مثل الأرشيف القومي للسينما، وللمواد المسموعة والمرئية، وتطلق كذلك على المدونات والسجلات التي تحتفظ بها

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هذه المؤسسات، فوجود مبنى ومؤسسة ومحتويات أرشيفية يعني الأرشيف.

وكل وثيقة ذات صفة رسمية حُفظت لما تحتويه من معلومات ذات قيمة بصورة يسهل معها استرجاعها، فالأرشيف يحفظ وثائق محدودة ذات قيمة، ويتكون من وثائق، وهنا يجب الإشارة إلى أن الوثائق قد اختلف شكلها، وأخذ بُعدًا يختلف حاليًا تمامًا عن الوثائق الورقية، فقد اتجهت المؤسسات الأرشيفية في النصف الثاني من القرن العشرين إلى الاهتمام بالوثائق غير الرسمية، التي تنتج عن المؤسسات الخاصة، ووثائق الأفراد والأشخاص، والأوراق الخاصة، التي تحتوي أحيانًا مواد تاريخية شديدة الأهمية لتاريخ الأمم والشعوب، وهذه الوثائق لكي تكتسب شكل الأرشيف يجب حفظها بشكل منظم، وتتضمن معلومات ذات قيمة.

"الوثيقة" هي كل ما ينتج عن الأفراد من مستندات، ولكنها تصبح وثائق في مجال علم الأرشيف بعد تصنيفها، والتعريف بمحتوياتها، في شكل يتضمن عمل إداري واسع المفهوم ليشمل في القرن الأخير الوثائق الرسمية وغير الرسمية، والإليكترونية، والمرئية والمسموعة، فكلها أوعية ومصادر مهمة لكتابة التاريخ، وهي تلك المصادر التي يُقصد بها أن تكون شواهد تاريخية، وهي أحيانًا تكون ذات قيمة، ويمكن وصفها بكونها مصادر أولية، يُفترض فيها أن تكون غير منحازة، بخلاف الكتب والدوريات، كما أنها غير مقصودة للتأريخ، ولا يعني ذلك أن كل الوثائق ذات أهمية تاريخية، ولكنها حجج تاريخية، تعكس تاريخًا مضى وانتهى، وبقيت هي الشاهد المادي عليه، إن الوثيقة قد تحتوي معلومات يرغب مُصدر الوثيقة نقلها للآخرين، وقد لا تعبر عن واقع الحياة، وهناك في التاريخ الحديث عشرات الأمثلة، بل مئات لعمليات تزوير الوثائق، ويجب الحكم على الوثيقة بشخصية مصدرها، وبالظرف التاريخي الذي أنتجت فيه، ويُفترض أنها أنتجت بشكل تلقائي.

وتعتبر الوثيقة من أهم المصادر الأولية؛ لأنها نتجت مما خلفه الإنسان من خلال ممارسته لحياته الطبيعية اليومية، في المجتمعات الإنسانية والمنظمات التي يمارس من خلالها البشر حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فمن الأمور التي أُجمع عليها، وأصبحت صيغة ثابتة، أن التاريخ لا يمكن أن يكتب إلا بما خلفه الإنسان وراءه من آثار أهمها الوثائق.

ويرتبط ظهور الأرشيفات القومية في العالم بظهور الدولة الحديثة، واتجاهها إلى تأسيس المؤسسات التي تهتم بحفظ أوعية تاريخ الأمة وفهرستها وإتاحتها للباحثين، بمعنى أن الدولة تؤسس الأرشيف لتجمع فيه وثائق تاريخها، لتنمية الوعي القومي لدى شعبها، كالمتحف القومي، والمكتبة القومية، لتسعى لتعريف الأمة بتاريخها من خلال هذه المؤسسات، التي ارتبطت بتاريخها، وتحتفظ بأهم مصادر تاريخها.

وفي المنطقة العربية ارتبط ظهور الأرشيف القومي بالدولة، وظهرت أول نواه مع مشروع محمد علي في مصر بعشرينيات القرن التاسع عشر، وارتبطت النواة الأولى بظهور اللبنة الأولى لمؤسسة الأرشيف القومي، والمكتبة القومية، والمتحف المصري، وبالتالي فإن الدولة القومية بحاجة إلى الوثيقة بصورة أساسية لكتابة تاريخها القومي، ومفهوم الوثيقة سابق بآلاف السنوات، لظهور الأرشيفات، ويرتبط بتحولات إنسانية في المجتمعات البشرية، وهو مرتبط بظهور الكتابة والدولة، كما أن الوثيقة والأرشيف أيضًا ظهرا للتعبير عن السلطة، ومنتجاتها، فالوثيقة الناتجة عن سلطة الدولة أو مؤسسة من مؤسساتها الرسمية أو المدنية، أيًا كان نوع وكيان هذه المؤسسة، هدفت لتنظيم علاقاتها بأفراد المجتمع المختلفة، فالمؤسسة الأرشيفية هي التي تحتفظ بما تراه ذو أهمية للتاريخ القومي للدولة، وللسلطة القائمة بها، وهي التي تُحدد ما ينبغي الاحتفاظ به، وما ينبغي التخلص منه، والوثائق بهذا المعنى مرتبطة بالدولة، وتمثل الذاكرة الخاصة للإنسان، والتي سمحت له بتدوين خبراته وتناقلها عبر المكان والزمان، ومع هذه البدايات المبكرة عرفت الحضارة الإنسانية الوثائق.

في الشرق الأدنى القديم، ظهرت بعض أقدم الحضارات التي عرفتها الإنسانية، وقدمت انجازات حضارية وثقها التاريخ، أهمها إنشاء الدولة، وابتكار الكتابة والأرقام، ومن هنا امتلكت شعوب المنطقة العربية منذ ما قبل التاريخ القدرة بصورة ضرورية على تدوين الأرشيف عبر الخطوط المسمارية والهيروغليفية، والتي تضمنت مجموعات كبيرة من الوثائق التي خلفتها لنا تلك الحضارات، ولكنها لم تُحفظ في أرشيف بالمعنى الحديث، لكنها اكتشفت من خلال عمليات التنقيب الأثري، فقد ظهرت الكتابة في الألف الرابع قبل الميلاد، وأكثرها عددًا وأغناها من حيث تسجيلها سياق الأنشطة اليومية للأفراد، وحررت تلك الوثائق بلغات متعددة، استخدمتها شعوب المنطقة بين حضاراتها المختلفة.

أما الوثائق العربية فقد ظهرت في زمن حديث بالمقارنة بالكتابات واللغات الأخرى، حيث تطورت حتى أخذت شكلها الراهن بين القرنين الثالث والثامن الميلاديين، فقد تطورت اللغة العربية بعد ظهور الإسلام، وأضيفت لها أشكال جديدة من خلال الكتابة، ومعرفة العرب لتدوين الوثائق، فالغالب أن الثقافة العربية حتى ظهور الإسلام كان يغلب عليها الطابع الشفهي، هذا لا يعني أن العرب لم يعرفوا التدوين والوثيقة، بل عرف العرب المعلقات، ولعل وثيقة المقاطعة خير مثال على ذلك، ولكنها ظلت رغم ذلك معرفة هامشية.

وكان لظهور الإسلام أثر واضح على الثقافة العربية بما جاء به عن فكرة الوثائق، فقد ارتبط بذلك مجموعة من الظواهر السياسية استوجبت التدوين، وهناك ثلاثة أمور قادت إلى تدوين الوثائق العربية في فجر العصر الإسلامي، منها دعوة القرآن الكريم إلى تدوين الوثائق الخاصة بالمعاملات، وخاصة وثائق الدين على وجه التحديد، وظهور علم الشروط، الذي برز فيه أبو زيد الشروطي، وأبو جعفر الطحاوي، من أتباع مذهب أبي حنيفة النعمان، فبدأ عندهم، ثم انتقل إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، كما أن ظهور الكيان السياسي للمسلمين عقب الهجرة من مكة إلى يثرب، أدى إلى التحول إلى تدوين وثائق تلك الدولة الجديدة، التي تكونت بعد الهجرة، كدستور المدينة وصلح الحديبية، ورسائل الدعوة إلى دخول الإسلام التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حكام وملوك وشيوخ القبائل والعشائر العربية المجاورة للمدينة المنورة.

وشكل عصر الفتوحات منعطفًا جديدًا فيما يتعلق بتطور الوثائق، وتضمنها موارد جديدة، من معاملات خارجية مع دول الجوار، ومعاهدات، ومكاتبات الخليفة، والتقارير التي يرفعها عماله

وولاته على الأقاليم إلى جهازه الإداري الرئيس في العاصمة، مقر الخلافة، وقد استدعى ذلك ظهور التقويم الهجري منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فقد اقتضى هذا التطور تحويل نظام الشهور الهجرية إلى تقويم يبدأ من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

وأول وثيقة تحمل التاريخ الهجري وصلت إلينا تحمل تاريخ ٢٢هـ وهي عبارة عن إيصال سلمه قائد إحدى كتائب الجيش الإسلامي لمجموعة من أكابر قرية من قرى صعيد مصر، مكتوب باللغتين اليونانية والعربية، يوضح فيه مقدار كمية الطعام التي قدمتها هذه القرية لجنوده، فأعطاها هذا الصك، ليتم خصمها من الضريبة المفروضة عليهم.

واقتضى هذا التطور كذلك إنشاء ديوان للرسائل، وديوان الخاتم، في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، ليعكس التطور في إنشاء وثائق الدولة الرسمية وحفظها في دور خاصة، لأول مرة في إدارة تكون مهمتها تسجيل الوثائق وحفظها وإصدارها وتوجيهها إلى الجهات المحددة في الدولة أو في الولايات، وبالتالي أصبح هناك نظام لحفظ واسترداد الوثائق الواردة والصادرة عن الخليفة.

اقتضى هذا التطور كذلك التحولات التي حدثت في المجتمع، واتجاهه للبعد عن البساطة البدائية الأولى، فقد اقتضى تدوين المعاملات المختلفة وحفظها بين البشر داخل هذه المجتمعات، فظهرت السجلات القضائية التي تأكد ظهورها في القرن الثاني الهجري، من خلال المصادر التاريخية، كما قام القضاة بتوثيق العقود بين الأفراد، بمختلف أنواعها: زواج وطلاق وعتق الرقيق، وعقود بيع المنازل، وكلها نماذج ترجع إلى القرون الأربعة الأولى للهجرة.

ولكن مشكلة هذه الوثائق أنها لم تصل إلينا في مجموعات أرشيفية، ووثائق مكتملة الحفظ والفهرسة والتصنيف، فلم تصل إلينا مجموعات سابقة على الاحتلال العثماني، فقد كانت كل دولة إسلامية جديدة تنقل ما يهم تسيير حركة الحياة العامة للمواطنين، وتقوم بالتخلص من سجلات ووثائق الدولة السابقة عليها، وحينما جاءت الدولة العثمانية بدأت تحتفظ بأرشيفها كامل، ورغم ذلك فالشواهد تؤكد أن الدولة الإسلامية عرفت إنتاج الوثائق منذ العهد النبوي سواء ما وصل إلينا من وثائق مفردة، أو ما أشارت إليه المصادر التاريخية المختلفة، فمن الواضح أنه قد غاب عن العرب الحفظ الأرشيفي لأجل الاستخدام في كتابة التاريخ، فقد كانت أهمية الوثائق في العصور الإسلامية تكمن في كونها مادة تسيير الحياة اليومية البشرية ليس إلا.

وهنا يجب الفصل بين الأرشيف القومي وغرف حفظ الوثائق لغرض المعاملات اليومية، والغرض التاريخي لم يكن موجودًا في الحضارات العربية الإسلامية في تلك الفترة، ولم تغفل المصادر التاريخية المختلفة أن العرب قد عرفوا على الأقل منذ الخليفة الأموي الأول نظم الحفظ والأرشفة واسترجاعها من خلال ديوان الرسائل، ولدينا من العصرين الفاطمي والأيوبي مؤلفات متعددة أشار كتابها إلى هذا الديوان، وتولوا رئاسته، وتحدثوا عن نظم الحفظ والترتيب داخل هذه المؤسسة، وأوضحوا الطريقة التي كان يتم بها الاسترجاع، وللأسف لم تصل إلينا تلك الأرشيفات نظرًا لظروف الغزوات، فكل دولة تتخلص من وثائق الدولة السابقة عليها، إلا ما هو ضروري لتسيير العمل الإداري في الدولة، ويتم التخلص من الوثائق بإعدامها أو بيعها، وقد أشار المقريزي إلى ذلك عندما تحدث عن وثائق ديوان الإنشاء عندما تنتهي الحاجة إلى استخدامها، وكذلك دفاتر الدولة العثمانية عند بداية الحكم العثماني نُقلت عن الدفاتر السابقة لها في عصر المماليك خاصة دفاتر الحيازة الزراعية والمباني، وكانت الدولة تتخلص من الدفاتر بعد نقل معلوماتها إلى الدفاتر الجديدة، وتمثلت الوثائق المفردة التي وصلت إلينا متبقية في عقود بيع ووثائق وقف أو هبه أو عتق الإماء والعبيد.

من خلال هذا العرض يتضح لنا أن المنطقة العربية في العصور الوسطى، كغيرها من الدول الأوروبية والآسيوية في ذات الفترة التاريخية، لم تعرف المجموعات المميزة والهامة المحفوظة والمنسقة والمرتبة لغرض استخدامها في كتابة التاريخ، وقد كشف مؤخرًا عن مجموعة ترجع إلى القرن الأول الهجري في فترة ولاية قرة بن شريك على مصر عن مجموعة وثائقية في صعيد مصر، تلقي الضوء على تلك الفترة التي لم تدون فيها مصادر تاريخية مؤلفة، فتوضح النظام المالي والإداري، للدولة الأموية، وبعض نظام الحياة في صعيد مصر، وهناك كذلك مجموعة الجنيزة اليهودية التي اكتشفت في القرن التاسع عشر، ووثائق دير سانت كاترين.

أما وثائق الدولة العثمانية، ووثائق القرن التاسع عشر، فهي تمثل مصدر ورافد هام وحيوي لكتابة تاريخ المنطقة العربية بفضل الحفظ المنظم بدور الأرشيفات الحديثة، التي نقلت إليها مع بداية القرن التاسع عشر هذه الوثائق، واستفاد منها في الفترة الأخيرة كل من تصدى لكتابة تاريخ المنطقة، فقد وصلت إلينا مجموعات أرشيفية متكاملة من القرن التاسع عشر، أتاحت للباحثين الفرصة لإعادة كتابة التاريخ من خلالها.

واليوم لم يعد مفهوم الوثائق مقتصر على الوثيقة الرسمية، بل تضمن الصور الفوتوغرافية، والتسجيلات المرئية والمسموعة، كلها أصبحت معين ثري لا ينضب أمام الباحثين، ولم تعد فقط المواد التي تسجلها وتحفظها المؤسسات الرسمية، ولكنها كذلك امتدت لتشمل كل ما يسجله الهواة، فمهمة التوثيق والأرشفة اليوم لم تعد مهمة الموثقين والأرشيفيين الرسميين فقط، بل مهمة الهواة أيضًا.

أما **الدكتور محمد العادل**، رئيس الجمعية التركية العربية للعلوم والثقافة، وأستاذ العلاقات الدولية في عدد من الجامعات التركية والعربية، فقد طرح ورقته المعنونة "**قطر والخليج في الأرشيف العثماني**" وكيف يمكن استثمار وثائق هذا الأرشيف لبناء جسور بين العرب والأتراك، حيث إن بناء الحوار العربي التركي هو الملف الأساس للورقة.

قامت الدولة العثمانية ببسط سيطرتها على المنطقة العربية، وإدارة شؤونها، منذ السلطان سليم الأول، وحتى الحرب العالمية الأولى، ولهذا السبب يوجد في الأرشيفات التركية كم هائل من الوثائق التي تخدم تاريخ الدول العربية، فقد كانت استانبول هي المرجع الأساس لها، واحتفظ بها بوثائق متعددة ومتنوعة، منذ عام ١٥١٧ وحتى عام ١٩٢٣.

وتشكل الوثائق العثمانية مادة مصدرية هامة لتاريخ الخليج، بين عامي ١٥٥٠-١٩١٨، والمصدر الموثوق فيه لكتابة تاريخ المنطقة، ولم يتم حصر عدد الوثائق الموجودة في الأرشيف العثماني كاملة، ولا تزال عملية فهرستها وتنسيقها وأرشفتها وتحويلها إلى نسخ إليكترونية قائمة على قدم وساق، ويوجد عن المملكة العربية السعودية أكثر من ١٠ آلاف وثيقة، تشكل الكم الأكبر لأن بها الحرمين الشريفين، وإليها كل عام كانت تأتي مواكب الحج، والصرة السنوية، كما يوجد ٧ آلاف وثيقة تخص تاريخ قطر باعتبارها الدولة الخليجية الأكثر من حيث عدد الوثائق متقدمة عن الكويت والبحرين، وذلك لأن قطر كانت لها علاقة مباشرة مع الحكم العثماني، وكانت توجد بها جنود عثمانيين، وحيث إن العشائر والقبائل تشكل السمة الأساسية لدول الخليج، فإن الوثائق التي تخص السعودية مثلا ستكون متصلة بالدول الأخرى، بسبب صلات القرابة والترابط والمصاهرة بين تلك العشائر والقبائل.

ولا يزال اهتمام دول العالم العربي بالأرشيف العثماني ضعيف، فيقصده عدد قليل من الباحثين العرب، فالمقبلون على تعلم اللغة العثمانية والتركية الحديثة قلة، ويستخدمون وسطاء في التعامل مع الأرشيف العثماني.

وهناك وثائق متعلقة بالحقبة العثمانية في قطر، وبالرغم من انفتاح تركيا على العالم العربي والإسلامي إلا أن هذا الأمر لا يزال مقتصر على النواحي الاقتصادية والسياسية، ولم تنفتح العلوم والثقافة والأبحاث، فإقبال الباحثين العرب من الدول الخليجية على وجه الخصوص محدود، بل إن التعامل مع الوثائق يتم عبر وسطاء بسبب عدم معرفتهم باللغة العثمانية، وهنا يجب على المؤسسات المعنية أن توجه الباحثين الشباب لدراسة اللغة العثمانية والتركية، لتساعدهم في فك رموز الوثائق المتعلقة بتاريخ المنطقة، وبالتالي يتخلصون من التعامل عبر وسطاء، ويجب العمل على تشجيع وتخصيص كراسي خاصة لتعليم اللغة العربية في الجامعات التركية، حتى يتسنى التواصل بين العرب والأتراك، وهنا يجب الإشارة إلى أن الحكومة التركية قد أتاحت لمجموعة من الباحثين الفلسطينيين العمل في الأرشيف العثماني، والبحث عن الوثائق المتعلقة بالقضية الفلسطينية، واستخدامها في أبحاثهم.

ويشكل التوجه التركي نحو المنطقة العربية، لإقامة جسور التواصل، فرصة سانحة يجب استخدامها لصالح توثيق الروابط والتواصل الثقافي بين البلدين، ويجب أن يقابل التوجه التركي بتوجه عربي يتعدى مجالات التعاون الاقتصادي والسياسي إلى التعاون الثقافي البحثي التاريخي والوثائقي، إنها فرصة تاريخية سانحة، تساهم في بناء جسور علمية بين الطرفين تمهد لإعادة قراءة تاريخ العلاقات العربية التركية في إطار تصحيح للكثير من المفاهيم، وتذليل الحواجز الوهمية، والشبهات التي تسبب الاستعمار البريطاني والفرنسي في زرعها وترسيخها وتقويتها، لتعود تركيا تلعب دورها التاريخي في العالم العربي والإسلامي، ليتطور مفهوم الأمة بشكل كامل.

إن هذه الشراكة بحاجة إلى مشروعات تنمية مشتركة توثق الحوار بين العقل العربي والعقل التركي، وتشجع حركة الترجمة بين اللغتين العربية والتركية، لأن التاريخ العربي المعاصر لا يزال مجهولا أمام الباحثين الأتراك، فعدم معرفة الباحثين الأتراك باللغة العربية، يجعلهم يلجئون إلى الكتابات الإنجليزية والفرنسية عن التاريخ العربي المعاصر، وهذه الكتابات تحمل وجهة نظر تختلف بكل تأكيد عن وجهة النظر القومية العربية، ولذلك يجب تشجيع وتبني عمليات الترجمة من العربية إلى التركية والعكس، حتى يحدث الانفتاح والتواصل الثقافي والتاريخي، لذلك أدعو بإلحاح المؤسسات المعنية في قطر والبلاد العربية الأخرى لتتبنى حركة الترجمة، لأن ذلك متصل أيضًا بتسجيل وتدوين التاريخ.

الأمر الذي يتيح كذلك إعادة قراءة العقل التركي والتعامل مع التوجهات العربية بشكل يخدم الحضور العربي في المنقطة، وفي إطار الطموح لبناء حوار بين العرب والأتراك، وأعتقد أن تعلم الباحثين الأتراك اللغة العربية سيساعدهم على قراءة تاريخ العالم العربي المعاصر، وكذلك تعلم الباحثين العرب اللغة التركية، سيوضح حقيقة التاريخ التركي المعاصر، فما تعيشه تركيا الآن يهدف لتعزيز العلاقات العربية التركية، وفتح أبوبها للباحثين العرب.

وكانت للأستاذ **الدكتور جمال حجر** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، وعميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية السابق، مداخلة عن **المصادر الحية** (المعروفة بالتاريخ الشفوي)، باعتبارها مكملة للوثائق الرسمية، وأهمية وجود مراكز بحثية تهتم بجمع تلك الروايات وحفظها وفهرستها وأرشفتها، موضحًا سلبيات الروايات الشفوية للتاريخ باعتبارها روايات معاصرة للأحداث.. وقد يكون في ذلك نتائج سلبية على الراوي، وهو ما يجعل معظم الرواة عازفين عن الحديث عن قضايا يعرفونها جيداً، تاركين ما يعرفون إما في ورقيات مسجلة تنشر بعد وفاتهم، أو مؤتمنين بعض الأشخاص عليها شفاهة، أو لا هذه ولا تلك، فتموت معهم أسرارهم.

وقد تنبهت كثير من مراكز البحث العلمي في الجامعات والمؤسسات البحثية إلى هذه الحقيقة، وأحيت فكرة التاريخ الشفوي من جديد بعد أن كان قد انزوى لقرون عديدة في دائرة النسيان، وخاصة بعد اعتماد الوثائق مصدراً رئيساً للكتابة التاريخية منذ القرن التاسع عشر. ومن المراكز البحثية المهتمة بالتاريخ الشفوي في العالم العربي دارة الملك عبد العزيز في الرياض بالملكة العربية السعودية، ومركز زايد للتراث والتاريخ في العين بالإمارات العربية المتحدة. وللأسف لا تولي المؤسسات العربية دعماً واضحاً لهذا الأمر على أهميته القصوى في تقصي الحقيقة التاريخية، ويعتمد الأمر في المقام الأول على الجهود الفردية للباحثين دون برامج منظمة تتبناها المؤسسات البحثية، وهو ما يتطلب وجود مراكز متخصصة تكون مهمتها الأولى جمع وحفظ روايات التاريخ الشفوي بطرق الحفظ الحديثة، بعد وضع قاعدة بيانات وكلمات مفتاحيه لما تحتوي عليه من شهادات تاريخية.

أما المداخلة الثانية للدكتور **جمال حجر** فكانت عن **الأوراق الخاصة لدى كبار الشخصيات والمسؤولين في الدولة**، والجهود التي تبذل لحمايتها وتضمينها الأرشيفات القومية، وأرشيفات مراكز الأبحاث التاريخية، كما هو الحال في الدول المتقدمة.

وشهد اليوم الثاني للندوة مشاركة **سلطان الجابر** رئيس قسم الوثائق والأبحاث بالديوان الأميري، متحدثًا عن **"الأرشيف القطري بين الواقع والمأمول"**. فأوضح أن الأمم الواعية هي الأمم التي تهتم بتاريخها لتأخذ الدروس والعبر، لترتقي بها، وتتقدم، وتحفظ تاريخها وهيبتها وحضارتها، والنهوض بالأرشيف تعزيز للانتماء الوطني باعتبار

دورية الكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الأرشيف ذاكرة الأمة، وسجلها التاريخي، فالتاريخ لا يكتب إلا بالوثائق التي يعتمد عليها بالدرجة الأولى، وتأتي أهمية الوثائق باعتبارها تمس جوانب المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

في عام ١٩٧٤ أنشئ قسم الوثائق بالديوان الأميري، بهدف تحويله إلى دار للوثائق القومية، وقام القسم بدور الأرشيف الوطني، حيث يقوم بجمع الوثائق المتعلقة بتاريخ قطر والدول المجاورة لها من أرشيفات العالم المختلفة، من بريطانيا، والهند وأمريكا، وتركيا وغيرها من الوثائق التي تخص دول الخليج العربية. ويقوم متخصصون بفهرسة هذه الوثائق وترجمتها إلى العربية للاستفادة منها في الأبحاث التي تخدم التاريخ الوطني، وقسم الوثائق والأبحاث يشكل العمود الفقري والنواة للأرشيف الوطني، وأصدرت الدولة التشريعات، منها قانون إنشاء دار الوثائق الوطنية رقم ١٤ لسنة ١٩٨١، في ١١ سبتمبر ١٩٨١، ويعد خطوة كبيرة وانجاز له أهميته وخطوة هامة، والقانون يتضمن ١٥ مادة تنظم عمل الدار.

وصدر القانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٨٢ بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٨٢، بتشكيل مجلس إدارة دار الوثائق القطرية، من ١٠ أعضاء يمثلون جهات رسمية في البلاد، وألحقت بمجلس الوزراء، وحددت المادة الثانية منه مهام الدار بأنها جمع الوثائق التي تعد مادة لتاريخ قطر وتاريخ الخليج، وترجمتها وإعدادها للبحث التاريخي، وجاء هذا السعي الحثيث من قبل الحكومة القطرية في ظرف تاريخي تنام فيه الوعي التاريخي العربي بتأسيس اتحاد المؤرخين العرب، وبعد مؤتمر شبه الجزيرة العربية ١٩٧٦، وظهور مراكز للبحوث والدراسات التاريخية في العالم العربي.

إلا أن قضية الأرشيف القومي في قطر لا تتناسب مع النهضة التي تمر بها البلاد، وتستدعي الضرورة إصدار قانون جديد، يتناسب مع مكانة الدولة ودورها المتعاظم إقليميا ودوليًا، على الصعيد الثقافي والسياسي، ويجب أن يتضمن هذا القانون نصوص واضحة تلزم الإدارات الحكومية بإيداع أوراقها الرسمية الأرشيف الوطني بصورة دورية بعد انقضاء مدة زمنية محددة.

ويجب الإسراع في وضع برامج تضمن إتاحة دار للأرشيف الوطني، ولهذا نقترح: وضع برامج لدراسة وتشغيل الأرشيف الحكومي بالقيام بزيارات للتعرف على الإجراءات المتميزة في هذه الوزارات، وذلك بالقيام بزيارات لهذه الوزارات والمؤسسات الحكومية، والتوعية بالاهتمام بالوثائق بالتعاون بين الجامعة وقسم الأبحاث، وإقامة معارض وثائقية للتعريف بأهمية الوثائق والأرشيف، وتنظيم ندوات وحلقات بحث للعاملين في مجال الأرشيف للتعرف على الأخيار منهم لتكوين فريق من الباحثين المختصين والمهتمين بالوثائق، فإن العنصر البشري هام جدًا، ولا يكفي الاعتماد على الخبراء الأجانب وحدهم، بل يجب الاستعانة بأبناء البلاد.

وهناك المجلس الدولي للأرشيف الذي أسس عام ١٩٨٤، وله فروع إقليمية في العالم العربي تشمل صلاحيات الأرشفة في الجامعة العربية، والاستفادة من تبادل الخبرات حول أرشيف العمل الوطني والوثائق، وبهذه النظرة لدولة قطر ٢٠٣٠ لابد من توسيع مجال الأرشيف ليكون مجاله شامل، فالوثيقة لم تعد الأوراق الرسمية المختومة فحسب، بل تشمل مصادر متعددة من التسجيلات الصوتية والمرئية وغيرها، فالإنسان نفسه يمثل وثيقة متحركة، فالمسؤولية كبيرة تحتاج لتضافر جهود من المجتمع كله، ولابد أن يكون كل هذا مجال دراسة واسعة دقيقة متأنية.

فالوثيقة حق للأجيال القادمة لتوثيق تاريخها، ولهذا يجب أن نسعى إلى إقامة أرشيف وطني قومي يهتم بثقافتنا وتراثنا لنؤسس أرشيف فعال للبحث العلمي والنشاط التاريخي والثقافي، وتسعى قطر لأن يكون لديها مركز وثائق فعال، يعمل على حفظ السجلات والوثائق الحكومية وأرشفتها وحوسبتها لتمثل موروث الأجيال القادمة، فهذا أقل حقوقهم علينا، تماشيًا مع رؤية قطر الوطنية لعام ٢٠٣٠.

وتناولت **الدكتورة بنلوب توسون "الوثائق العربية في المكتبات البريطانية"**، فأشارت إلى أنها من خلال عملها كخبيرة وثائق في وثائق المقيمات البريطانية في الخليج وبوشهر، بداية من القرن السابع عشر، القرن الذي جاء فيه البريطانيون إلى منطقة الخليج، فقد مثلت هذه المنطقة لهم موطن استراتيجي، ولا يخفى الأمور التجارية والمكاسب الأخرى ذات الأهمية الاقتصادية، وكانت مقيمية بوشهر مقر الممثلين البريطانيين، وتنقل الأخبار لبريطانيا، وكان هناك مقيم آخر في وقت لاحق بالبحرين، ويزور الدول المجاورة بشكل متكرر.

ومن خلال بحثي الخاص لمتابعة زوجات المقيمين البريطانيين وأسفارهم في منطقة الخليج، فقد تركت لنا زوجات المسؤولين عن سفرياتهم مذكرات تكتسب أهمية الوثائق، وبعث بعضهن برسائل مهمة ومتنوعة عن المنطقة، وأخص زوجة لوريمر لأنني معجبة بها شخصيًا.

وتكتسب مراسلات المقيم البريطاني لويس بيلي، الذي امتلك مهارة عالية في اللغة العربية، ومهارات أخرى في التعامل مع حاكم قطر، رغم أنه لم تكن هناك مقيمية بريطانية في قطر حتى القرن العشرين، وأود أن أركز على الوثائق العربية المحفوظة في المكتبات البريطانية، فالمسئولين البريطانيين كانوا شغوفين ومهتمين بالوثائق العربية، ويتناقلون الأخبار بشكل مفصل، وبكل تأكيد كانوا يؤكدون على أهميتهم السياسية وتواجدهم في المنطقة.

وفي نفس الوقت لم يُغفلوا الوثائق والمخطوطات، وكذلك لدينا الكثير من المخطوطات البريطانية، وهناك الكثير من البريطانيين دفعهم اهتمامهم لتعلم اللغة العربية، لأنه من غير العربية سيشكل هذا العمل عليهم صعوبة، وكثير من المخاطبات كانت تتم عن طريق المقيمات في الخليج، وتجمع باللغات المحلية ثم تترجم إلى الإنجليزية، وترسل إلى العاصمة البريطانية، فهذه هي الإجراءات التي كان يتم التعامل بها مع الوثائق العربية، فكانت الترجمة حاضرة، ولكن هناك بعض المشاكل المتعلقة بهذا الأمر، أهمها أن المراسلات التي ترجمت عن العربية غير دقيقة، لأنها تحمل التحيز الواضح من الجانب البريطاني، عن طريق كاتبها، وهناك ما يقارب ٥٠٠٠ وثيقة تتعلق بقطر، ولكن قالوا إن هذه الوثائق لا تشكل إلا ٢٠% فقط من الوثائق الموجودة، وهذا ما دفع إلى التساؤل عن المكان الذي ذهبت إليه الوثائق الأخرى التي تصل نسبتها إلى ٨٠%، وكانت هناك رسائل ومراسلات مهمة يتم تبادلها بين حكام المنطقة والمقيمين، وكانت ترسل إليهم باللغة العربية، فتتم ترجمتها وإرفاق النص العربي معها إلى وزارة الخارجية أو إلى حكومة الهند البريطانية. هذا بالإضافة إلى وثائق أخرى تتعلق بالاتفاقيات والعهود، المكتوبة

دورية الكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

باللغتين العربية والإنجليزية معًا، ومن أكثر الأمور المهمة التقارير التي تحمل الأخبار المحلية وقصاصات من الجرائد والمجلات والصحف، كان يتم جمعها وترجمتها وإرفاقها مع ترجمتها.

وكثير من الوثائق الموجودة في المكتبات البريطانية تم جمعها من منطقة الخليج، وخاصة البحرين، ومنها بيانات عن محاكمات لأشخاص في المنطقة، ومنها الكثير من الأمور السكانية، والشهادات والوثائق، التي يتم جمعها ودراستها، فهي بحاجة إلى باحثين يقومون على دراستها وفحصها، لأنها تتضمن وثائق تبين ملكية كثير من الأراضي والعقارات في قطر، ويجب أن أعود لأوضح أن هناك كثير من الأمور تضيع أثناء الترجمة، وهناك كثير من الأمور تضيع حقيقتها بسبب الترجمة وبسبب اختلافات اللغة، واختلافات مستويات المترجمين، وأظن أن الترجمة مهمة جدًا، ومن المهم أن نذكر أن الكفاءات والقدرات لدى الوكيل البريطاني في المنطقة، والمترجم الذي يعمل معه، قد لعبت دورًا كبيرًا، فترجمة الوثيقة مهمة جدًا، لأن أي تحريف في كلمة قد يغير من معناها، وضروري أن يكون المترجم مدرك ومطلع على الأوعية الثقافية للغتين اللتين يتعامل معهما، فالمترجم يجب أن تكون لديه ثقافة واسعة باللغتين اللتين يتعامل معهما، ويجب أن أشير إلى أن المترجمين كثيرًا ما يكونون هنود، ولهذا تضمنت ترجماتهم لبعض الأماكن تحريفات وتصحيفات.

وتناول **محمد همام فكري "جهود مركز حسن بن محمد آل ثاني في مجال توثيق تاريخ قطر"**، فأشار إلى أن الأرشيف هو الذاكرة التي تقوم على الحقيقة وتفسرها التفسير الموضوعي، وهناك مبادرات شخصية ينهض بها بعض الأفراد تشكل إضافة هامة في مسيرة الدول، يمثل مركز الشيخ حسن بن محمد آل ثاني هنا نموذجًا لها، وفي عرضه تناول ثلاث نقاط: التعريف بمركز حسن بن محمد آل ثاني، والتعريف بسجلات ووثائق المقيمة البريطانية في بوشهر، والتعريف بمشروع قطر ودول الخليج العربي في الوثائق البريطانية.

أولا، تأسس مركز حسن بن محمد عام ١٩٩٧ بمبادرة وتمويل شخصي من الشيخ حسن بالدوحة، بهدف تعميق التعريف بتاريخ وتراث قطر ودول الخليج العربي، وذلك بجمع المصادر بهدف توفير مادة وثائقية، وبدأ المشروع بجمع المصادر والمراجع الأجنبية والوثائق البريطانية، ثم انتقل إلى جمع اللقاءات الشفوية مع المسنين من أبناء قطر، باعتبارهم شهود عيان، ومن أشهرهم راشد بن فاضل البنعلي، وحققه الشيخ حسن بن محمد عام ٢٠٠١ ليأتي كإضافة قيمة لتاريخ المنطقة، ومن بينها كذلك كتاب سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل زرق الأسعد والمحقق عام ٢٠٠٧، الذي لعب دورًا هامًا في تاريخ قطر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حين اتخذ من الزبارة مقرًا له بعد أن هجر الكويت والبصرة، ليقيم فيها مدينة عامرة وصفت على لسان عثمان بن سند بأوصاف مذهلة.

وفيما يتعلق بالمصادر الأجنبية يقوم المركز حاليًا بترجمة كتاب مختارات من حكومة بومباي، وهي المختارات التي تتضمن مجموعة من التقارير التي تقدم بها المقيمين البريطانيين في الخليج، ومن ضمن ما يهتم به كذلك المركز هو قسم الخرائط، وخاصة خرائط المسح البحري، وهي العمليات التي قامت بها البحرية الهندية في عشرينيات القرن التاسع عشر، وظهرت عليها سواحل شبه جزيرة قطر، وتتضمن خرائط تميزت فيها قطر ومدينة البدع العاصمة آنذاك، ومن المصادر أيضًا الكتابات الأخرى، التي كان يتعين جمعها، وبصفة خاصة كتابات الرحالة أو تقارير بعض المقيمين، وهي مهمة لأنها تعتبر مصدر كتبه شاهد عيان، ويوجد قسم للصور.

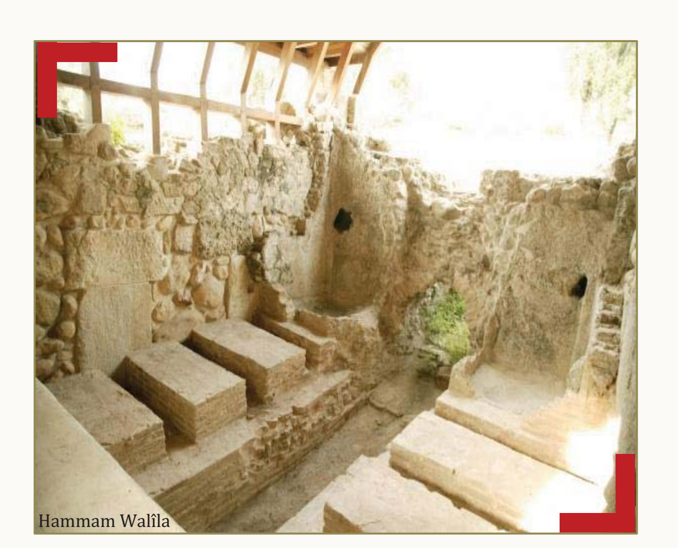
وعند الحديث عن المقيمات البريطانية في الخليج، فقد بدأت بريطانيا تتصل بالخليج في القرن السابع عشر، وبخاصة عام ١٦١٦ عندما أرسل وكيل إلى جاسك بقصد إيجاد أسواق جديدة للتجارة، وبدأت المقيمات في البداية لغرض تجاري في أصفهان وشيراز وبندر عباس، ثم امتدت للأقطار العربية، حيث أقيمت أول مقيمية في البصرة عام ١٦٣٥، حيث شكلت هذه الوكالات دورًا مهمًا في توثيق تاريخ الخليج، وكان يديرها المكتب الرئيس في بومباي.

وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأت تنتشر المقيمات في الخليج، تبعًا لتوسع النشاط التجاري البريطاني في المنطقة، فكانت مقيمة بوشهر التي نقلت وثائقها إلى مكتب الهند، ورصدت هذه الوثائق الصراع الدولي في الخليج، والقوى الأجنبية، والعثمانيون، والقوى المحلية، وكل هذه الحركة كانت تتم من خلال الأفراد والضباط البريطانيون، فكانوا يدونون كل ما يحدث في المنطقة، وخاصة نشاطات الغوص على اللؤلؤ، والسلم البحري، وتجارة الرقيق، وتجارة السلاح، والقرصنة، وفي ذلك الوقت برزت شخصيات شعبية مثل رحمة بن جابر الجلاهمة، وعيسى بن طريف، وجاسم بن محمد، وهذه الزعامات استطاعت أن تشارك في صنع التاريخ، وتكون الوثائق البريطانية شاهد على ذلك.

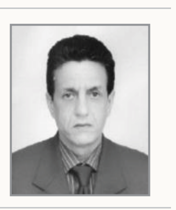
أما عن وثائق مقيمية بوشهر، التي كان اختيار موقعها اختيارًا استراتيجيًا بقصد أن تكون مركزًا تجاريًا، وعين على الخليج، وملتقى لتبادل البعثات، وما إلى ذلك، ثم البحرين التي كانت بها مقيمة شهيرة، وكل وكالة بريطانية في الخليج عند الأرشفة أخذت من خلال الدكتورة بنلوب توسن إشارات مرجعية خاصة، فمقيمية بوشهر (١٧٦٣-١٩٤٨) R/15-1، ومقيمية البحرين (١٩٠٠-١٩٧٤) R/15-2,3، ومقيمية الشارقة (١٩٠٠—١٩٧٤) R/15-4، ومقيمية الكويت (١٩٠٤-١٩٤٩) R/15-5، ومقيمية مسقط (١٨٢٨-١٩٥١) R/15-6، وفي أرشيف كل منها الكثير من الأوراق والسجلات التي ترسل نسخ منها إلى الجهات الأعلى.

وهناك إدارة السجلات السرية السياسية (١٧٥٦-١٩٥٠)، وهي سجلات الدوائر السرية السياسية في شركة الهند الشرقية، وبها مذكرات ورسائل وتقارير، منها ما كان يكتب عليه كلمة "سري"، وهو كل ما يتعلق بالاتفاقيات التي لها طبيعة دبلوماسية، ويجب الحذر في التعامل معها، وأخيرًا سلسلة MSS التي تتضمن صور وخرائط، وأشهرها مجموعة صور لويس بيلي، الذي لعب دورًا هامًا في توقيع اتفاقية السلم البحري عام ١٨٦٨، وهناك وثائق عربية كتبها أبناء المنطقة، ولكنها وثائق مفردة.

أما مشروع قطر ودول الخليج العربي في الأرشيف البريطاني فيتضمن ٢٤ مجلدًا، هي المرحلة الأخيرة لعملية جمع هذه الوثائق على هيئة ميكروفيلم أو أسطوانات مدمجة، ثم إعادة طباعتها باللغة الإنجليزية، وترجمتها، ومراجعتها من قبل باحثين متخصصين، ثم ترتيبها ترتيب تاريخي لتخرج في شكلها النهائي.


Hammam Walîla

# الفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الأثرية

د. سيدي محمد العيوض

أستاذ التاريخ القديم

المدرسة العليا للأساتذة

الرباط – المملكة المغربية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

سيدي محمد العيوض، الفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الأثرية.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١٠٥ – ١١٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 – 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

تشير الحفريات الأركيولوجية إلى أن تاريخ مدينة وليلي (Volubilis) الأثرية المغربية يعود على الأرجح إلى القرن الثالث ق.م، فهي بوابة لدخول الماضي، عاصرت الحقبة ما قبل المرحلة الرومانية وما بعدها، وصولاً إلى المرحلة الإسلامية، في منطقة شمال إفريقيا، حيث ما زالت مآثرها العمرانية شاهدة بشموخها على حضارة عمرت لقرون طويلة في المنطقة. توجد هذه الحاضرة التاريخية على بعد ٣ كيلو مترات من مدينة "زرهون" أولى المدن الإسلامية في منطقة شمال إفريقيا، التي اتخذتها الدولة الإدريسية بقيادة إدريس الأكبر عاصمة لها، وغير بعيد عنها تقع مدينة "مكناس" (جنوب شرق الرباط) بحوالي عشرين كيلومترًا. تعتبر وليلي من أهم المواقع الأثرية بالمغرب المعروفة والمقصودة من طرف الزوار الأجانب والمغاربة، وتعد واحدة من أشهر الحواضر القديمة في حوض المتوسط، كما تم تسجيلها سنة ١٩٩٧ ضمن التراث الإنساني العالمي.

تصل المساحة الإجمالية للمدينة، كما يحدد ذلك السور الروماني، إلى ما يناهز ٤٢ هكتارا، لم يكتشف منها حتى الآن، منذ بداية الحفريات الأثرية فيها سنة ١٩١٥، إلا النصف وما يزال النصف الآخر تحت الأنقاض وما زالت أعمال البحث مستمرة. ويتألف موقع وليلي الأثري من بنايات ومآثر منها ما يرجع إلى الحضارة المورية التي خلفها السكان المحليون، ومنها ما يعود إلى الفترة الرومانية، ومنها ما يشهد على فترات متأخرة، كالحقبتين المسيحية والإسلامية. وتعرض صفحات الدراسة للفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الأثرية، التي تفيد بأن المدينة استقر بها المسلمون على الأقل خلال أربعة قرون من دخول إدريس الأول.


## مُقدِمة

يقف الدارس لتاريخ المدن الإفريقية، خلال هذه المرحلة، على فترات ازدهار وتطور متنوع من منطقة لأخرى بل من مدينة لأخرى. لقد سجل عدد من الباحثين أن الفتح الإسلامي يمثل قطيعة في تاريخ هذه المدن، مع الإشارة إلى أنها عرفت ازدهارًا لم يؤثر فيه لا الفتح الإسلامي ولا الغزو الهلالي.[1] وإذا كان الازدهار هو ميزة أغلب المدن الإفريقية فإن ما نعرفه عن مدينة وليلي، من خلال ما كشفت عنه الحفريات، يخص ترميمات لبنايات المدينة الرومانية في مرحلة أولى وتعديلات في مرحلة لاحقة قبل مرحلة تقلصها وراء السور المتأخر. وإذا كانت التحولات تنسحب على أغلب مدن شمال إفريقيا، فبالنسبة إلى وليلي يبقى المشكل الأركيولوجي المطروح منحصرًا في صعوبة التأريخ بكيفية دقيقة لجل مكونات سكن هذه الفترة المتواضع. ومع ذلك فمن المؤكد أن أربعة قرون من تاريخ المدينة كلها تعود للفترة الإسلامية،[2] كما توضح ذلك عدد من النصوص التاريخية، واللقى الأثرية، وعلى الخصوص النقود.[3]

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

## بنايات الفترة الإسلامية في وليلي

تبقى المعلومات المتوفرة لدينا بالنسبة لبنايات الفترة الإسلامية في وليلي قليلة بالمقارنة مع ما نعرفه عن بنايات الفترات السابقة. من المحتمل أن ذلك يعود لأسباب معرفية مرتبطة بعدم وجود متخصصين في هذه المرحلة، نظرًا لكون البحث كان منصبًا في البداية على الكشف عن كل ما هو روماني، لما لذلك من علاقة مع الإيديولوجية الاستعمارية السائدة آنئذ.[٤]

لقد استقرت ساكنة وليلي خلال هذه الفترة وفي ظروف يصعب تحديدها، في الجهة الغربية من الموقع خلف ما عرف بسور وليلي المتأخر.[٥] ونظرًا للقلة النسبية للمعطيات المرتبطة بهذه المرحلة من تاريخ المدينة، زد على ذلك الوضعية المتردية التي وجدت عليها هذه البنيات، كل هذا حتم علينا أن نتبنى طريقة معينة في التعامل مع هذه المكونات تعتمد على وصف البنايات الموجودة خارج السور المتأخر، أي ما اعتبر المدينة "المصغرة"، ثم بنايات هذه المرحلة خارج السور أي في مجال المدينة الرومانية السابقة، وبعد ذلك المقابر للإحاطة بتطور المدينة خلال هذه المرحلة.

تضم الجهة الغربية من السور عددًا من البنايات، تتكون من مواد غير متجانسة فهي في أغلبها مواد معادة الاستعمال، ويوجد جلها في وضعية متردية، وهذا ما جعل تحديد وظيفتها أمرًا مستحيلاً. كما أن أغلب أبواب سور القرن الميلادي الثاني الذي كان يحيط بمجال المدينة الرومانية، لم يعد لها نفس الدور الذي كان لها في السابق، إذ أغلقت بمواد معادة الاستعمال، الشيء تولد عنه سكن خاص في هذه الجهة. ففي الجزء الذي اصطلح على تسميته في السابق بالحي العربي أو "دوار إسلامي" ينتشر سكن استعملت في بنائه مواد معادة الاستعمال، عبارة عن مواد مجلوبة من البنايات العمومية في المدينة الرومانية، نخص بالذكر منها تسعة وأربعين نقيشة جنائزية وعدد من الكويسات (Cupules) الجنائزية المستخرجة من المقابر القديمة.[٦]

كشفت الحفريات في هذه الجهة عن مواد أثرية منها قناة مائية وصفت بالعربية، استعمل في بنائها مواد معادة الاستعمال خاصةً منها نقائش، أرخ لها بالفترة الإدريسية،[٧] وأجزاء من معصرة هي عبارة عن تقالة ومنضدة عصر، وبئر أسطواني لم تتمكن الحفريات من تقديم تاريخ محدد له، ويحتمل أن يعود لفترة تراجع المدينة خلف السور المتأخر خلال فترة انعدام الأمن وتوقف القناة الرئيسية - التي كانت تزود المدينة الرومانية في الجزء الشرقي- عن الاشتغال، في وقت لم يكن من الممكن التزود بالماء من الوادي القريب من هذه الجهة.[٨] من المحتمل أن هذا التجمع الذي وصف بالعربي[٩] قد تكون قبل بناء السور المتأخر، مما سيفيد أن البنايات التي يحيط بها هي الأخرى سابقة عن الفترة التي بني فيها السور، وبذلك فإن وصفه بالتجمع العربي هي تسمية فقط.

## الحمامات

إلى جانب هذه البنايات المتواضعة التي يصعب تحديد وظيفتها، أزالت الحفريات التراب في الجزء الجنوبي الغربي لهذه الجهة الممتدة وراء هذا السور عن حمامات اعتُبرت في السابق بازيليكا مسيحيا، بفعل العثور على مبخرة عليها صليب.[١٠] وسيتأكد فيما بعد أن هذه البناية هي في الواقع عبارة عن مؤسسة مائية.[١١] تتكون هذه الحمامات من ساحة مبلطة وغرفة مقببة لها علاقة بالغرفتين الساخنة والرطبة اللتين أقيمتا فوق موقد، ويشمل الجانب الآخر من هذه البناية مسبح ماء بارد.[١٢] تقدر مساحة هذه الحمامات ب ٢٤٣م2، وبذلك فهي لا تكفي ساكنة المدينة، الشيء الذي دفع ببعض الدارسين إلى اعتبارها حمامات لحي ما، يجب البحث عنه بالقرب من هذه المنشأة،[١٣] خاصةً وأن حفريات روزنبيرجي (ROSENBERGER) قد كشفت في هذه الجهة عن آثار جدران، وهو ما ستؤكده عملية المسح المغناطيسي[١٤] الذي عرفته هذه الجهة المحاذية لهذه الحمامات، فقد أبانت عن وجود جدران لها نفس اتجاه تلك التي كشفت عنها الحفريات القديمة، وعدد من قطع الخزف الإسلامي.[١٥]

شكلت هذه الحمامات وحدة متكاملة لم تغير الترميمات التي عرفتها من تصميمها الأول.[١٦] تتكون مواد بنائها من مواد معادة الاستعمال منها مثلاً قطعة مجلوبة من قوس النصر استعملت في إحدى القاعات.[١٧] بالنسبة لتاريخ هذه البناية فقد سبق لروزنبيرجي، الذي نقب فيها سنة ١٩٦٤، أن أرخ لها بالفترة الرومانية دون تحديد تاريخ البناء، غير أن مواد البناء التي تضم مواد معادة الاستعمال إضافة إلى الاستبارات التي أنجزت فيها،[١٨] قدمت نتائج تفيد عكس هذه الاستنتاجات، إذ أوضحت أنها لم تبن إلا خلال فترة متأخرة عن نهاية القرن الميلادي الثالث،[١٩] فاللقى النقدية هي عبارة عن نقود إسلامية تعود للفترة الإدريسية.[٢٠] وقد أكدت نتائج الاستبارات التي أنجزت في عدة نقط من هذه الحمامات، على احتمال عودتها للفترة الإدريسية، بل واستمرار استغلالها حتى إخلاء الموقع.[٢١]

من المعطيات الأخرى التي يمكن اعتمادها للتدليل على أن هذه الحمامات إسلامية هي التشابه الحاصل بينها وبين الحمامات الأموية من حيث عدد القاعات وكذلك تقنية التسخين.[٢٢] إجمالاً، بالإضافة إلى الطابع المتواضع لبنايات هذه الجهة خلف السور وعدد النقائش المسيحية[٢٣] التي وجدت معادة الاستعمال، فإننا نواجه بمشكل كرونولوجي يرتبط بعدم توفر أي تاريخ مضبوط لهذه الجهة، باستثناء حمامات خارج السور، إذ يظهر أنها شهدت تعاقب سكن مسيحي وإسلامي.

## جامع وليلي

وإذا كانت الحفريات قد كشفت عن هذه المنشأة العمومية التي تعود للفترة الإسلامية، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمسجد الذي ورد الحديث عنه في جل المصادر المرتبطة بهذه الفترة، وتمت

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فيه مبايعة إدريس الثاني "... فبايعوه بجامع وليلي... ".[٢٤] لقد أغرت مسألة التعرف على هذا المسجد عددًا من الباحثين، فقد اعتبر موريس أوزينا (M.Euzennat) البناية الدائرية في منزل البيكار مسجدًا، كما حاول البعض الآخر أن يحدده في البازيليك الروماني، معتمدًا في ذلك على الاتجاه الجنوبي، جنوبي- شرقي لهذه البناية الشيء الذي يجعله في اتجاه القبلة، وبذلك اعتبر أن مسلمي هذه الفترة قد استعملوه كمسجد.[٢٥]

هذه الفكرة المرتبطة بتحويل البازيليك إلى مسجد وردت كذلك عند ميشيل بونسيك (M.Ponsich) بالنسبة لليكسوس.[٢٦] إلا أن مثل هذا الافتراض يبقى بعيدًا عن الصواب، إذ لا نعتقد بأن المسلمين مع التطور الذي عرفته المدينة التي غصت بالسكان قد يتورعون عن إقامة مسجد، أو مساجد، ويتخذون من هذه البناية الرومانية مسجدًا. إن ما يمكن أن نقول به اليوم هو أن مسألة العثور على هذا المسجد هي موكولة للحفريات المستقبلية في الجهة الغربية.

## المنازل

خارج هذا المجال الذي يحده السور المتأخر، رصدت الحفريات آثار هذه الفترة على الخصوص في حي قوس النصر.[٢٧] فمن بين البنايات التي تعود لهذه الفترة تلك الموجودة بين منزل الأعمدة ومنزل الصهريج، يتعلق الأمر بكوخ استعمل في بنائه دبش وكتل معادة الاستعمال بدون ملاط، عبارة عن بناء مستطيل مؤرخ بالفترة الإسلامية.[٢٨]

في هذه الجهة كذلك، أزاحت الحفريات في منزل الصهريج وفي الشوارع التي تحده التراب عن عدد من الأكواخ. ففي هذا المنزل جنوب الساحة المبلطة (Cour dallée) تم إقامة بنايات لها اتجاه شمالي - شرقي جنوبي- غربي، يحتوي أحد جدرانها على مواد معادة الاستعمال منها عتبة من كلس رمادي، وهي نفس المواد التي استعملت في إغلاق الباب الذي ينفتح على الباحة لجعلها ربما ملحقة مرتبطة بالبناية المستطيلة.[٢٩] لقد كشفت الحفريات في السابق عن آثار جدران تعود إلى هذه الفترة، اعتبرت من قبل بعض الباحثين "أكواخ الفترة البكواطية".[٣٠] أرخ لهذه البناية والمقبرة التي توجد في هذا المكان بالقرن الميلادي الثامن، وذلك اعتمادا على عدد من النقود التي تعود للفترة الإدريسية،[٣١] غير أن نتائج دراسة هذه المقبرة، لا تؤكد هذا التاريخ المقدم، إذ توحي وضعية اتجاه الموتى في هذه القبور بأنها مقبرة مسيحية.[٣٢]

مكنت الحفريات في منزل البيكار، من الوقوف على مرحلة عرف فيها المنزل توسعًا في اتجاه الغرب، يتعلق الأمر بمستوى سكن يعود للفترة الإسلامية يغطي مستوى يشمل قبورًا تشبه من حيث الاتجاه والبناء قبور منزل الصهريج. أرخ لهذا المستوى بالفترة الممتدة بين القرنين الميلاديين الرابع والسابع.[٣٣] وقد أفادت حصيلة البحث أن اتجاه البنيات في هذا المستوى مخالف لاتجاه المنزل.[٣٤] وبالنظر للوضعية التي وجدت عليها فمن الصعب تحديد وظيفتها، إلا أنه من المحتمل أن تطابق هذه المرحلة في كل الحي المرحلة الإسلامية الأولى.[٣٥]

كشفت الحفريات التي أجريت خلال العقدين الأخيرين بشمال هذا المنزل عن مجموعة من الغرف، متجمعة حول ساحة، يجهل ما إذا كانت تشكل وحدة أو مجموعة وحدات سكن. بنيت هذه الغرف من دبش ممزوج بتراب، وكتل معادة الاستعمال في الزوايا وفي التشبيك، ولم يتم الكشف عن أي أثر للبن ولا تراب في تغطية الجدران.[٣٦] يمكن من خلال النقود التي وجدت على أرضية بعض الغرف، وأغلبها نقود ما قبل إدريسية، التأريخ للاستقرار في هذا المستوى بالنصف الثاني من القرن الميلادي الثامن.[٣٧]

أما في منزلي الممر والفتى المراهق،[٣٨] فقد حددت آثار هذه المرحلة بالنسبة للمنزل الأول في جدارين قد يعودان لهذه المرحلة، أما في المنزل الثاني فتظهر هذه الآثار في الجزء الشمالي الغربي منه، مباشرة فوق جدران الفترة الرومانية، وهي عبارة عن جدران تظم مواد معادة الاستعمال، تشبه تلك التي توجد في منزل الصهريج، وقد أرخ لها بالفترة الإسلامية.[٣٩] وفيما يخص هذه الفترة في منزل الأعمدة، فبعد مرحلة هجر أعيد استعمال مواد بنائه لإقامة بيوت لساكنة لجأت إلى هذه البقايا. ولم تترك عملية الترميم التي عرفها أي آثار لبنايات الفترة الإسلامية، مع العلم أن وجود نقيشة مسيحية معادة الاستعمال في أحد جدرانه، تعتبر مؤشرًا قويًا على الاستقرار خلال هذه الفترة.

## بقايا الفترة الإسلامية

أما خارج حي قوس النصر، يمكن رصد بعض بقايا هذه الفترة الإسلامية في الحي الجنوبي بشقيه الشرقي والغربي. فقد حددت الحفريات في السفح الشرقي بعض الجدران التي تضم مواد معادة الاستعمال وبعض اللقى الإسلامية التي يمثلها قطعة خزف عثر عليها في الاستبار الذي أنجز في الفرن ١،[٤٠] في هذه الجهة، كذلك تم طرح إمكانية وجود ساحة قرب الأفران.[٤١] ويمكن ربط وجود هذه الأفران بتوسع المدينة غربًا في وقت لم يعد فيه للسور المتأخر نفس الدور الذي كان له حين كان يقسم الموقع إلى قسمين غير متوازيين، وذلك بفعل التوسع الذي عرفته الجهة الغربية، خلال فترة ما من فترات المدينة الإسلامية.

في الحي الجنوبي الغربي، فقد كشفت آخر الحفريات عن بعض البنايات المتواضعة، تتكون إحداها من أربع غرف لها شكل طولي، يظهر على أرضية إحداها تراب مدكوك وملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدار،[٤٢] وبناية أخرى على أرضيتها كذلك تراب مدكوك ممزوج بالتراب والجير والحصى. كما مكنت حفريات هذه الجهة من التعرف على مواد لتسقيف البنايات، يتعلق الأمر بقصب وطين وبعض الحجارة.[٤٣] يُمكن من خلال بعض اللقى اعتبار الفترة المرابطية، كأقصى تاريخ لحد الآن، في الاستقرار بالمدينة.

كل هذه التطورات التي عرفتها المدينة خلال هذه المرحلة، توضح أن انتشار السكن الإسلامي في هذه الجهة ناتج عن توسع المدينة خارج المجال الذي يحدده السور المتأخر، وذلك في اتجاه الناحية الشرقية التي شكلت خلال مدة مجالاً لاستقبال الأموات، ويتجلى هذا التطور في ندرة القبور في الجهة التي شملتها الحفريات.(٤٤)

يستفاد من كل هذا؛ أن المدينة بعد تراجعها غرب السور في مرحلة أولى، عرفت تطورًا أدى إلى توسعها في الجهة الشرقية، وهو ما يعني أن السور لم يعد له نفس الدور الذي كان له خلال المرحلة الأولى. ويلاحظ من معاينة تصميم المدينة العام، اتصال عدد من محاور هذه الجهة الغربية، وباقي المدينة الرومانية، التي استغلت كمقابر خلال فترة معينة، إضافة إلى أن هناك ربط بين هذه المحاور وعدد من الأبواب التي تخترق السور سواء منها الغربية أو الشمالية.

## المقبرة الإسلامية

من العناصر الأخرى المعتمدة في تحديد المرحلة الإسلامية في المدينة، ما يرتبط بالمقبرة الإسلامية التي حددت على مساحة واسعة، وكشفت عنها الحفريات في إحدى منازل الحي الشمالي الشرقي، ليتأكد فيما بعد امتدادها الواسع على مساحة مهمة في كل الجهة التي عرفت استقرارًا رومانيًا.(٤٥) ونقدم فيما يلي جردًا للمقابر المعروفة لحد الآن، وهي مقبرة منزل المقبرة الإسلامية، ومقبرة حي التل، ومقبرة الحي الشمالي الشرقي، ومقبرة الحي الجنوبي.

ففي الحي الشمالي الشرقي تم التعرف في منزل غرب قصر غورديانوس على مقبرة صغيرة، إضافة إلى أخرى في منزل الخاتم الذهبي والمنزل بدون اسم.(٤٦) أما في حي التل فقد كشفت الحفريات عن قبرين فوق التل، أحدها من الصعب تحديد ما إذا كان مسيحيًا أو إسلاميًا، أما الثاني فقد كان قبرًا إسلاميًا باعتبار أن الميت كان ينظر في اتجاه الجنوب الشرقي أي اتجاه القبلة.(٤٧) كما أزيح التراب في السنين الأخيرة عن قبر على حائط الواجهة الغربية للوحدة السكنية (II)، ينظر في اتجاه القبلة.(٤٨)

إن هذا الانتشار للقبور يدفعنا إلى الحديث عن مقبرة واحدة تمتد من منزل غرب قصر غورديانوس إلى المنزل بدون اسم،(٤٩) بل إلى منزل أورفي وفي الجهة المجاورة.(٥٠) ونستبعد فكرة اعتبار المقبرة التي وجدت في حي قوس النصر مقبرة إسلامية. لقد أفادت المعطيات الأركيولوجية أن تاريخ هذه المقبرة مؤكد من خلال النقائش المسيحية الأربع التي وجدت في هذه الجهة،(٥١) كما سبق أن قدمت حفريات روزنبيرجي الدليل على كونها غير إسلامية، خلافًا لما زعمه بوب (J.Boube)، من خلال وضعية الموتى واتجاههم، وهو ما تأكد من خلال الاستبار الذي أنجز في أحد منازل هذا الحي، حيث تم إزالة التراب عن قبر يطابق وصفه ما ورد في تقرير روزنبيرجي.(٥٢)

تشكل هذه القبور الإسلامية وحدة تدخل في مجال هذه المقبرة الواسعة، التي تتميز بإشرافها على المدينة، الموجودة في الجزء الأسفل خلف السور الذي شكل حدًا فاصلاً بين المجالين. فهي قريبة من المدينة ومن الطريقين الرئيسين، الديكومانوس ماكسموس بالنسبة لمنزل المقبرة الإسلامية، والكاردو الجنوبي (I) بالنسبة للسفح الشرقي والحي الجنوبي.(٥٣) هذا الامتداد الواسع يعني أن المدافن كانت تشمل مجالاً واسعًا، الشيء الذي يمكن أن نعتبره مؤشرًا على الأهمية العددية لساكنة وليلي خلال الفترة الإسلامية. وتعكس النصوص الأدبية الوسيطة هذه الأهمية من خلال الإشارة إلى أن المدينة كانت قبلة لعدد من الوافدين، مما فرض التفكير في بناء مدينة جديدة تستوعب هذه الأعداد الهائلة. من جانب آخر؛ فإن الكشف عن هذه المقبرة في هذه الجهة يمكن من تحديد السكن في الجهة الغربية.

نخلص إذن إلى؛ أن المعلومات المتوفرة حول حدود المدينة الإسلامية، تفيد أنها خلال هذه المرحلة لم تكن محصورة وراء السور المتأخر بل إنها عرفت تطورًا خارج حدوده الشرقية، قد يعود لتوالي موجات بشرية مختلفة قدمت للاستقرار بوليلي. لقد أكدت الدراسات الحديثة هذا التوسع في اتجاه الشرق بكيفية واضحة(٥٤) في جل منازل هذا الحي، إضافة إلى ذلك كشفت الحفريات الأولى التي أزاحت التراب عن الديكومانوس ماكسموس، عن وجود أنقاض تعود لفترة متأخرة،(٥٥) الأمر الذي عززته الحفريات الأخيرة، بحيث أصبح من الواضح أن المدينة الإسلامية خلال فترة من تاريخها تطورت خارج السور المتأخر الذي شكل خلال فترة معينة حدًا فاصلاً بينها وبين الجزء المهجور الذي تحول إلى مقبرة مسيحية في مرحلة أولى وإسلامية فيما بعد. وقد فسر هذا الجوار بين المقابر المسيحية والإسلامية، بتوالي الاستقرار البشري على الرغم من اختلاف الديانتين.(٥٦) ويمكن مقارنة هذا التجمع السكني الذي حدد خلف هذا السور ليتجاوزه في مرحلة لاحقة، والذي لم يحدد منه سوى حمامات خارج السور الإسلامي، بسكن ليكسوس خلال هذه الفترة الذي لم يكن هو الآخر سوى تجمع سكني على ربوة تشميش، كما توضح ذلك معالم بناياته.(٥٧)

**وإذا كانت البنايات المرتبطة بهذه الفترة غير واضحة المعالم باستثناء حمامات خارج السور، فما هو حظ المواد الأثرية في التعريف بهذا التطور؟**

## النقود ومساهمتها في تأريخ المرحلة

تمتد النقود التي وجدت أو ضربت في وليلي على فترة زمنية تقع بين (١٧٣هـ/٢٠٩هـ) و (٧٨٩م/٧٩٠م - ٨٢٤ م ٨٢٥ م)، أي أنها تغطي فترة زمنية تمتد على خمس وثلاثين سنة، وبذلك فقد غطت فترتي حكم إدريس الأول والثاني.(٥٨) ويرى بعض الدارسين أن ضرب هذه النقود قد استمر بطريقة عادية حتى سنة ١٩٢هـ، أي التاريخ الذي استقر فيه إدريس الثاني بفاس.(٥٩) إضافة إلى ذلك؛ فإن استمرار ضرب النقود التي تعود لإدريس الأول، حتى بعد وفاته، يفسر بأنه بعد وفاته خلال الفترة التي تولى فيها راشد تسيير أمور البلاد استمر العمل بهذه النقود،(٦٠) وهو ما يظهر لنا منطقيًا باعتبار أن راشد سيسلم السلطة لإدريس الثاني بعد أن بلغ سن الحادية

دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

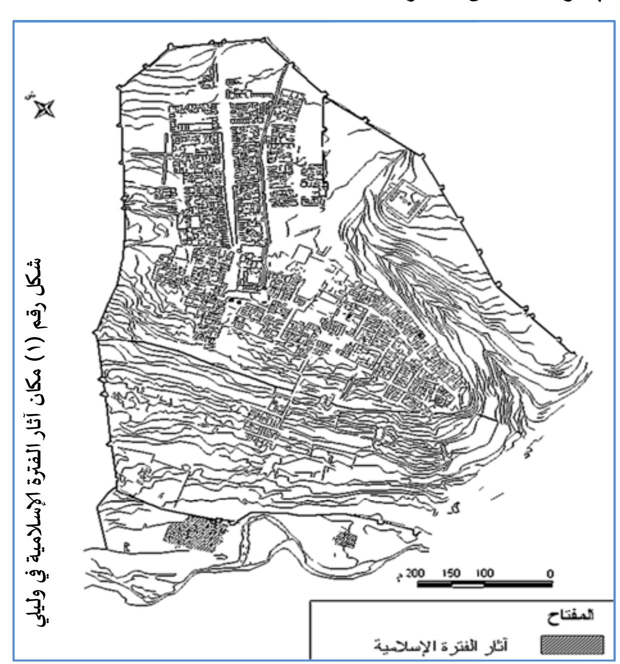
عشر، وهذه المسألة يمكن أن تنسحب حتى على هذا الأخير خلال سنوات (١٨٣- ١٨٤- ١٨٥- ١٨٨هـ).

كما كشفت الحفريات خلال الفترة التي عرفت قيام دولة الأدارسة على بعض النقود التي تحمل أسماء شخصيات صعب تحديد هويتها، ولحل هذا المشكل طرح البعض إمكانية أن يكون هؤلاء مجرد عمال أوكلت لهم هذه المهمة.(٦١) غير أن هذا التفسير يبقى مستبعدًا لأن مسألة ضرب النقود هي في الغالب مرتبطة بالسيادة وتعتبر رمزًا للسلطة، اللهم إلا إذا كان الأدارسة في بداية التأسيس قد تركوا التعامل بهذه النقود لمدة محدودة، في انتظار إصدار عملة خاصة بهم.

ومن المشاكل الأخرى التي تطرحها هذه النقود الإدريسية، أي نقود إدريس الأول والثاني، ما يرتبط بنوع السيطرة التي كانت للأدارسة على تافيلالت حيث يوجد محرف تودغة الذي لم تكشف الحفريات به عن نقود بأسماء أبناء إدريس.(٦٢) من الافتراضات التي يمكن تقديمها في هذا الصدد أن الأمر قد يتعلق بنوع من التبعية السياسية، في حين أن التسيير كان موكولاً إلى حاكم محلي، وبالتالي سيظهر نوع من النزوع نحو الاستقلال، بمجرد ظهور بعض بوادر تراجع السلطة خاصةً بعد زوال ملك إدريس الأول والثاني.

## خاتمة

لقد تحولت المدينة الرومانية التي ازدهرت خلال القرون الميلادية الثلاثة الأولى إلى مجال يضم عددًا من المقابر، وتم الاستقرار خلال فترة غير محددة في الجهة الغربية وراء ما سيعرف بسور المدينة المتأخر. عكس هذا التحول انقسام الموقع إلى شقين متناقضين؛ عالم للأموات في الجهة الشرقية، بعد أن ضل لعدة قرون يمثل مركز المدينة الروماتية، وعالم للأحياء في الجهة الغربية. ومع ذلك فإن المدينة لم تبق منحصرة وراء السور المتأخر بل إنها ستعرف خلال فترة لاحقة امتدادًا وتوسعًا فوق المجال الذي ضل مهجورًا حينًا من الدهر.



شكل رقم (١) مكان آثار الفترة الإسلامية في وليلي

## الهوامش:

(1) Y.THEBERT , J.L. BIGET , **L'Afrique après la disparition de la cité classique : cohérence et ruptures dans l'histoire maghrébine**, dans l'Afrique dans l'occident (1er siècle .Av.J.c. -4éme siècle Ap.J.), Actes du colloque organisé par l'école française de Rome sous le patronage de l'Institut National d'Archéologie et d'art de Tunis (Rome3-5 decembre1987, Rome 1990, p.576.

(٢) تفيد المعطيات النصية المتوفرة لدينا أن المدينة استقر بها المسلمون على الأقل خلال أربعة قرون، من دخول إدريس الأول إلى التاريخ الذي يقدمه سعيد الغرناطي بخصوص إخلاء المدينة.

(٣) إن آخر قطعة نقدية كشفت عنها حفريات البعثة المغربية الإنجليزية تعود لعهد يوسف بن تاشفين. أنظر: حسن ليمان، **معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية الإنجليزية بوليلي**، واقع البحث التاريخي والأثري حول المغرب القديم، أبحاث يوم دراسي من تنظيم الجمعية المغربية للبحث التاريخي الرباط، ١٨ ماي (مايو) ٢٠٠١، مجلة أمل، العدد ٢٧، ص.١٤٢.

(٤) عرفت وليلي في السنين الأخيرة حفريات تهم هذه المرحلة في إطار تعاون مغربي إنجليزي، إلا أن نتائج هذه الحفريات لا زالت لم تنشر.

(٥) لقد فسر البعض من الباحثين الانتقال إلى هذه الجهة بكون المدينة الجديدة قد تشكلت حول مركز جديد، مع الإقرار بصعوبة تحديده في الوضع الحالي، أنظر:

A. AKERRAZ, **Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis**, dans Genèse de la ville islamique enal-Andalus et au Maghreb occidental, Casa de Velazquez-csic, Madrid, 1998, p.304 note 29.

ربما قد تتمكن نتائج حفريات البعثة المغربية-الإنجليزية من تحديد نواته.

(6) M. EUZENNAT, **Rapport sur l'archéologie marocaine en 1957 et 1958**, « B.C.T.H.», 1959. 1960, Paris 1962, pp.45-61

(7) E. FREZOULS, **Quelques inscriptions nouvelles de Volubilis**, «C.R.A.I. », 1961, p.350

(8) R. THOUVENOT, **Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953**, « B .C.T.H.», 1954, p.48

(9) A. AKERRAZ, Recherches, cit., p.297.

(10) H. DELAMARTINIERE, **Souvenirs du Maroc**, Paris, 1912. p.316.

(11) N.BOUJIBAR- ELKHTIB, **L'archéologie marocaine en 1964-1965**, « B.A.M.», 6, 1966, p.544.

(12) Ibid.

(13) A.ELKHAYARI, **Les thermes extra– muros de Volubilis**, l'Africa Romana, Atti del X convegno di studio, (Sassari, 11-13 dicembre 1992), Sassari, 1994, pp.301-312,

(١٤) حسن ليمان، معطيات مرجع سابق، ص.١٣٩.

(١٥) نفسه، ص.١٤٣.

(16) A.ELKHAYARI, Les thermes extra muros, cit., p.307.

(17) N. BOUJIBAR-ELKHATIB, **L'archéologie marocaine en 1964-1965**, cit., p.544.

(18) Ibid.

(١٩) سبق لعمار أكراز أن أكد في مرحلة سابقة أن الأمر قد يتعلق ببناء روماني استمر وقتًا طويلاً بعد نهاية القرن الميلادي الثالث:

AKERRAZ (A), **Le Maroc du sud de Dioclétien aux Idrissides**, Thèse de 3éme cycle, Paris 1985. p.14.

(20) G.S. COLIN, **Monnaie de la période Idrisside trouvée à Volubilis**, «Hespéris. », 12, fasc. 11, 1936, pp.113-126.

(٢١) اعتبر بعض الباحثين أن اللقى التي وجدت في هذه المنشأة تغطي تاريخًا يمتد بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر:

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

E. LE NOIR, **Volubilis du bas-empire à l'époque islamique**, dans Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, IIème colloque international (Grenoble 5-9 avril 1983) Paris, p.426.

(22) A. ELKHAYARI, Les thermes extra-muros, cit., p.307

(٢٣) دفع العثور على عدد مهم من الشاهدات في هذا الحي ببعض الباحثين إلى افتراض إمكانية إقامة هذا الحي فوق مقبرة، وهناك مَن ذهب إلى إمكانية وجودها بالقرب من هذه البنايات، غير أن عدم العثور على آثار لها دفع البعض إلى القول بوجودها على طول السور، أنظر:

R.THOUVENOT, **Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953**,cit., p.48; E.FREZOULS, Quelques inscriptions nouvelles de Volubilis, cit., p.350.

(٢٤) عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون" العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني للطبع و النشر، الجزء الرابع ١٩٥٨ ، ص.٢٥.

(25) D. EUSTACHE, **Etudes sur la numismatique et l'histoire monétaire du Maroc**, I, corpus des dirhams Idrissides et contemporains, Rabat, 1970-1972, p.167 note 12

(26) M.PONSICH, **Lixus : Informations archéologiques**, « A.N.R.W. », II, 10, 2, 1982, p.835.

(٢٧) سبق **لبيرتيي** أن أشار في هوامش حي قوس النصر، إلى وجود بنايات تعود للفترة الإسلامية، أنظر:

P. BERTHIER, **Essai sur l'histoire du massif de Moulay Idris**, Rabat, 1938, pp.40-44.

(٢٨) من المؤشرات التي اعتمدت في هذا التأريخ، هو أنه تم الكشف تحت هذا البناء وعلى عمق 1,50 م عن مقبرة مسيحية، كما تم العثور في هذه الجهة على عدد من النقود تعود للفترة الإسلامية، يضاف إلى ذلك التشابه من حيث التقنية المستعملة في البناء مع السكن الموجود شمال منزل البيكار:

A. ICHKHAKH, **Le quartier de l'arc de triomphe, la rive nord du decumanus maximus**, Thèse pour l'obtention du diplôme de 3éme cycle des sciences de l'archéologie et du patrimoine, I.N.S.A.P., année2000-2001, pp.128-130.

(29) Ibid., pp. 212-213.

(30) G.ZEHNACKER, G HALLIER,, **Les premiers thermes de Volubilis et la maison à la citerne**, «MEFR », t .76, 1964, p.349.

(٣١) أزاحت الحفريات التراب قرب هذه الأكواخ عن عدد من القبور مغطاة ببلاطات منة حجر مسطح.

(32) A. AKERRAZ, **Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis**, dans Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, Casa de Velazquez-csic, Madrid, 1998, pp.295-304.

(33) E. LENOIR, **Volubilis du bas empire à l'époque islamique**, dans Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, IIème colloque international (Grenoble 5-9 avril 1983), Paris, pp. 425 - 442

(34) A. ICHKHAKH , Le quartier de l'arc de triomphe, cit.,p.20.

(35) Ibid . , p.21.

(36) A.AKERRAZ, Recherches, cit., p.297

(37) Ibid., pp. 302 303.

(٣٨) سبق لريموند توفنو أن أشار إلى وجود مقبرة صغيرة في هذا المنزل تعود لبداية العصر الوسيط:

R. THOUVENOT, **La Maison de l'Ephèbe**, « P.S.A.M., » 7, 1945, p.115.

(٣٩) حددت الدراسة التي عرفها هذا المنزل الاستقرار الإسلامي خلال المرحلة السابعة من تاريخه، كما أرخت بنفس الفترة للنقيشة التي سبق أن اعتبر ر. توفنو أنه وجدها في قبر.

أنظر: A. ICHKHAKH, Le quartier de l'arc de triomphe, cit. p.58.

(40) M. BEHEL, **Le Versant est de la ville ancienne de Volubilis**, Nouveau doctorat Paris IV, Sorbonne, 1993, p.266.

(41) Ibid., p.267

(٤٢) حسن ليمان، معطيات، مرجع سابق، ص.١٤١.

(٤٣) المرجع نفسه.

(44) A.AKERRAZ, Recherches, cit., p.302.

(٤٥) أزيح التراب عن عدد من القبور في بعض منشآت الحي الشمالي الشرقي والجنوبي.

(46) E.LENOIR, **Volubilis des Baquates aux Rabedie** : une histoire sans parole ?, « B.A.M. », 15,1983-1984, p.302.

(47) R. BOUZIDI, **Recherches archéologiques sur le quartier du Tumulus (Volubilis)**, Thèse pour l'obtention du diplôme de 3éme cycle des sciences de l'archéologie et du patrimoine, option archéologie préislamique année 2000-2001. p.89.

(٤٨) أقيم القبر الذي أزيح عنه التراب في الحي الجنوبي الشرقي، على الواجهة الغربية للوحدة السكنية II حسب ترقيم محمد البهل. مكنت الدراسة الأنثروبولوجية من تحديد عمر الميت بين ٢٤ و٤٠ سنة. وقد تم لحد الآن إحصاء ستة قبور أزيح التراب عن اثنين منها، أنظر:

H.LIMANE, A. CHERGUI, A.ICHKHAKH, **Découverte d'une tombe Islamique au quartier sud de Volubilis**, « N .A.P. », N0 1, Avril 1997, p.8.

H. LIMANE, A. ICHKHAKH, **Quelques données sur l'occupation Islamique à Volubilis**, Trad. MARTINA RIBE, dans Volubilis eine romische stadt in Marokko von der fruhzeit bis in di islamische periode, éd. Verlag philipp von zabern, Berlin, 2001

(٤٩) اكتشفت هذه المقبرة أولاً من طرف الباحث دورياك (Dauriac)، وقد نقب فيها الباحث عمار أكراز الذي أزاح التراب عن أربعة وعشرين قبرًا، أنظر:

A. AKERRAZ, Le Maroc, cit., p.131.

(٥٠) كشفت الحفريات إضافة إلى قبور منزل المقبرة الإسلامية عن عدد من القبور بجوار بعض منازل هذه الجهة وفي حمامات الشمال وفي الحي الجنوبي، فقد تم إزالة التراب في أقصى وحدة سكنية في هذا الحي عن أربعة قبور إسلامية:

A. OUMLIL, **Etude de l'architecture du quartier sud de Volubilis**, thèse de doctorat dactylographiée, Laval, 1989, p.108.

A. AKERRAZ , Recherches, cit., pp.298 et 299 note16.

(51) A. AKERRAZ, Le Maroc ,cit., p.130; Id., **Les rapports entre la Tingitane et la Césarienne à l'époque post-romaine**, « Africa romana » , Atti del XII convegno di studio, Olbia, 12-15 dicembre 1996, pp.1435-1439.

(52) A.ICHKHAKH, Le quartier de l'arc de triomphe, cit., p.26.

(53) H. LIMANE, A. ICHKHAKH, Quelques données, cit.

(54) A. AKERRAZ, Recherches , cit., pp.295-304

(55) M. EUZENNAT, **L'archéologie marocaine de 1958 à 1960**, « B.A.M. », 4, 1960, pp.523-564.

(56) A. AKERRAZ, Recherches, cit., p.299 note 16

(57) M. PONSICH , Lixus, cit., p. 835

(٥٨) تعود آخر النقود التي ضربت في وليلي لسنوات ١٩٩ و٢٠٩ هـ. ومع ذلك فمن المؤكد أن المدينة لم يتم هجرها فجأة بعد هذا التاريخ:

A.AKERRAZ , Recherches, cit., p.302.

(59) D. EUSTACHE, Etudes, cit., p.164 .

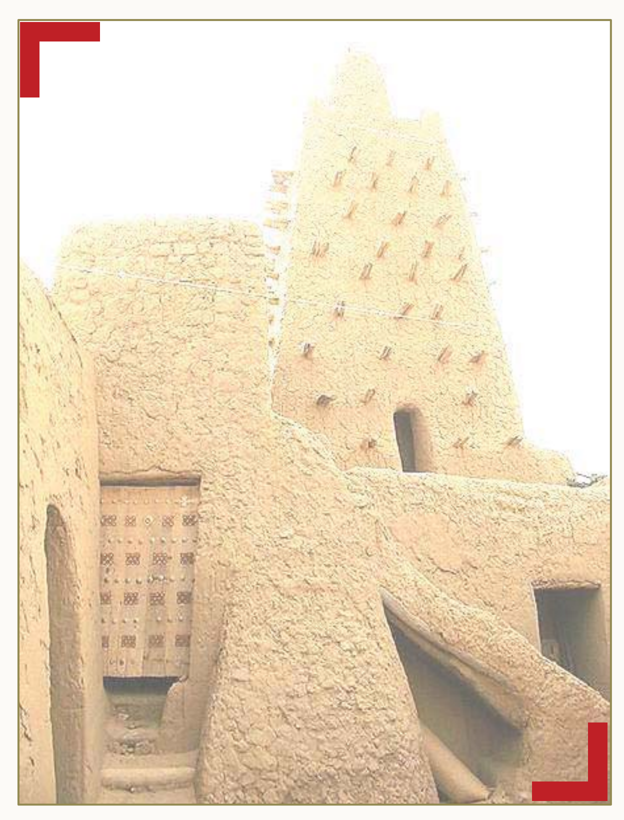
(60) G.S. COLIN, **Monnaies de la période Idrisside trouvées à Volubilis**,« Hespéris », 22, fasc 11, 1936, p.121

(61) Ibid., p.125.

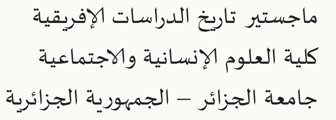
(62) Ibid., p.122

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





# مدينة تنبكت (تمبكتو) "نشأة المدينة وتطورها"

عبد الحميد جنيدي

ماجستير تاريخ الدراسات الإفريقية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر – الجمهورية الجزائرية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عبد الحميد جنيدي، مدينة تنبكت (تمبكتو): نشأة المدينة وتطورها.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١١١ – ١١٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 – 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



## ملخَص

حظيت مدينة تنبكت بأهمية خاصة بين مراكز العمران والاستقرار، لأنها أصبحت ملتقى الحضارة العربية الإفريقية بعد تأسيسها على يد قبائل (مقشران) الطارقية، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكان لموقعها المهم على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يطلق عليه منحنى نهر النيجر، أغلب الأثر في ازدهارها السياسي، والاقتصادي والاجتماعي ، والفكري عبر الزمن.

تتناول هذه الدراسة نشأة مدينة تنبكت (تمبكتو) وتطورها، من خلال إشكالية التسمية والإطار الجغرافي للمدينة وأهميته، ثم التركيبة السكانية للمدينة، ثم دراسة تطور المدينة بمعنى دراسة مظاهر العمران بالمدينة، وأخيرًا التطور السياسي للمدينة بتوضيح أهم القوى السياسية التي تعاقبت على حكم المدينة وما خلفته من أثار.


## مُقدِّمة

مدينة تنبكت "تمبكتو" حملت أسماء عديدة منها: "المدينة المقدسة في السودان"، و "المدينة البهية" و"المدينة الأبدية"، و"المدينة العجيبة"، و"المدينة الأسطورية"، و"مدينة الإشعاع الثقافي"، و"جوهرة الصحراء" ، وغيرها من الأسماء الأخرى التي عكست حضارتها على مدى ثلاثة قرون. ونأمل أن تساهم هذه الدراسة في التعريف بتاريخ مدينة تنبكت (تمبكتو)، تعريفًا من شأنه أن يقرب إلى الدارسين والباحثين وغيرهم تاريخها، ويعكس رؤية واضحة عن ماضيها. وحسبنا كشف معالم الطريق لمزيد من البحث والدراسة، والمجال مفتوح أمام الباحثين في زيادة البحث عن تاريخها، بالإضافة إلى تاريخ ودور بعض المراكز السودانية الأخرى التي لا تقل أهمية عن مدينة تنبكت (تمبكتو)، فقد لعبت هذه المراكز دورًا اقتصاديًا وثقافيًا من أجل تنمية المنطقة، ونذكر من هذه المراكز مدينة جني، و قاو... وغيرهما.

### الهدف من الدراسة

إبراز أهمية مدينة تنبكت (تمبكتو) كونها ارتبطت بدول شمال الصحراء؛ إذ قصدها التجار والعلماء من الشمال الإفريقي خاصة من الجزائر وليبيا، والمغرب عبر الصحراء الكبرى، إذ اعتبرت همزة وصل بين دول الشمال الصحراء ودول جنوب الصحراء.

## أولاً: إشكالية التسمية ونطقها

إن أول ما يعترض الباحث في تاريخ مدينة تنبكت (تمبكتو) الإسلامية هو أصل التسمية وكيفية نطقها. فيما يخص الملاحظة الأولى، قامت مدينة تنبكت (تمبكتو) الإسلامية حول بئر ماء كانت تقف عندها الإبل بالقوافل التجارية لتروي عطشها وتتزود منها، وتملأ منها قربها. وكانت تقيم عند هذا البئر عجوز تدعى بوكتو وعُرف المكان باسمها، ونطقت تينبوكتو.[1]

أورد عدد من المؤرخين، أن كلمة تينبوكتو مركبة من كلمتين هما: "تين" وتعني باللغة الطارقية "مكان "، و"بوكتو" هو اسم تلك العجوز، هذه العجوز[٢] اشتهرت بالأمانة،[٣] وكانت تقيم في ذلك المكان وكان الطوارق وأهل المنطقة القادمون من أماكن بعيدة يستأمنونها في تخزين مؤنهم، وبعض الأشياء الأخرى، التي كانوا في غير حاجة لنقلها معهم إلى مناطق استقرارهم في الشمال، وكان عندما يصل الطارقي إلى موطنه الأصلي يسأل، أين أمضيت فترة الجفاف؟ أو أين لجأت بقطعان ماشيتك أثناء سفرك؟ أو أين خبأت أمتعتك؟ يقول: وضعتها عند "تين – بوكتو"، ومع مرور الزمن اندمجت الكلمتان معًا فأصبحت "تين بوكتو"، ثم تمبكنو، وتنبكت، وبذلك سميت المدينة.[٤] ولا يزال مكان بوكتو العجوز الطارقية، التي ينسب إليها اسم المدينة موجودًا، وهو حاليًا عبارة عن مثلث يقع في قلب المدينة القديمة.[٥]

أما فيما يخص الملاحظة الثانية، فإن الاختلاف وقع في حركات الكلمة بين مَن يقول بضم التاء الأولى، والثانية فنطقت "تنبكت"، وهذا كما جاء في المصادر السودانية، تاريخ السودان للسعدي، وكذلك في كتاب الفتاش لمحمود كعت، وأيضًا في كتاب نيل الابتهاج وكتاب كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، وكذلك وجدت في كتاب تذكرة النسيان في تاريخ ملوك السودان لكاتب مجهول، ومَن يقول بضم التاء وسكون الباء الموجودة وسكون الكاف، وضم التاء الثانية بعد الواو فنطقت "تنبكتو"، نطقها ابن بطوطة بهذا اللفظ ، في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. وفي الحقيقة، أن هذه اللفظة هي أقدم صيغة وردت لاسمها في رحلته رحلة ابن بطوطة. أما الحسن الوزان فنطقها "تومبكتو" في كتابه وصف إفريقيا، ونطقها صاحب كتاب إفريقيا كربخال مارمول "تمبكتو" تارة ، وتارة أخرى "تنبكتو".

أما الباحثون المعاصرون فنطقوها "تمبكتو" بالتاء والميم، منهم: عبد القادر زبادية إسماعيل العربي، آدم عبد الله الالوري ... وغيرهم. أما الأوربيون فنطقوها بالتاء، والميم أيضا منهم : ديبوا بارث، رينيه كالييه وغيرهم. والنطق للكلمة يتغير خلال اللغات، فباللغة الفرنسية تنطق "تومبكتو" (Tombouctou)، وباللغة الإنجليزية " تيمبوكتو" (Timbouctoo)، أما في لغة سنغاي فنطقت "تومبوكتو".[٦]

## ثانيًا: النشأة

بعد أن بحثنا في أصل التسمية، ورأينا اختلاف الكُتَّاب في شكل كتابة اسمها، ونطقها، سنتطرق الآن إلى تاريخ نشأة المدينة وعلى يد مَن أنشئت؟ فقد اختلف عدد من المؤرخين في تاريخ نشأة المدينة؛ يرى عبد الرحمن أن المدينة أنشئت على أيدي طوارق مغشرن، في أواخر القرن ٥هـ/١١م ، هؤلاء كانوا ينزلون بها في فصل الصيف، ثم يرتحلون في فصل الخريف، ومنه اختاروا موضع هذه البلدة الطاهرة الزكية.[٧] أما الحسن الوزان الغرناطي، فيقول أن المدينة بناها ملك يدعى منسى سليمان في عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م.[٨] أما مارمول فيوافقه في مؤسسها، ويختلف معه في تاريخ قيامها يرى أنها تأسست في ٦١٠هـ/ ١٢٠٠م، غير أن هذا الأخير يبدو أنه غير متأكد.[٩]

هذان الرأيان الأخيران مردودان على صاحبيهما، لأن الملك منسى سليمان، حكم مملكة مالي في عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، وأستمر حكمه إلى غاية ٧٦٢هـ/١٣٦٠م.[١٠] أما المؤرخ فيج فيرى أن المدينة أقيمت في سنة ١١٠٠م من قبل الطوارق[١١] الذين هاجروا بقطعانهم جنوبًا من أروان[١٢] في الإقليم الشمالي واستخدمت في البداية كمضرب خيام موسمي في الصيف، ثم كمستودع لحفظ الأغذية، والمواد التموينية الأخرى.[١٣] أما الباحث الإنجليزي سبنسرتر منجهام، فيرى أن تاريخ نشأتها كان في أواخر القرن ٥هـ في سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م،[١٤] في عهد يوسف بن تاشفين.[١٥]

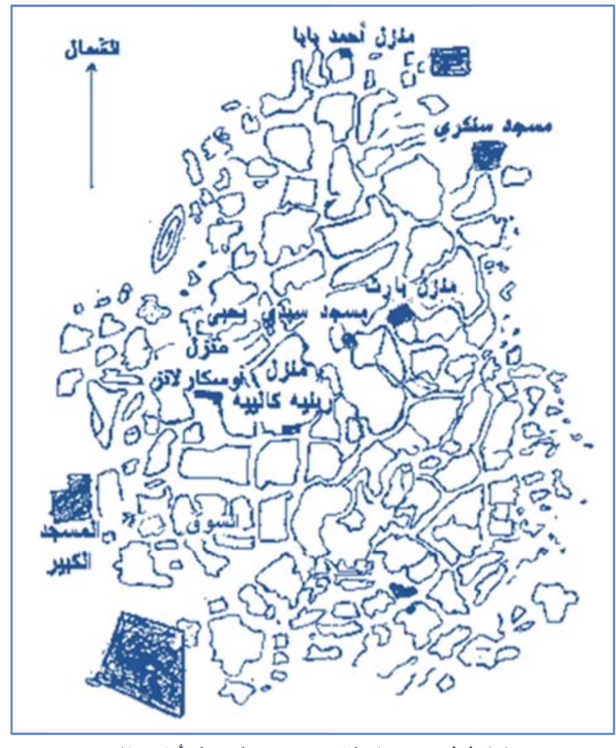
أختلف المؤرخون في تحديد تاريخ نشأتها، يقول البعض أن ذلك كان في القرن ٥هـ/١١م ، أما البعض الآخر فيقولون في نهاية القرن ٦هـ /١٢م. ونحن نميل إلى رأي عبد الرحمن السعدي الذي يرى أن تاريخ نشأتها كان في أواخر القرن٥هـ/١١م، وذلك لأنه ابن المدينة، ويعرفها أحسن من غيره. كما يتضح من خلال هذه الاختلافات، أن المدينة انشئت على يد الطوارق، طوارق مغشرن، ولا يختلف اثنان في كون الطوارق هم مؤسسو تنبكت الأوائل.[١٦] ويقول المؤرخ سينكي مودي سيوكو: " ...نسلم اليوم، تبعًا لتاريخ السودان الغربي، يقول، بأن تنبكت كانت قد تأسست في بداية القرن ٥هـ/١١م من طرف قبائل الطوارق...".[١٧]

## ثالثًا: الموقع الجغرافي

لاحظنا أن الطوارق هم آباء مدينة تنبكت، وهم مؤسسوها، أي لهم الفضل في إقامتها بعد أن كانت مجرد خزانة لزروعهم وأمتعتهم. تقع مدينة تنبكت في أول السودان الغربي،[١٨] على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى قريبة من خليج النيجر "نهر النيجر".[١٩] تقع على الضفة اليسرى منه،[٢] على ارتفاع ٢٤٥م من مستوى النهر،[٢٠] بينها وبين النهر في فصل الصيف مسافة ستة عشر(١٦) ميلاً، أي نحو(٢٦كلم) تقريبًا،[٢١] وفي فصل الخريف يقرب إليها ماء النهر يصبح على بعد سبعة (٧) أميال، أي نحو(١١كلم) تقريبًا، وفي فصل الشتاء يصل ماء النهر إلى القرب من المدينة، وبالتالي يسهل حركة السفن الصغار.[٢٢] وبالتالي تستفيد من مزايا نهر النيجر وذلك في النقل النهري، وهي بعيدة عنه بالكفاية، بحيث تجنب الفيضانات العارمة التي اشتهر بها النهر.[٢٣]

تقع المدينة على خط العرض الشمالي ١٦ ° – ٤٣ °، وخط الطول الشرقي٥ °.[٢٤] وهناك مَن يقول أنها، تقع على خط عرض ١٧° - ٤٠ °، وخط طول٣ ° – ٥٠ °.[٢٥] رغم اختلاف الباحثين في تحديد موقعها الفلكي، إلا أنها مدينة نمت من أصولها المتواضعة، ثم أصبحت ذات مكانة مميزة بفضل موقعها الجغرافي الفريد لوقوعها بين الصحراء الكبرى، والساحل السوداني الغربي الشمالي، فهي بذلك نقطة التقاء، وتقارب بين الشمال والجنوب.[٢٦] والمدينة

هي بناء على جانبين من واحة متجهة شرق - غرب وعلى الميل الجنوبي لثاني واحة موازية للأولى وبالشمال منها. الشكل العام للمدينة هو واحد من مثلث قاعدته بالجنوب،(٢٧) (انظر: المخطط رقم: ١)، ومحيطها نحو٣أميال،(٢٨) أي نحو(٥ كلم) تقريبًا.

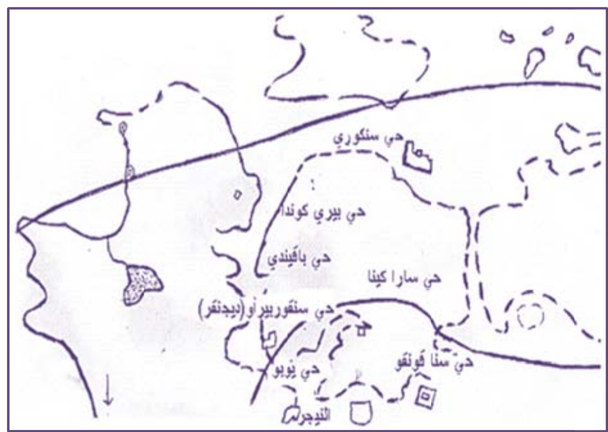



مخطط (١) تقريبي لشكل مدينة تنبكت في أواخر القرن ١٩م
بتصرف عن: Dubois, (F), op. cit, P. 385

والمدينة مقسمة إلى العديد من المناطق قسمها العالم النمساوي، الدكتور أوسكارلانز، الذي زار المدينة في عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، وبقى بها ثلاث أسابيع، إلى سبع (٧) مناطق وهي:

١- حي سنا قونقو Sanegoungou، إلى الجنوب الشرقي من المدينة، ويقطنه تجار غدامس.
٢- حي يوبو YouBou،وفيه سوق يوبوyoubou ومسجد، ويقع هذا الحي غرب حي سناقونقو.
٣- غرب حي يوبو، يوجد حي سنقوربيرأو(ديجنقر) Sanguereber.ويحمل هذا الحي أسم الجامع الكبير.
٤- وشمال حي سناقونقو يوجد حي سارا كينا Sarakaina.
٥- حي بيري كوندا Biricounda، وبه سوق اللحوم.
٦- حي باقيندي Baguindi.
٧- حي سنكوري Sankoré.(٢٩). (انظر المخطط رقم: ٢).

هذه الأحياء عامرة بمختلف السكان، ومن أصول مختلفة(٣٠). وهي نقطة بحثنا في العنصر الموالي.




مخطط (٢) تقريبي لأحياء مدينة تنبكت
بتصرف عن: Sekens, (M, C), Op, Cit, P. 243.

## رابعًا: التركيبة الاجتماعية

رأينا في الفقرة السابقة، أن مدينة تنبكت تحتل موقعًا استراتيجيًا، وقد مكنها موقعها المتميز إن تصبح مقصد العديد من الأجناس. فقد أكد عبد الرحمن السعدي، أن المدينة سكنها الأخيار من العلماء والصالحين، وذوي الأموال من كل قبيلة، ومن كل بلاد من أهل مصر، ورجل (ورقلة) وغدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وسوس(٣١) وبيط. وانتقل الجميع إليها وسكنوا فيها، وزيادة على ذلك قبائل صنهاجة بأجناسها،(٣٢) إضافة إلى ذلك سكنها علماء قبائل جدالة العربية، وعلماء كونتا القادمون من إدرار الذين جاؤوا تنبكت بعد أفول ولاتة،(٣٣) واستقروا هناك. كما أن سكان محليون قدموا من مختلف مناطق السودان الغربي، حيث أقاموا مواقع لسكنهم فيها بهدف الاستقرار الدائم.(٣٤)

وانبث المرابطون في القرى، يعلمون القرآن، والكتابة بالعربية، وكان أبناء المشايخ يأتون إلى تنبكت لتحصيل العلم، هذا كان من جهة البربر الذين زحفوا من الشمال. أما العرب فإن إحدى فصائل بني هلال تقدمت من نواحي طرابلس إلى واحة ودان،(٣٥) ومن هناك إلى ولاتة، ثم تقدمت نحو السودان فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربي واختلطت بهم،(٣٦) حدثت هناك مصاهرة بين السودانيين والعرب، والبربر المقيمين عندهم، لاسيما الأغنياء منهم، فكانت المصاهرة تتم حتى مع ملوك السودان، فقد قام أحد ملوك مالي بتزويج ابنتيه من أخوين من المغرب، كما أن زعيم اللمتونين أبا بكر بن عمر فاتح بلاد السودان، قد زوج إحدى بناته لأحد ملوك مالي أيضًا.(٣٧) وحدثت مصاهرات بين المغاربة من فاس وأهالي تنبكت، فقد أورد محمود كعت زواج الشريف الحسني أحمد الصقلي في تنبكت، من امرأة عربية من أهل تافلالت اسمها زينب فولدت له مزوار ومحمد وسليمان ورقية، وزينب.(٣٨)

في القرن ٧هـ/١٣م، هاجر أهل كونتة وغيرهم من بلاد توات إلى الجنوب، وبنوا في تنبكت المدارس والرابطات مما لمعت به تلك المدينة طويلاً، ومن هؤلاء الكونتة البكاءون الذين اشتهروا في جهات تنبكت.(٣٩) واستقربها الكثير من التجار التواتيين حتى أصبحت

الجالية التواتية هناك من أكبر وأنشط الجاليات، وكان دور الفقهاء التواتيين لا يقل أهمية عن دور التجار.[٤٠] يذكر المؤرخ فليكس ديبوا في كتابه تمبكتو العجيبة، الذي زار المدينة في نهاية القرن ١٩م، إن حيًا بكامله داخل المدينة كان يترأسه التجار القادمون من طرابلس، كما أن حيًا بكامله بالمدينة كان معروفًا باسم حي الغدامسية، نسبة إلى مدينة غدامس.[٤١] يُعد ذلك الحي أرق أحياء المدينة وأجملها ونتيجة لذلك فقد اختارته العساكر المراكشية عندما احتلت تنبكت لبناء القلعة، فليس غريبًا إذن أن ينال أفراد الجالية الغدامسية أهمية وحظوة فعندما توفي فياض الغدامسي خرج للصلاة عليه أشهر فقهاء تنبكت. لقد احتلت الجالية الغدامسية أهمية كبيرة، وذلك مرجعه إلى الأثر التجاري المهم والعريق الذي أسهم به أفراد تلك الجالية.[٤٢]

وهناك أيضًا مجموعة من البرابيش الذين يقيمون بالمدينة هؤلاء سكنوا تنبكت خلال منتصف القرن١٠هـ/١٦م.[٤٣] ويوجد عدد من تجار ولاتة الذين رحلوا إلى تنبكت بعد قيام هذه الأخيرة.[٤٤] وهناك عناصر من المورين الأندلس منهم المهندسون وملاك القصور،[٤٥] ومنهم التجار[٤٦]، ومنهم الشعراء، والباحثون الذين فروا من الأندلس حاملين معهم الثروات الثقافية الغرناطية والقرطبية.[٤٧] وهناك عائلة عربية في تنبكت تدعى توري، والتي كانت تلقب بتوري العرب، كونها تعد من أحفاد العرب أومن أحفاد أولئك المسلمين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام كما يؤكد سكان المنطقة أن معظم من يحملون لقب توري بتنبكت، ينحدرون من سلالة الجنود الذين جاؤوا مع الجيش المغربي إلى السودان الغربي خلال حملة الباشا جودر،[٤٨] هؤلاء يدعون اليوم بـ"أرما"،[٤٩] من أهل مراكش، أو الفاسي 'من فاس'، أو الفيلالي 'من تافيلالت' وهم يتكلمون لغة السنغاي.[٥٠]

وإذا انتقلنا في الحديث عن صفات وعادات أهالي تنبكت، نقول أن لأهل تنبكت طبعًا مرحًا ومن عاداتهم التريض في المدينة أثناء الليل بين الساعة الثانية والعشرون والواحدة صباحًا، وهم يعزفون على الآلات الموسيقية ويرقصون، ويعمل في خدمة سكان المدينة الكثير من الرقيق بين رجال ونساء.[٥١] ويحبون الخروج بعد الظهر رغم حرارة الجو فبعضهم يتنزهون على أحصنتهم في الشوارع، أما العلماء فيرتكزون على عصيهم، ويشكلون مجموعات صغيرة.[٥٢] ولا يخفى ما في أهلها من السماحة وحسن السياسة، والرياضة لا غلظة فيهم، ولا غظاظة لا ينكرون عادة غريب، ولا ينقصون أجنبيًا ولا غريبًا.[٥٣]

أما لباسهم، فهي ألبسة نظيفة[٥٤] ومعظمهم يلبسون ثيابًا ملونة باللونين الأبيض والأزرق، ولربما كان بعضها من المنسوجات المحلية. وكانت الشوارع مزدحمة بالمارة. أما النساء فغالبًا ما يرتدين الثوب الأبيض 'بوبوس'، وكانت الزينة تتخذ من النحاس، وهناك من النسوة من تضعن سوارًا من الفضة في أيديهن وحلقات من الحديد، والفضة في أرجلهن.[٥٥] أما النسوة الثريات فلهن بعض المجوهرات من الذهب كأقراط الأذنين[٥٦] والكهرمان، والشعر المظفر. بينما تتبسط نساء رجال الدين في ملابسهن وغالبًا ما يتخذ من الحجاب أو الخمار.[٥٧] ويلبسن الفساتين الجميلة المطرزة، والديسا 'Dissas' المزينة التي ترمى على الكتف مثل العباءة، والنساء يتركن الذهب والعنبر قبل الذهاب إلى السوق وعند جلب الماء.[٥٨]

وبالنسبة للأحذية الشكل العام للحذاء هو الحذاء العربي من نوع الخف مصنوع من الجلد الأصفر بالنسبة للرجال، والأحمر بالنسبة للنساء، وأحذية أخرى مزينة بالحرير ونعل رقيق. أما الأثرياء فيلبسون الأحذية الكبيرة 'Boute' الحمراء والصفراء. وعدد من السكان يلبسون أحذية بنعل من جلد البقر، ويسمى تيجلامبو (Tjelambou)[٥٩].

مدينة تنبكت في القرن ١٠هـ/١٦م هي شهادة لحياة التحضر، فالمدينة كانت جد حيوية، هناك مظاهر الزواج مع الطبل، والرقصات الليلية، والأناشيد، وهناك اثنان من الحفلات الكبيرة في السنة العيد الكبير المسمى عندهم تاباسكي (Tabaskie)، وهو حفل إسلامي في مصب نهر النيجر وبالخصوص تنبكت، وكذلك تخلد المولد النبوي الشريف.[٦٠]

أما بالنسبة إلي عدد السكان في القرن ٩هـ/١٥م فبلغ عدد السكان ٢٥,٠٠٠ نسمة[٦١]، وفي القرن ١٠هـ/١٦م قدر الباحث سينكي مودي سوكو عدد سكان المدينة في ذروة مجدها بحوالي ٨٠,٠٠٠ نسمة، وهذا في عهد الأسكيا داوود (١٥٤٩- ١٥٨٣م).[٦٢] أما المؤرخ فليكس ديبوا فيقدر عدد السكان في مرحلة الأوج بـ ٤٠ إلى ٥٠ ألف نسمة.[٦٣] أما عمار هلال فقدر عدد سكان المدينة في عهد الأسقيين بما يقرب ٣٠,٠٠٠ نسمة.[٦٤] وفي القرن ١٩م الرحالة الأوربي بارث، قدر عدد سكان المدينة بما يزيد عن ١٥,٠٠٠ نسمة، وفي بعض المناسبات يزيد عن ١٠,٠٠٠ نسمة، وفي حين بعض الأحيان يصلون إلى ١٣,٠٠٠ نسمة.[٦٥] وفي فترة الغزو الفرنسي على المدينة سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م، قل عدد سكانها إذ أصبح عدد السكان يتراوح مابين ٥ إلى ٦ آلاف ساكن[٦٦]، أو ٨ آلاف نسمة.[٦٧] وفي أواخر القرن ١٩م انخفض العدد إلى ٥ - ٤ آلاف نسمة.[٦٨]

## خامسًا: التطور العمراني للمدينة

أما بالنسبة للعمارة؛ فإن أول الحال كانت مساكن الناس عبارة عن زريبات الأشواك وبيوت الأخشاش، ثم تحولوا عن الزريبات إلى الصناصن، ثم تحولوا إلى بناء الحيوط أسوارًا قصارًا جدًا بحيث من وقف في خارجها يرى ما في داخلها، وتكاملت في البناء في أواسط القرن ١٠هـ في مدة حكم أسكيا داوود بن الأمير أسكيا الحاج محمد.[٦٩] ففي أوائل القرن ١٦م، زار المدينة الرحالة الحسن الوزان، ووصف بيوتها على أنها أكواخ مصنوعة من أعمدة مطلية بالطين مع سقوف من القش، وهناك قصر كبير قد بناه مهندس من الأندلس حيث يسكن الملك.[٧٠] وربما كان يقصد قصر مادقو

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(Madougou)، فقد شُيد هذا القصر على يد شاعر الأندلس أبو أسحق إبراهيم الساحلي.[٧١]

أورد الباحث جيمس غراي جاكسون، أن المدينة محاطة بسور عظيم، يصل ارتفاعه أثني عشر(١٢) قدما(٣.٩٦م)، وهو قوي بما فيه الكفاية لحماية المدينة، وبه ثلاث أبواب: الباب الأول وهو 'باب الصحراء'، وموقعه شمال المدينة، وهو يؤدي إلى الصحراء الكبرى. والباب الثاني، وهو 'باب النيل' يقصد بالنيل – نهر النيجر-، ويقع جنوب المدينة وهو يؤدي إلى نهر النيجر. أما الباب الثالث فهو 'باب القبلة' الواقع شرق المدينة وهذه الأبواب تغلق كل مساء بعد غروب الشمس بفترة وجيزة، والأبواب مصنوعة من الأخشاب ومبطنة بجلود الإبل.[٧٢] هذا السور حطمته قبائل الفولان عند غزوهم المدينة سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.[٧٣]

بارث- أحد أولئك الزوار- يقول إن الأبنية مبنية من الطين ذات أشكال وأحجام مختلفة،[٧٤] ومصطفة في شوارع منتظمة،[٧٥] وبعضها منخفض وبعضها عال، وبعضها مزخرف وبعضها محاط بأكواخ قش،[٧٦] وشوارعها ضيقة، وطويلة وبها متاهات مستعصية، ومجالات غير متوقعة.[٧٧] أما رينيه كاليه فذهب إلى وجود شوارع واسعة.[٧٨] وصف بارث المنزل الذي سكن فيه، إذ يقول: "منزل يشرف على منظر جميل للجوانب الشمالية للمدينة، وكان يرى من منزله جامع سنكوري، يقول، الذي يعد من أهم مساجدها وجوامعها".[٧٩]

والباحث Hacquard يصف لنا أحد هذه المباني، إذ يقول: "يعلق في الباب حلقة من حديد،... وتوجد أول غرفة التي يقال لها سيفا Sifa لاستقبال الضيوف، ثم يوجد بهو محاط بغرف خاصة بالنساء، وفي الطابق الثاني، توجد غرف قد يصل عددها أثنين أو ثلاث، وهناك غرفة مخصصة لاستقبال الأصدقاء، والأشخاص المميزين". لكن لا يمكن الاعتقاد أن كل المنازل تملك هذا الطابق، الطابق الثاني، ولا توجد المباني ذات ثلاث طوابق. إلى جانب آخر هناك أكواخ القش، يسكنها العبيد، والفقراء وليست غالبًا مبنية من خيام الجلد،[٨٠] وإن وجدت فهي ذات شكل دائري تقريبًا،[٨١] وهي منخفضة جدًا.

الأثاث يتكون من أواني الطبخ،[٨٢] الأطباق تصنع من الخشب، ولا يستعملون الملاعق ولا الأشواك،[٨٣] وصناديق مصنوعة من الحطب توضع فيها الألبسة، والأشياء الثمينة فضة أو صيغ (صيغة)، السرير من القش،[٨٤] ويتركز السرير على أربعة أرجل ويضعون عليه الحصائر، أو جلود البقر. أما الأثرياء فيفرشون أسرتهم بالأفرشة القطنية أو الصوفية، أو المصنوعة من جلود الجمال،[٨٥] وبعض الأغطية موضوعة على حصيرة أو على كارا Kara منصة مصنوعة من الحطب، وهناك وسائد وحصائر، وأغطية مصنوعة من الصوف، وهي ذات ألوان متعددة.[٨٦] هذه الأكواخ توجد على الأطراف الشمالية والشرقية للمدينة، وهى تشكل امتدادًا للمدينة شمالاً سكنها البلاه،[٨٧] أو العبيد من الطوارق.

وهناك الأسواق، مثله السوق الكبير المسمى يوبو- بار-Yobou-ber[٨٨]، بالإضافة إلى المخازن والمستودعات وأحياء للأجانب المقيمين والعديد من الحوانيت، والورش الصناعية.[٨٩] أما عدد المساكن المبنية والمهدمة فقد اختلف المؤرخون في إحصائها. أفاد الباحث جيمس غراي جاكسون أن عدد المنازل في مدينة تنبكت في أواخر القرن ١٨م بحوالي ١٨٠٠منزل.[٩٠] أما الرحالة الألماني بارث فقد أكد على أن البيوت التي كانت في حالة جيدة بما يربوا ٩٨٠ منزلاً، وبضع مئات من أكواخ مخروطية التي سبق وأن أشرنا إليها. أما الدكتور أوسكار لانز فيرى أن عدد المنازل يقدر بـ٣٥٠٠منزلاً، ومعظم السكان يتمركزون في الجزء الجنوبي من المدينة.[٩١]

ويوجد في المدينة ثلاث مساجد كبرى؛ مسجد جنكربير، ومسجد سنكري، ومسجد سيدي يحيى.[٩٢] والمدينة كثيرة التعرض لخطر الحريق، في الوقت الذي كان حسن الوزان فيها، شب حريق أتى على نصف المدينة في فترة خمس ساعات، وكانت الريح عاتية، وأخذ سكان النصف الثاني من المدينة في إخلاء أمتعتهم خوفًا من أن تحترق أجسامهم كلها.[93]

## سادسًا: التطور السياسي للمدينة

بعد دراسة التطور العمراني للمدينة، ندرس الآن التطور السياسي لمدينة تنبكت، إذ وقعت تحت سيادة العديد من القوى. والمؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي، يلخص هذه القوى المتعاقبة على حكمها ويعطي مدة حكم كل قوة فيقول: أن أول من ابتداء الملك في تنبكت هم أهل ملى، ودولتهم استمرت مائة عام وتاريخها من (٧٣٧-٨٣٧)هـ، (١٣٣٧ - ١٤٣٤)م، وبعد أفول هذه القوة سيطر عليها طوارق مغشرن مؤسسوها، ابتداءً من سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م واستمر حكمهم إلى غاية سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، ثم استولى عليها سني علي، وابتدأ الحكم في سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، واستمر حكمه ٢٤ عام، وتاريخه (٨٧٣ - ٨٩٨)هـ، (١٤٦٨ - ١٤٩٢)م، ثم سيطر عليها أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد،[64] حكم الأسقيين، ومدة حكمهم١٠٠عام، (٨٩٨ - ٩٩٩)هـ، (١٤٩٣ - ١٥٩١)م، وبعد ذلك سيطر عليها الشريف الهاشمي السلطان مولاي أحمد الذهبي سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م.[٩٥]

### ٦/١- تنبكت في عهد مملكة مالي[٩٦] (٧٣٧- ٨٣٧)هـ،(١٣٣٧-١٤٣٤)م:

السلطان منسى موسى[٩٧]هو أول الملوك الذين حكموا تنبكت وجعل فيها خليفة له، وابتنى بها دار السلطنة "دار السلطان"،[٩٨] وحظيت تنبكت بعناية منسى موسى الذي انطلق منها في رحلته إلى الحج الشهيرة، وهذا كبادرة على إشهارها وتكريمًا لها.[٩٩] ويقال أنه أخذ معه نحو ١٠ إلى ١٢ طن من الذهب لتغطية نفقات سفره،[110] وبعد عودته من الحج اصطحب معه شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي، السابق ذكره، والمعروف بالطويجن،[101] الذي كلف ببناء مسجد ضخم بالمدينة، ليكون ملتقى لعلماء المدينة وأئمتها، ولباقي علماء المنطقة،[102] أُطلق عليه اسم مسجد جنكر

بير(سبق ذكره) ومعناه الجامع الكبير، كما كلف ببناء القصر الملكي مادقو (Madougou)،[103] وكأفاه السلطان على هذا العمل بما يبلغ ٦٥ ألف جنيه.[104] أما عبدالرحمن بن خلدون فيقول أن السلطان كافأه باثني عشر ألفا (١٢,٠٠٠) مثقال من التبر،[١٠٥] وأصطحب منسى موسى عددًا من رجال الدين، والتجار[١٠٦]. ولما توفى السلطان بعد خمسة وعشرين(٢٥)سنة من حكمه، خلفه ابنه منسا مغا حكم أربع سنوات، ولما هلك خلفه منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو منسا موسى، وحكم أربع وعشرين سنة.[١٠٧] بنى منسا سليمان المساجد والجوامع والمنارات وأقام بها الجمع، والجماعات والآذان وجلب الفقهاء من مذهب مالك "رضي الله عنه".[١٠٨]

زار الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة مدينة تنبكت سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م، برفقة جماعة من تجار سجلماسة، وذكر أن أهلها كانوا من المسلمين، وكانت قبيلة من مسوفة سيدة القبائل فيها، وبهذه البلدة قبر الشاعر أبي إسحاق الساحلي الغرناطي، وبها قبر سراج الدين بن الكويك[١٠٩]من كبار تجار الإسكندرية، ووجد أن الحياة آمنة،[١١٠] رغم تعرضها للنهب من طرف قبائل الموسي عام ١٣٣٧م،[١١١] أما كورنفان Cornevin فيرى أن قبائل الموسي نهبوا المدينة سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م[١١٢]. وبعد وفاة منسى سليمان، بدأت المملكة في الضعف، وأصبحت تعاني من الاضطرابات التي مافتئ المتنافسون على العرش من بين أفراد الأسرة الحاكمة يثيرونها.[١١٣]

**٢/٦- تنبكت في عهد طوارق مغشرن**

**(٨٣٧-٨٧٣)هـ. (١٤٣٤- ١٤٦٣)م:**

في آخر دولة مالي، أخذ طوارق مغشرن يغيرون عليها، ويفسدون في الأرض من كل جهة ومكان،[١١٤] هؤلاء أعادوا احتلالها بحجة أنهم أول من أسسها، فبعد هجمات عديدة على حصونها وقلاعها سيطر الطوارق عليها،[١١٥] بينما الباحث الإنجليزي ترمنجهام يرى أن الطوارق احتلوا المدينة دون أي مقاومة، وفرضوا سيطرتهم عليها،[١١٦] وأثناء تولي الطوارق لإدارة شؤون مدينة تنبكت ساد العدل والأمان مرة أخرى، كما استتب الأمن على قوافل التجارة القادمة منها، والمتوجهة إليها من شمال إفريقيا، واشتهر حاكمها في تلك الفترة عقيل أغ ملوك باحترامه، وتبجيله للعلماء، ووفر لهم فرص مواصلة القيام بواجباتهم على أحسن وجه وفي نهاية حكم الطوارق للمدينة سادت الفوضى في المدينة حيث بدأ حكامها من أسرة أغ ملوك في آخر عهدهم يتطاحنون على السلطة، وهو الأمر الذي أدى إلى تدهور التجارة، وكساد أموالها، ووصل الأمر بأحد سلاطين نهاية تلك الفترة من الطوارق إلى مضايقة علمائها، ووعاظها، بل مارس ضدهم التعذيب، والاعتقال الأمر الذي دفعهم إلى الاستنجاد بسلطان مقاطعة مالية كانت يومها تنهض ببطء، لتأخذ مكانة إمبراطورية مالي الآفلة، وهى سنغاي.[١١٧]

**٣/٦- تنبكت في عهد مملكة سنغاي[١١٨]:**

**في عهد حكم سني علي (٨٧٣- ٨٩٨)هـ.(١٤٦٨- ١٤٩٢)م:**

استجاب سلطان سنغاي يومها وهو سني علي بير، والذي يعني اسمه (المنقذ الكبير علي)، سني علي قام بالهجوم على الطوارق في تنبكت فتغلب عليهم وأخضع المدينة لنفوذ دولته الوليدة، وما حدث هنا بالنسبة لسكان المدينة، وعلمائها، اتضح أنهم استنجدوا بطاغية دموي مارس على المدينة وأهلها حكمًا إرهابيًا، حيث بدأ عهده بمطاردة علماء المدينة ووعاظها، وشيوخها،[١١٩] بالإضافة إلى النهب والسلب،[١٢٠] استمر حكمه لأكثر من ثلاثين عامًا.[١٢١] يقول عنه السعدي: "أنه ظالم، وفاجر... تسلط على العلماء، والصالحين بالقتل والإهانة، والإذلال... تملك العباد والبلاد...، دخل تنبكت في سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م".[١٢٢] أما محمود كعت فيقول عنه أنه فاجر، وفاسق.[١٢٣] المؤرخان السودانيان السعدي وكعت أعطيا صورة غاية في البشاعة عن شخصية سني على.

وفي المقابل، امتدحه عدد من المؤرخين القدامى من أمثال حسن الوزان، الذي قال في حق سني علي، كان رجلاً عظيمًا.[١٢٤] أما الباحثان مونتاي، وبازل دافدسون، فقد اتفقا على أن سني علي شخصية قاسية شجاعة، متمرسة بالحرب، والفتوحات. استقل قوته ومهابته فوسع من رقعة مملكته فأضاف إليها تنبكت.[١٢٥] يقول المؤرخ محمود كعت، أن سني علي بعث برسوله إلى بلد تنبكت، ليأمر أهلها بالرحيل عنها رسول سني علي أخرج سيفًا، وقال: هذا سيفه! من بات في البلد هذه الليلة سأذبحه بسيفه... فما كان كلمح البصر حتى رحل الجميع، بعضهم من لم يحمل عشاء ليلته، وبعضهم لم يأخذ فراشًا، ومنهم ماش، وله خيل في داره تركه توهمًا منه أن ربط السرج أمره يطول، ومنهم من خرجوا وما قفلوا أبواب بيوتهم، وبات أكثر ضعافهم ومشايخهم، ومرضاهم الذين لم يجدوا من يحملهم، والعمى لا فائدة له، وما وصل وقت المغرب حتى خلت تنبكت من كل أحد.[١٢٦]

## خاتمة

بعد هذه الدراسة خرجنا بمجموعة من الاستنتاجات والملاحظات:

- أن مدينة تنبكت، مدينة حديثة النشأة، أنشأها طوارق مغشرن في أواخر القرن ٥هـ/١٠م أخذت أسمها من تلك العجوز البربرية التي كانت تقيم عند بئر كان ينزل عنده الطوارق ليرتووا من مائه ويملئون منه قربهم، وهؤلاء الطوارق كانوا عندما يغادرون المكان يتركون أمتعتهم عند تلك العجوز لتحرسها لهم، هذه العجوز عُرفت بالأمانة، ومع مرور الزمن عرف المكان باسمها، تطور المكان ليصبح مدينة كبيرة لها شأن عظيم فيما بعد.
- أن مدينة تنبكت تقع على الحافة الجنوبية من الصحراء الكبرى، تحط بها القوافل التجارية، وبالتالي هي عبارة عن محطة تقف فيها القوافل الآتية من الشمال، وهذا يعني أنها همزة وصل بين الشمال الصحراء وجنوبها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي تقع بالقرب من نهر النيجر الذي سهل ونشط حركة التنقل بين مختلف المراكز السودانية الموجودة هناك.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ومنه نستطيع القول بأن مدينة تنبكت هي محطة تجارية تصلها القوافل القادمة عبر الصحراء، والقوافل الآتية عبر النهر.

- سكن مدينة تنبكت العديد من الأجناس من العرب والبربر القادمين من الشمال الإفريقي بالإضافة إلى سكان السودان الغربي السوننكيين، والماندينغ، هؤلاء تزاوجوا فيما بينهم، وبالتالي اختلطت الدماء العربية، والبربرية بدماء السودانيين، وكانت هناك عناصر من الموريون القادمون من غرناطة بعد سقوطها، ووجود تجار من إيطاليا، ومنه نقول أن المدينة سكنها عدة أجناس.
- مدينة تنبكت في بداية أمرها كانت فيها بنايات من الأخشاش، والزرائب ومع مرور الزمن تطورت، وأصبحت هناك مباني كبيرة واسعة، منها ذات طابق واحد، وأخرى بطابقين، هذه المباني مصتفة في شوارع طويلة ونظيفة، وبها عدة حومات.. وهناك أكواخ وخيام يسكنها الفقراء والعبيد.
- أصبحت المدينة مركزًا كبيرًا من مراكز العلم، وخاصة في عهد السلطان منسى موسى الذي شملها برعايته فأمر ببناء مسجد كبير، وجلب إليها العلماء، والمهندسين...الخ، فأصبح هذا المسجد فيما بعد معهدًا علميًا تخرج منه مشاهير الفقهاء، والأدباء الذين بنوا نهضة علمية وأدبية رائعة في السودان الغربي في أواخر القرون الوسطى بشكل خاص. وبعد سقوط مملكة مالي، سيطر عليها الطوارق المؤسسون، هم بدورهم اهتموا بها ودعموا علماءها وحفزوهم على طلب العلم والمعرفة، وبعد ضعف حكمهم احتلها سني علي.
- خضعت مدينة تنبكت لحكم مملكة سنغاي على عهد الأسقيين، في نهاية القرن ١٥م، وفي القرن الموالي زادت المدينة تطورًا وازدهارًا في الجانبين الاقتصادي والثقافي.

## الهوامش:

(١) عمر بن سالم بابكور، **النهضة العلمية والثقافية في مدينة تمبكت الإسلامية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية،٢٠٠٤، ص١.

(2) John Marriner, **Sailing to Timbuctoo**, William kimber, London, 1973. p.173.

(3) Dubois Felix, **Tombouctou la Mystérieuse**, la Brnieie Elammarion, Paris, 1897. P.262

(4) علي عبد اللطيف، **تمبكتو أسطورة التاريخ**، الطبعة الأولى، دار الكتب الوطنية بنغازي،٢٠٠١. ص٨٥ وما بعدها.

(5) John, (M) ,Ibid. p.181.

(6) Sekené Mody Cissoko, **Tombouctou et L'Empire Songhay**, nouvelles éditions Africaines. Dakar. Abijan. 1975. P.17.

(٧) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن ناصر السعدي، **تاريخ السودان**، تحقيق هوداس وبنوة، باريس١٩٦٤، ص٢١.

(٨) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، راجعه علي عبد الواحد، المملكة العربية السعودية، دون تاريخ، ص.٥٣٩.

(٩) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنير وآخرون، ٣ أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٩٨٩ الجزء ٣، ص٢٠١.

(١٠) الهادي المبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩، ص٦٣.

(11) Fage (W), **History of west Africa** , Cambridge At the university, press,1969. P.22.

(١٢) **أروان**: مدينة تقع إلي الشمال من مدينة تنبكت، احتضنت صفوة من علماء السودان. راجع: مولاي أحمد بابير الارواني، **السعادة الابدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية**، تحقيق الهادي المبروك الدالي، الطبعة الأولى، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي،٢٠٠١. ص٤٨.

(١٣) ماري بيرنبام، **"مدينة تمبكتو في أواخر القرن التاسع عشر"**، مجلة البحوث التاريخية، يناير ١٩٨٩، العدد الأول، ص ٩٨.

(14) Trimingham, (S), **History of Islam in west Africa**, oxford university press, ,n.d. P. 31.

الباحث: قمت بتحويل **السنة الهجرية إلى السنة الميلادية، والعكس**، معتمدًا في ذلك على **العملية الحسابية** التالية: **السنة الميلادية = (السنة الهجرية x٣٢/٣٣+٦٢٢)، السنة الهجرية= [٣٣ ( السنة الميلادية-٦٢٢)/٣٢].**

(١٥) عصمت عبد اللطيف دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (١٠٣٨-١١٢١)هـ**، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٦٣.

(16) John ,(M) , op.cit.p.173.

(17) Sekené, (M,C), op.cit.p.17

(١٨) لوثروب ستودارد، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عجان نويهض، الطبعة الرابعة، دار الفكر، المجلد الثاني، ص٣١٨.

ينظر: عبد القادر زبادية في تعريف السودان الغربي يشمل حوض السنغال الآن وغامبيا، وبوركبنافاصو 'دلتا العليا سابقًا' والنيجر الأوسط، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١)م**، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. دون تاريخ، ص١١.

(١٩) مولاي أحمد بابير الأرواتي، المصدر السابق، ص٤٥.

(20) Faidherbe, (L) **Le Sénégal la France dans l'Afrique occidentale**, librairie hachette et cie paris,1889. P. 349.

(21) Oskar Lanz, **Timbouctou voyage au Maroc au Sahara et au Soudan**, paris,1887, P.147

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٢٢) هذه القياسات حسبتها انطلاقًا، من:**١ ميل يساوي ١٦٠٩مترًا تقريبًا.**

(٢٣) مولاي أحمد بابيرالارواني، المصدر السابق، ص٤٥.

(٢٤) إسماعيل العربي، **الصحراء وشواطها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٩٨٣، ص٣١٢.

(25) Hacquard,(A), **Monographie de Tombouctou**,Société des études coloniales & maritimes,paris,1900.p.1.

(26) Barth, (H),**Travels and discoveries in north and central Africa,** vol3, London ,1859, P. 264.

(27) Boubou, (H), **Histoire des Songhay**, by présence Africaine, paris, 1968. P. 321 - 322.

(28) Hacquard,(A), op.cit.p.1.

(٢٩) البستاني، البستاني بطرس، **دائرة المعارف البستاني**، بيروت، ١٨٨٦، مج ٦، مادة تنبكتو، ص٢١٠.

(30) Oskar, (L), op.cit. P.150.

اختلف المؤرخون، والباحثون في نطق هذه الأحياء، فمثلاً: حي سناقونقو(Sanegoungou) نطقه الباحثSekené mody cissoko سنكي مودي سيسوكو بـ: سناقونقون(Sanegoungoun)، وكذا حي يوبو (youbou)، نطقه بـ: يوبو بير(Youbou-Ber)، وحي سنقوربير أو (ديجنقر)(Sanguereber)، نطقه جنقر بير(Jinguere-Ber)، وحي ساراكينا(Sarakaina)، نطقه (Sarekeina)، وحي بيري كوندا (Biricounda)، نطقه(Binicounda)، وحي باقندي(Baguindi)، نطقه (Badjnde)، ينظر:

Sekené, (M,C), op,cit.p.243.

وحي سنكوري (Sankoré)، نطقه المؤرخ فليكس ديبوا بهذا اللفظ، ينظر:

Dubois,(F), op.cit,p.385.

(31) Hacquard, (A), op.cit.p.1.

(٣٢) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص٢١. أيضًا

Dubois,(F),op.cit.p.264.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٢١.

(٣٤) **ولاتة:** هي إحدى مدن جمهورية موريتانيا حاليًا، ولكن لم يرد تاريخ يحدد تأسيسها. الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٢٥) علي محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٨٦.

(٣٦) **ودان:** تقع جنوب مدينة صرت، وهي منطقة بها نخل، وذات عمارة. الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ص٣١٢.

(٣٧) لوثروب ستودارد، المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٢٨) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٥٤١.

(٣٩) محمود كعت، المصدر السابق، ص ٢٣.

(٤٠) لوثروب ستودارد، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عجان نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، دون تاريخ، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص٤٥.

(٤١) فرج محمود فرج، **إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧، ص١٢٥.

(42) Dubois,(F),op.cit.p345.

(٤٣) أحمد الفتوري، "**الجاليات العربية المبكرة في السودان: دراسة أولية وبعض الملاحظات**"، مجلة البحوث التاريخية، ١٩٨١، العدد٢، جويلية، ص ٢٥٠.

(٤٤) ماري بيرنبام، مجلة البحوث التاريخية، المرجع السابق، ص١٠٠.

(٤٥) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص٥٣٦.

(46) Dubois,(F),op.cit.p.256.

(47) Caillié René, **Journal d'un voyage a Temboctou et à jenné dans l'Afrique Centrles** tome2, édition anthra- opos, paris, p.306.

(48) John ,(M),op.cit.p.175.

(٤٩) شعباني نور الدين، **علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرني(٤-٩)هـ.(١٠-١٥)م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦م، ص ٢٠٠.

ينظر: كاتب مجهول في تعريف الباشا جودر: هو فتى قصير أزرق، وهو أول باشا من مراكش،... استمرت فترة حكمه٩ أشهر، دخل تنبكت وبنى القصبة. مجهول، **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**، نشره هوداس، باريس،١٨٩٩، ص٣ وما بعدها.

(٥٠) **أرما:** وهو جيل هجين، نشأ من تناسل أفراد الجيش المغربي، مع سودانيات. محمد بن عبد الكريم المغيلي، **أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي**، تحقيق عبدالقادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤. ص١٦.

(٥١) فنسان مونتاي، **الإسلام الأسود**، ترجمة إلياس حنا إلياس، الطبعة الأولى، دار أبعاد، بيروت، ١٩٨٣، ص٦٠.

(٥٢) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص٥٤٢. ينظر أيضًا: مارمول، المصدر السابق، ص٢٠٠٣.

(53) Sekenè,(M.C),op.cit.p.172.

(٥٤) مولاي أحمد بابير، المصدر السابق، ص٤٩.

(55)Caillie, (R), op.cit.p.319.

(٥٦) ماري بيرنبام، مجلة البحوث التاريخية، المرجع السابق، ص٩٩ .

(57)Caillie,(R),Ibid.p.331.

(٥٨) ماري بيرنيام، نفسه، ص٩٩.

(59) Dubois,(F), op.cit.p.278.

(60) Hacquard,(A), op.cit.pp.28 -30.

(61) Sekené,(M,C), op.cit.p.171.

(62) Jean Suret Canale,**Afrique Noire Occidentale et Centrale,** éditions sociales,paris,n,d p.181.

(٦٣) سينكي مودي سيسوكو، **الصنغي من القرن١٢م إلى القرن ١٦م، تاريخ إفريقيا العام**، اليونسكو١٩٨٨، المجلد الرابع، ص٢١٧.

ينظر: عبدالقادر زبادية في التعريف بشخصية أسكيا داوود (١٥٤٩- ١٥٨٢)م حكم أسكيا داوود عرش سنغاي ٣٣ عامًا، وهو من أبرز السلاطين من أل سنغاي...، وقد أشتهر بحنكته السياسية. المرجع السابق، ص ٤٥.

(64)Dubois,(F),op.cit.p.302

(٦٥) عمار هلال، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء**، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، دون تاريخ، ص٧٦.

(66) Barth,(H),op.cit.p.325.

(67) Sékéné (M,C),**"La vocation culturelle deTombouctou à l'unité du monde African**", in Revue Le Culture Africaine, 21juillét-1 aout 1969.p.222.

(68) Dubois,(F),op.cit.p.325.

(69) Hacquard,(A),op.cit.p.24.

(٧٠) عبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ٢١ وما بعدها.

(٧١) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٥٤٠ .

(72) Sekené,(M-C),Tombouctou et l'empire songhay,p.33.

ينظر أبو بكر إسماعيل محمد ميقا في تعريف أبو إسحاق إبراهيم الساحلي شاعر الأندلس المهندس المعماري، المتوفى في تنبكت سنة ١٣٤٦م، وكان السلطان منسى موسى قد تعرف عليه بمكة خلال حجه، ودعاه إلى بلاده، وصحبه في عودته، وهو الذي ادخل هندسة البناء، وزخرفته إلى السودان. "**تاريخ الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي من القرن ٤هـ حتى مطلع القرن ١٣هـ**"، مجلة الدارة، ربيع الأول، ١٩٩٣، العدد الثاني، ٢٢٣.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



(73) Janes Grey Jackson, **An Account of Timbuctoo and Hausa**, London, 1820, pp.9-10

(٧٤) ماري بيرنبام، مجلة البحوث التاريخية، المرجع السابق، ص٩٩.

(75) Barth,(H),op.cit.p.302.

(76) Dubois,(F),op.cit.p.269.

(77) Barth,(H),. op.cit p.303.

(78) Maurice Bitter, " **Tombouctou Capitale du dessert**", in Revue Connaissance du monde,France,n 22, 1960, p.26.

(79) Caillie,(R),op.cit.p.311.

(80) Barth,(H),.p op.cit.303.

(81) Hacquard,(A),.op.cit.pp.6.

(82) Caillie,(R), Ibid..p.311.

(83) Hacquard,(A),. Ibid.p.7.

(84) Caillie,(R),op.cit.p319.

(85) Hacquard,(A),op.cit.p.7.

(86) Caillie,(R), Ibid.pp.319-320.

(87) Hacquard,(A), Ibid.p.8.

(٨٨) **البلاه**: هم عبيد ولدوا في معسكرات الطوارق، وهم نتاج تزاوج الطوارق مع السود. هؤلاء كانوا، يؤدون جميع الأعمال، حتى أنهم عملوا في جيوش الطوارق، وكانوا مشهورين بالإخلاص لسادتهم. ماري بيرنيام، المرجع السابق، ص١٠٦.

(٨٩) ماري بيرنيام، مجلة البحوث التاريخية، المرجع السابق، ص ٩٨.

(90) Janes,(G-J),op.cit.p.17.

(91) Oskar,(L),op.cit.p.150.

(92) Barth,(H),op.cit.p.325.

(٩٣) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٥٤٢.

(٩٤) **أسكيا(اسقيا) الحاج محمد الأول**: سراكولي الأصل، وكان أجداده قد هجروا من الجنوب الموريتاني الحالي،... وسكنت حول النيجر الأوسط وامتزجت في قبيلة سنغاي،...أصبح الاسقيا محمد أحد الضباط البارزين في جيش الأمير سني علي،...وفي سنة ١٤٩٣ قام الأسقيا محمد بثورة ضد سني علي واستولى على عرش سنغاي، فبدأ منذ ذلك الوقت عهد الأسقيين في سنغاي الذي استمر حتى سنة ١٥٩١. محمد بن عبد الكريم المغيلي، المصدر السابق، ص١٠ وما بعدها.

(٩٥) عبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، ص٧ وما بعدها.

(٩٦) **مملكة مالي**: تأسست على أنقاض إمبراطورية غانا سنة (٦٣٦-٦٥٣)هـ،(١٢٣٨-١٢٥٥)م على يد قبائل الماندوجو بقيادة سنديانا كيتا الذي هزم قبائل الصوصو في معركة كبرينا، أشهر ملوكها منسى موسى، سقطت على يد الملك سني علي عام ١٦٦٤م. الهادي المبروك الدالي، محقق، مخطوط السعادة الأبدية لمولاي أحمد بابير الارواني، ص ٥٤ وما بعدها.

(٩٧) **منسى موسى**: اختلف عدد من المؤرخين في اسمه فمنهم مَن أطلق عليه موسى ابن أبي بكر الأسود،... ومنهم مَن أطلق عليه موسى بن أبي بكر،... وهناك مَن سماه بـ منسى موسى بن أبي بكر،.. واشتهر باسم منسى مسى أو كنكه موسى، ومنسا في لغة الزنج تعني ملك وموسى اسمه، أما لقبه كنكه موسى فكنكه اسم أمه، وهو ما درج عليه أهالي السودان الغربي من نسبة الابن إلى أمه. الهادي المبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، ص٥٦ وما بعدها.

(٩٨) عبدالرحمن السعدي، نفسه، ص٢٢.

(٩٩) علي محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٨٨. ينظر أيضًا:
Trimngham,(S),op.cit.p.78.

(100) Hubert, (D), **Histoire générale de l'Afrique noire**; tome1:des origines à1800,paris, P.192.

(101) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ٧ أجزاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠، الجزء ٦، ص٢٦٧.

(102) Sekené, (M-C),Tombouctou et l'empire Songhay, p. 33.

(103) Boubou,(H),op.cit.p.322.

ينظر أيضًا: علي محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ٨٨ وما بعدها.

(١٠٤) آدم عبد الله الالوري، **موجز تاريخ نيجيريا**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص١٥٦.

(١٠٥) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص٢٢.

(١٠٦) علي محمد عبداللطيف، المرجع السابق، ص٨٩.

(107) Trimngham, (S), op.cit.p.74.

(١٠٨) علي محمد عبد اللطيف، نفسه، ص ٨٩ وما بعدها.

(١٠٩) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، الجزء ٦، ص٢٦٨.

(110) Hubert,(D),op.cit.p.193.

(١١١) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، الجزء٤، ص٢٠١.

(١١٢) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشا في صناعة الأنشا**، تعليق وشرح محمد حسين شمس الدين، ١٥جزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، الجزء٥، ص٢٨٥.

(١١٣) **سراج الدين بن الكويك**: هو أحد كبار تجار الإسكندرية، سلف مال لسلطان منسى موسى أثناء حج هذا الأخير، يقول: أن سراج الدين ذهب إلى تنبكت لاسترجاع ماله، فكان من القدر موته في تلك الليلة التي وصل فيها. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩٤ وما بعدها.

(١١٤) ابن عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة**، دار صادر، بيروت،١٩٦٤، ص٦٩٤.

(115) Sekené,(M,C),Tombouctou et l'empire Songhay,P.32.

(116) Cornevin Rober, **Histoire de l'Afrique**, tome1, paris,1962, p.360.

(١١٧) عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، دراسات ونصوص المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٩٨٩، ص١٩.

(١١٨) **مملكة سنغاي**: نسبة إلى قبيلة سنغاي، وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد، ثم أخذت تنتقل إلى الشمال حول جوانب النيجر، وفي القرن ٧م كانت تمتد مساكنها حول النيجر بحوالي ١٥٠كلم، أما الآن فإن السنغائيين يبلغ تعدادهم حوالي ٦٥,٠٠٠ نسمة، ويتوزعون بين جمهورية النيجر، ومالي. عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص٢٥.

(١١٩) علي محمد عبداللطيف، المرجع السابق، ص٩٢.

(102) Faidherbe,(L).op.cit.p.352.

(١٢١) علي محمد عبداللطيف، المرجع نفسه، ص٩٢.

(١٢٢) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص٦٤ وما بعدها.

(١٢٣) محمود كعت، المصدر السابق، ص٤٣.

(١٢٤) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص٥٣٦.

(١٢٥) بازل دافيدسون، **إفريقيا تحت أضواء جديدة**، ترجمة، محمد جمال الدين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ، ص١٥٩. ينظر أيضًا: مونتاي، المرجع السابق، ص٨٨.

(١٢٦) محمود كعت، المصدر السابق، ص٤٣.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



# العلاقات المصرية المغربية (١٩٥٦ - ١٩٨١)


أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد: حسن محمد حسن البدوي

إشراف: أ. د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم

قسم التاريخ

معهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة، ٢٠١١





عرض

**د. حسن البدوي**

باحث في تاريخ المغرب العربي الحديث

القاهرة – جمهورية مصر العربية


**مقدمة**

شهد النصف الثاني من القرن العشرين حراكًا ثوريًا تحرريًا في مُعظم بلدان قارة إفريقيا، وكان العالم العربي أكثر أماكن القارة تأثراً، فبين ثورات عمت أرجاءه وبين أربع حروب ضد قوى استعمارية غاشمة (**حرب ١٩٤٨- حرب ١٩٥٦- حرب ١٩٦٧- حرب ١٩٧٣**)– بين هذا وذاك- استطاع الوطنيون استخلاص الحرية لبلادهم. ولما كان لبعض الدول العربية دورًا مُتميزًا في الكفاح من أجل الاستقلال؛ لذا فسنعرض لإنموذجين لتلك الدول وهما مصر والمغرب (مُراكش)، وللعلاقة التي ربطت بينهما خلال عمليات الكفاح، منذ حصول المغرب على الاستقلال عام ١٩٥٦م وحتى وفاة الرئيس محمد أنور السادات عام ١٩٨١م.

كان فرض فرنسا الحماية على المغرب عام ١٩١٢م، وسيطرة إسبانيا على شمال المغرب، إضافة إلى تسلط الإنجليز في مصر؛ سبباً في اندلاع حركات مُقاومة مُتزامنة في كلا البلدين، ففي مصر كانت ثورة ١٩١٩م، وفي المغرب كانت حرب الريف فيما بين ١٩٢١م-١٩٢٦م، ونتج عن كلتا الحركتين ما نتج من إنضاج للفكر التحرري في البلدين، وخلال بضع سنين استطاع العديد من مُجاهدي شمال إفريقيا اللجوء إلى مصر؛ فاحتضنتهم وأمدتهم بما واصلوا به الكفاح. وفي عام ١٩٥٢م تزامنت ثورة الضباط الأحرار في مصر ضد الملكية مع مُعاناة سلطان المغرب محمد الخامس من تسلط الفرنسيين في بلاده؛ لذا اتخذت العلاقة بين البلدين شكلاً أكثر تماسكاً، خاصة بعد مُجاهرة الضباط الأحرار بالعداء لكل صور الاستعمار، وإنشائهم لمحطة (صوت العرب) الإذاعية التي سُخرت لهذا الغرض.

في تلك الأثناء برزت مكانة مصر إقليميًا ودوليًا، بعد أن أفصح الرئيس جمال عبد الناصر عن توجهاته الثورية، وعن وإيمانه بأن تحرر مصر لن يكتمل إلا بتحرر بلدان الوطن العربي والقارة الإفريقية، وعليه سعى عبد الناصر لتحرير بلدان إفريقيا مُلتزماً السرية حتى لا يُؤخذ تأييد مصر للمُجاهدين قرينة ضد حكومة ثورتها الوليدة.

لما كانت فرنسا قد ضربت سياجًا مُحكمًا حول المغاربة لعزلهم عن إخوانهم العرب، لذا فقد اتخذ المغاربة من إذاعة صوت العرب منبرًا انطلقت منه أصواتهم مُطالبة بالاستقلال. الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقة بين مصر وفرنسا، وجعل بعض النواب الفرنسيين يُطالبون بقطع العلاقات الدبلوماسية معها وفرض عقوبات اقتصادية عليها، كما أعرب الرئيس الفرنسي منديس فرانس "Mendes France" عن قلقه من إصرار صوت العرب على مواصلة تحريض ثوار شمال إفريقيا ضد فرنسا.

بالرغم من ذلك فقد استمر الدعم المصري لدول شمال إفريقيا عامة والمغرب بصفة خاصة، حتى إعلان استقلال المغرب عام ١٩٥٦م، لتدخل العلاقات المصرية المغربية في مرحلة جديدة كلياً، لم تأل مصر خلالها جهداً في مُساندة المغرب في كل المجالات، ففي مجال التعليم والتعريب كان لها دور كبير، وفي المحافل الدولية دعمت مصر موقف المغرب للتخلص من بقايا الاستعمار، وكذلك في أمر انضمامه لجامعة الدول العربية، تلا ذلك تعاون مُشترك في المحافل والمُؤتمرات الدولية كحركة عدم الانحياز ومُنظمة الوحدة الإفريقية ومُنظمة المُؤتمر الإسلامي، إلى غير ذلك من المُنظمات.

في عام ١٩٦١م توفي الملك محمد الخامس واعتلى ابنه الحسن الثاني سدة الحكم في ١٩٦١/٣/٣م، ومع ما اختلف به الحسن الثاني عن سلفه من توجهات؛ اضطربت العلاقات المصرية المغربية، لكن سرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها بزيارة الملك الحسن لمصر عام ١٩٦٤م لحضور مُؤتمر القمة العربي الأول، ثم زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للمغرب عام ١٩٦٥م لحضور مُؤتمر القمة العربي الثالث بالدار البيضاء، فتوطدت العلاقة بين الرجلين. وفي يونيو عام ١٩٦٧م خاضت مصر وبعض الدول العربية غمار صراع عسكري أدى إلى هزيمتهم أمام إسرائيل، وهنا وقف المغرب موقف الداعم والمُساند لمصر والعرب.

في ١٩٧٠/٩/٢٨م وعقب مُؤتمر القمة العربية بالقاهرة توفي الرئيس جمال عبد الناصر، وتولى الرئيس محمد أنور السادات حكم مصر خلفاً له، لتدخل مصر مرحلة هامة من تاريخها، إذ كان

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية. ISSN: 2090 – 0449



عليها خوض معركة سياسية وعسكرية لرد اعتبارها بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، وفي تلك المرحلة أيضاً وقف المغرب موقف الداعم والمُساند لمصر، فتمكنت القوات المصرية بالتنسيق مع القوات السورية من شن هجوم عسكري مُباغت في ١٩٧٣/١٠/٦م حطمت به الأسطورة الإسرائيلية وجيشها الذي لا يُقهر، وفي تلك الملحمة العسكرية المصيرية لم يكن المغرب ليتخلف عن المُشاركة فيها بوحدات من قواته المُسلحة.

كانت إدارة الرئيس السادات لقضية الصراع العربي الإسرائيلي عقب انتصار أكتوبر ١٩٧٣م تسير باتجاه عقد مُفاوضات سلام مع إسرائيل، بعد أن حُسمت المعركة عسكرياً، ومرة أخرى يلعب المغرب دوراً مُهماً في تلك المرحلة، بالوساطة بين الطرفين، واستضافة مبعوثيهما على أراضيه. وبعد أن وقع الرئيس السادات مُعاهدة (كامب ديفيد) بالولايات المتحدة، كان المغرب أول بلد توجه إليه السادات في طريق عودته، حيث أطلع الملك الحسن على تفاصيل المُعاهدة.

لما كان الاتجاه العربي آنذاك مُخالفاً لوجهة النظر المصرية؛ لذا طالبت مُعظم الدول العربية بتعليق عضوية مصر في الجامعة العربية، ونقل مقرها من القاهرة إلى بلد عربي آخر. لم تكن سياسة الملك الحسن وشخصيته لتخرجه عن الإجماع العربي، بالرغم من وساطته في عمليه السلام. وعقب المُقاطعة العربية لمصر، شرع الرئيس السادات في مرحلة بناء داخلي للدولة استمرت حتى اغتياله في ١٩٨١/١٠/٦م أثناء الاحتفال بذكرى انتصار السادس من أكتوبر ١٩٧٣م. فقد شهدت الفترة محل البحث العديد من الأحداث، قويت خلالها العلاقات المصرية المغربية تارة وفترت تارة، وأثيرت حولها التساؤلات، إلا أن الشيء الثابت هو أن مصر والمغرب ظلتا في تآخٍ وتعاونٍ مُستمر منذ الاستقلال وحتى الآن.

**فصول الدراسة**

**الفصل التمهيدي**

**(مصر والمغرب قبل عام ١٩٥٦م)**

يستعرض هذا الفصل استراتيجية الموقع الجغرافي لكلا من مصر والمغرب، وكذلك الأوضاع السياسية في البلدين، وقيام ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣م وإلغاء الملكية في مصر، واحتواء مصر للعناصر الثورية المغربية، واحتجاج مصر على نفي السلطان محمد الخامس في ١٩٥٣/٨/٢٠م، ثم تدويل مصر للقضية المغربية، وإنشاء لجنة تحرير المغرب العربي في ١٩٥٤/٤/٤م. يستعرض الفصل أيضًا مُفاوضات (أكس ليبان) التي أفضت إلى استقلال المغرب في ١٩٥٦/٣/٢م.

**الفصل الأول**

**العلاقات السياسية بين مصر والمغرب (عهد الرئيس جمال عبد الناصر والملك محمد الخامس)**

يعرض الفصل الأول الأحداث التي تلت إعلان الجمهورية في مصر، وإعلان استقلال المغرب، وما حدث في كلا البلدين من تغيرات سياسية كالاتحاد بين مصر وسوريا، وكذلك أحداث الريف في شمال المغرب، يستعرض الفصل أيضًا زيارة الملك محمد الخامس لمصر لأول مرة عام ١٩٦٠م، ومنحه الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة، إضافة للقائه بالرئيس جمال عبد الناصر والأمير محمد عبد الكريم الخطابي.

**الفصل الثاني**

**العلاقات السياسية بين مصر والمغرب (عهد الرئيس جمال عبد الناصر والملك الحسن الثاني)**

يعرض الفصل الثاني لتوتر العلاقات بين مصر والمغرب، ولانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، ولموقف الأمير الخطابي من الدستور المغربي الجديد، والموقف المصري من نزاع الحدود بين المغرب والجزائر، وكيف انعكست تلك المواقف على العلاقات المصرية المغربية. ثم يعرض الفصل لتحسن العلاقات، بزيارة الملك الحسن لمصر، ومُشاركة المغرب في القمم العربية والإفريقية بالقاهرة والإسكندرية، إضافة لمُشاركة الرئيس جمال عبد الناصر في القمة العربية في المغرب، وأخيرًا لموقف المغرب من العدوان الإسرائيلي على مصر والدول العربية في ١٩٦٧/٦/٥، ثم لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠.

**الفصل الثالث**

**العلاقات السياسية بين مصر والمغرب (عهد الرئيس السادات والملك الحسن الثاني)**

يعرض الفصل الثالث للأوضاع في مصر عقب وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، ثم لأحداث الصخيرات ومُحاولة اغتيال الملك الحسن الثاني. يعرض أيضًا للصراع العربي الإسرائيلي وحرب أكتوبر ١٩٧٣م. ثم للدور الذي لعبه المغرب في مُفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل، وما تبعها من زيارة الرئيس السادات للقدس، ثم لتوقيع اتفاقيتي كامب ديفيد، وما تبعها من ردود الفعل العربية وعقد مُؤتمر بغداد في نوفمبر ١٩٧٨م، وتجميد عضوية مصر في الجامعة العربية وموقف المغرب من تلك الأحداث، وأخيراً يعرض لختام رحلة الرئيس السادات، واغتياله في ١٩٨١/١٠/٦.

**الفصل الرابع**

**العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر والمغرب**

يعرض الفصل الرابع للعلاقات التجارية والاقتصادية بين مصر والمغرب، وللمُعاهدات التجارية المُوقعة بينهم، وأنواع البضائع المُتبادلة بين الطرفين. يعرض الفصل أيضًا للعلاقات الثقافية بين مصر والمغرب، وللدعم الثقافي المصري للمغرب، والجهود المصرية في إنهاض التعليم والإدارات المغربية ومُحاولة تعريبها، وكذلك لزيارة د. طه حسين للمغرب، ولدور الأزهر والكليات المصرية في دعم المغاربة، ثم لدور الفن والفنانين والإذاعة المصرية في دعم وتقوية العلاقات بين البلدين.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





**خاتمة**

حقب وقرون مرت بالبشرية فطَمَرَت شعوبًا ودولاً وأظهرت آخرين، إلا أن شعوبًا وبلدانًا بعينها نأت بها أصالتها عن تقلبات الزمن، وضربت بجذورها في بطنه فأبت أن تقتلعها ريحه العاتية، وما كانت مصر والمغرب إلا من تلك الدول، التي استأثرت بمكانة أهلتها للتأثير في مُحيطها ومُجريات أحداثه، مُستثمرة في ذلك موقعها المُتميز وحضارتها الأصيلة.

لما كانت مصر والمغرب قد مثلتا بوابتي قارة إفريقيا الشرقية والغربية، لذا فقد لعبتا دورًا كبيرًا في ربط القارة بمن جاورها، وعن طريقهما عبرت التجارة والحضارة والعلم من وإلى القارة، فعن طريق مصر عبر الإسلام إلى شمال إفريقيا، وفي أرضها حطت الرحال في الطريق إلى بيت الله الحرام، وفي أزهرها حل العلماء والمُفكرون وطلبة العلم، وفي موانئها تبودلت التجارات وقويضت السلع، وتواصل أهلها بمن حل عليهم من أرجاء المعمورة. أما المغرب فعبر الإسلام عن طريقه إلى الأندلس شمالاً وإلى الصحراء وما جاورها جنوباً، ومن جامعة القرويين أشعت أضواءً أنارت المنطقة بأسرها.

ومع وطء الاستعمار الأوروبي لأرض القارة، وبعبثه في مصائر شعوبها؛ اضطربت الأحوال وتبدلت الطباع، واهتز ما كان قائماً فيها من نظم استقرت معها شئون البلاد والعباد. حتى إذا ما كان من انتفاض تلك الشعوب في وجه المُستعمر؛ تبدل الحال ونالت المنطقة استقلالها من جديد. إلا أن عقودًا من الاحتلال خلفت – رابطة ثقافية – بين تلك الشعوب ومُستعمريها، ولم يكن باليسير الانفكاك من تلك الرابطة، بعد أن نشر المُستعمر لغته بين السكان حتى أصبحت لغتهم الأم غريبة بينهم. فإذا ما أضفنا عبث المُستعمر باقتصاد القارة وتقويضه لمُقومات نهضتها؛ لوجدنا – رابطة أخرى اقتصادية – جعلت من القارة سوقاً ينفث فيه المُستعمر بضاعته، وبذا كان التحرر من تلك الروابط بحاجة إلى جهدٍ عظيم.

ولما كانت إرادة المغاربة مُتمثلة في مواقف ملكهم محمد الخامس ترمي إلى العودة للصف العربي، والانفكاك من التبعية للمُستعمر؛ لذا كان التوجه إلى الشرق أمراً لا محيد عنه. الأمر الذي وجد قبولاً لدى المشارقة، وعلى رأسهم مصر، وبتلاقي الرغبات خطا الشعبان خطوات مُعتبرة على طريق التواصل والتعاون المُثمرين، فعبرا معاً فترة من أهم فترات تاريخهما الحديث.

كان لدعم مصر واحتوائها لمُجاهدي شمال إفريقيا عامة والمغرب بوجه خاص أثر عظيم لدى المغاربة، فبعد شهور فقط من حصولهم على الاستقلال حدث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، والذي كان من أسبابه مُساندة مصر للمغاربة، وبرغم أن ظروف المغاربة آنذاك لم تكن لتسمح لهم باتخاذ موقف صريح لاستنكار العدوان، إلا أن إذاعتهم الوطنية عبرت عما جاش في صدور المغاربة، ووقفت موقفاً مُسانداً لمصر، بإظهارها العداء لفرنسا وإنجلترا وإسرائيل لعدوانهم على الشقيقة مصر، كما رفض الملك محمد الخامس مُقابلة مبعوث فرنسي احتجاجا على الأعمال العدوانية التي قامت بها بلاده ضد مصر. كان هذا بالنسبة للمغاربة أضعف الإيمان في مُساندة شقيق طالما آزرهم. هكذا ومنذ اللحظة الأولى تلاقي المغاربة والمصريون، وتعادلت الكفة فليس ثمة كبير وصغير، وإنما من يملك القدرة هو من وجب عليه عون إخوانه، وإن لم يكن في مقدور المغاربة آنذاك تقديم المزيد، فيكفي أنهم قدموا ما استطاعوا.

تمر الأيام ومع أواخر عام ١٩٥٨م وبداية ١٩٥٩م حدث اضطراب في منطقة الريف بشمال المغرب، الأمر الذي حظي باهتمام القيادة المصرية التي أشغلها اضطراب الأمور في المغرب الشقيق، ومرة أخرى يبرهن الأشقاء على أنهم جسد واحد. وتتوالى البراهين ففي زيارة تاريخية وصل الملك محمد الخامس إلى مصر في يناير ١٩٦٠م ليلتقي الرئيس جمال عبد الناصر والأمير الخطابي للمرة الأولى، فتحتفي مصر بالرجل وتمنحه جامعة القاهرة الدكتوراه الفخرية، وسرعان ما رد الرئيس عبد الناصر الزيارة ووصل إلى المغرب في ١٩٦١/١/٣م حيث استقبل استقبالاً حافلاً، لتزداد العلاقة قوة بعد أن التقى الأخوة وجهاً لوجه.

كان انتقال الملك محمد الخامس إلى الرفيق الأعلى واعتلاء خلفه الملك الحسن عرش المغرب نقطة تحول في العلاقات المصرية المغربية، فبينما تميزت العلاقات بين البلدين في عهد الملك محمد الخامس بتنسيق وتوافق المواقف والتوجهات، توشحت الفترة الأولى من حكم الملك الحسن بالتوتر والاضطراب. لم يكن هذا التوتر وليد الصدفة، فقد نشأ عن توجهات الملك الغربية وميله للثقافة الفرنسية، وإيمانه بتفوقها على الثقافية العربية في مجال التعليم، الأمر الذي تعارض مع سياسة التعريب التي انتهجها والده بدعم من مصر. لم يكن هذا هو السبب الوحيد، فقد كان موقف مصر من الصراع المغربي الجزائري أو ما عُرف بحرب الرمال، إضافة إلى توجس الملك من المد الجمهوري الذي تزعمته مصر آنذاك، وتساقط الملكيات في البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى، كل تلك الأسباب أدت إلى سلوك الملك مسلكًا عنيفاً ضد البعثة التعليمية المصرية، بطرد أفرادها وغلق مركزيها الثقافيين. لكن سرعان ما انقشعت الغيمة بتوسط مصر للإصلاح بين المغرب والجزائر، وبزيارة الملك الحسن وشقيقه الأمير عبد الله للقاهرة، فكانت الزيارة تظاهرة حب ومودة بين الأشقاء، أعادت المياه إلى مجاريها، وتوحد الموقف من جديد.

لم تكد الأمور تتحسن إلا وأحدق بالعرب خطرًا كبيرًا، فبحلول ١٩٦٧/٦/٥م شنت إسرائيل عدوانًا غاشمًا على مصر وسوريا والأردن وفلسطين، مُوقعة بهم ضربة مُوجعة، فرضت بها سيطرتها على أجزاء من أراضي تلك الدول. لم يكن المغرب ليقف صامتًا أمام هذا العدوان، فسارع بإرسال فرقة عسكرية من قواته للذود عن إخوانه في مصر، إلا أن تطور الأحداث وتوقف الحرب قبل وصول الفرقة المغربية حال دون مُشاركتها في القتال. ونذكر هنا بما كانت ترسله مصر من أسلحة وتقوم به من دعم للمغاربة، ونكرر أنه عندما يُؤذن للجهاد يتقدم من يملك القدرة بما لديه لمُعاونة إخوانه، الأمر الذي أقدم عليه المغرب دون إبطاء.



وإن كان قد فات المغاربة المُشاركة عسكرياً في تلك المعركة، فإنهم لم يتخلفوا عن ذلك سياسيًا، ففي خطاب العرش عام ١٩٦٩م قال الملك الحسن: "وما زلنا نعلن استنكارنا للعدوان الذي تواصله إسرائيل على البلدان العربية، والطغيان الذي تعامل به العرب المُسلمون في أراضيهم وعقر ديارهم. ونطالب بجلاء قواتها المُعتدية عن التراب المغصوب، فلن يهدأ لنا بال، ولن يطمئن لنا خاطر إلا يوم يعود الحق المسلوب إلى أصحابه، ويرجع القدس إلى أربابه". لم يكتف الملك بذلك فأرسل مبعوثيه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا لبحث الموقف في الشرق الأوسط، وبينما التنسيق جارٍ بين مصر والمغرب، وبينما المساعي تبذل لمحو هزيمة يونيو ١٩٦٧م، عُقد مُؤتمر قمة عربي استثنائي في القاهرة في سبتمبر ١٩٧٠م، توفي عقبه الرئيس جمال عبد الناصر، لتبدأ مرحلة جديدة في العلاقات بين البلدين.

كان سعي مصر والرئيس محمد أنور السادات لمحو آثار الهزيمة واسترداد أراضي العرب المغصوبة من الأولويات التي شُرع في العمل لها منذ اللحظة الأولى. ولم يكن المغرب كشريك في الجهاد ليتخلف عن المُشاركة في تلك العملية، لذا جرى التنسيق بين الطرفين من أجل إتمامها، فخلال زيارة رئيس أركان القوات المُسلحة المصرية للمغرب صرح الملك الحسن: "بأن القوات المُسلحة المغربية جميعها تحت تصرف مصر، وأن كل فرد في المغرب سيكون سعيداً عندما يرى قواتنا المُسلحة تقاتل من أجل القضية العربية". وبالفعل أرسل المغرب جانباً من قواته للمُشاركة في المعركة ضد إسرائيل، فرابطت قواته على الجبهة السورية في الجولان، ورابط جانب منها على الجبهة المصرية في السويس. وباندلاع المعارك أبلى المغاربة بلاءً حسناً، استحقوا به أن يكونوا شركاء في النصر. هكذا أثبت العرب أنهم يد واحدة عند الأزمات. ولم يحل وجود المغاربة في أقصى الغرب دون الذود عن حياض العروبة في أقصى الشرق.

لم يكن دور المغاربة لينتهي عند هذا الحد، فقد كان في انتظارهم دور أهم وأكبر، ولم تكن المعركة قد انتهت بالانتصار العسكري على إسرائيل وتحطيم أسطورة جيشها الذي لا يُقهر في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، إذ كانت ثمة معركة سياسية في الانتظار. الأمر الذي أبلى فيه المغاربة أيضاً بلاءاً حسناً، ففي الوقت الذي اعترضت فيه دول عربية كثيرة على سلوك مصر طريق المُفاوضات من أجل استرداد أراضيها، ووضع إطار يستعيد به الفلسطينيون والسوريون السيطرة على أراضيهم المغصوبة، في هذا الوقت وقف المغرب موقفاً مُغايرًا، تحمل معه عبء استقبال مبعوثي مصر وإسرائيل، مُهيئاً لهم أجواء التفاوض وبناء الثقة، بما يُحقق السلام في المنطقة.

وكما نجح المغرب في المُهمة العسكرية نجح أيضاً في المُهمة السياسية، فقد كان توليه الوساطة بين الطرفين عنصر نجاح أدى إلى التوصل إلى إطار سلام أعُيدت معه الأراضي المصرية المُغتصبة، ولولا تشدد المُتشددين لعادت أراضي العرب جميعها. على أية حال فقد كان موقف المغرب الواقعي خلال هذا الصراع دليلاً واضحاً على نضوج الفكر المغربي، وعلى إدراكه الصحيح للأمور. إلا أن تلك الواقعية – ذاتها- لم تكن لتخرج المغرب عن الصف العربي آنذاك، فقد اجتمع الرأي على مُقاطعة مصر وعزلها عن الصف العربي وفقاً لما قرره العرب في مُؤتمر بغداد نوفمبر ١٩٧٨م.

بالرغم من اتخاذ المغرب موقف الجماعة، إلا أنه لم يتخل عن موقفه الأول فقد أرسل الملك الحسن عبد الهادي بوطالب مبعوثًا للرئيس السادات قبيل المُؤتمر ليُبلغه: أن الملك لا يملك إلا أن يكون بجانب الأغلبية، ولكن هذا لن يُغير شيئاً من علاقة الصداقة والمودة بمصر، وباستمرار تلك العلاقة في أحسن حال، وإن هذا لن يُغير شيئا في العلاقات الثنائية بين البلدين، وأن الملك يُؤكد أن وفده في المُؤتمر سينصح باستبعاد مُقاطعة مصر، ولكنه سيضطر للالتزام بما يتخذه المُؤتمر من قرارات. هكذا انفرد كل من المغرب ومصر بموقف من الصراع العربي الإسرائيلي يتميز بالابتعاد عن المُزايدة، والاقتراب من الواقعية، وتقبل المُحادثات المُباشرة مع المسئولين الإسرائيليين، من أجل إقرار السلام في المنطقة.

بالتوازي مع الدعم المغربي للقضية المصرية كان دعم مصر للمغرب في مُشكلة الصحراء، فقد أيدت مصر حق المغرب في استرداد أراضيه من إسبانيا في اجتماعات مجلس وزراء إفريقيا في أديس أبابا. كما طالبت في إعلامها وأمام المُنظمات الدولية بتصفية الاستعمار الإسباني للأراضي المغربية، وأكدت على حق المغرب تاريخيًا وجغرافيًا في هذه الأرض، الأمر الذي أثنى عليه الملك الحسن في لقاء للتليفزيون المصري. كما أبدى إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء المصري خلال زيارته لإسبانيا في يونيو ١٩٧٥م، حرص مصر على أن تكون علاقات المغرب بإسبانيا طيبة، وأن الخلاف حول الصحراء مسالة مُؤقتة، ويجب أن تحل بين الطرفين.

لم تكن العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين أقل زخمًا من العلاقات السياسية، فقد شهدت تلك العلاقات انتعاشًا كبيرًا واكب حصول المغرب على الاستقلال، وكانت يد الأخوة المصرية ممدودة للمغاربة، ففي المجال الاقتصادي عُقدت عدة مُعاهدات وبروتوكولات أصلت العلاقات التجارية القديمة بين البلدين، فوجدت المُنتجات المصرية طريقها إلى المغرب، كما حلت المُنتجات المغربية بالسوق المصرية، وإن كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين في مُجملها قد جاءت على نحو لم تكن الظروف العالمية آنذاك لتسمح بأفضل منه.

أما العلاقات الثقافية فكان لها النصيب الأكبر في العلاقات بين البلدين، فقد كانت الرغبة في التعريب والعودة إلى الصف العربي، والتخلص من التبعية للمُستعمر مدخلاً ممتازًا لنفاذ الثقافة المصرية إلى المغرب. وكما وجد الكتاب المصري والمناهج المصرية طريقًا مُعبداً في المغرب، وجد المُدرسون وأساتذة الجامعات نفس الشيء، أما المركز الثقافي المصري بفرعيه، ومكتبته فوجد من المغاربة إقبالاً واهتمامًا كبيرًا، ولعبت معارضه وندواته الثقافية وما

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية





ألقي خلالها من مُحاضرات وكلمات لعلماء ومُثقفين مصريين قبولاً واستحسانًا جمين من المغاربة.

وكما لاقت سياسة التعريب ووضع الكتب على يد أساتذة مصريين قبولاً لدي المغاربة، كان باب الفن أيضًا مُشرعًا، فعبر الفنانون المصريون من خلاله إلى قلوب المغاربة، وكانت زيارات الفرق المسرحية والغنائية، إضافة لعرض الأفلام المصرية في دور العرض المغربية طريقًا آخر شقته الثقافة المصرية للتواصل مع المغاربة. لم يكن مجال الثقافية الدينية بأقل من سابقيه فقد وجد المُقرئون المصريون بصوتهم العذب آذاناً صاغية من إخوانهم المغاربة، وزار عددًا كبيرًا منهم المغرب لتلاوة القرآن الكريم في المُناسبات الدينية والعامة، وسجل بعضهم القرآن للإذاعة المغربية.

وإجمالاً؛ نقول أن العلاقات بين مصر والمغرب دعمتها وشائج الدين واللغة والثقافة والمصير المُشترك، فالبلدان ينتميان للعالم العربي الإسلامي فضلاً عن انتمائهم الإفريقي، وهم جزء من العالم الثالث، ومنطقة جنوب البحر المتوسط، وكلاهما دولة ذات جذور ثقافية وتاريخية عريقة، الأمر الذي أوجد بينهم مواطن التقاء على صعيد السياسة الداخلية والخارجية. فكلاهما عمل على صيانة المصلحة الوطنية العليا في مدلولها القانوني والدبلوماسي والاقتصادي، فمصر عملت لاسترجاع قناة السويس بمقتضى إيمانها بحق الشعوب في ممارسة حقوقها السيادية على أراضيها. والمغرب سعى لنفس الغرض بالنسبة لمنطقة الصحراء، ووفقًا للشرعية الدولية.

ثمة عنصر آخر ربط البلدين، وهو تفضيل حل المنازعات بالطرق السلمية، والالتزام بالمواثيق ومبادئ القانون الدولي، وعلى المستوى العربي، فضل المغرب ومصر العمل الجماعي من خلال جامعة الدول العربية، ولهم الفضل في سن دبلوماسية القمم، التي انطلقت أولاها في القاهرة والإسكندرية، تلاها العديد من المُؤتمرات في المغرب. وعلى مستوى الشرق الأوسط كانت القضية الفلسطينية محور اهتمام الطرفين، وباع مصر في الدفاع عن فلسطين طويل ومعلوم، أما لجنة القدس فأسندت رئاستها للملك الحسن الثاني.

على المستوى الإفريقي، تلاقت السياستان من خلال مُؤتمرات القمة الإفريقية، والتأكيد على مبدأ سيادة الدول، وعدم التدخل في شئونها، وتجلى هذا في موقف البلدان من قضية الكونغو. وفي الدائرة الإسلامية تلاقت وجهات النظر من خلال مُؤتمرات مُنظمة المُؤتمر الإسلامي، والموقف من القضايا الإسلامية كالاعتداء على القدس، وقضايا الأقليات المُسلمة – الفلبين مثالاً- ودعم المُجاهدين ضد الوجود الأجنبي – أفغانستان مثالاً- أما في دائرة عدم الانحياز فقد شاركت الدولتان في مجموعة عدم الانحياز منذ تأسيسها في بالجراد عام ١٩٦١م، وأكدا على مبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول، ونبذ الأحلاف العسكرية، واحترام استقلال الدول ووحدتها الترابية، والسعي لإقامة نظام اقتصادي عالمي أكثر عدلاً وانضباطًا.

أما في الدائرة الأوربية، فكان موقع مصر والمغرب الاستراتيجي - قناة السويس ومضيق جبل طارق- سببًا في أن كونا جسرًا بين أوربا والعالم العربي وإفريقيا، فلا غرو أن يكون المغرب ومصر حاضرين في السياسة الخارجية للمجموعة الأوروبية، سواء في إطارها الاقتصادي باعتبارهم جزءً من جنوب البحر المتوسط، أو في إطارها السياسي، خاصة وأن المجموعة الأوروبية تمثل مجالاً رحباً للسياسة الخارجية العربية.

نستطيع أن نقول: أن العلاقات المصرية المغربية شهدت في الفترة محل البحث أزهى عصورها، بما حملته من آمال في الحرية والارتقاء بالشعبين الشقيقين، والتحرر من أغلال الاستعمار السياسية والاقتصادية والثقافية، ناهيك عن مُساندة كلا الطرفين للآخر في أشد الفترات خطورة، وكان موقف المغرب الداعم لمصر خلال حرب ١٩٥٦م و١٩٦٧م و١٩٧٣م، ونصيحته بعدم قطيعة مصر خلال مُؤتمر بغداد ١٩٧٨م، واعتراض مُمثل المغرب على نقل مقر الجامعة من القاهرة لمُخالفة ذلك للميثاق الذي ينص على أن القاهرة هي المقر الدائم لجامعة الدول العربية. إضافة لدور المغرب خلال مُؤتمر القمة الإسلامي بالدار البيضاء في يناير ١٩٨٤م، الذي قضى برفع تعليق عضوية مصر في مُنظمة المُؤتمر الإسلامي، ثم مُسارعته لإعادة العلاقات مع مصر عقب قرار مُؤتمر القمة العربي في عُمان عام ١٩٨٧م، الذي قرر أن العلاقات بين الدول العربية هو أمر من أمور السيادة، وأن كل دولة حرة في إقامة علاقات مع من تود من الدول الأخرى، برهنت تلك المواقف جميعها على ما كنه المغاربة لإخوانهم المصريين.

وما كان احتواء مصر للعناصر الجهادية المغربية، وانتفاضها عندما نفي الملك محمد الخامس، وتسخيرها لإذاعة صوت العرب لدعم المغاربة، ثم تدولها للقضية المغربية، وإنشاءها للجنة تحرير المغرب العربي، إضافة لتوسطها للإصلاح بين المغرب والجزائر خلال حرب الرمال، ودعمها للمغرب في المُطالبة باسترجاع الصحراء، إلا دليلاً على مودة مصر وحبها للمغاربة. وبين هذا وذاك كان التعاون الثقافي، والدعم الاقتصادي، والإمداد بالكوادر في جميع المجالات. وإن كانت تلك العلاقات قد مرت بسمائها غيمات عابرة، إلا أنها لم تكن لتحجب عنها ضوء الشمس.

# موقف الاتحاد السوفيتي من الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣)

أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر



إعداد: حيدر عبد الرضا حسن التميمي

إشراف: أ. د. هلال ثجيل جلوي

كلية الآداب – قسم التاريخ – جامعة البصرة

عدد صفحات الأطروحة: (٢٨٩)

تاريخ المناقشة: ١٥ يناير ٢٠٠٩



عرض
**د. حيدر عبد الرضا حسن التميمي**
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة البصرة – جمهورية العراق

### مقدمة

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥، قُسم العالم إلى معسكرين، الأول: شرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، الذي خرج من الحرب منتصرًا، وسرعان ما بسط نفوذه السياسي والاقتصادي على دول شرق أوربا. والثاني: غربي تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية، التي سعت منذ نهاية الحرب إلى احتواء النفوذ الشيوعي في كل أنحاء العالم، من خلال إعلانها عدة مشاريع سياسية واقتصادية، هدفت بالأساس إلى الوقوف بوجه مطامح السوفيت التوسعية، فأصبح بذلك التنافس والصراع على عدة مناطق حيوية من العالم، سمة تميز طبيعة العلاقات السوفيتية – الأمريكية أثناء الحرب الباردة (١٩٤٥ – ١٩٩١).

تعد الحرب الكورية أولى حلقات الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، إذ كان لموقف هاتين القوتين العظمتين دور كبير منذ بدء الحرب حتى نهايتها، ولكن يبقى السؤال المطروح: هل تستحق تلك المواقف في أن يقوم الباحث بدراسة جديدة بعد مرور أكثر من خمسة عقود على نهاية الحرب الكورية؟

على امتداد العقود المنصرمة، اكتسبت قضية التورط الأمريكي في الحروب والمنازعات الدولية أهمية كبيرة في دراسات الباحثين العرب والأجانب على حد سواء؛ ولكننا لم نجد الاهتمام نفسه من قبل هؤلاء الباحثين في دراسة واستعراض موقف الاتحاد السوفيتي في بعض المنازعات والحروب الإقليمية على امتداد الحرب الباردة، قد يكون ذلك لعدة أسباب، أولها: إن حجم التدخل السوفيتي كان في تلك النزاعات والحروب محدودًا ومتواضعًا بعكس الولايات المتحدة، التي كانت غالبًا ما يسبق تورطها في تلك الحروب إضافة صبغة شرعية من خلال ضغطها على مجلس الأمن؛ لإصدار قرارات دولية تجيز لها التدخل العسكري في بلدان عدة وبمساعدة حلفائها الغربيين، مثلما حصل في الحرب الكورية. أما السبب الثاني - وهو الأهم، نقص الوثائق والمعلومات المتوفرة حول موقف الاتحاد السوفيتي في تلك النزاعات والحروب، لاسيما وأن الحكومة الروسية لم تقم بنشر الوثائق المتعلقة بتلك القضايا إلا بعد عام ١٩٩٢ وبصورة غير كاملة، حيث ظلت موسكو متحفظة من نشر البعض منها لعدة أسباب قد تكون سياسية أو غيرها.

وفي ضوء تلك الحقائق، بدأت البحث في الموضوع حيث تبين لي مدى أهميته القصوى في كشف حقائق الحرب الباردة، وبأنه موضوع يستحق الدراسة، إذ بعد مرور خمسة وخمسين عامًا على نهاية الحرب الكورية، أنكرت موسكو أي تدخل لها في الحرب إلى جانب كوريا الشمالية أو أي دور لها في دخول الصين الشعبية إلى الحرب، ولكن مع الكشف عن أرشيف الدولة، ظهر لنا بشكل واضح حقيقة الموقف السوفيتي في الحرب الكورية، منذ الإعلان عنها في الخامس والعشرين من حزيران ١٩٥٠ حتى توقيع اتفاقية الهدنة في السابع والعشرين من تموز ١٩٥٣.

### أهمية الدراسة

وتأتي أهمية هذه الدراسة من كونها قد أثرت على العلاقات السوفيتية – الأمريكية وغيرت من سياسة واستراتيجية البلدين خلال الحرب الباردة. فبعد أن كانت الإدارة الأمريكية تعد أوروبا - وليس أسيا - هي خط الدفاع الأول ضد تطلعات الاتحاد السوفيتي في العالم، فقد تحول الاهتمام الأمريكي إلى الشرق الأقصى بعد الإعلان عن الحرب الكورية، لاسيما بعد استقرار الحدود الأوربية، وفشل محاولات السوفيت في نشر الشيوعية في دول غرب أوروبا مثلما حصل في شرقها. لذلك بدأت واشنطن تخطط للتصدي لنفوذ الشيوعيين في أسيا. ولم يكن أمام الاتحاد السوفيتي بزعامة ستالين سوى الوقوف بوجه محاولات الولايات المتحدة، لتقويض النفوذ الشيوعي في المنطقة، وتفويت الفرصة عليها وعلى حلفائها في السيطرة على أسيا، والتي كانت شبه الجزيرة الكورية أهم نقطة فيها لما يشكله موقعها من أهمية كبيرة لأمن الاتحاد السوفيتي القومي.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية





وقد انعكست تلك التطورات على السياسة السوفيتية تجاه كوريا، إذ تبدلت وجهة نظر السياسيين السوفيت، ورأوا أن من الضروري - بعد استكمال سيطرتهم على أوروبا الشرقية - التوجه إلى تعزيز نفوذهم السياسي والاقتصادي في الشرق الأقصى، ولكن اصطدام توجههم هذا بحتمية موافقتهم على خطة الزعيم الكوري الشمالي "كيم ايل سونغ" لتوحيد شبه الجزيرة الكورية عسكريًا، ومن هنا يتبين لنا بصورة لا تقبل الشك أهمية الموقف السوفيتي في الحرب الكورية.

**هدف الدراسة**

إن غاية الباحث من دراسة هذا الموضوع، هو التوسع في التحليل التاريخي، وإضافة معلومات جديدة تخدم الدراسة، وتسهم في إظهار حقيقة الموقف السوفيتي من الحرب الكورية، الذي بقي لعدة عقود سرًا من أسرار الحرب الباردة، وبشكل يختلف جذريًا على الدراسات السابقة التي تناولت بصورة غير مستقلة ومفصلة ذلك الموضوع، وافتقرت إلى المادة الوثائقية التي تدعم أحداث الحرب، واكتفت فقط في سرد الأحداث من زاوية الصراع السوفيتي - الأمريكي أثناء الحرب الباردة دون الخوض أكثر في تفاصيل الموقف السياسي والعسكري للاتحاد السوفيتي في الحرب.

اختار الباحث عام ١٩٥٠ بداية لدراسته، لأنه العام الذي وافقت فيه الحكومة السوفيتية على دعم خطة الزعيم الكوري الشمالي "كيم" لتوحيد البلاد عسكريًا، وقامت على وفق ذلك بتزويد الشماليين بكل ما يحتاجونه من أسلحة ومعدات لبدء الهجوم على كوريا الجنوبية في الخامس والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩٥٠، فضلا عن دعم موسكو السياسي "لبيونغ يانغ" في جميع المحافل الدولية أثناء الحرب، حتى بعد دخول القوات الصينية الحرب في أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأول) من العام نفسه. وقد اختار الباحث عام ١٩٥٣ نهاية لدراسته، لأنه العام الذي شهد توقيع اتفاقية الهدنة في السابع والعشرين من يوليو (تموز) ١٩٥٣، بين جميع الأطراف المتحاربة في كوريا والإعلان رسميًا عن انتهاء الحرب بين الكوريتين، من خلال مساعي حثيثة بذلتها الحكومة السوفيتية الجديدة برئاسة جورجي مالينكوف الذي تولى السلطة في البلاد بعد وفاة ستالين في الخامس من مارس (آذار) ١٩٥٣.

**فصول الدراسة**

ولقد اقتضت طبيعة الموضوع إلى تقسيم خطة البحث على أساس التسلسل التاريخي لأحداث الحرب، حيث تألفت الأطروحة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. حيث تناول **الفصل الأول**، دراسة الموقف السوفيتي من القضية الكورية بعد عام ١٩٤٥، أي خلال انعقاد عدة مؤتمرات دولية بمشاركة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين لوضع تسوية نهائية للقضية الكورية وإنهاء احتلال الياباني لها. وفي أثناء المباحثات التي دارت بين القادة السوفيت والأمريكيين، اتفق الطرفان على أن يكون الحد الفاصل بين عملياتهم العسكرية في كوريا خط عرض ٣٨°، وبذلك أصبح الجزء الذي يقع شمال هذا الخط تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي، بينما أصبح الجنوب من نصيب الولايات المتحدة. غير أن البلدين قد فشلا من خلال عمل اللجنة السوفيتية – الأمريكية المشتركة في تشكيل حكومة كورية موحدة، مما دفع واشنطن إلى رفع القضية إلى الأمم المتحدة، التي قامت بدورها بإصدار قرار تضمن إقامة انتخابات مستقلة في جنوب كوريا دون شمالها بسبب معارضة السوفيت في دخول أي لجنة دولية في الأراضي التي تحت سيطرتها، بحجة أن هذه القرار يتعارض بشكل كبير مع ما جاء من قرارات في مؤتمر موسكو. وعليه لم يكن لدى موسكو من خيار سوى إقامة دولة شيوعية موالية لهم في شمال كوريا تضمن من خلالها حماية مصالحهم السياسية والاقتصادية ليس في كوريا فحسب بل في المنطقة كلها، وعلى الرغم من ذلك رفض ستالين، ولعدة سنوات أي مقترح من قبل كيم للقيام بهجوم واسع ضد الجنوب، خوفًا من اندلاع حرب عالمية ثالثة.

أما **الفصل الثاني** من هذه الأطروحة، فقد تناول موقف الاتحاد السوفيتي منذ موافقة ستالين المبدئية على دعم خطة كيم العسكرية، لتوحيد شبه الجزيرة الكورية في كانون الثاني من عام ١٩٥٠، وحتى دخول القوات الصينية الحرب في أواخر شهر تشرين الأول من العام نفسه، إذ ركز الباحث في هذا الفصل على نقطتين في غاية الأهمية، الأولى: الدوافع التي جعلت الحكومة السوفيتية على تبني قرار يجيز لحليفها الشمالي بالهجوم على كوريا الجنوبية في الخامس والعشرين من حزيران عام ١٩٥٠، بعد طمأنة كيم ستالين بأنه سوف يحقق انتصارًا سريعًا على القوات الجنوبية مستبعدًا أي تدخل من جانب القوات الأمريكية. والثاني: الدعم السياسي والعسكري الذي قدمه السوفيت لكوريا الشمالية أثناء الحرب، ومدى تأثير ذلك على دخول الولايات المتحدة الحرب بعد يوم واحد فقط من اندلاعها، وهو أمر قد أثرت على سير العمليات العسكرية في غير صالح الشماليين، مما اضطرت موسكو على أثره التفكير في إدخال القوات الصينية إلى جانب كوريا الشمالية لإنقاذ الموقف.

وجاء **الفصل الثالث** امتدادًا للفصل الثاني، حيث تناول الباحث فيه موقف الحكومة السوفيتية من دخول القوات الصينية الحرب الكورية في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥٠ حتى الإعلان عن بدء المفاوضات في شهر تموز من عام ١٩٥١، مع التأكيد على

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449





دور موسكو في إقناع حليفها الجديد "ماوتسي تونغ" في دخول الحرب ضد الولايات المتحدة، مقابل وعد ستالين له بتقديم الدعم السياسي، والعسكري، والاقتصادي، للصين أثناء الحرب وبعدها. وهو الأمر الذي اجبر ستالين على مشاركة الطيارين السوفيت بشكل مباشر في الحرب لتوفير الغطاء الجوي اللازم للقوات الصينية المشاركة في المعارك التي دارت داخل أراضي كوريا الشمالية.

في حين تناول **الفصل الرابع**، موقف الاتحاد السوفيتي من بدء مفاوضات الهدنة حتى الإعلان عن توقيع اتفاقية الهدنة في بانمونجوم Panmunjom في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٥٣، وحاول الباحث في هذا الفصل، استعراض موقف الحكومة السوفيتية من محاولات حلفائها الشيوعيين لإنهاء الحرب، نتيجة للخسائر الكبيرة التي تكبدتها قواتهم على مدار أكثر من سنة من بدء الحرب، مرورًا بالإعلان عن بدء المفاوضات، وموقف ستالين المتذبذب منها حتى وفاته في الخامس من آذار عام ١٩٥٣، وأخيرًا توضيح الدور الذي قامت به الحكومة السوفيتية الجديدة برئاسة "مالينكوف" في فك ارتباط الاتحاد السوفيتي عن كوريا، وإبراز حقيقة المساعي الدبلوماسية التي بذلتها موسكو لإنهاء الحرب، والتي تكللت أخيرًا في توقيع اتفاقية الهدنة، والإعلان رسميًا عن انتهاء الحرب بين الكوريتين.

### مصادر ومراجع الدراسة

وقد اعتمدت الأطروحة على مجموعة من الوثائق المنشورة المهمة، كانت أبرزها الوثائق السوفيتية المنشورة بعد عام ١٩٩٢، التي قام بجمعها ونشرها العديد من الباحثين المختصين بهذا الشأن، كما كان للأطاريح الجامعية غير المنشورة دورٌ مهم في رفد البحث بمعلومات قيمة، واستعان الباحث أيضًا بالعديد من الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، وكان استخدام الباحث للكتب الأجنبية في هذه الدراسة على نحو واسع، حيث تضمنت معلومات ذات قيمة تاريخية وسياسية مهمة من خلال إبرازها دور كل طرف من أطراف الحرب الكورية، فضلاً عن اعتمادها على مادة وثائقية أسهمت في تعزيز معلومات الباحث من خلال ما حصل عليه من وثائق. وهو الأمر الذي جنبه الخوض في كثير من التناقضات حول أحداث ومواقف عديدة عشية الحرب، خاصةً فيما يتعلق بالموقف الأمريكي، على اعتبار إن أغلب تلك الكتب لم تعط الموقف السوفيتي حيزه الحقيقي، واكتفت في عرض وجهة نظر الأخيرة من جانب سياسي.

### خاتمة ونتائج الدراسة

عند تقييم سياسة الاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية، نلاحظ أن أهداف ستالين في الشرق الأقصى أقل توسعية بكثير من أهدافه في أوروبا. بخلاف الولايات المتحدة، التي كانت تسعى إلى إتمام سيطرتها على اليابان وكوريا الجنوبية، وكذلك محاولتها الحفاظ على الصين كدولة موحدة في ظل حكومة تعتمد عليها بشكل تام.

ومن هذا المنطلق؛ لعب الاتحاد السوفيتي دورًا رئيسًا في الحرب ضد ألمانيا في الجبهة الأوربية، وكانت نيته تأمين منطقة عازلة في أوربا الشرقية، لحماية أمنهم القومي ضد أي خطر غربي محتمل في تلك الفترة، في حين كانت الولايات المتحدة تلعب دورًا ثانويًا في أوروبا، حيث لم يكن لها أي اهتمام في توسع نفوذها في تلك المنطقة، ولكن هناك تناقض كبير في دور هاتين الدولتين في منطقة الشرق الأقصى، فبينما لم يكن للاتحاد السوفيتي أي دور عسكري وسياسي فيها، تحملت الولايات المتحدة العبء الأكبر للقتال في آسيا أثناء الحرب.

وعلى الرغم من دخول القوات السوفيتية الحرب ضد اليابان، بموجب اتفاق مسبق مع الحلفاء في مؤتمر يالطا، وإسهامات قواتها الفاعلة في تحرير كوريا من اليابانيين، إلا أنها لم تكن تهدف إلى السيطرة على شبه الجزيرة الكورية، وإنما أرادت الحفاظ على توازن القوى فيها، وتمنع أي دولة من السيطرة عليها بشكل كامل، لذلك لم يتردد ستالين في الموافقة على المقترح الأمريكي المتعلق بتقسيم كوريا عند خط عرض ٣٨°، الذي حصل بموجبه السوفيت على شمال شبه الجزيرة الكورية، التي كانت تربطها مع الاتحاد السوفيتي حدود مشتركة، الأمر الذي شجع ستالين أكثر على بناء دولة شيوعية موالية لهم في الجزء الشمالي من كوريا، لكي يحافظ من خلالها على مصالح بلاده السياسية والاقتصادية من جهة، وتسهم في حماية أمن بلاده القومي من جهة أخرى.

وإذا كان الاتحاد السوفيتي لم يرغب في السيطرة على شبه الجزيرة الكورية، فإن حليفتهم الناشئة كوريا الشمالية كانت ترغب في ذلك، حيث بدأ زعيمها كيم يخطط لغزو كوريا الجنوبية عسكريًا في محاولة منه لتوحيد البلاد تحت سيطرته، وبما أن من الصعوبة عليه تحقيق هذا الهدف دون موافقة ومساعدة السوفيت له، فقد فاتح ستالين أكثر من مرة بشأن تلك المسألة. وعلى الرغم من معارضة موسكو في البداية، إلا أنها وافقت أخيرًا على دعم الهجوم الشمالي ضد الجنوب، لاسيما بعد تقديم حكومة "بيونغ يانغ" ضمانات عدة لموسكو أكدت خلالها بأنها قادرة على حسم الحرب خلال عدة أيام، ومن ثَم عدم إعطاء المجال للقوات الأمريكية وحلفائها في التدخل.

ويظهر أن ستالين أقدم على تلك المغامرة، وهو على يقين بأن الولايات المتحدة لن تتدخل في الحرب الكورية، وأن بلاده ليست





مقدمة على حرب عالمية ثالثة، إذ اثبت تخطيط كيم لعملية توحيد شبه الجزيرة عسكريًا، أنه ليس للاتحاد السوفيتي أي علاقة تذكر بفكرة الهجوم الشمالي على الجنوب مثلما – توقع كثير من الباحثين – وإنما هي " فكرة ولدت عند كيم ووافق عليها ستالين"، واقتصر دور السوفيت بعد ذلك على تقديم الدعم السياسي والعسكري اللازم للقوات الشمالية، التي استطاعت من خلالها في الأسابيع الأولى من الحرب إحراز انتصارات عدة متتالية على القوات الأمريكية وحلفائها.

ولكن تلك الانتصارات لم تستمر طويلاً، حيث تعرض الجيش الشعبي الكوري لهزائم متلاحقة ابتدأت بسيطرة قوات التحالف الدولي على مدينة انجون واستعادتها سيؤول، ثم محاولتها لاجتياز شمال خط عرض ٣٨°، وهو أمر اجبر السوفيت على ضرورة الاعتماد على الصين، لإنقاذ كوريا الشمالية من احتلال محتمل من قبل الولايات المتحدة، مقابل وعود أطلقها السوفيت بتقديم الغطاء الجوي اللازم لحماية القوات الصينية الداخلة في الحرب.

وبناءً على ما تقدم، يمكن التوصل إلى نتيجتين في غاية الأهمية، **الأولى**: أن موافقة الحكومة الصينية على دخول الحرب الكورية، جاء بناءً على رغبة صريحة من قبل موسكو، وليس بدافع منها للحفاظ على أمنها القومي الذي تعرض للخطر، بوصول القوات الدولية عند نهر يالو الفاصل بين حدود الصين وكوريا الشمالية، لاسيما وأن القوات الصينية دخلت الحرب رسميًا قبل وصول تلك القوات إلى نهر يالو في نهاية شهر تشرين الأول ١٩٥٠. أما النتيجة **الثانية**: إذا كان السوفيت قد قدموا الدعم العسكري غير المباشر لكوريا الشمالية أثناء الحرب، فإنهم أجبروا على تقديم الدعم العسكري المباشر للقوات الصينية أثناء دخولها الحرب، حيث شهد شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٠ حدوث أول اشتباك جوي بين الطائرات السوفيتية والأمريكية خلال الحرب الباردة فوق الأراضي الكورية.

وعلى الرغم من تقديم السوفيت الدعم الجوي للقوات الصينية – الكورية الشمالية في الحرب، إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضها لهزائم على يد القوات الأمريكية ومن معها، الأمر الذي جعل "ماو" و"كيم" يعلنان صراحة لستالين عن رغبتهما في إنهاء الحرب، والبدء بإجراء مفاوضات الهدنة مع الولايات المتحدة. لم يعارض الاتحاد السوفيتي على فكرة إجراء مفاوضات، التي بدأت في العاشر من يوليو (تموز) ١٩٥١، ولكن ستالين حاول على مدى أكثر من عام من بدئها، إلى عرقلة جهود جميع الأطراف للتوصل إلى تسوية نهائية بشأن إنهاء الحرب، مستغلاً في ذلك الخلاف القائم بين المتفاوضين حول قضية أسرى الحرب، وربما أراد ستالين من خلال استمرار الحرب إضعاف الولايات المتحدة أولاً، وإبعادها عن التواجد في أوروبا المنطقة الأكثر أهمية بالنسبة للسوفيت ثانيًا.

وبعد أن رأت موسكو بأن بكين وبيونغ يانغ مصرتين على إنهاء الحرب، فضلاً عن حدوث بعض التطورات الداخلية والخارجية في الاتحاد السوفيتي. بدأ ستالين يظهر بعض المرونة في تعامله مع مفاوضات الهدنة، رغبةً منه في فك ارتباط بلاده عن كوريا، ولكن موته المفاجئ لم يجعله يمضي قدمًا في سياسته الجديدة الرامية إلى إنهاء الحرب، وإعادة النظر في علاقات بلاده مع الولايات المتحدة في خصم الحرب الباردة.

أظهرت الحكومة السوفيتية الجديدة بقيادة مالينكوف رغبة أكبر من سابقتها في إنهاء الحرب الكورية، فبذلت قصارى جهدها لإنهاء الحرب بأسرع وقت ممكن، من خلال حثها المستمر لحكومتي الصين وكوريا الشمالية على إظهار مرونة أكثر في مفاوضات الهدنة، والتنازل عن بعض شروطها السابقة المتعلقة بأسرى الحرب، وبالفعل أسفرت تلك الجهود عن توقيع اتفاقية الهدنة في بانمونجوم بعد ثلاثة أعوام من بداية الحرب.

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



# Aspects of the historical geography of the Hashemite Kingdom of Jordan (1921 - 2011)

الملف

# جوانب من الجغرافيا التاريخية للمملكة الأردنية الهاشمية (١٩٢١ – ٢٠١١)




أ. د. خليف مصطفى غرايبة

أستاذ الجغرافيا والتربية الوطنية المشارك

قسم العلوم الأساسية كلية عجلون الجامعية

جامعة البلقاء التطبيقية

المملكة الأردنية الهاشمية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

خليف مصطفى غرايبة، جوانب من الجغرافيا التاريخية للمملكة الأردنية الهاشمية (١٩٢١ - ٢٠١١).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١٢٩ – ١٤٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 – 0449

**خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢**

## ملخص

تعاقب على حُكم الأردن أنظمة سياسية كثيرة، ومن هذه الأنظمة الحُكم العثماني الذي بسط نفوذه على بلاد الشام منذ عام ١٥١٦م وعلى أثر معركة مرج دابق، وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) ظهور أقطار عربية عديدة من ضمنها إمارة شرق الأردن التي أسّسها الأمير عبدالله بن الحسين، نالت الإمارة استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٤٦ وتحوّل اسمها إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وتعاقب على حُكمه أربعة من الملوك الهاشميين. امتازت أرض الأردن بمواردها الطبيعيّة المتواضعة ولكن الهاشميون استطاعوا أن يقيموا دولةً عصريّةً تقوم على أسس دستورية وديمقراطية.

يهدف هذا البحث إلى تتبّع جوانب الجغرافيا التاريخية للأردن منذ تأسيسه من حيث المكان والإنسان والتفاعل بينهما عبر الزمان، وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة علاوة على أهمها في إثراء دراسات الجغرافيا التاريخية عربيًا. ولتحقيق هذا الهدف اتبع الباحث المنهج التصاعدي التتّبعي Vertical Treatment لمعرفة حجم التغيّر الذي طرأ على جوانب الحياة في الأردن خلال الحكم الهاشمي، وقد توصّل الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات التي من شأنها أن تُساهم ولو جُزئيًا في دفع مسيرة التنمية الشاملة.

## أولاً: المقدمة والمنهجية

**١/١- المقدّمة:**

تُركّز الجغرافية التاريخية *(Historical Geography)* في دراستها على المكان والإنسان والتفاعل بينهما وحجم التغير الذي يحدث نتيجة هذا التفاعل، وتعتبر الجغرافية التاريخية من أهم فروع علم المكان وذلك لشمول هدفها الرامي إلى دراسة التغيير والتأثير الذي يحدثه السكان في الوسط الطبيعي الذي يعيشون فيه خلال البعد الزمني وقد تعاقب على حكم الأردن أربع طبقات من الحكم الهاشمي هي:

١- الملك المؤسس عبدالله بن الحسين (١٩٢١-١٩٥١).

٢- الملك واضع الدستور الملك طلال بن عبدالله (١٩٥١- ١٩٥٢).

٣- الملك الباني حسين بن طلال (١٩٥٢- ١٩٩٩).

٤- الملك المعزز عبدالله الثاني بن الحسين (١٩٩٩- حتى الآن).

وقد صاحب الحكم الهاشمي خلال فترة الدراسة (تسعون عامًا) تغير واضح على مستوى المكان (الأردن) وعلى مستوى السكان بحيث التعليم والصحة ومختلف جوانب الحياة.

**٢/١- مشكلة الدراسة:**

مر الأردن خلال فترة الدراسة بظروف تاريخية صعبة وبمحدودية في موارد الأرض أثرت على الخصائص البيئية والاجتماعية في حياة السكان، ورغم الظروف البائسة التي مر بها الأردن قد تمكن السكان بقيادتهم الهاشمية من استثمار مواردهم بشكل امثل والعيش في ظروف اقتصادية أفضل، فاتسعت المدن وشقت طرق المواصلات وأنشئت المدارس والجامعات والمراكز الصحية، وشهد الأردن تطورًا ملموسًا في جميع جوانب الحياة، وتكمن مبررات هذه الدراسة وأهميتها بما يلي:

١- قلة الدراسات السابقة، أو ندرتها عن الأردن في حقل الجغرافية التاريخية.

٢- تنوع الأساليب المستخدمة في الدراسة.

٣- الاستفادة من هذه الدراسة ومنهجيتها في تشجيع دراسات الجغرافية التاريخية.

٤- مما يزيد في أهمية هذه الدراسة أنها جاءت على الأردن الذي يتوسط في موقعه بين أقطار المشرق العربي الأسيوي الأمر الذي يستدعي معرفة أكثر عنه لدى دول الجوار.

**٣/١- أهداف الدراسة:**

تهدف هذه الدراسة بشكل عام إلى تتبّع تطور الجغرافيا التاريخية للأردن خلال فترة الدراسة (تسعة عقود) علاوة على دراسة الأهداف الفرعية الآتية:

١- الاطلاع على كيفية تأسيس إمارة شرق الأردن واستقلالها.

٢- رصد جميع انجازات التي تحققت خلال فترة الحكم الهاشمي.

**٤/١- الدراسات السابقة:**

تناولت شرق الأردن دراسات عديدة في اختصاصات معرفية متنوعة في الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والقانون وغيرها، وبحدود علم الباحث لا يوجد دراسات عن الأردن أو الأردنية بمنهجية الجغرافيا التاريخية إلا دراسة واحدة بعنوان: الجغرافية التاريخية للمنطقة الغربية لجبل عجلون (١٨٦٤-١٩٤٦م)، رسالة ماجستير (منشورة) صدرت عن قسم الجغرافيا، الجامعة الأردنية عام ١٩٩٠ وهي للباحث نفسه، وأما الدراسات المتعدّدة التي استفادت منها هذه الدراسة في الجوانب المختلفة للأردن فيمكن الاطلاع عليها من قائمة المراجع الواردة في نهاية هذا البحث.

**٥/١- منهجية الدراسة:**

استخدم الباحث المنهج التصاعدي التتبّعي Vertical Treatment لمعرفة مدى التغيّر الذي طرأ على جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والثقافية في الأردن، وهذا هو النهج الأصولي الذي يعطي نتائج أقرب إلى الواقعية من خلال البعد الزمني وشيء من العمق وعدم التكرار، ولتحقيق هذه المنهجية اتبع الباحث أساليب متعددة تشمل ما يلي: الاطلاع على العديد من المراجع التي كتبت في مجال الجغرافيا التاريخية بشكل عام، والرجوع إلى الخرائط وتحليلها وتتبّع تطوّر الحدود والتقسيمات الإدارية في الأردن، والاستفادة من المصادر المكتبية التي تحتوي على معلومات جغرافية تاريخية عن الأردن مثل: كتب الرحالة، وكتب المؤرخين، والجغرافيين الأردنيين.

**٦/١- مجالات الدراسة:**

التزم البحث في تحقيقه لأهدافه ومحتواه مجالات ثلاثة هي:

أ- المجال الجغرافي(المكاني): ويتمثّل بأرض المملكة الأردنية الهاشمية.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ب- المجال البشري (السكاني): ويتمثل بسكان المملكة الأردنية الهاشمية والذي تطوّر عددهم من نصف مليون عام ١٩٥٠ إلى ستة ملايين عام ٢٠١٠.

ج- المجال التاريخي (الزماني) وهي الفترة الزمنية للدراسة من عام ١٩٢١ حتى عام ٢٠١٠م.

## ثانيًا: الملامح الجغرافية العامة لأرض الأردن

### ١/٢- التسمية والمساحة:

الأردن كلمة آرامية الأصل تعني المُتعرّج شديد الانحدار، وهناك مَن يقول أنها كلمة يونانية قديمة تعني النهر وأُطلقت قديماً على نهر الأردن، أما كلمة الأردن في العربية فإنها تعني الشدّة والغلبة والسكان المحليون يُسمّون هذا النهر (الشريعة).[١] أما اسم "شرق الأردن" فهو تسمية قديمة تشير إلى مناطق جلعاد وعمون ومؤاب الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن،[٢] وقد شاع استعمال تسمية "شرقي الأردن" في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وذلك في كتابات الكثير من الرحالة الألمان والانجليز الذين زاروها ومن أهمهم مرل وأوليفانت، ولم يقم في هذه الأجزاء كيان سياسي موحد إلا في عام ١٩٢١ وبمجيء الأمير عبدالله مؤسس الإمارة الأردنية.[٣] وتبلغ مساحة الأردن ٨٩.٢٩٧ كيلومتر مربع.

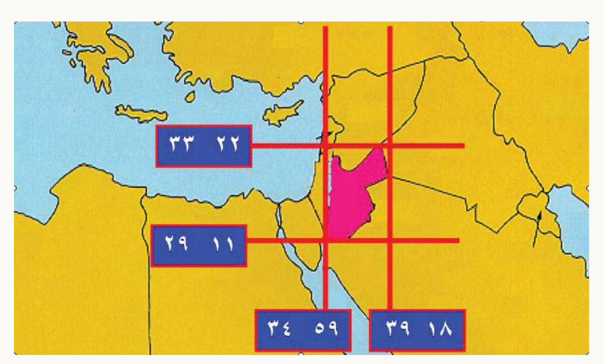
### ٢/٢- الموقع الجغرافي:[٤]

أ- من حيث الموقع القاري: يقع الأردن في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا أو الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد الشام وهي جزء من وحدة جغرافية أكبر تُسمّى الهلال الخصيب (الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق).[٥].(خريطة رقم١)

ب- من حيث الموقع الفلكي (شبه خطوط الطول والعرض): يقع الأردن بين خطي عرض ١١ ٢٩° و٢٢ ٣٣° وبين خطي طول ٥٩ ٣٤° و١٨ ٣٩°، إنّ خطوط العرض تشير إلى أن الأردن يقع في عروض معتدلة مناخيًا، وخطوط الطول تشير إلى أن الفرق الزمني بين الأردن وخط غرينتش ساعتان وربع تقريبًا، حيث يقع الأردن في نطاق التوقيت الثالث من نطاقات التوقيت العالمي.[٦] (أنظر: خريطة رقم ٢).



خرطة رقم (١) الموقع الجغرافي القاري للأردن



خريطة رقم (٢) الموقع الجغرافي الفلكي للأردن



خريطة رقم(٣) حدود الأردن مع الدول المجاورة

جـ- أهمية الموقع الجغرافي وأثره على شخصية المملكة: لموقع الأردن القاري والفلكي أهمية خاصة وآثار بالغة في بلورة شخصية يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- يتميز الأردن بموقع جيوبولوتيكي هام بالنسبة للعالم والوطن العربي، فهو يتوسط قلب آسيا العربية وقلب العالم القديم الذي حدّده ماكندر[٧] (آسياوأوروباوإفريقيا) وهو منطقة متوسطة بالنسبة لبلدان الوطن العربي بشقيه الإفريقي والآسيوي.
- للأردن حدود برية طويلة جدًا مع جيرانه قياسًا بمساحته، وهذا يجعله حلقة اتصال بين الأقطار التي تجاوره (سوريا وفلسطين والعراق والسعودية)، حيث تبلغ أطول حدوده البرية ١٦٩٨ كم.
- من الناحية الجغرافية المناخية يُشكل الأردن مزيجًا من عناصر الجغرافيتين الطبيعية والبشرية عند التقاء الصحراء بالإستبس وبمنطقة البحر المتوسط،[٨] وهذا يترتب عنه تنوّع بشري عرقي وتنوّع تضاريسي وتنوّع إنتاجي في هذه التضاريس.
- يُشغل الإقليم الصحراوي معظم أرض الأردن وهذا ترتب عنه تجمع السكان في منطقة صغيرة منه (الإقليم الجبلي والغور) وقلة الموارد الطبيعية.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

- قديمًا كان الأردن جسر عبور لكثير من الأمم الغازية المنطلقة باتجاه مصر أو فلسطين، ومنطقة عبور للهجرات العربية بعد سنوات القحط والجفاف التي شهدتها الجزيرة العربية، ومنطقة عبور لجيوش الفتح الإسلامي شمالاً وغربًا، وقد أدّت هذه الظروف إلى استقرار الكثير من العناصر البشرية في أرضه وهذا جزء من تفسير التعدّد والتنوّع العرقي الذي يشهده الأردن رغم صغر مساحته وقلة سكانه، ومن هنا فقد أصبحت التعددية السياسية والوحدة الوطنية للسكان من ثوابت ومرتكزات الفكر الهاشمي منذ قيام الإمارة الأردنية وحتى الآن.
- نتيجة للتعدّد الذي ذكرناه سابقًا فقد أصبح الأردن متحفًا أثريًا يحوي العديد من الشواهد الأثرية التي تشكل معالم سياحية ينبغي الاهتمام بها لكي تصبح موردًا أساسيًا من روافد الإنتاج المحلي الأردني، حيث تعاقب على حكم شرقي الأردن العديد من الأنظمة مثل الجلعاديون، العمونيون، المؤابيون، الأدوميون، الرومان، الأنباط، الأمويون، العباسيون، المماليك، العثمانيون، وغيرهم.
- كان للموقع الجغرافي تأثير على حياة المجتمع السكاني فمنذ أقدم العصور وحتى نهاية الدولة العثمانية (١٩١٨) كانت منطقة شرقي الأردن أقرب إلى شبه الجزيرة العربية منها إلى سواحل سوريا الطبيعية، ومن هنا كان تأثير البداوة قويًا وغالبًا على سكانه.[٩]

وهكذا؛ فقد أعطى الموقع الجغرافي للأردن شخصية خاصة في منطقة الشرق الأوسط وليس أدل على هذه الأهمية من التنافس الاستعماري الذي شهدته المنطقة مع بدايات القرن العشرين، وما لعبه الأردن حديثًا أثناء الحصار الغربي للعراق حيث شكّل مدخلاً رئيسيًا لحركة السكان والاقتصاد العراقي.

**٣/٢- حدود الأردن:**[١٠]

يحدّ الأردن من الشمال سوريا، ومن الجنوب السعودية، ومن الشرق العراق، ومن الغرب فلسطين،(خريطة رقم٣) وتشترك الأردن مع دول الجوار بشبكة طويلة من الحدود رُسّمتْ في وقت مُبكّر من عُمر الدولة الأردنية، وجرى تعديل على بعضها في أوقات لاحقة كما يوضح الجدول التالي:

**جدول رقم (١) كيفيّة ترسيم الحدود مع دول الجوار**

| الدولة | تاريخ ترسيم الحدود | طول الحدود(كم) | الاتفاقية/المعاهدة | الملاحظات |
|---|---|---|---|---|
| سوريا | ١٩٢٠ | ٤٥٥ | معاهدة بين بريطانيا وفرنسا | - |
| العراق | ١٩٢٨ | ١٣٣ | اتفاقية نيسان | جرى تعديل للحدود عام ١٩٨٠ |
| فلسطين (إسرائيل) | ١٩٢٢ | ٣٧٠ | القانون الفلسطيني | تمّ الترسيم النهائي للحدود بموجب معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية عام ١٩٩٤ |
| السعودية | ١٩٢٥ | ٧٤٠ | معاهدة جدة | عُدلت الحدود بموجب اتفاقية عمّان عام ١٩٦٥ |

المصدر: عمل الباحث

من الجدول السابق يُلاحظ ما يلي:

أ- أقدم الحدود مع الدول المجاورة كان مع سوريا.

ب- جميع الحدود مع الدول المجاورة تم ترسيمها زمن الإمارة ماعدا الحدود مع فلسطين حيث تم ترسيمها بموجب المعاهدة الأردنية الإسرائيلية عام ١٩٩٤.

ج- استقامة الحدود بشكل يجعلها أقرب للنوع الهندسي .

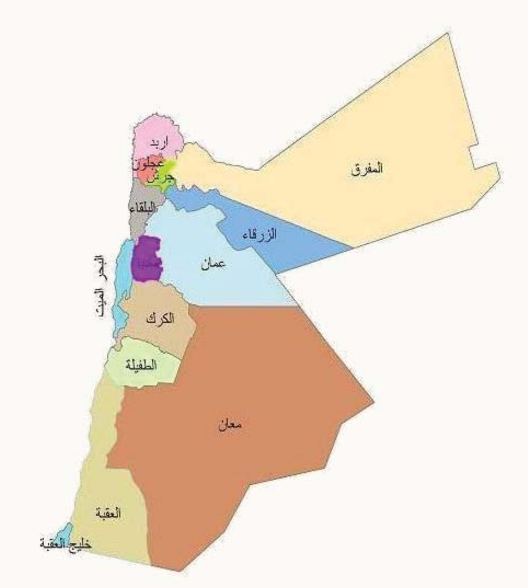
د- يبلغ طول الحدود الأردنيّة مع الدول المجاورة ١٦٩٨كم، فإذا استخدمنا عنصرين: هندسي وبشري نجد أنّ نسبة طول الحدود مع السّكان١:٨١٨ كم في الأردن مقابل١:٥٤٥٧ في مصرو١:١٨٣٦ في العراق، ويُعتبر الأردن من أكثف أقطار الوطن العربي حدودًا، وهذا يعني المزيد من مراقبة الحدود منعًا للعبور غير المشروع.

**٤/٢- التقسيمات الإدارية:**

استنادًا لنظام التقسيمات الإداريّة في المملكة رقم (٤٦) لسنة ٢٠٠٠م فقد قُسّمت المملكة إلى ثلاثة أقاليم ضَمَّت (١٢) مُحافظة اشتملت على (٥١) لواء و(٣٨) قضاء على النّحو التالي: (خريطة رقم ٤). **الإقليم الشّمالي** وفيه أربع مُحافظات هي: (إربد، عجلون، جرش والمفرق)، ويشتمل على ١٦ لواء و١٤ قضاء. **الإقليم الأوسط** وفيه أربع مُحافظات هي: (العاصمة، الزرقاء، البلقاء، ومادبا)، ويشتمل

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

على ١٩ لواء و١٥ قضاء. **الإقليم الجنوبي** وفيه أربع مُحافظات هي: (الكرك، معان، الطفيلة والعقبة)، ويشتمل على ١٦ لواء و٩ أقضية.




**خريطة رقم (٤) التقسيم الإداري للمملكة**

**٥/٢- الملامح الطبيعية:**

يمتاز الأردن بتنوع تضاريسه التي تتخذ شكلاً طوليًا واضحة المعالم تمتد من الشمال إلى الجنوب وهي:[١١] (خريطة رقم ٥)

**١/٥/٢- الغور الأردني**: ويشكّل ما نسبته ٥.٦% من مساحة الأردن ويمتد من الباقورة شمالاً إلى العقبة جنوبًا مكونًا المعالم الجغرافية التالية:

أ. نهر الأردن (الشريعة) ويبلغ طوله ١١٠ كم ومتوسط اتساعه ١٠ كم وبمحاذاته تقع سهول الزور، وهي ذات تربات فيضية خصبة إلى الشرق منها سهل الغور الذي يشكل سلة الغذاء الأردنية.

ب. البحر الميت: وهو اخفض بقعة في العالم ويبلغ طوله ٧٠ كم وعرضه من ١٠-١٦ كم، ويتعرض البحر حاليًا إلى عملية تآكل وانحسار مياهه ويمتاز بارتفاع ملوحة حيث تصل إلى ٣٣%.

جـ وادي عربة: ويصل طوله إلى ١٥٠ كم.

**٢/٥/٢- المرتفعات (الجبال)**: تشكل ما نسبته ٥.٨% من مساحة المملكة ويسكنها أكثر من نصف سكان الأردن، وتمتد هذه المرتفعات من الشمال إلى الجنوب على شكل إقليم طولي ينحصر بين الغور غربًا والهضاب الداخلية والبادية شرقًا، وتنقسم الجبال إلى وحدات تضاريسية تفصلها الأنهار والأودية وهذه الجبال هي:

أ. جبال اربد وعجلون وتقع بين نهر اليرموك شمالاً، ونهر الزرقاء جنوبًا، وأعلى قممها جبل أم الدرج (شرق بلدة عنجرة)، ويرتفع ١٢٤٧م عن سطح البحر ورأس منيف (شرق بلدة عفنا) ويرتفع ١١٩٨م عن سطح البحر.

ب. جبال البلقاء (السلط)وتقع بين نهر الزرقاء ووادي الموجب وأعلى قممها يوشع ويرتفع ١٠٩٧م.

جـ. جبال مؤاب (الكرك) وتمتد بين وادي الموجب إلى وادي الحسا.

د. جبال الشراه وتقع جنوب وادي الحسا وأعلى قممها جبل أم الدامي ويصل ارتفاعه إلى ١٨٥٤م كما يتبعها جبل رم السياحي، ويبلغ ارتفاعه ١٧٥٤م، وفي أقصى جنوب المملكة توجد الجبال الجرانيتية وأعلى قممها جبل باقر شمال شرقي العقبة ويرتفع ١٩٥٢م.

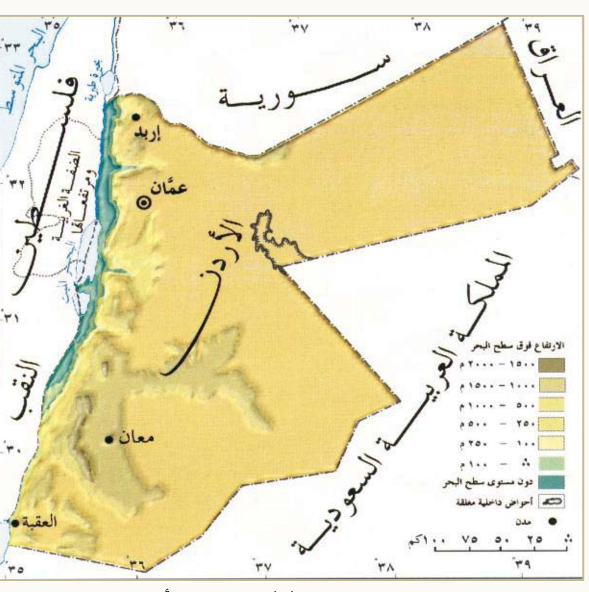
**٣/٥/٢- السهول الداخلية**: وهي ليست امتداد طبيعي للمرتفعات فحسب بل هي سهول هضبية تقريبًا، وتشكل ما نسبته١١% من مساحة المملكة، وتُعاني هذه السهول من ظاهرة الزحف العمراني عليها لأنها تجاور التجمعات السكانية الريفية في المملكة، وتنقسم إلى:

أ. السهول الشمالية: وهي سهول خصبة تتواجد حول مدن اربد والرمثا والمفرق وجرش وبيت راس والحصن، وكانت قديمًا تسمى أهراء روما (أو مستودعاتها).

ب. السهول الوسطى: تمتد حول العاصمة (عمّان) والزرقاء ومأدبا.

جـ. السهول الجنوبية: وتمتد حول مدينة الكرك والربة وهناك جيوب سهلية تتخلل المناطق الجبلية في الجنوب مثل منطقة الديسة.

**٤/٥/٢- البادية**: وتشكل ما نسبته ٧٧.٤% من المساحة العامة للمملكة، وتخلو من وجود تجمعات سكانية رئيسية وتنتشر فيها الواحات مثل الرويشد والصفاوي والجفر، ونستطيع القول بأن السكان يتجمعون في مساحة لا تزيد على ٢٠% من الأردن.




**خريطة رقم(٥) تضاريس الأردن**

## ثالثًا: النشأة والخصوصية للدولة الأردنية

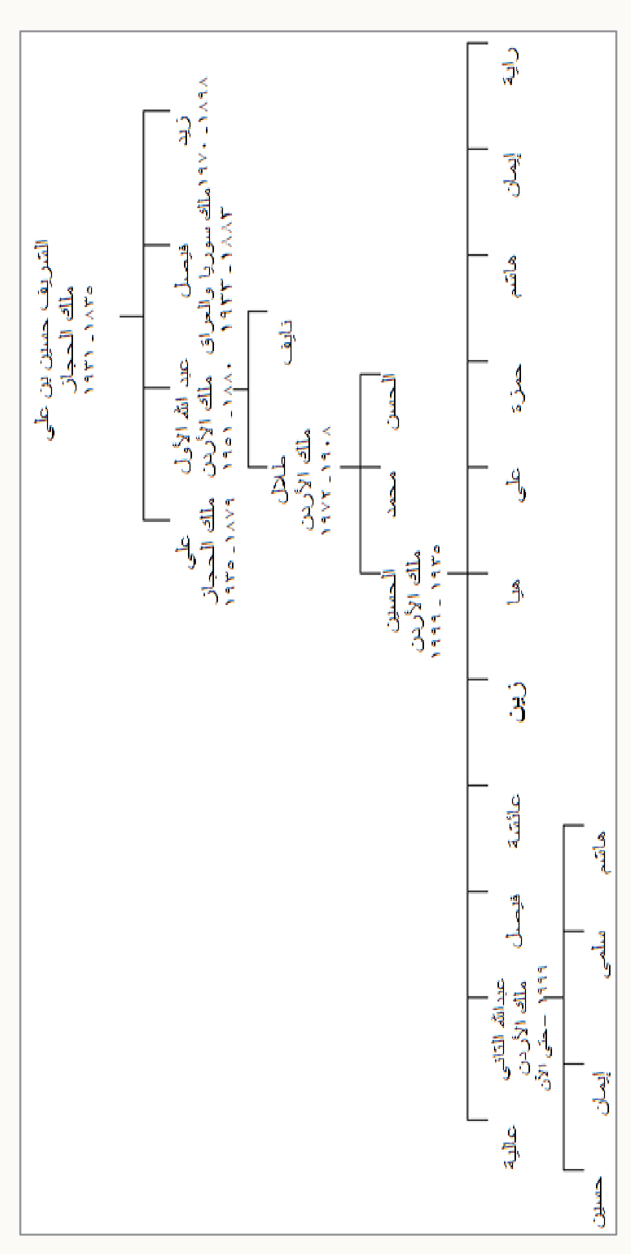
**١/٣- النّسب الهاشمي:**

تُعتبر المملكة الأردنية الهاشمية واحدة من دولٍ عدّة جاءت نتيجةً للحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، ولأربعة قرونٍ خَلَت، وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت الأراضي العربية الواقعة في قارة آسيا تُشكّل جزءً من الإمبراطورية العثمانية، وقد بدأت هذه

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الإمبراطورية بالضعف منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر وانعكس هذا الضعف على الولايات التي كانت تتبعها.

تعرّض العرب خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني للمظالم مما أثار حفيظة المثقفين والقادة العرب، وقد استطاع الشريف الحسين بن علي بقوة إرادته وشخصيته أن يكون ناطقا باسم العرب، ومنذ أن أصبح أميرًا على مكة المكرمة وبرزت مكانته في حركة السيادة العربية،[١٢] تمخّضت نتائج الحرب العالمية الأولى عن ظهور أقطار عربية عديدة من ضمنها إمارة شرق الأردن، التي تأسّست بقيادة الأمير عبدالله بن الحسين بن علي وذريته من بعده.




**٢/٣- الثورة العربية الكبرى:**[١٣]

بالرغم من محافظة الدولة العثمانية على الوحدة في الولايات العربية التي كانت تتبعها وحماية الإسلام، إلا أنه وفي أواخر عهدها أي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت الأوضاع تسوء في هذه الولايات (وخصوصًا المشرق العربي) التي بدأت تشهد حالة من الوعي السياسي ارتبطت بالإحساس والشعور بما يحدث من تطورات سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية وثقافية، وسميت هذه الحالة في تاريخنا الحديث والمعاصر بـ"اليقظة العربية" أو "النهضة العربية".[١٤]

وقد أدت الظروف الصعبة التي مر بها المشرق العربي إلى قيام الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف الحسين بن علي في ١٠ حزيران ١٩١٦ كمشروع نهضوي عربي مُكمّل لمشاريع نهضوية عربية سابقة تم وأدها،[١٥] وكان شعار الثورة العربية: الوحدة والحرية والاستقلال ضد الظلم والفساد، ولم يُعلن الشريف الحسين بن علي الثورة، إلا بعد أن رفض الأتراك مطالب العرب العادلة.[١٦]

إن الثورة العربية الكبرى ثورة قومية بمعنى الكلمة، فقد كانت:[١٧]

- عربيّة التّوجّه: حيث سعت إلى تحرير الأرض العربية وإقامة دولة عربية واحدة تشمل المشرق العربي يتمتع مواطنوها بالكرامة والعزة والعدل، وتسعى إلى تحسين الأحوال المعيشية والاجتماعية والتربوية لكافة المواطنين العرب.
- عربيّة التخطيط: حيث تم التخطيط لها ما بين شريف مكة والجمعيات العربية في كل من سوريا والعراق،[١٨] وكانت هذه الثورة التجسيد الفردي العملي لآراء عرب سوريا والعراق ومصر وعرب الحجاز وعرب الجزيرة العربية.
- عربيّة التنفيذ: شارك فيها جنود وقادة عرب من إشراف الحجاز ومن الأردن وفلسطين وسوريا والعراق ومصر والمغرب والجزائر وتونس واليمن، وخاض هؤلاء الأبطال معارك عديدة في أرض الحجاز وفي أرض الحَشْر(الأردن) وفي درعا ودمشق تحت راية الهاشميين المنطلقين من بطاح مكة.

وتتمثّل أهم أسباب وعوامل الثورة العربية الكبرى بما يلي:[١٩]

**عوامل مباشرة تتمثّل في:**

أ- ظلم الأتراك للعرب وإتباع سياسة التتريك ومحاربة اللغة العربية.

ب- دخول تركيا الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) إلى جانب دولِ الوسط مما جعل العرب يفكرون في مصير بلادهم أمام الأخطار الاستعمارية واتخذوا قرارهم بالانفصال والاستقلال.

ج- السياسة التنافسية والإرهابية التي سلكها جمال باشا السفاح في سوريا مثل: مصادرة المحاصيل الزراعية ونفي العائلات العربية وفرض الإعانات للجيش باسم التكاليف الحربية وإعدام عددٍ من أشهر زعماءِ الحركة العربية في دمشق وبيروت.

**عوامل غير مباشرة مثل:**

فساد الإدارة، وسوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والصحيّة، وتدني مستوى التعليم، ورفض مطالب الجمعيات والأحزاب العربية، وظهور حركة القومية العربية. وبشكلٍ عام يمكن إجمال حالة الوعي أو النهضة باتجاهين رئيسيْن هما:[٢٠]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



١- الاتجاه الفكري: وتمثّل في كتابات وتوجّهات العلماء والأدباء والمنظرين السياسيين الذين ظهروا في الولايات العربية خلال هذه المرحلة، وعلى الرغم من تَشعّب هذا الاتجاه إلا أن هناك إجماعًا عامًا تمثّل في وصف الحالة السّيئة للولايات العربية والمناداة بضرورة الإصلاح وأسفر هذا الاتجاه عن تأسيس مجموعة من الأحزاب السياسية والجمعيات والمنظمات[٢١] وتمثّلت حالة النضج المتقدمة في هذا الاتجاه بعقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣.

٢- الاتجاه الثوري(العسكري): وقد مثّلت الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين بن علي حالة النضوج والتقدّم في هذا الاتجاه.

## رابعًا: موجز الأحداث والتطورات منذ تأسيس الإمارة وحتى عام ٢٠١١

**١/٤- عهد الأمير عبد الله بن الحسين بن علي:**

**١/١/٤- تأسيس الإمارة الأردنية:**

بعد الحرب العالمية الأولى نكث الحلفاء بوعودهم للشريف حسين، وتم تقسيم هذه المنطقة تحت النفوذيْن البريطاني والفرنسي بموجب معاهدة سايكس بيكو.[٢٢] وبانهيار حكومة فيصل ودخول الفرنسيين إلى دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠، نشأ فراغ سياسي وإداري في شرقي الأردن، الأمر الذي حفّز البريطانيين والفرنسيين على العمل لملء هذا الفراغ. أما بريطانيا فقد اعتبرت شرقي الأردن حلقة الوصل الاستراتيجية لمصالحها في كل من العراق وفلسطين ومصر.[٢٣]

وصل الأمير عبدالله إلى معان في تشرين الثاني١٩٢٠، والتفّ حوله العديد من زعماء البلاد، وفي آذار عام ١٩٢١ وصل إلى عمان، وفي نهاية آذار ١٩٢١ وصل إلى القدس واجتمع بوزير المستعمرات البريطاني تشرشل، وطالب بدولة عربية يحكمها تضم شرقي الأردن وفلسطين، ولكنه جوبه بالرفض.[٢٤] ولأهميّة الاجتماع الذي عقد بين الأمير عبدالله وتشرشل في تاريخ شرق الأردن لذلك لابد من إيراد النقاط التي اتفق الطرفان عليها وهي:[٢٥]

١- أن يمتنع عبدالله القيام بأي أعمال ضد الفرنسيين.
٢- أن يتخلّى عن حقوقه وفعالياته في العراق.
٣- أن يتعهّد بالمحافظة على الأمن في شرقي الأردن.
٤- أن يعترف بالانتداب البريطاني على شرقي الأردن ويؤسس حكومة عربية.
٥- أن يتلقّى معونة شهرية مقدارها خمسة آلاف جنيه إسترليني ولمدة ستة أشهر.
٦- يُعيَّن مُمثّل بريطاني للمندوب السامي في عمان للمساعدة في تأسيس إدارة جديدة.
٧- يتعهّد البريطانيون باستقلال البلاد في تاريخ لاحق، وكان هذا الاتفاق مفيداً للبريطانيين من ناحيتين:

أ- أن حكومة مركزية إقليمية ستحِلّ محلّ الحكومات المحلية[٢٦].

ب- أنّه كان يُنظر إلى تنصيب حاكم هاشمي في كل من شرقي الأردن والعراق على أنه وفاء من بريطانيا لانتدابها للشريف حسين مقابل مشاركته في الحرب ضد الأتراك.

وهكذا؛ وجد الأمير عبدالله بأنه أسير نوعين من الارتباطات التعاقدية، فهو من جهة زحف إلى عمان رافعًا شعارات ووعود بالعمل على تحرير سوريا من الفرنسيين والتي حشد من خلالها الاستقلاليين السوريين وعددًا من الشخصيات العربية، الأمر الذي وفّر له غطاءً شرعيًا لتولي الحكم في الأردن، ومن جهة أخرى أبرم الأمير اتفاقًا مُلزِمًا مع البريطانيين على حكم شرقي الأردن بمساعدتهم، وكان هذا الارتباط نقيضًا لاتفاقه مع الاستقلاليين إذ وافق في اجتماع القدس على قبول نتائج سايكس بيكو، وكذلك السياسة البريطانية القاضية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ومَنْع أي عمل عدائي في الأردن ينطلق من سوريا أو فلسطين.

وقد تُرجمت تلك الالتزامات في صك الانتداب البريطاني مع شرقي الأردن والمعاهدة الأردنية-البريطانية لعام ١٩٢٨، وبموجب ذلك الاتفاق مُنح الأمير سلطة الحكم الإداري الذاتي لإمارة شرقي الأردن [٢٧]، وتمّ تأليف أول حكومة في شرقي الأردن أوائل نيسان عام ١٩٢١. وكان اسم الإمارة آنذاك "حكومة الشرق العربية" وكانت تضم ثلاث مقاطعات هي: (عجلون والسلط والكرك) ثم ضمت إليها مقاطعة معان عام ١٩٢٥.[٢٨] شرع الأمير عبدالله في تنظيم الإمارة الجديدة تحت إشرافه الشخصي وهي مهمة ليست بالسهلة إذ كان من الصعب تحقيق أهدافه خلال وقت قصير وبالإمكان تلخيص هذه الأهداف بما يلي:[٢٩]

١- إلغاء الحكومات المحلية التي كانت موجودة قبل وصول الأمير عبدالله.
٢- تنظيم سلطة مركزية في عمان بصفتها الإمارة الجديدة.
٣- إقامة الأمن والنظام في أراضِ شرقي الأردن.
٤- إيقاف الغارات من الصحراء.
٥- كبح جماح العناصر بالحيلولة دون شنّ الغارات على الفرنسيين في سوريا.
٦- إقناع مختلف فئات الشعب بدفع الضرائب.

إذاً أسس الملك عبدالله الإمارة وأقام أول نظام حكومي مركزي في مجتمع معظمه عشائري وبدوي، وطوال السنوات الثلاثين التالية ركّز على بناء الدولة ووضع الأطر المؤسسية للأردن الحديث وسعى إلى الحكم الذاتي والاستقلال بإقامة شرعية ديمقراطية وبوضع أول دستور للأردن عام ١٩٢٨ عرف باسم المجلس التشريعي، وقد تبوّأ الأردن مركزاً متقدماً في خدمة القضية الفلسطينية.[٣٠]

**٢/١/٤- النضال من أجل الاستقلال:**

يُمكن تقسيم التطور السياسي للإمارة الأردنية خلال حكم الأمير عبدالله إلى فترتين رئيسيتين صاحبهما مواقف نضالية كبيرة من أجل الاستقلال وهما:

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أ- الاستقلال الإداري- المؤسسات الدستورية، خلال الفترة (١٩٢١ - ١٩٢٨).

ب- الحركة الوطنية – الاستقلال، خلال الفترة (١٩٢٨- ١٩٤٦).

بقيت الإمارة تُعاني من صعوبات جمّة في السنوات الأولى من تأسيسها، وانعكس ذلك على الأوضاع الإدارية للمناطق، ومن أهم هذه المصاعب: العجز المالي وتوطيد الأمن، وقد بدأت هذه المصاعب بالانفراج بعد استقلال الإمارة في ٢٥ أيار ١٩٢٣.[٣١] وقد تعامَلَ الأمير عبدالله مع ثلاثة قوى رئيسية في بداية تأسيس الإمارة، هي:[٣٢]

١- الشعب الأردني: وكان لا يتجاوز عدد السكان ٢٥٠ ألف نسمة عام ١٩٢١، وارتفعت نسبة الأمية فيه، ولذا لم يكن لدى سكانه خبرة ودراية سياسية وطغت على الشعب العقلية القبلية العشائرية، وقد أدت الظروف السابقة إلى أن يتعامل الأمن مع الشعب بدبلوماسية وحنكة سياسية.

ومع ذلك واجهت الأمير حالات من التمرد والعصيان، حيث تمرد الشريد في منطقة الكورة، وتمرد العدوان في منطقة الوسط (السلط) وجاءت حركات التمرد هذه كرد فعل لرفض أبناء شرقي الأردن لحكومة المركزية في عمان وحرمان بعض الوجهاء في مناطق شرقي الأردن من بعض الامتيازات التي تمتعوا بها سابقاً علامة على الفقر المدقع والجهل والأمية والتخلف.

٢- أبناء سوريا من مدنيين (أعضاء حزب الاستقلال) وعسكريين: حيث شكّلت الإمارة الملاذ الآمن لهؤلاء الأحرار وساهموا بشكل واضح في تأسيس الإمارة، ولكن بريطانيا اتخذت منهم موقفاً مضاداً حيث ضغطت على حكومة شرقي الأردن بشروط مفادها إخراجهم منها وقبول اتفاق تسليم المجرمين المعقود مع سوريا وإلغاء نيابة العشائر، وقبل الأمير مرغماً بهذه الشروط ونشرت الحكومة في ١٩٢٤/٨/١١ بلاغاً رسمياً يقضي بإخراج هؤلاء من الإمارة.

٣- الحكومة البريطانية (الدولة المنتدبة على شرق الأردن) وتعامل الأمير معها من خلال المعتمدين الذين كانت تعينهم في شرقي الأردن لتنفيذ سياستها.

بعد أن تعامل الأمير مع القوى الثلاثة المذكورة بدبلوماسية واجتاز العقبات التي اعترضته من خلالها، جاء تصريح المندوب السامي البريطاني في فلسطين في ١٩٢٣/٥/٢٥ ليمثل حالة متقدمة في التعامل مع الأمير حيث انتهت تلك التطورات بتوصيات من لورنس التي قدّمها للحكومة البريطانية وتنصّ على:

١- استمرار الإدارة التي يترأسها الأمير على شرقي الأردن.

٢- إخراج الموظفين السوريين أعضاء حزب الاستقلال من الإمارة الأردنية.

٣- تخفيض مخصصات الأمير المالية.

٤- إصدار بيان رسمي باستثناء شرقي الأردن من وعد بلفور.

٥- الضغط على الأمير لتسليم المتهمين بالاعتداء على غورو واتخاذ الإجراءات اللازمة بحقهم.

٦- دعوة الأمير عبدالله لزيارة لندن للتباحث معه في مستقبل البلاد.

وتمخضت كل الظروف عن التوقيع على المعاهدة الأردنية- البريطانية الأولى في ١٩٢٨/٢/٢٠ والتي تضمنت ٢١ مادة تضمن معظمها تعميق تبعية شرقي الأردن لبريطانيا رغم عدم اعتراف بريطانيا بان سلطتي التشريع والإمارة أصبحتا بيد الأمير عبدالله، وموافقتها على وضع دستور أساسي للإمارة.[٣٣]

وبخصوص الحدود السياسية بين شرقي الأردن والدول المجاورة لم يتم تخطيطها إلا بعد معاهدة لوزان في ١٩٢٣/٧/١٤ المنعقدة بين الحكومة التركية وحكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان ورومانيا ويوغسلافيا، حيث نصّت المعاهدة على فصل شرقي الأردن عن الدولة العثمانية من تاريخ المعاهدة في ١٩٢٤/٨/٦،[٣٤] وتم رسم الحدود مع سوريا وفلسطين والحجاز ونجد والعراق، وشهد عام ١٩٢٨ حدثًا بارزًا لصدور الدستور الأردني الأول في ٢٥ أيار.

مع مطلع عام ١٩٢٩ انشغلت بريطانيا بمعالجة البطالة فيها وانخفاض صادراتها وأهملت المستعمرات والمحميات التابعة لها، ومع ذلك كان الأمير عبدالله الحاكم الدستوري على شرقي الأردن، وترك أبو الهدى لمواجهة المعارضة الأردنية التي نظمت المؤتمر الوطني الأول في عمان في ١٩٢٨/٧/٢٥ وأصدرت وثيقة أطلق عليها الميثاق الوطني، وتمثلت مطالبها بإقامة دولة مستقلة في شرقي الأردن وملكية دستورية يحكمها الأمير عبدالله وحكومة مسؤولة أمام هيئة تشريعية منتمية.[٣٥]

وقد شهدت الفترة (١٩٢٧ – ١٩٣٧) ولادة أربعة أحزاب في شرقي الأردن، وقد تأسس أول مجلس تشريعي في شرقي الأردن على أثر انتخابات شهر شباط ١٩٢٩ الذي حلّ بعد سنتين (١٩٣١م) حيث أعقب هذا المجلس أربع مجالس تشريعية ابتداءً من ١٩٣١ وحتى ١٩٤٧ التي أعقبت تأسيس الإمارة الأردنية بالعديد من الانجازات السياسية والإصلاحات الداخلية التي جعلت من شرقي الأردن كيانًا سياسيًا وإداريًا قويًا. فقد نصت المعاهدات السابقة والقانون الأساسي الذي تلاها على الهيكل الدستوري وعلى حدود استقلال الأمير وشرقي الأردن وتبلور السلطات الثلاث (التشريعية، التنفيذية، القضائية) وتأسيس الجيش العربي، وتطور الشؤون المالية والصحة العامة والأشغال العامة والبرق والبريد والهاتف وتسجيل الأراضي والزراعة والغابات والتجارة والصناعة وتطورات أخرى.[٣٦]

**٣/١/٤- قيام المملكة الأردنية الهاشمية:**

استطاع الأمير عبدالله أن يُوصل الإمارة الأردنية (بعد خمسة وعشرين عامًا) إلى الاستقلال السياسي كدولةٍ مستقلّةٍ ذات سيادة، وفي ١٩٤٦/٥/٢٥م تم إعلان المملكة الأردنية الهاشمية ونُصّب الملك عبدالله بن الحسين ملكًا على البلاد، وتمّ إقرار ذلك في يوم السبت

من قبل المجلس التشريعي، الذي قام بتعديل القانون الأساسي وتضمّن التعديل:[٣٧]

١- تحلّ الكلمات (صاحب الجلالة الملك) محل الكلمات (صاحب السمو الأمير).

٢- المملكة الأردنية الهاشمية دولة حرة مستقلة ذات سيادة مُلكها لا يتجزّأ ولا يُنزل عن شيء منه، ونظام الحكم فيها ملكي وراثي نيابي.

٣- تَحُوْل السلطات التشريعية والتنفيذية للملك عبدالله المؤسس والورثة الذكور من بعده.

٤- سنّ الرُّشد تمام ١٨ عامًا على أساس التقويم الهجري.

٥- الملك هو الذي يعقد المعاهدات، ويعلن الحروب، ويعقد معاهدة الصلح، وبشرط أن لا يبرمهما إلا بعد موافقة مجلس الوزراء.

٦- لا يسري مفعول أي قانون ما لم يقبله الملك، ويقترن بتوقيعه دلالة على ذلك القبول، ووافق المجلس التشريعي الأردني الخامس المنعقد في ١٩٤٦/٥/٢٥ على هذه التعديلات.

**٤/١/٤- العلاقة الأردنية الفلسطينية (وحدة الضفتين):**

انطلاقًا من إيمان الأردن ومنذ تأسس الإمارة، وانطلاقًا من إيمان قيادته الهاشمية بعدالة القضية الفلسطينية، والتزامًا من القيادات الهاشمية التي تعاقبت على حكم الأردن بمسؤولياتها القومية إزاء الشعب الفلسطيني، فقد بذلت تلك القيادات وما تزال قصارى جهدها في الدفاع عن قضية العرب الأولى (القضية الفلسطينية) في المحافل الدولية المختلفة وانتزاع الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في أرضه وتقرير مصيره بإقامة دولته المستقلة على ترابها الوطني وعاصمتها القدس، وتحقيق السلام العادل والشامل والدائم، كما أن الشعب الأردني التحم مع قيادة في هذه القناعة والتحم الشعب الأردني والفلسطيني في شعبٍ واحد.[٣٨]

ففي عهد الأمير عبدالله[٣٩] تمّ توقيع معاهدة جديدة مع بريطانيا بشروط أفضل من معاهدة ١٩٤٦، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واجهت الأردن وغيرها من البلدان العربية مشاكل وتحديات كبيرة، فقد كان هناك النزاع الدموي في فلسطين بين العرب واليهود، وفشلت عدة محاولات لحل القضية حتى كان شهر تشرين ثاني ١٩٤٧ عندما أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين وإنهاء الانتداب في ١٩٤٨/٥/١٥وتسليم بقية فلسطين للأمم المتحدة التي صوّتت إلى جانب تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ووضع مدينة القدس تحت الحماية الدولية، ونتيجة لهذه الظروف قررت الدول العربية (ومنها الأردن) دخول الحرب إلى جانب عرب فلسطين واستطاع الجيش الأردني أن يحتفظ بمدينة القدس القديمة وكثير من الأراضي التي خضعت للدولة العربية في مشروع التقسيم.

وفي كانون أول ١٩٤٩ اجتمع في أريحا ألفان من الشخصيات الفلسطينية البارزة وقرّروا الطلب من الملك عبدالله توحيد الجزء الباقي من فلسطين مع الأردن، ووافقت الحكومة الأردنية على هذا المطلب وفي ١١ نيسان ١٩٥٠ أجريت الانتخابات في ضفتي الأردن. وفي ٢٤ نيسان من العام ذاته أقر مجلس الأمة المنتخب اتحاد الضفتين والتي استمرت لمدة ٣٨ سنة كواحدة من أنجح مشاريع الوحدة العربية التي ظهرت على الساحة العربية، وترتب عن هذه الوحدة حدوث تطورات سياسية اقتضت تعديل الدستور وبالذات ما يتعلق بالسلطتين التشريعية والتنفيذية حيث زيد عدد أعضاء المجلس التشريعي من عشرين إلى أربعين ليمثل الضفة الغربية ٢٠ نائبًا والضفة الشرقية ٢٠ نائبًا وأجري تغيير الحكومة حيث شكلت حكومة جديدة لمشاركة أبناء الضفة الغربية.

وأثارت الوحدة الأردنية الفلسطينية ردود الفعل المختلفة: فاعترفت بريطانيا بها، وعارضتها جميع الدول العربية لأسباب شخصية ومصالح ذاتية، ولم يعترف بها سوى العراق. وخلال زيارة الملك عبدالله الأول لمدينة القدس وأدائه لصلاة الجمعة وبتاريخ ١٩٥١/٧/٢٠ تم اغتياله على يد أحد أبناء فلسطين ليبدأ بذلك دورًا سياسيًا جديدًا تمثّل بتسليم الملك طلال لمقاليد الحكم، وذلك بدءً من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٥١.[٤٠]

**٥/١/٤- طموح الملك المؤسس:**

استطاع الملك المؤسس بحكمته، وحنكته السياسية، ولباقته، وحسن تصرفه، وطموحه، من تحقيق العديد من المنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مثل:[٤١]

١- محاولته وطموحه لتحقيق مشروع وحدة سوريا الكبرى وظهر ذلك في عقد مؤتمر وطني في عمان ٥-١٩٤٣/٣/٦ ولكن الأطماع الاستعمارية الفرنسية البريطانية حالت دون ذلك.

٢- إقامة الوطن الأردني والدولة المؤسسية والهوية والجنسية الأردنية وإخراجه من دائرة وعد بلفور.

٣- إنقاذ الأردن من الجهالة والتخلف بعد أن كان مسرحًا للنزاعات والعصبيات القبلية والغزو والنهب وتمكن من إعادة الأمن والنظام وما تبعثر من أجزاء الأردن ووحدها في حكومة مركزية بعد أن كان لكل مدينة حكومة قائمة بذاتها.

٤- انتزاع اعتراف بريطانيا باستقلال القسم الإداري الشرقي للأردن في ١٩٢٣/٥/٢٥ وتمكن سموه من إقامة أول مجلس تشريعي في عام ١٩٢٢ ووضع أول دستور لشرقي الأردن.

٥- في عهده صدر دستور عام ١٩٤٦ حيث أقام سموه الدولة الأردنية وسلطاتها الدستورية الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية وعين نوع الحكم وشكل الإدارة الحكومية وحقوق الإنسان الأردني.

٦- إقناع بريطانيا بوجوب الاعتراف باستقلال شرق الأردن استقلالاً تامًا في ١٩٤٦/٥/٢٥، على أساس النظام الملكي الوراثي مع البيعة للأمير عبدالله بوصفه ملكًا دستوريًا على الدولة.

٧- إنقاذ مدينة القدس والضفة الغربية من الاحتلال الإسرائيلي في حرب ١٩٤٨.

٨- توحيد الضفتين الشرقية والغربية من الأردن وإقامة وحدة وطنية بين أبناء الضفتين في تجربة سياسية واجتماعية فريدة من نوعها على المستوى العربي.

**٢/٤- عهد الملك طلال (أيلول ١٩٥١-١٩٥٢/٨/١١)**

وهو من مواليد عام ١٩٠٨م تسلم سلطاته الدستورية ملكًا على الأردن خلال شهر أيلول ١٩٥١ وبعد تولية العرش جاءت وفود عربية عديدة لتهنئته بهذه المناسبة، وكان ذلك بمثابة بداية لتحسين العلاقات مع الدول العربية بعد توترها نتيجة لوحدة الضفتين.(٤٢) ولكن المرض لم يعطه الفرصة الكافية للاستمرار في الحكم إلا إحدى عشر شهرًا،(٤٣) وفي عهده تم انجاز العديد من المنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كان أبرزها على الإطلاق إصدار دستور جديد للأردن وذلك عام ١٩٥٢ وهو الدستور الذي مازلنا نحكم به لحد الآن مع التعديلات التي طرأت عليه، ويعتبر هذا الدستور الثالث في تاريخ المملكة الأردنية الهاشمية وهو الدستور المعدل لدستور عام ١٩٤٦ وجاء بمبادئ جديدة نتيجة للظروف السياسية التي مرت بها البلاد وفي مقدمتها وحدة الضفتين، وجاء هذا الدستور في٣١ مادة وصدق عليه الملك طلال بمقتضى المادة ٢٥ من الدستور وبناءً على ما قرره مجلس الأعيان النواب، ويمتاز هذا الدستور بشموليته واحتوائه على ميزات وخصائص بارزة منها:(٤٤)

١- الشعب الأردني جزء من الأمة العربية.
٢- الأخذ بمبدأ سيادة الأمة.
٣- الأخذ بالنظام الملكي الوراثي النظام النيابي البرلماني.
٤- الأخذ بنظام المحليين في تكون السلطة التشريعية.
٥- الفصل المرن بين السلطات.
٦-الدستورجامد لعدم تشابه إجراءات تعديله مع إجراءات تعديل التشريعات العادية.
٧- أعطى الدستور الحق وللمجلس العالي بتفسير القواعد الدستورية بقرار صادر عن مجلس الوزراء أو بقرار يتخذه احد مجلسي الأمة بالأكثرية المطلقة.
٨- قرر تشكيل ديوان المحاسبة لمراقبة إيرادات ونفقات الدولة وطرق صرفها.
٩- تقرير وتنظيم الحكومة بالحريات العامة ومن الأحداث الهامة في عهد الملك طلال توقيع الحكومة الأردنية على ميثاق الضمان الجماعي العربي(٤٥) في ١٩٥٢/٣/٢٢، واتجاهه -يرحمه الله- لتكوين مجتمع مدني حديث يقوم على المشاركة السياسية الفاعلة لكي يتيح لمختلف القوى الفرصة في المساهمة في صناعة القرارات التي تؤثر على الحياة المباشرة للمجتمع المتعلقة بمصيره، واخذ الأردن يمارس دوره الحقيقي في جامعة الدول العربية من خلال السياسة التي بدأها جلالته منذ توليه العرش.(٤٦)

ويمكن إجمال أهم الانجازات التي حققها الملك طلال بما يلي:(٤٧)

١- في ١٩٥٢/١/٨ وضع دستور المملكة الجديد.
٢- جعل التعليم الإلزامي مجاني.
٣- توثيق الصلات والروابط القومية مع الدول العربية.
٤- توقيع معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين الأردن وسوريا والعراق والسعودية ولبنان ومصر واليمن.

**٣/٤- عهد الملك حسين بن طلال (١٩٥٣-١٩٩٩)**

**١/٣/٤- مولده ونشأته:**

ولد في عمان ١٩٣٥/١١/١٤ وهو الابن البكر للملك طلال بن عبدالله والملكة زين الشرف بن جميل وبعد إتمام دراسته الابتدائية في إحدى المدارس في عمان توجه للإسكندرية، حيث التحق بكلية فكتوريا لإكمال دراسته الثانوية، ومن هناك توجه إلى انجلترا حيث التحق بكلية هارو، ثم تلقى تدريبات عسكرية في الأكاديمية العسكرية الملكية في ساند هيرست وكذلك في كلية سلاح الجو الملكي في كرانويل.(٤٨) وفي ١١ آب ١٩٥٢ قرر مجلس الأمة إعفاء المغفور له الملك طلال من المسؤولية وتعيين نجله الأكبر ولي العهد الحسين بن طلال ملكًا دستوريًا على البلاد، وتم تشكيل مجلس وصاية على العرش ليمارس صلاحيات الملك حتى يبلغ السن القانونية.(٤٩)

استمر مجلس الوصاية في عمله حتى تاريخ ١٩٥٣/٥/٢ وهو الموعد الذي تسلم فيه جلالة الملك حسين سلطاته الدستورية بعد أداء اليمين الدستورية أمام مجلس الأمة،(٥٠) فقد تولى - رحمه الله- العرش في سن صغيرة فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وتولى العرش في منطقة ساخنة جدًا من العالم وألقيت على كاهله مسؤوليات صعبة وكبيرة، ولكنه واجه الأحداث برجولة لا نظير لها ساعده في ذلك المبادئ التي تشربها منذ طفولته في مجلس جده المغفور له الملك عبدالله بن الحسين، وقد نشأ جلالته في جو وطني فتشكّلت لديه المبادئ التالية:(٥١)

١- إخلاصه المطلق للتراث الهاشمي.
٢- إيمانه والتزامه بالعروبة والوحدة العربية.
٣- التزامه بالتضامن والتعاون العربي.
٤- التزامه بقضية فلسطين والشعب الفلسطيني.
٥- إيمانه بالاعتدال وعدم التطرف والتسامح والانفتاح على العالم.

**٢/٣/٤- العلاقات الأردنية الفلسطينية في عهد الملك حسين بن طلال:**

احتلت القضية الفلسطينية بكل حيثياتها مكانة خاصة ومتميزة في فكر ومسيرة الحسين ولذا تطورت العلاقات الأردنية الفلسطينية إلى أعلى مستوياتها من النضج والواقعية، وشكلت الوحدة الوطنية بين الأردنيين والفلسطينيين هاجسه الأول. وأصبح قدر ومصير الشعب الأردني مرتبط بقدر ومصير الشعب الفلسطيني، وليس أدل على ذلك من قولة يرحمه الله بأنه سوف يكون خصم من يسيء إلى الوحدة الوطنية إلى يوم القيامة وشعار وحدة المواطنين على اختلاف المنابت والأصول،(٥٢) بل إن جلالة المغفور له الملك حسين

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



كان يعتبر وحدة الضفتين هو أعظم انتصار أحرزه جده وهو كما قال: "انتصار القلوب".(٥٣)

ولذا كان يؤكد- رحمه الله- على أن القضية الفلسطينية تمثل حجر الزاوية في سياسة الأردن الداخلية والعربية والخارجية، وكان يعتبرها قضية العرب أجمعين، وكان يؤكد دائمًا على عودة حقوق الشعب الفلسطيني في أرضه في مقدمة ذلك حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم، ولا نبالغ إن قلنا أنه كان يعتبر قضية فلسطين بالنسبة للأردن هي حياة بشرف وكرامة أو قضية الموت بإباء وشمم. وقد أكّد الميثاق الوطني(١٩٩١) أن حقائق العلاقة التاريخية والجغرافية الوثيقة بين الأردن وفلسطين خلال العصور والواقع الثقافي بين الأردنيين والفلسطينيين في الحاضر والمستقبل جعلت من هذه العلاقة حاله خاصة متميزة،(٥٤) ونزولاً عند المصلحة العامة للفلسطينيين قرر الملك حسين فك الارتباط الإداري والقانوني مع الضفة الغربية في ١٩٨٨/٧/٣١، ليفسح مجال أمام منظمة التحرير الفلسطينية معترفًا بها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ومع ذلك أكد الملك بأن الأردن كان وسيبقى مع القضية الفلسطينية في أي وقت وفي أي ظرف قائم.(٥٥)

**٣/٣/٤- تعريب قيادة الجيش العربي (١٩٥٦/٣/١):**

من أجل تحقيق الأمن للمواطنين ولتكون الأردن دولة آمنة لا تتعرض لغزو خارجي أو تهديد داخلي، ومن أجل تحقيق رفاهية الشعب الأردني أنشئت القوات المسلحة الأردنية، حيث ظهرت قوات الجيش العربي الأردني عند قدوم الأمير عبدالله بن الحسين مع مقاتلي الثورة العربية الكبرى إلى الأردن (معان في ١٩٢٠/١٠/٢١م)، وفي عام ١٩٢٠م ومع تأسيس إمارة شرقي الأردن، وأطلق عليه اسم الجيش العربي عام ١٩٢٣.(٥٦)

كانت قيادة الجيش العليا بريطانية تحت قيادة الجنرال جلوب (كلوب) باشا، وبعد هزيمة ١٩٤٨ بدأت بذور النقمة الشعبية تتصاعد ضد قيادة الجيش البريطانية، وذلك لتحجيم دور الجيش الأردني في الحرب، كما أن الأحزاب السياسية والوطنيين ركّزوا على ضرورة إسقاط كلوب وخاصة بعد نجاح الحركة الوطنية في إسقاط حلف بغداد،(٥٧) ولأن كلوب لم يكتف بالسيطرة على الجيش بل تدخل في السياسة الداخلية وتحديدًا في الانتخابات النيابية، فكان يوعز للعسكريين بالاقتراع لصالح النواب الذين يختارهم مما شكل سخطًا جماهيريًا وسياسيًا ضد كلوب.

حظي الضباط الأحرار بتأييد العسكريين خاصة من أبناء الفلاحين وصغار الرتب من الضباط الذين تنامى وعيهم وتعاطفهم مع الحركة الوطنية، وأمام هذه الظروف وتجاوزات كلوب الكثيرة اتصل الملك حسين بن طلال بحركة الضباط الأحرار لقناعته بدورهم وقوتهم على إسقاط كلوب واتخذ الملك قراره التاريخي بتعريب قيادة الجيش بأكملها، وكان طرد كلوب باشا ضربة قوية للسياسة البريطانية في المنطقة حيث كان مقدمة لإنهاء النفوذ البريطاني في الأردن ومقدمة لنجاح الحركة الوطنية.(٥٨) وعلى أثر طرد الجنرال كلوب من قيادة الجيش اتخذ الأردن خطوة شجاعة أخرى ففي ١٣ آذار ١٩٥٧ ألغيت العاهدة الأردنية البريطانية لعام ١٩٤٦.

**٤/٣/٤- مؤتمرات القمة العربية:**

تتشكّل الوحدة العربية مرتكزًا أساسيًا من مرتكزات السياسة الأردنية منذ تأسيس الإمارة، وهي قناعة تعمّقت في نفوس الهاشميين وهي من الموروثات الأساسية للثورة العربية الكبرى، ولذا ظلّ الأردن في طليعة الدول العربية الدول العربية التي كانت تحرص على تحقق الوحدة العربية، ومن هذا المبدأ بقي الأردن يدعو إلى تجميع الطاقات العربية وحشدها لمجابهة مختلف التحديات الخارجة، وكان هذا ما يدعو إليه مرارًا وتكرارًا في مختلف القمم العربية التي زاد عددها على العشرين حتى يومنا هذا وعقدت في العدد من المدن والعواصم العربية.(٥٩)

ينبع العمل العربي المشترك من ارتباط الشعوب العربية بروابط قوية كثيرة، ولكن ظروف العجز التي يمر بها الوطن العربي جعلت الشعوب العربية تقبل بالحد الأدنى من النضال الوحدوي والتوجه نحو العمل على أساس العمل المشترك في إطار الجامعة العربية.(٦٠)

ومن هنا كانت تعقد جميع المؤتمرات في إطار الجامعة، وقد استضافت عَمّان إحدى أهم المؤتمرات ،وهو المؤتمر الرابع عشر(٦١)(قمة الوفاق والاتفاق) وعُقد خلال أيام ٨-١٩٨٧/١١/١١ واشتركت فيه جميع الدول العربية باستثناء مصر، ومن أهم ما تمخّض عنه هذا المؤتمر:

١-نجح في إقناع معظم الدول العربية بدعم العراق في وجه العدوان الإيراني.

٢- عودة مصر إلى الصفّ العربي أثر اتفاقيات السلام التي عقدتها مصر مع إسرائيل في كامب ديفيد.

٣- نجح الملك حسين في تحقيق المصالحة بين الرئيسين حافظ الأسد وصدام حسين.

٤- اتّفقت الحكومة الأردنية مع منظمة التحرير الفلسطينية باستئناف الحوار.

٥- التنديد الجماعي بإيران لإصرارها على الاستمرار في الحرب مع العراق واحتلالها لبعض الجزر من دولة الإمارات العربية المتحدة.

**٥/٣/٤- حرب حزيران ١٩٦٧ ونتائجها على الأردن:(٦٢)**

منذ مطلع الستينات شهدت العلاقات العربية - العربية حالة من التردّي العام كالنزاع السعودي المصري بعد انقلاب اليمن عام ١٩٦٢، وتدهور العلاقات الأردنية السورية عام ١٩٦٦. وكانت مقدمات حرب ١٩٦٧ كردّ فعل من الجيش الإسرائيلي على نشاط الفدائيين، حيث أنشئت أول منظمة للفدائيين وهي فتح في أوائل عام ١٩٦٥، حيث نفذت هذه المنظمة سلسلة من العمليات داخل الأراضي المحتلة وكانت إسرائيل تردّ على هذه العمليات سواء انطلقت من الأردن أو مصر أو سوريا أو لبنان، وبدأت نُذُر الحرب في

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المنطقة تلوح بانسحاب قوات الطوارئ الدولية من سيناء في ١٩٦٧/٥/٢٠، وحلّت محلها قوات مصرية وخاصةً في شرم الشيخ المشرفة على خليج العقبة.

استدعت إسرائيل يوم ١٩٦٧/٥/١٩ جنود الاحتياط، ثم توتر الوضع أكثر بإعلان الرئيس العربي جمال عبدالناصر بإغلاق مضائق تيران والعقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، وعلى أثر ذلك وقعت معاهدة الدفاع الأردنية المصرية في ١٩٦٧/٦/١. نتيجة لكل التطورات التي شهدتها المنطقة بادرت إسرائيل بالاعتداء وشن الحرب على الدول العربية المجاورة وذلك صباح يوم الاثنين ١٩٦٧/٦/٥حيث تمّ:

١- تدمير الجيش العربي وخاصة سلاح الجو لتحقيق السيطرة على قناة السويس ومضائق تيران.

٢- احتلال الضفة الغربية والسيطرة على نهر الأردن.

٣- احتلال مرتفعات الجولان وجبل الشيخ من سوريا.

استمرت الحرب ستة أيام (مع أنها في واقع الأمر لم تزد على ست ساعات).

وعلى أثر الحرب عقد مجلس الأمن الدولي واصدر قرارات عديدة ابتدأت بقرار ٢٣٣ وانتهت بقرار ٢٣٦ وجميعها تدعو لوقف إطلاق النار وإيقاف العمليات العسكرية فورًا، ويمكن إجمال أسباب هزيمة الدول العربية في هذه الحرب بما يلي:

١- حالة التردّي التي عاشتها الدول العربية قبيل الحرب.

٢- التفوّق الإسرائيلي الواضح وخاصة في المجال الجوي.

٣- الأخطاء العربية العديدة: كالتخطيط العسكري والاستخفاف بقوة إسرائيل، وحصر الأوامر العسكرية بشخص عبدالكريم عامر، وعنصر المفاجأة الإسرائيلي وتأخر الرد العربي، وضعف الاستخبارات العسكرية العربية مقابل تفوق الاستخبارات الإسرائيلية.

٤- الدعم الخارجي الذي تلقته إسرائيل من الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة، فعلاوة على خسارة الأراضي العربية في هذه الحرب (سيناء-الضفة الغربية-الجولان) فقد تشرد آلاف النازحين العرب من ديارهم، وفقدت الشعوب العربية ثقتها بقياداتها وحيويتها علاوة على الخسائر المادية العسكرية والتدهور الاقتصادي للدول العربية التي اشتركت بالحرب.

وأعقبت حرب حزيران نشاطات فدائية ملموسة للفترة (١٩٦٨-١٩٧١)، الأمر الذي حدا بإسرائيل إلى دخولها للضفة الشرقية من الأردن بهدف تصفية هذه المنظمات، ولكنها فوجئت ببسالة الجيش الأردني وحدثت معركة الكرامة في ١٩٦٨/٣/٢١ وتحطّمت أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر،[٦٣] وقد نشطت المُنظمات الفدائية وتعدّدت وتجمّعت على الساحة الأردنية، فعلاوة على منظمة فتح كان هناك منظمة الصاعقة السورية وجبهة التحرير العربية العراقية، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية الديمقراطية .

لم تتوحّد أو تتّضح أهداف هذه المنظمات، حيث بدأت تطرح شعارات تُسيء إلى الوحدة الوطنية والى النظام السياسي الأردني،

وأخيرًا حدثت الفتنة الداخلية بين الأشقّاء، وتمثّلت بالمواجهة بين الجيش الأردني وهذه المنظمات التي خسرت في المواجهة وخرجت من الأردن، وتوجهت للنضال من جهة لبنان ولم تلبث طويلاً حتى تكررت معها التجربة نفسها.[٦٤] وفي ١٩٧٢/٣/١٥ تقدّم الملك حسين بمشروع المملكة العربية المتحدة الذي لم يرى النور.[٦٥]

**٦/٣/٤- جهود الأردن لاستعادة الضفة الغربية المحتلة:**[٦٦]

خسر الأردن الضفة الغربية في معركة حزيران ١٩٦٧، وقد دأب الأردن منذ خسارته للضفة على بذل أقصى ما لديه من جهد للاهتمام بها واستعادتها، كان التحرّك الأردني ينطلق من فهم حقيقي لطبيعة صراع العدو الإسرائيلي، وأن الخيار العسكري لا يمكن أن يحقق شيئًا في ظل الخلل في معادلة التوازن العسكري مع العدو، لذا كان التركيز على ضرورة بناء القوة الذاتية العربية، وكسب التأييد الدولي للقضية الفلسطينية، وحشد الجهود من أجل خوض معركة السلام لاسترداد الأرض المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني عليها.

كان منطلق الأردن في سياسته يقوم على أساس القانون الدولي ومبادئه الشرعية الدولية، وبحكم الوحدة القائمة بين الضفتين، ومسؤولية الأردن القانونية في السعي من أجل إنهاء الاحتلال القسري، وإقرار حقوق الشعب الفلسطيني بكل الوسائل المتاحة. لذا جاء قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ ليؤكّد عدم شرعية الاحتلال لأراضي دولة أخرى وطرح الأردن خيار العمل الأردني الفلسطيني المشترك، وقد تمثّلت الجهود الأردنية تعاملها مع الضفة الغربية بصورة أكثر واقعية وفعالية ونضجًا من خلال برنامج تنموي اتبعه الأردن ويتصف بالشمولية وموازيًا تمامًا لبرنامج التنمية في الضفة الشرقية ويهدف إلى:

١- بناء قدرة المواطنين تحت الاحتلال لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

٢- رفع نوعية أداء المواطنين العرب لمواجهة ظاهرة الهجرة القسرية.

٣- الاستمرار في رعاية المقدسات الإسلامية وإدارتها وتقديم كامل الدعم لها.

٤- دعم الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة.

٥- الأردن هو أول من دعا إلى إبراز الهوية الفلسطينية.

٦- توثيق علاقة المواطن بالأرض وعليه فقد حرص وضع خطة تنموية اجتماعية واقتصادية ناجحة على الأرض المحتلة للأعوام ١٩٨٦-١٩٩٠.

وفي ضوء قرارات مؤتمر قمة الجزائر ١٩٨٨ التي عكست التوجه العربي والتزامه بمساندة الشعب الفلسطيني في نضاله لتحقيق أهدافه الوطنية جاء التوجه الأردني في خطاب الملك حسين بن طلال بإعلانه قرار فك الارتباط في تموز ١٩٨٨ ليفسح المجال أمام منظمة التحرير الفلسطينية لتكون الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وتأكيدًا للتوجه العربي لترسيخ الهوية الفلسطينية.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

**٧/٣/٤- العلاقات الأردنية العربية:**

من دراسة وتحليل العديد من المراجع التي أشارت إلى طبيعة العلاقات الأردنية العربية(٦٧) تمّ رصيد ٢٦ علاقة من خلال اتفاقيات معينة في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الأردن (منذ تأسيسه) والدول العربية، ويُمكن تصنيف أنواع العلاقات من حيث عدد الأطراف المشتركة فيها من الدول العربية مع الأردن إلى ما يلي:

**أولاً: العلاقات الثنائية بين الأردن ودولة عربية معينة**

وهي أكثر الأشكال شيوعًا حيث شكلت ما نسبته ٨٠% من العلاقات الأردنية العربية (٢٠ علاقة موثقة) وهي:

١. في ١٩٢٥/٦/٢٥وَقّع شرق الأردن مع الحجاز معاهدة لضم معان للأردن.

٢- في ١٩٢٥/١١/٢ وُقّعت اتفاقية (حداء) في جدة بين الأردن والسعودية .

٣- في ١٩٢٦/١١/١ وُقّعت اتفاقية بين الأردن والعراق لترسيم الحدود.

٤- في ١٩٣١/٣/٢٦ وقّعت معاهدة تبادل اعتراف بين الأردن والعراق.

٥- في ١٩٣١/١/١١ وقّعت اتفاقية بين الأردن وشركة نفط العراق لمد خط نفط بين العراق والأردن وتم تأسيس محطتين في الصحراء هما: ($H_4$ وهي الرويشد، و $H_5$ وهي الصفاوي).

٦-في ١٩٣٣/٧/٢٧ وقّعت معاهدة صداقة وحسن جوار بين الأردن والسعودية.

٧- في ١٩٤٧/٤/١٤ وقّعت معاهدة أخوة وتحالف أردنية عراقية.

٨- في ١٩٥٢/٦/٤ وقّع اتفاق أردني مع شركة التابلاين في السعودية لقاء مرور الخط في أراضيها.

٩- ١٩٥٦/١/٣١صدر بيان أردني سوري لتوحيد الجهود العسكرية بين البلدين.

١٠- في ١٩٥٨/١٢/١٤ وقّعت اتفاقية الاتحاد العربي بين الأردن والعراق.

١١- في ١٩٦٢/٨/٢٦ وقّعت اتفاقية تجارية بين الأردن والسعودية.

١٢- في ١٩٦٧/٥/٣ وقّعت اتفاقية دفاع مشترك بين الأردن ومصر.

١٣- في ١٩٦٨/٤/١٥ وقّعت اتفاقية تجارية بين الأردن وقطر.

١٤- في ١٩٧٥/١٠/٢٦ وقّعت اتفاقية تجارية بين الأردن والكويت.

١٥- في ١٩٨٥/٢/١١ وقّع اتّفاق أردني فلسطيني للعمل سوياً لأي تسوية سياسية للقضية الفلسطينية.

١٦- في ١٩٨٦/٢/١٨ وقّعت اتفاقية تجارية بين الأردن وسلطنة عُمان.

١٧-في ١٩٨٨/١/٢٦وقّعت اتفاقية لتطوير العلاقات التجارية الأردنية المغربية.

١٨- في ١٩٨٨/٦/١٦ وقّعت اتفاقية للتعاون الزراعي بين الأردن والعراق.

١٩- في ١٩٨٨/٩/١٩ وقّعت اتفاقية لتصدير المنتجات الأردنية إلى العراق.

٢٠-في ١٩٨٨/١٠/٢٧وقّع جلالة الملك حسين اتفاق مع ياسر عرفات بهدف التنسيق بينهما

**ثانيًا: العلاقات الثلاثية (بين الأردن ودولتين عربيتين)**

وتمثلت باتفاقية واحدة عقدت في ١٩٥٦/١١/٢٤ بين الأردن وسوريا ومصر تكوّنت بموجبها قيادة مشتركة واحدة لدول الثلاث.

ثالثاً: العلاقات الرباعية (بين الأردن وثلاثة دول عربية) وتمثّلت بما يلي:

١- في ١٩٥٧/١/١٩ وقعت اتفاقية التضامن العربي بين الأردن ومصر وسوريا والسعودية.

٢-في ١٩٨٩/٢/١٦وقعت اتفاقية مجلس التعاون العربي بين الأردن ومصر والعراق واليمن.

رابعًا: العلاقات بين الأردن وأكثر من أربع دول عربية وتمثلت بما يلي:

١- في ١٩٤٤/١٠/٧ تم توقيع بروتوكول الإسكندرية من الأردن ومصر وسوريا ولبنان لتشكيل لجنة لتضع دستور جامعة الدول العربية.

٢- في ١٩٤٥/٣/٢٢ صدر ميثاق جامعة الدول العربية من المذكورة في بروتوكول الإسكندرية.

٣- في ١٩٥٢/٣/٢٤ توقيع الضمان الجماعي بين الدول العربية.

وهكذا يُلاحظ؛ أن الأردن أقام شبكة من العلاقات الطيّبة مع معظم الدول العربية، ولكن أكثر هذه العلاقات متانةً كانت مع دول الجوار، وكانت في مواضيع مختلفة أهمها: العمل العربي المشترك (الجانب السياسي والدبلوماسي) والتجارة، والحدود السياسية والصداقة وحسن الجوار.

**٨/٣/٤- حرب الخليج الأولى(١٩٨٠)وحرب الخليج الثانية(١٩٩٠):**

تتمثِل حرب الخليج الأولى بالحرب العراقية الإيرانية التي بدأت في ١٩٨٠/٩/٢٢ والتي استمرت ثماني سنوات، ولم تكن هذه الحرب مجرد حرب عسكرية عادية، وإنما تعدّتها لتُصبح حربًا نفطية، وحربًا سياسية وعقائدية وحدودية بين نظامين سياسيين مختلفين، ثم تطوّرت في أسوأ مراحلها وابغضها لتصبح حربًا عنصرية بين العرب والفرس، وقد وقف الأردن إلى جانب الأشقاء العراقيين في هذه الحرب، وكذلك اصطفّت معظم الدول العربية مما جعل إيران تقبل بقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ لوقف الحرب بين البلدين.

قُدّرت الخسائر الإجمالية لهذه الحرب بحوالي ٥٠٠ مليار دولار منها ٢٨٠ مليار خسائر إيران و٢٢٠ مليار خسائر العراق، إضافة إلى ٤٥٠ ألف قتيل وخسائر في المنشآت النفطية قدرت بـ٢٠٠ مليار دولار للبلدين أي أن التكلفة الإجمالية لهذه الحرب ١٠٠٠ مليار دولار،(٦٨) وأهم ما امتاز به الاقتصاد الأردني خلال هذه الحرب تكامله مع الاقتصاد العراقي.(٦٩)

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حدثت حرب الخليج الثانية في أعقاب غزو العراق للكويت في ٢ آب ١٩٩٠[٧٠]، وبدأت هذه الحرب بعد سنتين فقط من إنهاء حرب الخليج الأولى، وتمتاز حرب الخليج الثانية بأن [٧١] الدخول فيها جرى دون حساب للعواقب، والخسائر العربية فيها فادحة. لقد كان لأنباء الغزو العراقي للكويت أصداء عنيفة في جميع أرجاء العالم الغربي، وبادر الرئيس الأمريكي إلى إصدار بيان أدان فيه العراق وطالبه بالانسحاب، ورغم المساعي الكبيرة التي قام بها العديد من الزعماء ومنهم الملك حسين لانسحاب العراق من الكويت إلا أن العراق رفض ذلك وبشدّة، وحدثت انقسامات في الصف العربي نتيجة هذا الغزو.

وكان من حقد الدول الغربية أنها فرضت حصارًا على العراق، وكان لهذا التصرّف صدى كبير في الأردن حيث كان للعراق تعاطف رسمي وشعبي ضد قرارات الولايات المتحدة، وظهر السخط الشعبي في الأردن واضحًا عند نزول القوات الأجنبية في أراضي الخليج، وعقد مؤتمر القوى الشعبية خلال ١٤- ١٦ أيلول ١٩٩٠، وهو مؤتمر اشتركت فيه شخصيات سياسية هامة من أقطار عربية عديدة.[٧٢]

أدّى الغزو العراقي للكويت إلى حدوث أزمة حادّة في حصول الأردن على النفط، وزاد الوضع سوءً، تمثّل في ارتفاع أسعار النفط عالميًا، وأهم الخسائر التي تكبدها الأردن نتيجة احتلال الكويت وما أعقبته من حرب وحصار:[٧٣]

١- حرمان الأردن من تصدير بضائعه إلى العراق ودول الخليج.

٢- توقّف تصدير البضائع الأردنية إلى السعودية ودول الخليج.

٣- لحقت بالأردن خسائر كبيرة بسبب حصار ميناء العقبة.

٤- خسر الأردن معظم حوالات الأردنيين الذين يعملون في الكويت ودول الخليج الأخرى، وقدّر صندوق النقد الدولي خسائر الأردن سنة ١٩٩٠ بـ ١١٠٠ مليون دولار.

٥- مما فاقم صعوبات الأردن الاقتصادية والاجتماعية عودة ٣٠٠ ألف مواطن وعائلاتهم إلى الأردن مما زاد الضغط على موارد الأردن المحدودة أصلاً.[٧٤]

**٩/٣/٤- مفاوضات السلام:**

من أهم الأسباب التي دفعت بالأردن نحو مفاوضات السلام هي:[٧٥]

أ- من ضمن مرتكزات الدولة الأردنية الإيمان بالسلام العادل والشامل والدائم، وهذه ركيزة ثابتة منذ عقود طويلة على أساس الثوابت المستندة إلى الشرعية الدولية ممثلة بقرارات الأمم المتحدة وخاصة قراران رقم ٢٤٢ و٣٣٨ المتضمنين مبدأ مبادلة بالسلام ووقف المستوطنات وإنهاء الاستيطان والانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس الشريف.

ب- الواقع العربي المرير والمتمثل بحالة اللاحرب واللاسلم.

جـ- رغبة القوة العظمى الوحيدة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) وانهيار الاتحاد السوفييتي كقوة توازن العالم.

د- حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ وما تبعها من تداعيات على المنطقة.

هـ-ضعف العمل العربي المشترك وتفوّق القوى الإسرائيلية ودعم الولايات المتحدة المتواصل لها.

نظرًا للأسباب السابقة كافح الملك حسين بن طلال عبر سنوات حكمه السبعة والأربعين لإرساء السلام في الشرق الأوسط، إذ كان له دور محوري في بلورة قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي صدر بعد الحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٦٧، وقد شكّل هذا القرار العمود الفقري الذي استقرت عليه جميع مفاوضات السلام اللاحقة.[٧٦]

ليس الأردن وحده من كان يرغب بعملية السلام، بل شاركه في ذلك معظم دول الجوار، وأجرت هذه الدول اتفاقيات ومعاهدات سلام كثيرة، خلال الثلاث عقود الأخيرة نوجزها كما يلي:

١-مؤتمر السلام في جنيف في ١٩٧٣/١١/٢٧وحضره مصر وسوريا والأردن وإسرائيل.

٢- اتفاقية كامب ديفيد الموقّعة بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٨.

٣- مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش في ١٩٩١/٣/٦ والتي تقوم على أربع مبادئ (مقايضة الأرض بالسلام-اتفاقات أمنية مشتركة-الاعتراف بإسرائيل-حفظ الحقوق الشرعية الفلسطينية).

٤- مؤتمر السلام في مدريد في ١٩٩١/١٠/٣٠.

٥- مفاوضات السلام في أوسلو عام ١٩٩٣.

٦- الجولات العشر من محادثات السلام بين وفود الأردن وفلسطين وإسرائيل خلال عام ١٩٩٢ والأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩٣.

٧- عقدت منظمة التحرير بكامل حريتها اتفاق إعلان المبادئ مع إسرائيل في ١٩٩٣/٩/٣ واعترفت إسرائيل بالمنظمة ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني.

٨- معاهدة السلام الموقعة بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٤.

٩- في ١٩٩٤/٢/٩ تم التوقيع في القاهرة على تفاصيل الحكم الذاتي الفلسطيني والانسحاب الإسرائيلي من غزة وأريحا.

١٠- في ١٩٩٤/٨/٢٩ عقد اللقاء بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل على اتفاق نقل السلطة المدنية في الضفة الغربية إلى السلطة الوطنية.

١١- في ١٩٩٥/٩/٢٤ التوقيع بين المنظمة وإسرائيل على اتفاق المرحلة الثانية للحكم الذاتي.

١٢- اتفاق واي ريفر بلانيتشن (أكتوبر ١٩٩٨).

١٣- اتفاق شرم الشيخ ١٩٩٩/٩/٤.

١٤- مشروع بيل كلينتون للسلام ٢٠٠٠م.

١٥- مبادرة الأمير عبدالله بن عبدا لعزيز في شهر شباط عام ٢٠٠٢[٧٧].

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

ولأن السلام ثابت من الثوابت السياسية الأردنية فقد شارك الأردن في حفظ السلام والحماية الدولية منطلقًا من فلسفة مشاركة هذه من أبعاد ثلاثة:[٧٨]

أ- البعد الوطني: تأكيد ثقة المواطن الأردني بمختلف قطاعاته بقواته المسلحة.

ب- البعد الإقليمي: لتأكيد مسؤولية الأردن في سياسة الإقليم الذي ينتمي إليه.

جـ- البعد الدولي: يتمثل في السياسة الواضحة للأردن في احترام قواعد الشرع الدولية والالتزام بمواثيق الأمم المتحدة.

لذا شارك الأردن بإرسال قوات لحفظ السلام في مختلف المناطق الملتهبة من العالم في: (أنغولا الشعبية، ويوغسلافيا السابقة، وكمبوديا، والصومال، وجورجيا، وهاييتي، وليبيريا، وموزمبيق، وطاجيكستان، ورواندا، وأفغانستان، وسيراليون، وتيمور، واريتريا، وساحل العاج).

**٤/٣/١٠- معاهدة السلام الأردنية-الإسرائيلية (١٩٩٤/١٠/٢٦):**

جرى توقيع السلام بين الأردن وإسرائيل في احتفال رسمي على المعبر الجنوبي شمال العقبة بعد ظهر يوم ٢٦/١٠/ ١٩٩٤، وتضمّنت المعاهدة مقدمة وثلاثين مادة وخمسة ملاحق، تُعالج قضايا الحدود والأراضي والمياه والجريمة والأمن والمخدرات والبيئة والترتيبات الإجرائية المؤقتة.[٧٩] واستمرت المفاوضات بين الطرفين ثلاث سنوات، ورغم المعاناة الشديدة أثناء المفاوضات إلا أن الهم الأردني كان ينصب على أن الحفاظ على الوطن هو رأس الأولويات في إطار المصلحة الوطنية. وقد ضَمِن الأردن ثوابته الأساسية في معركة السلام، وتتمثل الثوابت الأردنية بما يلي:[٨٠]

١- تحقيق سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط.

٢- إقامة سلام مبني على قراري مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ و٣٣٨ بكل جوانبها.

٣- تعزيز السلام على أساس الحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان، وشملت مواد المعاهدة وملاحقها شؤوناً حياتية أخرى تنظم العلاقات بين الجانبين في مجالات الاقتصاد والعلوم والثقافة وحرية الملاحة الجوية والاتصالات الهاتفية والبريدية والنقل والمواصلات والسياحة العامة والبيئة والصحة والزراعة والمشاريع المشتركة لتنمية وادي الأردن ومنطقة العقبة وإيلات.

وقد سعى الوفد الأردني المفاوض على تعزيز موقف الجانب الفلسطيني في المفاوضات مع إسرائيل وتمثّل ذلك في نقاط رئيسية هامة وردت في المعاهدة وهي:

١- الحفاظ على الأوقاف والمقدسات في مدينة القدس وتسليم هذه الأمانة للجانب الفلسطيني.

٢- تحقيق موقف متقدم على ما توصل إليه الجانب الفلسطيني في اتفاق أوسلو حول موضوع اللاجئين والنازحين وربط مشكلتهم بالقانون الدولي.

٣- استعادة السيادة على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧.

**- إيجابيات السلام بالنسبة للأردن؟**[٨١]

١- استعادة الأراضي الأردنية المحتلة وممارسة الأردن سيادته عليها.

٢- وضع حد لطموحات موسعة كانت تستهدف وجود الأردن وكيانه.

٣- استعاده الأردن حقه العادل من المياه .

٤- فك الحصار عن الأردن.

٥- تثبيت حقوق اللاجئين والنازحين.

٦- استتباب الأمن الحالي الأمر الذي ينتج عنه: تدفق رؤوس الأموال للاستثمارات الأردنية وحل مشكلة البطالة وإقامة بنك إقليمي لتطوير المشاريع والتنمية.

٧- شطب ديون الولايات المتحدة المترتبة على الأردن.

٨- تطوير وادي الأردن بمشاريع مشتركة مائية وزراعية وصناعية وسياحية.

٩- تطوير القوى البشرية في المنطقة.

١٠- عبور الأردن إلى مرحلة جديدة ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

وبناءً على هذه المعاهدة تم استعادة كافة الأراضي الأردنية في:[٨٢] منطقة الباقورة ونهر الأردن، حيث تمّ ترسيم الحدود بمنتصف مجرى النهر والبحر الميت، وتمّ ترسيم الحدود كما ورد في صك الانتداب عام ١٩٢٣ ووادي عربة (مزرعة الغمر- زوفر) وخليج العقبة، وتمّ الترسيم حسب ما ورد في صك الانتداب وحسب الاتفاقية الموقعة عام ١٩٤٦.

**٤/٣/١١- تثمين جهود الحسين بن طلال في بناء الأردن:**[٨٣]

إن الجهود التي قام بها الملك حسين في سبيل بناء الأردن كثيرة ونشير هنا إلى ابرزها وبإيجاز شديد:

١- في عهده تمّ بناء صُروح في ميادين العلم والتكنولوجيا، والاقتصاد والتربية والتعليم والصحة والزراعة والصناعة والتنمية الاجتماعية والنقل والمواصلات والتجارة والتخطيط والطاقة والبيئة والطرق والجسور والمطارات والجامعات وغيرها.

٢- أصبح الأردن في عهد الحسين البلد النموذج الذي يُحتذى، في تقدّمه ونهُوضه وازدهاره وفي اعتناقه الديمقراطية والتعددية السياسية واحترام حقوق الإنسان والرأي الآخر.

٣- غدا الأردن مصدرًا لتصدير الكفاءات العلمية والخبرات المميّزة للعديد من الدول العربية الشقيقة، وأصبح منارة للعلم ومركزًا للدراسات الفكرية واحتكاك العقول بالعقول، وإجراء الدراسات في المنتدى العربي الذي يرأسه ويشرف عليه صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال.

٤- انفتاح الأردن على العالم بمشاركة القوات الأردنية المسلحة والأمن العام في حفظ الأمن والسلام العالمي، وفي لم الصف العربي وتوحيد كلمة العرب وإزالة كل ما يُعكّر صفو العلاقات العربية العربية.

٥- إن المكانة الدولية التي يحظى بها الأردن حاليًا، هي ثمرة للسياسات الواضحة والمستنيرة التي أرسى قواعدها الحسين بن طلال والتزم بها وطنيًا وعربيًا وإسلاميًا ودوليًا.

٦- على امتداد السنوات والعقود من حُكم الحسين تميزت التجربة الأردنية بالوسطية والاعتدال، وتميزت العلاقة بين الحاكم والشعب بالمصارحة، وظل التواد والتحاور والتواصل سنة تحكم العلاقة بين الأردنيين والقيادة.

٧- امتاز الحسين بأنه رجل عميق في إنسانيةٍ ربما لا مثيل له بين قادة العالم وضّاحة بالنسبة لقرارات العفو التي منحها لكثيرين.

٨- تتحدث الأرقام عن انجازاته بشريًا، فبينما كانت خدمات المياه والمرافق الصحية والكهرباء متاحة أمام نسبة لا تزيد على ١٠% من الأردنيين عام ١٩٥٠ قفزت هذه النسبة لتبلغ ٩٩% في عام ١٩٩٩، وارتفعت نسبة المتعلمين إلى ٨٥.٥% عام ١٩٩٦ بعد أن كانت ٣٣% عام ١٩٦٠. وتُظهر إحصائيات منظمة اليونيسيف أن الأردن حقق في الفترة من عام ١٩٨١ إلى ١٩٩١ أسرع نسبة في العالم في مجال انخفاض وفيا ت الأطفال دون السنة من عمرهم (٧٠ حالة وفاة لكل ١٠٠٠ حالة ولادة في ١٩٨١ إلى ٣٧ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة عام ١٩٩١) أي بانخفاض مقداره ٤٧%.

٩- لطالما آمن الملك الحسين بأن "الإنسان أغلى ما نملك" في الأردن فقد شجّع طيلة سنوات حكمه جميع المواطنين - بما في ذلك الأقل حظًا والمعاقين والأيتام- على تحقيق المزيد لخدمة أنفسهم وبلدهم، إن إنسانيته - يرحمه الله- واعتداله جعلاه يعامل الأردنيين كأخوة له وليس كرعايا.

١٠- على مستوى المؤسسة السياسية بشكل عام كان للملك دور محوري على صعيد البناء وتحقيق الوحدة الوطنية وصيانتها، وعلى صعيد قيادة عملية التطوير الجماعي والإداري على نحو يعي متطلبات التغيير العنصرية ووفق قواعد علمية وسياسية مدركة سابقًا.[٨٤]

**٤/٤- عهد الملك عبد الله الثاني بن الحسين: (١٩٩٩وحتى الآن)**

**١/٤/٤- ولادته ونشأته:**

ولد جلالته - يحفظه الله- في عمّان في ١٩٦٢/١/٣٠ ونشأ نشأةً ديمقراطية تحت إشراف والده الملك حسين بن طلال، بدأ جلالته حياته الدراسية في الكلية العلمية الإسلامية في عمّان، وانتقل إلى بريطانيا والتحق بمدرسة ساندادموندز وأكمل تعليمه في مدرسة ايجل بوك وأكاديمية ديرفيلد في الولايات المتحدة، ثم التحق بأكاديمية ساندهيرست عام ١٩٨٠، والتحق عام ١٩٨٣ بجامعة أكسفورد حيث تلقى دراسات خاصة في السياسة الدولية والشؤون العالمية وعاد عام ١٩٨٤ للعمل في الجيش الأردني. عُيّن جلالته في ١٩٩٩/١/٢٤ وليًا للعهد، ثم تعين جلالته ملكًا على الأردن يوم وفاة والده الملك حسين وذلك في ١٩٩٩/٢/٧ وفي ١٩٩٩/٢/١٤ بايع مجلس النواب جلالته ملكًا على الأردن.[٨٥]

**٢/٤/٤- جوانب من أعمال الملك عبد الله الثاني وطموحه:**[٨٦]

أ- الرؤية الاقتصادية للملك عبدالله:

"دولة حديثة ذات مؤسسات عاملة، واقتصاد يقوم على تنمية مقدامة واستثمارات في القطاع الخاص تضمنها سلطة قضائية مستقلة".

- منذ اعتلائه العرش صمّم على تحويل الأردن إلى نموذج حيوي، يكون محفزًا لبناء الشرق الأوسط، فالتنمية المستدامة والنمو الاقتصادي والرعاية الاجتماعية هي في رأس أولويات الأجندة الوطنية.
- وضع جلالته في سلم أولوياته القضايا الاقتصادية بتطبيق برامج الإصلاح الاقتصادي وتنظيم دور القطاع الخاص في التحرر الاقتصادي لتحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية مستدامة وتوفير فرص العمل وتأمين مستوى معيشي أفضل لأبناء الشعب.
- حدّد جلالته عدداً من القضايا منها تحرير الاقتصاد وتحديثه، تخفيض عبء المديونية وتقليص عجز الموازنة وتبني سياسة اقتصادية لتحرك الاندماج في الاقتصاد العالمي وتعزيز العلاقات الاقتصادية مع الدول العربية والقضاء على البطالة والفقر.
- عمل جلالته على التقريب بين القطاعين العام والخاص.

ب- بوابة الأردن إلى الاقتصاد العالمي الجديد:

- يمكن للتجارة والاستثمار العالميين مساعدة النمو الاقتصادي للنهوض بالتجارة والاستثمار.
- اتخذ الأردن خيارًا استراتيجيًا بالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وتوقيع اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي، ومع الولايات المتحدة.
- انطلاقاً من إيمان راسخ بان نشاط عولمة اليوم جاء نتيجة توسع الأسواق وفتح الحدود أمام التجارة فقد تمّ تبني التحرر الاقتصادي كجزء من استراتيجية الأردن للتنافس الفعّال في الاقتصاد العالمي.

ج- نحو اقتصاد ومجتمع يرتكزان على المعرفة

- يتحول الأردن بسرعة بقيادة الملك عبدالله الثاني إلى محور للاستثمار التكنولوجي في المنطقة، فالقيادة الالكترونية من خلال شراكة بين القطاعين العام والخاص والعمالة المثقفة الماهرة والاستثمارات المحلية والأجنبية المباشرة والبنية التحتية عالية المستوى تمكن من تطوير صناعة تكنولوجيا معلومات واتصالات قادرة على المنافسة.
- عام ١٩٩٩ ساعد الملك عبدالله الأردن على إدراك أهمية تحول "المعلومات" إلى مصدر من مصادر الثروة وبدأ فورًا بدعم الصناعات المرتبطة بمعالجة المعلومات وتخزينها وبثها واستعدادتها.

د- الجاهزية الالكترونية في الأردن:

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



أكملت شركة ماك كونيل McConnell الدولية مؤخرًا تقييمًا شاملاً لجاهزية الأردن الالكترونية، لتحديد مكانة الأردن في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فحصت هذه الشركة خمس خصائص مترابطة لذلك وهي: التوصيل، والقيادة الالكترونية، وأمن المعلومات، ورأس المال البشري، ومناخ التجارة الالكترونية، وتوصلت إلى النتائج التالية:

١- لا يوجد سوى عدد قليل من الدول أفضل من الأردن من حيث جاهزيته الالكترونية.

٢- تحقق المبادرات المشتركة بين القطاعين العام والخاص نتائج جيدة على المدى القريب.

٣- يستطيع الأردن أن يستثمر الشباب وأن يصبح قوة عاملة عالمية في مجال المعلومات مستقبلاً.

٢. حقق الأردن انجازات في إصلاح الأنظمة والقوانين رفعت مستوى جاهزيتة الإلكترونية.

**٣/٤/٤- شعار "الأردن أولاً":**[٨٧]

في٢٠٠٢/١٠/٣٠ أطلق الملك عبد الله الثاني شعار "الأردن أولاً" الذي يمتاز بأنّه:

١- مشروع نهضة واستنهاض.

٢- توافق اجتماعي بين جميع أفراد الشعب الأردني ذكورًا وإناثًا.

٣- بوتقة انصهار تعمل على تمتين النسيج الوطني بكافة واتجاهاتهم وأعراقهم ومشاعرهم.

٤- استثمار في الإنسان الأردني.

٥- تكريس لمفهوم المواطنة كما نص عليها الدستور.

٦- دعوة لمؤسسات مجتمعنا المدني من أحزاب ونقابات ومنظمات أهلية لإعادة ترتيب سلم أولوياتها.

٧- دعوة لوسائل الإعلام ومؤسسات التوجيه الوطني لتبني قضايا الوطن والمواطنين .

٨- ضمانه لدور المعارضة الوطنية في البلاد على قواعد احترام الدستور والقوانين وأولويات الوطن.

٩- تأكيد على أن أردناً قوياً عزيزاً منيعاً هو مصدر قوة واقتدار لامته.

١٠- فلسفة حكم ونهج يضع المصلحة الوطنية الأردنية في صدارة اهتمامات الدولية والوطن.

**٤/٤/٤- برنامج التحوّل الاجتماعي والاقتصادي:**[٨٨]

في تشرين أول عام ٢٠٠١ اصدر الملك عبدالله الثاني تعليمات للحكومة لوضع خطة اقتصادية واجتماعية متكاملة لتسريع خط الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ،بناءً على ذلك قامت الحكومة بإعداد برنامج حول هذا الموضوع يهدف إلى:

(١) الإسراع في تطبيق السياسات والبرامج الإصلاحية.

(٢) تحسين نوعية حياة الأردنيين.

(٣) تعزيز دور القطاع الخاص.

(٤) تبني آليات جديدة في اتخاذ القرارات.

(٥) المحافظة على الاستقرار النقدي والمالي.

(٦) تقليل نسبة الفقر والبطالة.

ومن الجدير بالذكر؛ أن هذا البرنامج مكّن الحكومة من تنفيذ مشاريع رأسمالية عجزت عنها الموازنة،[٨٩] كما أنه أصبح نقطة البداية لدور المحافظات في الإدارة المحلية للموارد والمشاريع.[٩٠]

**٥/٤/٤- الملك عبد الله الثاني والسياسة الخارجية:**[٩١]

ينطلق الملك عبد الله في سياسته الخارجية من منطلقات ومرتكزات تتمثل بما يلي:

(١) إخلاصه المطلق للتراث الهاشمي.

(٢) يتمتع جلالته بالشرعية الدينية.

(٣) التزام جلالته بالعمل العربي المشترك وآليات تفعيله وتطويره.

(٤) الالتزام بالقضية الفلسطينية.

(٥) الإيمان بالاعتدال والتسامح والانفتاح على العالم والتحديث الاقتصادي.

**٦/٤/٤- العلاقات الأردنية الفلسطينية:**

أما في عهد الملك عبدالله الثاني بن الحسين، فقد شكلت القضية الفلسطينية منطلقًا ومرتكزًا أساسيًا، وتمثل هذا المرتكز بالتزامه بالقضية وحقوق الشعب العربي الفلسطيني في استعادة أراضيه، وتحقيق السلام العادل والشامل والدائم حسب قرارات الشرعية الدولية، وقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة المتعلقة بالصراع العربي- الإسرائيلي، وحتى في كتاب التكليف السامي لحكومة السيد علي أبو الراغب في ٢٠٠٢/١/٢٤ ركز جلالته على الوقوف إلى جانب الأشقاء في فلسطين ومساعدتهم في الوصول إلى حقوقهم المشروعة.[٩٢]

## خاتمة

مما سبق نستطيع أن نستنتج بأنّ للأردن خصوصيّة أرضًا وشعبًا وقيادةً، اكتسبها الأردن من موروث فكري سياسي، شكّلت في مُجملها منطلقات إيجابية هامّة وإطار مرجعي واضح، تمثّلت بالإسلام والعروبة والدستور وميثاق ١٩٩١وديموقراطية الحكم والنظام السياسي والوحدة الوطنيّة، وتتّضح الخصوصيّة الأردنية بما يلي:

- خصوصيّة الثورة العربية الكبرى.
- خصوصيّة الشرعية التاريخية والدينيّة للقيادة الهاشمية.
- الخصوصيّة الجغرافية والاستراتيجية ( الموقع الجيوبوليتيكي).
- الخصوصية المناخية .
- خصوصيّة تجانس وتناغم الشعب الأردني.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



## الهوامش:

(١) خريسات، محمد وآخرون (٢٠٠٠) **"محاضرات في تاريخ الأردن وحضارته"**، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات - اربد، ص١٥.

(٢) غوانمة، يوسف (١٩٨٢) **"التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي"**، ط٢، دار الفكر للنشر والتوزيع- عمّان، ص٢٥.

(٣) غرايبة، خليف (١٩٩٨) **"الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون ١٨٦٤-١٩٤٦"**، مطبعة الروزنا- اربد، ص٤١.

(٤) للموقع الجغرافي أنواع ومفاهيم متعددة حددت في الكثير من كتب الجغرافيا؛ انظر مثلاً:

-حمدان، جمال (د.ت) **"جغرافية المدن"** ط٢، عالم الكتب- القاهرة، ص٢٧٧.

- غرايبة، خليف، (١٩٩٥) **"التحليل المكاني للخدمات في مدينة اربد"** رسالة دكتوراه غير منشورة -جامعة بغداد، ص٣٠ - ٣٤.

(٥) خريسات، محمد وآخرون، مصدر سابق، ص١٥.

(٦) كل نطاق يعادل ١٥ خط طول (أي ساعة زمنية) حيث تقسم الأرض إلى ٣٦٠ خط طول ويعادل ذلك ٢٤ ساعة (٣٦٠/١٥=٢٤).

(٧) السمّاك، محمد (١٩٨٨) **"الجغرافيا السياسية أسس وتطبيقات"**، جامعة الموصل، ص٥٢.

(٨) البحيري، صلاح (١٩٧٣) **"جغرافية الأردن"**، ط١، مطبعة الشرق- عمّان، ص١.

(٩) الموسى، سليمان (٢٠٠٣) **"التحولات الاجتماعية في الأردن (١٩٤٥- ١٩٧٠)"** بحث في المؤلف الجماعي (دراسات تاريخ الأردن الاجتماعي)، دار سندباد للنشر-عمّان، ص٣٤١.

(١٠) للاطلاع على كيفية ترسيم الحدود وتطورها مع دول الجوار انظر:

- الصلاح، محمد أحمد (١٤٠٦هـ) **"الإدارة في إمارة شرقي الأردن ١٩٢١-١٩٤٦"**، دار الملاجي للنشر والتوزيع- اربد، ص٤٣ - ٤٦.

(١١) للمزيد من الاطلاع عن هذه التقسيمات للتضاريس يمكن الرجوع إلى العديد من المراجع منها:

- البحيري، صلاح (١٩٧٣) **"جغرافية الأردن"**، مصدر سابق.

- نايف الروسان وآخرون (٢٠٠١) **"جغرافية الأردن"**، دار الشروق للنشر والتوزيع- عمّان.

- الظاهر، نعيم (٢٠٠١) **"سياسة بناء القوة في الأردن"**، عمّان.

- بدارنة، سريان (٢٠٠٥) **"الأهمية الجوبولتيكية للأردن"**، دار الكتاب الثقافي- اربد.

(١٢) **وزارة السياحة والآثار**، (د.ت.)، "الأردن"، ص٣٩.

(١٣) تناولت مجريات وتفاصيل الثورة العربية الكبرى عشرات الكتب التاريخية العربية والأجنبية، انظر:

- محافظة، علي (١٩٩٠) **"الفكر السياسي الأردني"** ج١ ، عمان.

- الموسى، سليمان والماضي، منيب، (١٩٩١)، **"تاريخ الأردن في القرن العشرين"**، مكتبة المحتسب.

- زيادة، نقولا، (١٩٩٣)، **"دراسات الثورة العربية"**، الشركة العربية للنشر.

- قلعجي، قدري **"الثورة العربية الكبرى"**، ط١١، بيروت.

(١٤) محافظة، محمد، (٢٠٠١)، **"الأردن تاريخ وحضارة"**، ط١، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع.

(١٥) للمزيد من مشاريع النهضة العربية السابقة؛ انظر:

- مقال عبدالاله بلقزيز على موقع مجلة واعرباه على الانترنت *www.waaraba.net*

- Ministry Of Information (1978) **"Land and people in Jordan"** PP13-14 .

(١٦) عليمات، محمد (١٩٩٤)، **"مدخل في الثقافة والتربية الوطنية"** ج١، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، عمان ص٦٨. وللتعرف على أسباب الثورة العربية انظر: المشاقبة، أمين، مرجع سابق، ص٣٢.

(١٧) الدجاني، يعقوب (١٩٨٩)، **"الثورة العربية الكبرى"**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ص٣٢ – ٣٣.

(١٨) تناولت معظم كتب التاريخ هذه الجمعيات بالتفصيل. وللمزيد أنظر:- عليمات، محمد مصدر سابق، ص٧١ - ٧٣.

(١٩) طلاس، مصطفى (١٩٧٨)، **"الثورة العربية الكبرى"** منشورات مجلة الفكر العسكري، دمشق.

(٢٠) محافظة، محمد، مصدر سابق، ص٥٣ - ٥٤.

(٢١) من هذه الجمعيات: جمعية بيروت، الإخاء العربي، المنتدى العربي، الجمعية القحطانية، العربية الفتاة ، العهد...الخ.

(٢٢) الهندي، صالح، ودلاشة أحمد (١٩٩٠) **"التربية الوطنية في الأردن"** دار الفكر، عمان، ص٣٣، وللتعرف على اتفاقية سايكس بيكو التي وقعت يوم ١٦ أيار ١٩١٦م ووعد بلفور ٢ تشرين الثاني١٩١٧. انظر: خريسات محمد ومحافظة محمد (٢٠٠٠)، **"محاضرات في تاريخ الأردن وحضارته"**، ط١ مؤسسة حماده للخدمات والدراسات الجامعية، اربد ص١٣١- ١٣٥.

(٢٣) الحوراني، هاني (٢٠٠٣) **"الدولة تشكل النخب في شرقي الأردن الانتدابية ١٩٢١-١٩٤٦م"**، بحث في كتاب دراسات في تاريخ الأردن الاجتماعي، دار سندباد للنشر، عمان، ص١٥٤.

(٢٤) المركز الجغرافي الملكي (١٩٩٣) **"الأردن صور وخرائط"** ط١ عمان، ص١٩.

(٢٥) المشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص٥٣ - ٥٤. وللمزيد من المعلومات عن قصة كفاح آل هاشم انظر:

- جريدة الدستور "محليات" ١٩٩٨/٥/٢٥، ص٩.

(٢٦) بهدف حفظ النظام شجعت السلطات البريطانية زعماء شرقي الأردن على إقامة حكومات محلية في: السلط والكرك واربد وجرش والكورة وعجلون بمساعدة ضباط بريطانيين، ولكن تلك التجربة أخفقت خلال ثمانية أشهر وللمزيد انظر:

- الحوراني، هاني، مصدر سابق، ص١٥٤.

- غرايبة، خليف(١٩٩٨) **"الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون ١٨٦٤-١٩٤٦"**، مطبعة الروزنا، اربد، ص٤٩ - ٥٠.

(٢٧) الحوراني، هاني، مصدر سابق، ص١٢٤.

(٢٨) الصلاح، محمد (١٤٠٦هـ) **"الإدارة في إمارة شرقي الأردن ١٩٢١-١٩٤٦"**، شركة مطبعة فيصل الإسلامية، الكويت، ص١٦.

(٢٩) المشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص٥٤ - ٥٥.

(٣٠) للمزيد انظر: موقع الملك عبدالله على الانترنت: *www.kingabdullah.jo*

(٣١) الموسى، سليمان والماضي منيب، مصدر سابق، ص٣٠١.

(٣٢) محافظه، محمد، مصدر سابق، ص٧٧ - ٨٣.

(٣٣) للمزيد من التفاصيل عن بنود المعاهدة العربية البريطانية انظر: المصدر السابق، ص٨٣-٨٤. ولمعرفة تفاصيل القانون الأساسي الذي صدر في ١٩٢٨/٤/١٦ انظر: الصلاح، محمد مصدر، سابق، ص٦٢ - ٦٣.

(٣٤) **الجريدة الرسمية**، عدد ٣١٩، السنة التاسعة، عمان، ص٥١٨.

(٣٥) المشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص٥٩.

(٣٦) أبو نوار، معن، (د.ت) **"قيام وتطور إمارة شرق الأردن (١٩٢٠-١٩٢٩)"**ج١، عمان، ص٢٦٤ - ٢٩٣.

(٣٧) محافظه، محمد، مصدر سابق، ص٩٣ - ٩٤.

(٣٨) كان أول شهيد أردني على التراب الفلسطيني هو المرحوم كايد المفلح العبيدات وللمزيد انظر:

- عبيدات، وحيد (١٩٩٣/٧/٢٨ ) **سيرة الشهيد كايد المفلح العبيدات- قراءة في كتاب**، مقال في جريدة البعث عدد ٧، ص٧.

- الطويسي، باسم (٢٠٠٣) **"الدولة والتجنيد السياسي دراسة في النخب الحكومية (١٩٤٦-١٩٧٠)"** بحث في كتاب دراسات تاريخ الأردن الاجتماعي، عمان، ص٤٢٦.

(٣٩) للمزيد عن معرفة الظروف في الفترة ١٩٤٦-١٩٥٠ ووحدة الضفتين انظر:

- خطاطبة، إبراهيم (١٩٩٥) **"القوات المسلحة الأردنية وحركة تعريب العناصر القيادية ١٩٢١-١٩٥٦"** رسالة ماجستير، قسم التاريخ - جامعة اليرموك، اربد ص١٠٥-١١٠.

- العدوان، شادية (١٩٩٣) **"التطور السياسي للملكة الأردنية الهاشمية ١٩٤٦-١٩٦٧"** رسالة ماجستير قسم التاريخ- كلية الدراسات العليا- الجامعة الأردنية، ص٤٤ - ٥٢.

(٤٠) محافظة، محمد، مصدر سابق، ص٩٦.

(٤١) جميعان، ميخائيل (١٩٩٨/٥/٢٥) مقال بعنوان **"الذكرى٥٢ لاستقلال المملكة"**، جريدة الدستور، ص٤.

(٤٢) عبيدات، أسما (١٩٩٤) **"الأردن الفترة مابين ١٩٣٩-١٩٥١ دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية"** رسالة ماجستير تاريخ غير منشورة، جامعة اليرموك اربد، ص١١٤.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

(٤٣) للمزيد عن هذا الدستور انظر: محافظه، محمد، مصدر سابق، ص٩٧ - ١٣٠.
(٤٤) المشاقبة، أمين مصدر سابق، ص ١٠٣ – ١١٠.
(٤٥) لوسن، فرد (٢٠٠٣) "**توطين أركان المسيرة في الأردن ١٩٢١-١٩٥٤**"، بحث في كتاب دراسات في تاريخ الأردن الاجتماعي، مصدر سابق، ص ٢٢٤.
(٤٦) التل، سعيد (١٩٩٦) "**الثورة البيضاء ضرورة وطنية أردنية ملحة**" مقالة جريدة الرأي في ١/١٠/١٩٩٦، ص٣٤.
(٤٧) الحسين بن طلال، "**مهنتي كملك**"، ص١٠٣.
(٤٨) للمزيد انظر: الفصل الثامن من هذا الميثاق وهو بعنوان "العلاقة الأردنية الفلسطينية".
(٤٩) محافظة، محمد، مصدر سابق ص١٣٥، ١٣٩، ١٦٥ وللمزيد عن قرار فك الارتباط انظر:
- خريسات، محمد وآخرون، مصدر سابق، ص٣١٧ - ٣٢١.
(٥٠) العدوان، شادية، مصدر سابق، ص ٥٥.
(٥١) عودة، أحمد عيسى (٢٠٠٢) "**الأردن من الألف إلى الياء**" ط١ ص ٦٣.
(٥٢) وزارة السياحة والآثار، "**الأردن**"، مصدر سابق، ص ٤٨.
(٥٣) المركز الجغرافي الملكي الأردني، "**الأردن صور وخرائط**"، مصدر سابق، ص ١٩.
(٥٤) العدوان، شادية، مصدر سابق، ص ٦٠.
(٥٥) المشاقبة، أمين مصدر سابق، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
(٥٦) عودة، أحمد عيسى، مصدر سابق، ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٥٧) **حلف بغداد**: تعاون عسكري بين تركيا والعراق بتخطيط أمريكا وبريطانيا وفرنسا، عارضته كثير من الدول وخاصة العربية واعتبرته تدخلاً غربيًا في شؤون العراق الداخلية، وللمزيد انظر: العدوان، شادية، مصدر سابق، ص ٦٠ - ٦٢.
(٥٨) القضاة، أحمد حامد، مصدر سابق، ص ٢٤ - ٢٥. وللمزيد من التفاصيل انظر:
- التل، عبد الله (١٩٥٩) "**كارثة فلسطين**" دار التعليم، القاهرة، ص٢٦٤ - ٣٠٠.
- ابوشحوت، شاهر(١٩٩٢) "**قصة مركز الضباط الأحرار١٩٥٢-١٩٥٧**" مركز الأردن الجديد للدراسات، عمان ٥٩ - ٦٠.
- محافظة، علي (١٩٧٣) "**العلاقات الأردنية البريطانية منذ تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة ١٩٢١ - ١٢٥٧**" دار النهار، بيروت، ص١٩٣.
(٥٩) للتعرف على هذا القسم بالتفصيل انظر:
- الموسى، سليمان "**تاريخ الأردن السياسي المعاصر١٩٦٧ - ١٩٩٥**"، مصدر سابق، ص١٢٩، ١٧٢ - ١٧٦.
- محمد عبدالحفيظ (١٩٦٤) "**النهر الذي وحد العرب – نهر الأردن الخالد**" دار أخبار الأسبوع القدس، ص ٩ - ١٢.
(٦٠) العدوان، شادية، مصدر سابق، ص ٨٩.
(٦١) الموسى، سليمان "**تاريخ الأردن السياسي المعاصر**"، مصدر سابق، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٦٢) محافظة، محمد، مصدر سابق، ص ١٤٣ - ١٦٠.
- نجم، رائف (٢٠٠٢) "**القدس والحق التاريخي**" ورقة عمل مقدمة في ندوة قضية فلسطينية في المهرجان الوطني للتراث والثقافة السابع عشر المنعقد في الرياض ٢٥/١/٢٠٠٢، ص ١٥.
(٦٣) للمزيد عن معركة الكرامة انظر: عليمات، محمد (١٩٩٤) "**مدخل في الثقافة والتربية الوطنية**"، مصدر سابق، ص ٨٩ -١٠١.
(٦٤) معايشة الباحث الشخصية للأحداث عن قرب.
(٦٥) الموسى، سليمان(١٩٨٨) " تاريخ الأردن القرن العشرين" ط٢ ، عمان ص٣٨٥-٣٨٩.
(٦٦) النقرش، عبدالله وآخرون (١٩٩١) "**القضية الفلسطينية**"، ط١ شركة المطابع النموذجية عمان، ص ١٣٢ - ١٣٥.
- التل، سعيد (١٩٩٤) "**العلاقة الأردنية الفلسطينية**" رسالة مجلس الأمة، ص ٣ - ١٨.
(٦٧) الفصل الثامن الميثاق الوطني الأردني.
- الموسى، سليمان "**تاريخ الأردن السياسي المعاصر**" مصدر سابق، ص ١٤٣- ١٤٩.

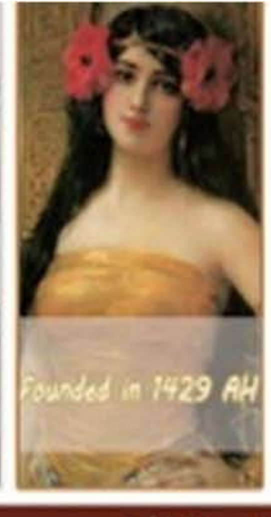
- الهزايمة، محمد عوض، (١٩٩٩)، "**السياسة الخارجية الأردنية في النظرية والتطبيق**"، دار عمان للنشر، عمان، ص ١٠٨ - ١٢٨.
(٦٨) الموقع الإلكتروني: www.aljazeera.net
(٦٩) الظاهر، نعيم، مصدر سابق، ص ١٦٠.
(٧٠) لمعرفة تفاصيل غزو العراق للكويت انظر: www.aljazeera.net
(٧١) أصدر مجلس الأمن مجموعة من القرارات وخاصةً ٦٦١ (١٩٩٠)، والقرار ٦٦٥ (١٩٩٠)، والقرار ٦٧٠ (١٩٩٠) والتي حولت نظام العقوبات إلى حصار شامل.
(٧٢) الموسى، سليمان، "**تاريخ الأردن السياسي المعاصر**"، ص ١٨٣ - ١٨٤.
(٧٣) الموسى، سليمان، المصدر السابق، ص١٨٧- ١٨٩.
(٧٤) الظاهر، نعيم، مصدر سابق، ص ١٦٠.
(٧٥) الصمادي، سلمان، مصدر سابق، ص ١٣٢.
- المومني، محمد ومسعد، عبد الرحيم وغرايبة، خليف(١٩٩٥) "**التنمية في الوطن العربي**" ط١ دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، ص ٢١٤.
(٧٦) للمزيد عن معرفة مشاريع التسوية السلمية في المسار الفلسطيني بشكل خاص انظر:
- صالح، محسن محمد (٢٠٠٣) "**دراسات منهجية في القضية الفلسطينية**" دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ص ٤٣١ – ٥٠٨.
(٧٧) محافظة، محمد، مصدر سابق، ص ١٧٤ - ١٧٥.
(٧٨) المشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص ٢٩٣.
(٧٩) أصدرت اللجنة الوطنية الإعلامية مؤلف رقم (١٨) الطبعة الثانية في كانون أول ١٩٩٤ كتابًا مستقل عن المعاهدة بعنوان "**معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل ما هي؟**" ويتضمن الكتاب نص معاهدة السلام والوثائق المساندة وتوضيحات وآراء حول المعاهدة من مجلس النواب ومقالات غي جرائد الحياة والأهرام وقائمة خرائط أهمها الأراضي الأردنية قبل وبعد معاهدة السلام والحدود الدولية بين الأردن وإسرائيل.
(٨٠) معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل ما هي؟، مصدر سابق، ص ١٠-١١.
(٨١) لمعرفة المزيد عن: المسار الديمقراطي للتصديق على معاهدة السلام والجدول الزمني لعملية السلام. انظر: "**معاهدة السلام بين الأردن ودولة إسرائيل ما هي ؟**" مصدر سابق، ص١٢١، ص١٣٥.
(٨٢) المصدر السابق، ص١٣٦.
(٨٣) جميعان، ميخائيل، مصدر سابق، ص٤.
- أبو هنطش، محمود، "**في عيد الاستقلال: سيبقى الأردن وطنًا فوق الجراح وتجسيداً للشموخ القومي**" جريدة الدستور.
- "**الاستقلال المجيد**" رأي الدستور - جريدة الدستور.
- الموقع الإلكتروني: www.kingabdullah.jo
(٨٤) عزام، أحمد جميل (٢٠٠٣) "**الدراسات الغربية حول البنية الاجتماعية الأردنية**" مقال في المؤلف الجماعي – دراسات في تاريخ الأردن الاجتماعي، دار سندباد للنشر، عمان، ص٣٦٧.
(٨٥) عودة، أحمد، مصدر سابق، ص ٦٧ - ٦٨.
(٨٦) الموقع الإلكتروني: www.kingabdullah.jo
(٨٧) محافظة، محمد وأبو داوود، سامي، (٢٠٠٣) "**الأردن أولاً**" ط١، دار نور الدين للنشر، اربد ص١٦ - ١٨.
(٨٨) للمزيد عن ذلك انظر: www.kingabdullah.jo
(٨٩) غنيمات، جمانة (٢٠٠٥/٨/١٠) "**نتائج تقييم برنامج التحول الاقتصادي والاجتماعي**"، جريدة الرأي، عدد ١٢٧٤٢، ص١٧.
(٩٠) غنيمات، جمانة (٢٠٠٥/١/٣١) "**مسح ورصد الواقع الاقتصادي والاجتماعي لمحافظات المملكة**" ملف في جريدة الرأي، عدد١٢٥٥١، ص٣٣.
(٩١) للمزيد انظر: المشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص ٣١٠ - ٣١١.
(٩٢) مشاقبة، أمين، مصدر سابق، ص٣١١.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



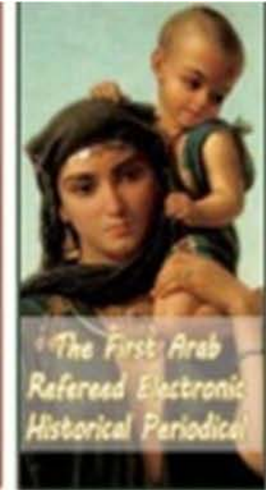












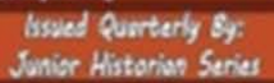

ISSN: 2090 – 0449 Online

Fifth Year - Issue (16) June 2012 | Rajab 1433

# Historical Kan Periodical

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org



Issued Quarterly By:
Junior Historian Series




Available for downloading or reading at:
Nashiri Non-profit E-Publishing House
Internet Archive

Five Years Online